2020
4.1.2020

بيير كوديرلوس دو لاكلو

علاقات خطرة



ترجمة: لينا بدر

منشورات الجمل

رواية

بيير كوديرلوس دو لاكلو

علاقات خطرة

رواية

ترجمة: لينا بدر

منشورات الجمل

بيير كوديرلوس دو لاكلو، **علاقات خطرة**، رواية

بيير كوديرلوس دو لاكلو: **علاقات خطرة**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: لينا بدر

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Choderlos de Lachlos: *Les Liaisons dangereuses*, 1782

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ولد بيير كوديرلوس دو لاكلو في مدينة «أميين» في فرنسا بتاريخ ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٧٤١، وتوفي في مدينة «تارانت» بتاريخ ٥ سبتمبر/أيلول ١٨٠٣. كان قائداً عسكرياً في الجيش الفرنسي. ما بين ١٧٧٧-١٧٧٨ كتب عدة أعمال أظهر فيها إعجابه الشديد بجان جاك روسو وبروايته «إيلوييز الجديدة» التي يعتبرها أجمل عمل روائي. وفي عام ١٧٧٨ طلب منحه إجازة لستة أشهر يقضيها في العاصمة الفرنسية، حيث بدأ كتابة «علاقات خطرة». عرف حينذاك أن طموحه الأدبي أقوى من طموحه العسكري، فهو لم يتعرض خلال حياته هناك إلّا للإهانات من النبلاء ومن بعض النساء اللواتي يظن أنهن منيعات. لهذا، تعتبر رواية «علاقات خطرة» أيضاً نوعاً من الانتقام. في عام ١٧٨١، أخذ إجازة لستة أشهر أخرى وأنهى تحفته الأدبية. عهد بنشرها في أربعة كتب. كان النجاح سريعاً وساحقاً، وبيعت الألفا نسخة في غضون شهر.

أثار نشر هذا العمل حفيظة طبقة النبلاء التي اعتبرته تهجماً على الأعراف والتقاليد وخطأ جسيماً من قبل رجل يحمل رتبة عسكرية. أُرسل لاكلو على أثرها للالتحاق بكتيبته في «بروتانيّ»، ومنها إلى «لاروشيل» عام ١٧٨٣م. تعرّف هناك على ماري سولانج دوبريه،

وكانت ثمرةُ علاقتهما ابناً. تزوجها وهو في الحادية والأربعين وهي في الرابعة والعشرين، وأنجب منها ولدين آخرين. لم يكن في شخصية لاكلو أي صفة من صفات دوڤالمون، فقد كان وفياً ومحباً لزوجته وأبنائه.

شارك في مسابقة أكاديمية كان موضوعها: «ما هي أفضل الوسائل لتحسين تعليم النساء» أتاحت له عرض وجهة نظره عن المساواة بين الجنسين وتعليم الفتيات. عام ١٧٨٨ ترك الجيش باحثاً عن أفضل وسيلة لتحقيق طموحه، فالتحق في خدمة «دوق أورليان» الذي كان يشاركه أفكاره عن ارتقاء النزاهة والإخلاص. كان اندلاع الثورة الفرنسية أخيراً فرصته الكبرى ليعيش حدّة أفكاره، وانتسب إلى رابطة الأرستقراطيين: زمرة من النبلاء منعها روبسبيير. ويقال أنه شارك في تنظيم مسيرة النساء إلى القصر الملكي في فيرساي (٥-٦ أكتوبر ١٧٨٩) للمطالبة بالخبز، وكانت من الأيام المشهودة في الثورة الفرنسية وانتهت بالقبض على الملك لويس السادس عشر وعائلته.

مقدّمة

رواية «علاقات خطرة» هي قصة خديعة. ومصادفة، تعني كلمة خديعة أيضاً تنظيم الأحداث في كتاب خيالي ضمن مجموعة من الحيل المؤثّرة والموجّهة. تدلّ الكلمة دائماً على أن هناك شخصاً ما يجعل شخصاً آخر يصدّق شيئاً غير صحيح، وكل خديعة هي مجموعة منسجمة من الأكاذيب، والإيمان بالخديعة هو قبل كل شيء الإيمان بأننا نستطيع التأثير في الناس من خلال عواطفهم، التي هي نقطة ضعفهم، مما يستوجب معرفة البشر.

ولكن ما معنى: معرفة البشر؟

المقصود البشر ككل وليس الإنسان كفرد. حين جعلت المسيحية الإنسان مكان صراع، فيه الشيطان البطل الرئيسي، حدّت بشكل كبير من الموضوع النفسي، ليس لأنها كانت تجهل مجال علم النفس الذين أعقب علماء النفس المسيحيين، بل لأنها كانت تعتبره شيئاً ثانوياً. قلّما كان يهمّها أن تعرف الأسباب التي تدعو الإنسان إلى قتل أخيه الإنسان، بقدر ما كان يهمّها أن تعرف ما إذا كان القتيل قد نال الخلاص. مهما كانت التجربة المسيحية للعالم عميقة، فإنها تبلغ أوجها في عزلة دائماً، لأن أهمية الفرد تكبر بقدر ما تقلّ أهمّية الدافع.

استلزم هذا المفهوم المتشعّب للإنسان تغييراً جوهرياً في علم النفس، ذلك لأن هذه الكائنات البشرية المختلفة، والتي كوّنت على ما هي، تتفاعل فيما بينها. الشيطان أيضاً تشعّب، واتّخذ الشر جميع أشكال العالم، وبالنتيجة غيّر طبيعته. تغيّرت العاطفة أيضاً، كانت قدراً محتوماً، وأصبحت رغبات.

يتحدث هذا الكتاب عن العاطفة فحسب، لكنه يجهلها تقريباً كلياً. العاطفة الوحيدة التي تظهر فيه هي عاطفة الحب التي تشعر بها مدام دوتورڤيل. أما حب دوڤالمون لها، فهو عاطفة تسيطر عليه باستمرار، وفي نهاية الكتاب تحدّثه الماركيزة عنها بكل وضوح. فضلاً عن ذلك، إن حب السيدة دوتورڤيل الذي ليس بالغريب نهائياً عن توليفة الرواية، هو غريب حقيقة عن منهجها. ترسم لنا العلاقات الخطرة صوراً متلاحقة وواضحة من المناورات ونتائجها. وإن كانت خدعة الصَدَقة التي قام بها دوڤالمون قد غيّرت رأي الرئيسة دوتورڤيل عنه، إلا أن أي حدث لن يبرّر اللحظة الحاسمة التي قرّرت فيها الاستسلام للحب (لا أقصد هنا: أن تنام مع دوڤالمون، ولكن أن تقبل الفكرة بأن تحبّه). وبعد سلسلة الرسائل التي أراد فيها لاكلو أن يخدع قارئه بأنه يتحدث تحليلاً نفسياً، تبدأ الرئيسة المغدورة بتكرار الأشياء نفسها دائماً، وتتحدّث بلغة الحب المكابرة والمهووسة _لغة القدر المحتوم_، فتبدو صرخاتها منبعثة من عالم مختلف.

تبدو الأوراق في هذه اللعبة بسيطة، ليس فيها سوى لونين: الغرور والرغبة الجنسية. الغرور مقابل الغرور، الغرور مقابل الرغبة، الرغبة مقابل الغرور. التباينات وأرقام الأوراق تحدّدها الشخصيات. أناس يتجابهون، ولكن أية قوى تتجابه في دواخلهم؟ الصفة المؤثرة

للجنسانية المقنّعة بأقنعة من الساتان الوردي، الرغبة بحد ذاتها، متعلّقة دائماً بالغرور. وبما أن الغرور هو الشعور الذي يكون فيه للكلام أكبر تأثير، تكمن المشكلة التقنية للكتاب في معرفة ماذا تريد إحدى الشخصيات أن تصدّق الشخصية الأخرى كي تسيطر على سلوكها. من هنا، تظهر نظرة شديدة الوضوح عن تأثير العقل.

إذا استبعدنا ثراء لاكلو ونسَبه العريق، وزيادة عليهما نبرة البلاط الواضحة لديه، كما عرفنا عنه أنه الشخصية المثقّفة في الكتاب! من بين كل الروائيين الذين حرّكوا شخصياتهم الثاقبة الفكر، والتي تفكّر مليّاً قبل الإقدام على فعل أي شيء، هو أول من وضع الفكرة التي يريدها عن العقل، أي في أعلى مرتبة. الفكرة التي أوصلته إلى هذه الفرادة التي لم يسبقه إليها أحد: تحريك شخصيات خيالية تبعاً لما يفكّرون. الماركيزة ودوفالمون، هما الشخصيتان اللتان تُظهران أيديولوجية مُحدّدة في سلوكهما. تأتي أهمية هاتين الشخصيتين، لأنهما كانتا مصدر إلهام أدباء كبار لابتكار شخصيات شبيهة بهما: شخصية جوليان سوريل في رواية «الأحمر والأسود» لستاندال(*)، وشخصية راسكولينكوف في رواية «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي.

هذا الإيمان الرائع بسلطان العقل على الحياة سوف يضمحل، ابتداء من دوفالمون وصولاً إلى إيفان كارامازوف(**)، لأن الجانب الجسماني والغامض للإنسان لم يتوقف عن النمو. في رواية

(*) ستاندال: كاتب فرنسي، أشهر رواياته: «الأحمر والأسود» التي انتقد فيها رجال الدين والسياسة (١٧٨٣-١٨٤٢).

(**) إيفان كارامازوف: بطل في رواية الإخوة كارامازوف للكاتب الروسي دوستويفسكي(١٨٢١-١٨٦١).

«العلاقات الخطرة»، لا يتعارض العقل بالإجمال إلا مع الحماقة (أي مع الفضيلة)، ولكن ينتهي به المطاف ليصادف لدى الأمهات عدوّاً لدوداً.

يستعين الكاتب عادة بصفات معروفة من قبل الجميع ويحمّلها للبطل. تُمنح الشخصية قوة البطل الأسطوري ليراها القارئ على شاكلة قوّة هرقل الجسدية. دون جوان هو مثال الإغواء، ڤينوس مثال الجمال. الجديد لدى لاكلو هو أنه يرسم شخصية دون جوان، وفي الوقت نفسه يفشي سرّه، وهذا ما يفسّر الأثر الصاعق للكتاب.

وهذه خدعة مزدوجة يصعب التلاعب بها، ونادراً ما يمكن إنهاؤها. مع ذلك، إنها ضرورية جداً لهذا النوع من الإبداع الروائي. الماركيزة، دوڤالمون، جوليان سوريل، ڤوتران(*)، راستبنياك، راخولينكوف، إيڤان كارامازوف، كل هؤلاء الأبطال يتمتعون بميّزة خاصة، فهم يُنجزون أعمالاً سبق أن فكّروا فيها وخطّطوا لها، تبعاً لمفهوم عام للحياة. تنبع قوّتهم كشخصيات روائية من أن مفهومهم للحياة يعيش في دواخلهم مثل الشغف تماماً. إنه حبهم. وهم أشخاص لا يُقهرون، متصلّبون، فضلاً عن ذلك، يتعلقون دائماً بشغف مشترك: طموح، جنسانية... تحكم وتبنٍّ على مستوى عالٍ. أمثال تلك الشخصيات تستجيب دوماً لرغبة الإنسان العميقة، وتعمل مسيطرة على أفعاله. معهم، ينتهي البطل، وتبدأ الشخصية ذات الدلالة.

في كل شخصيّة ذات دلالة ثلاثة عناصر على الأقل: أولاً،

(*) ڤوتران: شخصية روائية كانت العمود الفقري للعديد من روايات الكاتب الفرنسي بلزاك (١٧٩٩-١٨٥٠).

مفهوم هدف الإنسان، ثانياً الإرادة لبلوغ هذا الهدف، ثالثاً تكريس هذه الإرادة في منهج محدد. بالنسبة إلى جوليان سوريل، كما بالنسبة إلى ڤوتران، هدف الإنسان هو السلطة، كل منهما ينوي الاستيلاء عليها، ويخطّط بأكثر الوسائل فاعلية في سبيل هذه المعركة. وهذه الوسيلة هي العنصر الفنّي الأكثر أهمّية.

الشخصية ذات الدلالة عند لاكلو ليست طموحاً، مع أن ميدانها قريب جداً من الطموح، فهو مجال التأثير في الآخرين. لم يتصوّر دوڤالمون ولا الماركيزة السلطة السياسية كوسيلة فاعلة. مع ذلك، ندرك سياسة دوڤالمون القريبة من الماكيافيلية.

شخصيات لاكلو ذوات الدلالة لها تأثير كبير في القارئ: فهي تميل إلى الزيف إلى درجة أنها تخدع نفسها. وهذا حدث جديد في الأدب: الشخصيات تكوّن نفسها بنفسها. دوڤالمون يكوّن دوڤالمون بالفعل، ليس من خلال عرضه المسرحي، فهو يقدّم عن نفسه صورة مصوغة بأسلوب خاص، حاذق، مستهتر، ساخر، يشعر به القارئ جيداً، والوسائل التي يستخدمها ليتطابق مع هذه الصورة هي الوسائل التي يوحيها لاكلو للقارئ كي يتشبّه بڤالمون. هذا الافتتان بشخصية دوڤالمون هو العاطفة الحقيقية والوحيدة: من هنا لا نرى غرابة في انفصاله عن الماركيزة، وهي التي ستحمله على أن يقوم بالعمل الأكثر أهمّية بنظره في الكتاب كلّه: إرسال الرسالة المسيئة إلى مدام دوتورڤيل.

يتصف سلوك الشخصيتين الرئيسيتين بالقوة، وهو على مستويين، على مستوى الصورة الأسطورية، وعلى مستوى الصورة الحيّة التي تصبح النموذج الفاعل المتجسّد المجابه للحياة. يستفيد العمل الفنّي من الصورة المتجسّدة كي يؤثر، مثلما يستفيد من هيبة الصورة

الأسطورية الدائمة. ولأن قدر جميع شخصيات العلاقات الخطرة - على درجات متفاوتة- محكوم بهاتين الصورتين: نرى الشخصيات بمثابة الخالق تماماً، فهي تنزل عن عرش العقل كي تخادع البشر. باختصار، «العلاقات الخطرة» أسطورة.

يدرك لاكلو ذلك، لكنه، وعلى الرغم من نهاية روايته، وعلى الرغم من الأحداث التي ضبط فيها أبطاله، لم يتعرّض قط إلى أولئك الأبطال في صورتهم الأسطورية: أي في هيبتهم. أساس رواية «العلاقات الخطرة» باختصار هو الإهانة التي تعرضت لها الماركيزة، فلو لم يهجرها جيركور، لما كانت هناك خديعة. لكن هذا الهجر بالنسبة إلى القارئ هو مجرّد خبر، بينما هو كراهية حقيقية، كان يمكن أن تعطي للرواية كثافة مختلفة تماماً، وربما كانت ستغيّر من وجهة نظر القارئ الذي لم يرَ قط في هذا الهجر كبرياء مجروحة مثل جرح الحب لدى السيدة دوتورڤيل. لم يرغب لاكلو أن تُهزم الماركيزة دوميرتويّ: مرض الجدري هو الخاتمة المصطنعة لروايات الرياء. هو الذي أسهب في الحديث عن عار السيدة دوتورڤيل وألمها، لم يجعل أي شخصية من الشخصيات تقول ولو لمرة واحدة إن الماركيزة مهزومة. ولم يجعلها هي أيضاً تتحدث في النهاية.

الشيطان أيضاً انتهى مهزوماً، لكن ذلك لم يحدّ من شرّه. ولكن، إذا كان حلم لاكلو أسطوري، إلا أن روايته ليست كذلك. عادة، تستند الأسطورة العصرية إلى أساليب أخرى، شفهية أو عاطفية. ولكن ما يصدمنا أكثر هو أن مادة «العلاقات الخطرة» هي الأكثر تناقضاً مع الأسطورة: فهي تتحدث عن تجربة إنسانية: في هذه العلاقة ما بين الأسطورة وعلم النفس يكمن سر «العلاقات الخطرة».

... هذيان الشهوة حين تغدو اللذة صرفة من فرطها...

... حسناؤك الخجول ورعة، من ذاك النوع الذي يحكم بالثقة المؤبدة.

... أعترف أن أكثر ما يطيب لي هو هجوم سريع ومحكم يتتابع فيه كل شيء بانتظام وإن كان سريعاً، لا يعرضنا للإرباك الشاق كي نتدارك تصرفاً أرعنَ كان علينا الاستفادة منه، ويحتفظ بالمظهر العنيف حتى في الأشياء التي نمنحها، ويثني بمهارة على هوايتينا المفضلتين: مجد الدفاع ومتعة الهزيمة.

... وإن بدت عاقلة، إلا أن لديها هي الأخرى حيلها الصغيرة شأنها شأن أي امرأة.

... وهي لكثرة البحث عن الأسباب المعقولة، تجدها ثم تقولها، وبعد ذلك تتمسّك بها، ليس لأنها حسنة بل كي لا تكذّب نفسها.

... وبالفعل إذا كانت الغراميات الأولى تبدو بصورة عامّة شريفة وبريئة كما يُقال، وإذا كانت بطيئة في سيرها، فليس لأن ذلك عائد إلى الرِقّة والحياء، بل لأن القلب، وقد اندهش بعاطفة مجهولة، يتوقّف إذا صحّ التعبير عند كل خطوة ليتذوّق المتعة التي يشعر بها. وتكون هذه المتعة في غاية القوّة بالنسبة إلى قلب جديد، بحيث تشغله إلى درجة تُنسيه أي متعة أخرى. إن هذا صحيح بالفعل، فالعاشق الإباحي، مهما كان فاسقاً، يصبح منذ هذه اللحظة، أقلّ استعجالاً للمتعة...

... كان يعرف تمام المعرفة أنه ليس من السهل اختراق حياة الناس السعداء.

. . . لذلك، وجدت أنني إذا أخطأت في اختياري سيكون ذلك أقل خطورة من أن أدع الاختيار يأتي من تلقاء نفسه.

. . . ليس صحيحاً أن النساء متى تقدمن في السن يصبحن خشنات صارمات. إنما، ما بين الأربعين والخمسين، يصيبهنّ اليأس من رؤية وجوههن تذبل، والغضب من الشعور بأنهن مجبرات على التخلي عن طموحات ومُتع ما زلن متعلقات بها، ما يجعل كل النساء تقريباً متزمّتات، مشاكسات بطباعهنّ. لذلك يلزمهن كل هذه الفترة الطويلة لتقديم هذه التضحية الكبرى بكاملها . . .

. . . ومن الأفضل تعويد المرء الذي ندرّبه على الحركات الكبرى طالما نوجّهه إلى المغامرات الكبرى.

. . . لأنني كنت مُقتنعاً من ناحية بأن من يُصدر الأوامر يُلزم نفسه بها، ومن ناحية ثانية، لأن السلطة الوهمية التي نتركها للنساء هي إحدى الكمائن التي يصعب عليهن تفاديها.

. . . قد عرف مبكراً أنه يكفي للمرء أن يزاول بحذاقة متساوية الإطراء والسخرية حتى يسيطر على المجتمع. لا أحد مثله يملك هذه القدرة المزدوجة، فهو يسحر بالأولى، ويجعل الناس تخشاه بالأخرى. والناس لا يحترمونه، إنما يتملقونه. تلك هي حياته وسط عالم يحتاط الناس منه ولا يتجاسرون عليه، يفضّلون مداراته على أن يجابهوه.

ثرثرة فيها الكثير من الحذاقة والفطنة والمرارة والإحكام. هذا هو أسلوب علماء الأخلاق الفرنسيين، ذاك التي يناقض الأساطير كلّياً.

الأسلوب في غاية الأهمية هنا: ذلك لأن كل شخصية لدى

لاكلو لا تعيش إلا من خلال أسلوبها، والشخصية هي أسلوب فحسب. وهذا لا يتعلّق فقط بقالب الرواية (أي الرسائل)، ذلك لأن الكاتب الفخور بالتنويع في أساليب شخصياته، كان يرى فيها أهم وسيلة للتعبير الروائي. وقد راهن عليها، إذ بالكاد نرى لشخصياته وجود جسمانيّ، وليس لدى أي منها سيرة حياة. باستثناء الماركيزة ورسالتها الشهيرة «السيرة الذاتية»، والتي لم يحسن إقحامها. وعلى الرغم من أنها رسالة آسرة، لا نرى مما ورد فيها شيئاً على أرض الواقع، لكنها تنفع في التشديد، ليس فقط على شخصيتها المتجسّدة، إنما على شخصيتها الأسطورية.

لم يبرع لاكلو في وسائله إلا لأنه أفلت من أسلوب عصره. لكنه شعر من دون شك، وعلى نحوٍ غامض، أنه لم ينجُ منه تماماً إلا على مقدار ما ينجو المرء من كذبة. تخلو كتابة لاكلو وشخصياته من الإبداع حين تبدأ الكذب: رسائل رديئة، إنشاء رديء، مقدّمات ليست على درجة جيّدة. رسائل دوڤالمون إلى مدام دوتورڤيل أسوأ من رسائله إلى الماركيزة. تلك الأخيرة التي تكذب على الكل باستثناء ڤالمون، كتبت إليه بأسلوب لا عيب فيه تقريباً. رسائل سيسيل أيضاً ناجحة، ولكن سيسيل أيضاً لا تكذب. تجاوز لاكلو بأسلوبه الخاص أسلوب عصره وحرّر روايته وشخصياته حين أخذ شخصاً مبتذلاً فاسقاً من عصره، وأرغمه على التحكّم بأكاذيبه.

من هنا، تتراكب ثلاثة أساليب: أسلوب الشخصيات، أسلوب العصر (الميّت)، أسلوب الكاتب. يفكّر لاكلو تارة وفقاً لوجهة نظر شخصياته، حين يجعلهم يقولون: *هكذا هم الرجال! جميعهم آثمون في غاياتهم، وما يظهرونه من تخاذل في تنفيذها يسمّونه نزاهة*. أو: *«ففي سبيل إلصاق العار بامرأة وجدت مئة وسيلة، لا بل لدي ألف،*

لكنني حين أفكّر كيف تستطيع أن تنجو هذه المرأة مني، لا أرى أي احتمال البتة».

أحياناً، تتقارب الأقوال ولا نعود نعرف من المتكلم: كما في المثال السابق، القول الأول للماركيزة والثاني لڤالمون.

ذلك لأن أسلوب لاكلو وأسلوب شخصياته لا يأتيان من المصدر نفسه. أسلوب الشخصيات وليد الفكرة التي يكوّنها عنهم، وسبب تفوقه لأنه صادر عن الخيال، أي عن الذاكرة الموجّهة، العقلانية. أما أسلوب لاكلو فهو لا يعبر عن الفكرة التي يكونها عن نفسه، لكن نجاحه نابع من المفاجآت، من التجليات المباغتة، من المواجهات غير المتوقّعة في الأحداث التي يرويها، ومن ذاكرته الإجمالية عن الحياة. ما ينقذ الشخصيات في «علاقات خطرة» مما يحملونه في دواخلهم من بساطة وبؤس، هي الومضات المستمرة من أسلوب «لاكلو».

قلّة من الفنانين لم يستخدموا الجانب الغامض والمعقّد لموهبتهم في أسلوب يوضح أفكارهم، لكن بالكاد تمكن من ذلك أكبرهم، الروائيون بشكل خاص، لزم أقل من قرن من الزمن كي تتكون لديهم هذه النزعة ضد أنفسهم. ذلك لأن الفن لديهم لا ينفصل عن قضية الإنسان التي يطرحونها على أنفسهم، وموقفهم الأعمق حيالها: وهو الاستفهام.

كل ما هو نفسي، كل تجربة إنسانية تبدو شيئاً غامضاً. كل أسطورة هي انتصار على هذا الغموض، ولكن سواء كان البطل صغيراً أم كبيراً، لا يكشف هذا الغموض، بل ينتقص من قيمته. وهذا البطل لا يبقى حيّاً إلا إذا استمر الغموض (مهما ضَعُفَ) متخفياً داخل العمل الأدبي.

يمكن إدراج كل شيء تحت مسمّى «الغموض». بالنسبة إلى لاكلو، لم يستطع أن يعبّر إلا عن الناحية التي لا يستطيع الإنسان السيطرة عليها ولا التحكم بها: قدره المحتوم. يطوف خيال القدر المحتوم تحت لعبته الروائية، على الرغم من جهود اللاعبين للتحكم به: وهو عنده الجنسانية.

ما إن تمتزج مشاهد الحب الجسدي بالإكراه في الرواية حتى يظهر الطابع الجنساني. نظريات الماركيزة، تلميحاتها عن الحرية الجنسية -أحد الأجزاء الملفتة ولكن الأقل إبداعاً، أكثر أجزاء الكتاب التي تُعبّر عن ذلك العصر- موجّهة في الحقيقة نحو المتعة البسيطة، ولكن لا شيء مما يُقال يوضع موضع التنفيذ، أو تم عرضه في النص.

دوڤالمون يريد أن ينام مع الماركيزة التي لم تعد تريد أن تنام معه. كما أنه يريد أن ينام مع السيدة دوتورڤيل التي لا تريد ذلك. ويريد أن ينام مع سيسيل التي تريد أن تنام مع دانسيني. وعندما نامت الماركيزة مع بريفان، ذلك لأنها مهووسة فقط بفكرة طرده. على امتداد كل هذا المديح للمتعة، لم يدخل أي ثنائي إلى السرير مرة واحدة إلا وكانت في رأسه فكرة ما.

وهذه الفكرة هي في أكثر الأحيان «الإكراه». هذا الجزء السردي من «علاقات خطرة» يذكر بالمشاهد الجنسية القليلة في روايات أخرى قبلها. لدى كريبيّون(*) ونيرسيات(**) وساد(***) نفسه. لكن الفرادة

(*) كريبيون: كاتب فرنسي (١٧٠٧-١٧٧٧).

(**) نيرسيات: روائي فرنسي عرف برواياته الإباحية (١٧٣٩-١٨٠٠).

(***) ألفونس دو ساد: رجل أدب فرنسي، روائي وسياسي وفيلسوف (١٧٤٠-١٨١٤).

هنا: أن هذا الإكراه لم يعد بالقوة، إنما بالإقناع. والكذب هو ألطف وسائل الإكراه: التأثير في جزء من ذهن الشخص المُغوى، كي يقوم هذا الجزء بإرغام الشخص بكليّته. والقارئ يدرك ذلك بقوة لأنه خفيّ. فعندما تظن كل من سيسيل أو مدام دوتورفيل أنهما حرّتان، يعرف القارئ جيداً أنهما سجينتان، لأنه يعرف أنهما مخدوعتان.

ولكن فلتعارك دون أن تكون لديها قوة على الانتصار، بل قوة على المقاومة، ولتتذوّق بحرية شعور ضعفها، وتضطر إلى الاعتراف به. ولندع الصياد في أرض الغير يقتنص الغزال الذي فاجأه، فعلى الصياد الحقيقي أن يغصبه.

كان الكره يحتل القلوب على عكس ما قيل، وأيقظ المرح الرغبة التي أضفت المزيد من الروعة، واستمرّت حفلة العربدة هذه حتى الصباح.

أما مشروعي فهو على العكس تماماً، أريدها أن تشعر، تشعر جيداً بقيمة وفداحة كل تضحية من تضحياتها في سبيلي، ولا أريد أن أقودها بسرعة حتى لا يُلاحقها الندم، وأخيراً أمست عفّتها في احتضار طويل. وأوجهها باستمرار نحو هذا الهدف المحزن، دون أن أمنحها سعادة ضمّها بين ذراعيّ إلا بعد إجبارها على عدم إخفاء رغبتها في ذلك.

وكأن لا أهمية لاختطاف فتاة في ليلة واحدة من عشيقها المحبوب، واستخدامها على الأثر كما أشاء، وبصورة مطلقة كما لو كانت ملكي من دون أي حرج، وأن أحصل منها على ما لا يجرؤ أحد على طلبه من جميع الفتيات اللواتي يمتهنّ هذه المهنة، ودون أن أحوّلها أبداً عن حبها الرقيق.

من غير المجدي الاستشهاد بجميع هذه الاقتباسات. من خلال الشخصيتين الدالّتين، «علاقات خطرة» هي أسطورة الإرادة، وهذا المزيج الدائم بين الإرادة والجنسانية هو أقوى وسيلة للحدث فيها. الماركيزة الشخصية الأكثر شهوانية، هي أيضاً أقوى الشخصيات إرادة في الكتاب، بل وفي الأدب الفرنسي، ستأخذ لاميل(*) لاحقاً من بعض ملامحها. إذا أعدنا قراءة الرسالة الشهيرة التي تصف فيها حياتها لڤالمون. ليس هناك سوى لويولا(**) يؤمن إلى هذا الحد بسلطة الإنسان على ذاته، (سلطة الرجل وليس المرأة، وكان مؤمناً بالله). ولكي يمنح لاكلو هذه الشخصية كل قوتها، صاغها من دون معلّم. وهي تنصح فالمون وتنعته بالأحمق، وإن تجرأ هو ونصحها يكون ذلك بتعقّل. وهذه إحدى صفاتها الأسطورية الأكثر تأثيراً، قصة مراهقتها الصموت، عندما كانت من دون أصدقاء أو معلّمين ومنشغلة تماماً في السيطرة على تعابير وجهها مسببة لنفسها بآلام طوعية كي تبحث في هذه الأثناء عن تعبير الفرح.

امرأة تتصف بكل هذه القدرة والطاقة، -وقد استعار منها ستاندال ملامح من أجل أعماله الكبرى-، تنشغل لوقت طويل كي تجعل من عشيقها الذي هجرها مخدوعاً سلفاً، كان يمكن أن تكون قصة فريدة من نوعها لو لم يكن الكتاب سوى استعمال الإرادة لغايات جنسية، ولكنه مختلف كلياً، لأنه جَنسَنَ الإرادة. تمتزج الإرادة والجنسانية، تتوالدن، وتشكلان ميداناً واحداً بوضوح. بما أن لاكلو أحسّ وعبّر عن الجنسانية بكل هذا العنف بحيث كان

(*) لاميل: رواية لستاندال لم ينهها.

(**) لويولا: مؤسس ورئيس رهبانية اليسوعيين (١٤٩١-١٥٥٦).

مرتبطاً بالإكراه، لذلك لا تنفصل الإرادة عن الجنسانية، وتغدو مقوّماً من مقوّمات الجانب الشبقيّ للكتاب. ليس مصادفة إذاً أن يكون اللاعب الأخير للعبة امرأة.

هكذا أغنت التجربة الإنسانية والجنسية والسردية لدى لاكلو أسلوبه وتحليله النفسي لشخصيات خلقها بذكائه. هذه العلاقة ما بين الإكراه وبين الجنسانية هي الأساس الخفي الذي تتغلغل فيه جذور موضوعه عميقاً جداً. أما الهالة التي تغطي هذا الموضوع، والتي جعلت منه وحدة فنية متكاملة فهي تنسجم معه، مثلما تنسجم موسيقى أبيات الشعر مع مسرحية تراجيدية. «العلاقات الخطرة» هي حلم فتاة مطعونة في الحب هجرها حبيبها، يرويها رجل ذكي، أراد أن يحملنا على تصديق ما حدث، هذه الأحلام الموجودة في داخل كل واحد منا، أعمق حلم للأسطورة. مثل معظم الروايات العظيمة، أساس الروايات الخيالات كلها تقريباً هو حملنا على تصديق حلم قديم عاد وانبعث من جديد، ولكن لا أحد قبل لاكلو حاول أن يفعل ذلك ووضع علم النفس في خدمة الأسطورة.

تركت «علاقات خطرة» أثرها عبر الزمن. اتخذها ستاندال منطلقاً وصورة أولية لروايته la chartreuse de Parmes، وابتكر شخصية على شاكلة مدام دوتورڤيل، لكنها أكثر اطمئناناً ولا تحسب حساب الآخرين، محنكة بحيث تتخلى عن الخبث. بقيت قضية لاكلو على ما كانت عليه، أثارت الفضول، ربما أكثر من قضية رامبو(*)، إلى أبعد من هذه الرواية الشاذة التي يبدو فيها رجل

(*) رامبو: من أهم شعراء الأدب الفرنسي. (١٨٥٤-١٨٩١).

عسكري محترف (لاكلو) جاهلاً وجود القيم الأخلاقية، كما كان شكسبير يجهل قيم المسيح. ولكن أي قضية فنية يحسم أمرها في مجال الفن الخاص بها، أي في مجال الموهبة. ويعزى، من دون أدنى شك، السبب في قوة واستمرارية «علاقات خطرة» إلى التناغم ما بين ثقابة فكر لاكلو وهواجسه.

عندما كان كتابه لا يعدو أكثر من عمل أدبي صغير، وشبه مغمور، قال لاكلو: «أردت أن أترك عملاً يستمرّ صداه في كل الأرض، حتى بعد مماتي». يندر أن نصادف كاتباً مؤمناً بموهبته الوحيدة بأنها ستبقى عبر الزمن. يبدو أن لاكلو توقع استمرارية أثره لأن عصره انتقضه. كان لاكلو واشياً للأحلام، لقد كشف عن أحلام عصره عندما منحها الحياة، وأدخلها في مجال أحلام الجميع، في ذاك المجال الذي يتأمل فيه البشر الموعودين بالموت بحسد الشخصيات الخيالية التي كانت سيدة أقدارها.

أندريه مالرو، ١٩٣٩.

تحذير الناشر

على الرغم من عنوان هذا الكتاب ومما يقوله الكاتب في مقدمته، ارتأينا واجب تنبيه القراء إلى أننا لا نضمن صحة هذه المجموعة، ولدينا جميع الموجبات التي تدعونا إلى الاعتقاد أنها لا تعدو أكثر من رواية.

ويبدو لنا فضلاً عن ذلك، أن الكاتب الذي حاول محاكاة الواقع، قد قوّض الحقيقة هو نفسه وبصفاقة كبيرة حين وضع الأحداث التي ينشرها في عصر التنوير. في الواقع، إن العديد من الشخصيات التي أدخلها في المشاهد سيئة السمعة وفاسقة بحيث يستحيل الافتراض أنها عاشت في القرن الثامن عشر، قرن الفلسفة الذي كان ينشر أنواره في شتى الاتجاهات كما يعلم الجميع، ليجعل الرجال جميعهم شرفاء والنساء كلهن أمثولة في التواضع والرزانة.

وهكذا نرى أنه لو كانت المغامرات في هذا الكتاب فيها شيء من الحقيقة، فلعلها حدثت في أماكن أو أزمنة أخرى. ولهذا نضع اللوم على الكاتب الذي وقع تحت الإغواء. فقد كان يأمل، حين اقترب أكثر من المجتمع في عصره وبلده، أن ينال المزيد من الاهتمام بحسب ما يظهر. لذلك، تجرأ وأظهر عادات غريبة جداً عن أعرافنا وتقاليدنا من خلال الشخصيات النبيلة.

وحرصاً منا على حماية القارئ على الأقل -ما دام بوسعنا القيام بذلك- الذي قد يسارع إلى تصديق كل مفاجأة في هذا الموضوع، سوف ندعم رأينا بالحجج التي نعرضها بكل ثقة، لأن لها الكلمة الأخيرة ولا تقبل الدحض. ذلك لأن الأسباب نفسها لا يمكن أن توصل إلى النتائج نفسها، إذ لا يمكن أن نرى اليوم آنسة تبلغ عائداتها الستين ألف ليرة تصبح راهبة، ولا نرى زوجة رئيس شابة وجميلة تموت حزناً.

مقدمة المؤلف

يتضمن هذا الكتاب، أو بالأحرى هذه المجموعة التي قد يجدها جمهور القرّاء ضخمة جداً، على أقل عدد من الرسائل التي تشكّل معظم المراسلات التي أُخذت عنها. وقد كُلّفتُ من قبل الأشخاص الذين وصلتهم هذه الرسائل بوضعها ضمن سياق منتظم بهدف نشرها، ولم أطلب لقاء اهتمامي بها سوى السماح لي باستبعاد كل ما رأيته عديم الفائدة. حاولت في الواقع أن أبقي الرسائل الضرورية منها، سواء لفهم الأحداث أو لتطور الشخصيات. وإن أضفت إلى هذا العمل البسيط المنحصر في إعادة ترتيب الرسائل التي أبقيت عليها وفق التسلسل التاريخي، بعض الملاحظات القصيرة والنادرة والتي لا غرض منها سوى الإشارة إلى مصدر بعض المقولات، أو تبرير بعض الاقتطاعات التي سمحت لنفسي بها كي يُعرف القسم الذي اقتطعته من هذا الكتاب. ولم تتعدَّ مهمتي أبعد من ذلك. [يجدر بي أن أُعلم القرّاء أيضاً أنني حذفت وغيّرت أسماء كل الأشخاص الذين تتعلق بهم هذه الرسائل، وإن وجد في إحدى تلك الرسائل الكثيرة التي أبقيت عليها اسم عائد لشخص ما، فليس ذلك سوى خطأ من جهتي ولا ينبغي استخلاص أي نتيجة منه.

كنت قد اقترحت تغييرات أكبر تتعلّق كلها تقريباً بصفاء الألفاظ

أو بالأسلوب، إذ نصادف أخطاء كثيرة. كما وددت لو سُمح لي باقتطاع بعض الرسائل الطويلة جداً التي تتطرّق بشكل منفرد وبلا تمهيد إلى مواضيع غير مترابطة. إن الموافقة على هذا الاقتراح كانت كافية لإعطاء الكتاب قيمة أكبر، وكان يمكن على الأقل تفادي جزءًا كبيرًا من عيوبه.

وجاء الردّ على اقتراحي على الشكل الآتي: ما يُراد عرضه على الجمهور هو الرسائل نفسها، لا كتاب مقتبس عن تلك الرسائل، كما أن القرّاء حين يرَون الأشخاص الثمانية أو العشرة الذين ساهموا في كتابة هذه الرسائل على المستوى ذاته من سلامة الأسلوب، سيكون ذلك مخالفاً للمصداقية أكثر مما هو مخالف للحقيقة. وعلى حجّتي أن كل واحد من هؤلاء الأشخاص ارتكب أخطاء فظيعة ولا بد من انتقاده، كان الردّ: بالتأكيد، سيتوقع أي قارئ عاقل العثور على أخطاء في مجموعة رسائل بعض الناس، وجميع الرسائل التي نشرت حتى الآن كتبها مؤلفون مرموقون، لا بل بعض الأكاديميين، ولا نجد أي واحد منهم بمنأى عن هذا المأخذ. لكن هذه الحجج لم تقنعني، وكم كان يسهل قولها على تلقيها، كما أظن وما أزال، لكنني لم أكن صاحب القرار وكان أن أذعنت للأمر. غير أنني آثرت الاعتراض والتصريح بأن هذا ليس رأيي، وهذا ما أفعله الآن.

أما فيما يخص قيمة هذا الكتاب، فربما لا يحقّ لي قول رأيي الذي لا ينبغي ولا يمكن أن يؤثر في رأي أحد. مع ذلك، أولئك القرّاء الذين قد يرتاحون أكثر حين يعرفون ما يتضمن قبل أن يبدأوا القراءة، يمكنهم المتابعة، أما الآخرون، فمن الأفضل أن ينتقلوا إلى الرسائل على الفور وسوف يعرفون الكثير. ما أستطيع قوله أولاً إنه، وإن كان لي رأي في إشهار هذه الرسائل، بيد أنني لم آمل النجاح من

ورائها، كما آمل ألا يُظن بالصدق الصادر عني بأنه تواضع كاتب من أجل التلاعب بمشاعر القرّاء، لأنني أعلن بالصراحة نفسها أنه لو لم تبدُ لي هذه المجموعة جديرة بالتقديم إلى القارئ لما أوليتها اهتمامي وانشغلت بها.

إن قيمة أي كتاب تأتي إما من فائدته أو من متعته، لا بل من الاثنتين معاً حين يكون الكتاب موضع جدل. لكن النجاح الذي لا يكون دليلاً على القيمة، يتعلق غالباً باختيار الموضوع أكثر مما يتعلق بإنجازه، وبمجمل المواضيع التي يقدّمها أكثر مما يتعلق بطريقة معالجتها. بما أن هذه المجموعة تضم، كما يبين عنوانها، رسائل مجتمع خاص يسوده اختلاف في المصالح قلما يهمّ القارئ، إضافة إلى أن كل المشاعر التي يعبّر عنها تقريباً فيها زائفة أو مخادعة، فهي تثير الفضول أكثر مما تحرّك العاطفة، لأن العاطفة تحاكي الذكاء، ما يجعل القارئ يلحظ الأخطاء الكامنة في التفاصيل. ربما ما يغطّي هذه العيوب جزئياً ميزة تتعلق بطبيعة الكتاب نفسه، إذ إن التنوع في الأسلوب، الذي لا يبلغه الكاتب إلّا بصعوبة شديدة، موجود هنا من تلقاء ذاته، وينقذ على الأقل من السأم الحاضر في وحدة الشكل.

يمكن للعديد من الأشخاص أيضاً أن يعثروا على ملاحظات كثيرة تتوزع في هذه الرسائل، جديدة أو معروفة قليلاً، هنا أيضاً نتمنى أن يُحكم عليها بكل استحسان.

مع ذلك، إن فائدة هذا العمل الذي قد يلقى المزيد من المعارضة، تبدو لي سهلة الإيضاح. فهي على الأقل تخدم الأعراف حين تكشف عن طرائق أولئك الفاسدين لتضليل أصحاب الأخلاق الفاضلة، وأظن أن تلك الرسائل تساهم بشكل فعال في تحقيق هذا الهدف. وسوف نجد فيها أيضاً البرهان والمثال لحقيقتَين هامتين قد

يُظن بهما أنهما مجهولتان لقلة استعمالهما: أولاهما أن كل سيدة ترضى في مجتمعها باستقبال رجل من دون أخلاق، ينتهي بها المطاف إلى أن تكون الضحية. والحقيقة الثانية، أن كل أمّ تعاني لأن امرأة أخرى غيرها تنال ثقة ابنتها هي أمّ يقال عنها على الأقل متغافلة. ويمكن للشبيبة من الجنسين أن يتعلموا من الرواية أن الصداقة التي يمنحهم أياها بسهولة شديدة أشخاص عديمو الأخلاق، ليست سوى فخ خطير ومفجع لسعادتهم وفضيلتهم. غير أن الفساد القريب دائماً من الخير هو أكثر ما يخشى جانبه. وحين ننصح الشبيبة بعدم مطالعة هذا الكتاب أو أي كتاب من هذا النوع، يبدو لي على العكس، أن هذا النوع من المطالعات أصبح مفيداً وغير خطير. فقد قالت لي إحدى الأمهات التي تتمتع بالحسّ والفكر السليمين: «بعد أن قرأت مخطوط هذه المراسلات، أظن أنني سأسدي خدمة عظيمة لابنتي حين سأقدم لها هذا الكتاب يوم زواجها». إذا كانت كل أمهات العائلات المحترمة يفكرن على هذا النحو، فسوف أهنئ نفسي إلى الأبد لأنني نشرته.

ولكن، انطلاقاً من هذا الاحتمال المشجع، يبدو لي دائماً أن هذا الكتاب سينال إعجاب القليل من الناس. فمن مصلحة الفاسقين من الرجال والنساء أن يستنكروا كتاباً يمكن أن يسيء إليهم، وربما لن تنقصهم الحذاقة في أن يضعوا إلى صفهم المتشدّدين الذين ستُثير حفيظتهم المشاهد المسيئة للأخلاق، والتي لم نخشَ عرضها. أما أصحاب النفوس القوية فلن يعبأوا البتّة بامرأة تقيّة إلا لكونها أنثى ضعيفة، في حين سيغضب المتدينون من رؤية الفضيلة تنهار، وسوف يشتكون من ظهور الدين ضعيفاً لا يقوى على الصمود.

من ناحية أخرى، فإن أصحاب الذوق الرفيع لن يستسيغوا

الأسلوب البسيط جداً والمليء بالأخطاء في كثير من هذه الرسائل، في حين أن عامة القراء الذين تغريهم الفكرة القائلة بأن كل شيء مطبوع هو حصيلة جهد، سوف يرون في بعض الرسائل الأسلوب الصعب للكاتب الذي يجهد في الاختباء وراء الشخصية التي تتكلم.

أخيراً، سوف يقال عموماً إن لا قيمة لشيء إلا في مكانه، وإذا كان أسلوب المؤلفين المنقّح جداً سوف يزيل خصوصية رسائل المجتمع، فإن ما ورد من إهمال في تلك الرسائل يصبح خطأً حقيقياً، ويجعلها لا تغتفر حين تُسلّم للطباعة.

أعترف بكل صدق بأن كل هذه المآخذ يمكن أن تُبرّر، وأعتقد أيضاً أنه قد يتاح لي الردّ عليها، وحتى دون أن أستفيض في مقدمتي، ولكن ينبغي أن نشعر إذا كان من الضروري الردّ على الجميع، فهذا يعني أن الكتاب لا يجيب على شيء. وإن كان الرأي رأيي، لكنت سأحذف المقدمة والكتاب معاً.

القسم الأول

الرسالة الأولى

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كارنيّ

ها أنت ترين يا صديقتي الحبيبة أنني حافظت على وعدي، ولم تعد القلانس وهُدُب الجوارب تشغل كل وقتي، بل صار لدي وقت من أجلك. غير أنني رأيت من الزينة في يوم واحد أكثر مما رأيت في السنوات الأربع التي قضيناها معاً، وأظن أن زميلتنا تانڤيل المتعجرفة سيصيبها المزيد من الأسى في أول زيارة لي عندما سأدعوها. أليس هذا ما كانت تفعله في كل مرة تأتي فيها لرؤيتنا وهي بكامل زينتها؟ إن أمي تستشيرني في كل أمر ولم تعد تعاملني كالسابق كأنني تلميذة داخلية. كما أصبح لديّ خادمة خاصة وغرفة تحت تصرفي، وأكتب إليك الآن فوق مكتب صغير في غاية الروعة تسلّمتُ مفتاحه، وأستطيع أن أضع تحت القفل كل ما أريد. قالت لي أمي إنني سأراها كل يوم عند يقظتها، ويكفي أن أسرّح شعري من أجل العشاء لأننا سنكون بمفردنا دائماً، وسوف تقول لي عندئذ في أي ساعة أنضم إليها بعد الظهر. ما تبقّى من الوقت ملك لي، لديّ قيثارتي ورسومي وكتبي كما في الدير، باستثناء غياب الأم بيربيتويه هنا كي توبخني، والأمر دائماً منوط بي كي لا أعمل شيئاً. ولكن، بما أن

العزيزة صوفي ليست إلى جواري كي نثرثر ونضحك، أحب أن أنشغل طوال الوقت.

لم تبلغ الساعة الخامسة بعد، ولا أستطيع الذهاب للقاء أمي إلا في السابعة، لهذا أرى نفسي أمتلك الكثير من الوقت. ليت كان هناك شيء ما أخبرك به! لكنهم لم يحدثوني حتى الآن عن شيء، ولولا هذه التحضيرات التي أراها تحدث والعاملات الكثيرات اللواتي يأتين كلّهن من أجلي، لظننت أنهم لا يفكرون بتزويجي، وأن ذلك ليس أكثر من ثرثرة الخادمة جوزفين (راهبة العلاقات الخارجية في الدير). غير أن أمي قالت لي مراراً: على الفتاة أن تبقى في الدير حتى الزواج، وبما أنها أخرجتني من هناك، فلا بد أن تكون جوزفين على حق.

توقفتُ للتوّ عربة أمام الباب وأرسلت أمي تطلبني على الفور. ماذا لو كان هذا هو العريس؟ لا ألبس اللباس اللائق، يدي ترتجف وقلبي يخفق. سألتُ الخادمة ما إذا كانت تعرف من يزور والدتي، قالت لي: «في الحقيقة، إنه السيد س**»، وراحت تضحك. آه! أظن أنه هو. سأعود لأحكي لك كل ما سيحدث. هذا هو اسمه، يجب ألا أتركهم بانتظاري. الوداع لبرهة قصيرة.

كم ستسخرين من سيسيل المسكينة! آه! كنت خجلة جداً! ولكن كان سيصيبك الشيء نفسه. عندما دخلتُ الصالة، رأيت سيداً يلبس بدلة سوداء يقف إلى جوار أمي. حييته بأفضل طريقة ممكنة وبقيت في مكاني لا أستطيع الحراك. يمكنك أن تتخيّلي كم تفحّصته! «سيدتي»، قال لأمي وهو يحييني: «إنها آنسة رائعة الجمال وأنا في غاية الامتنان تجاه طيبتك». لدى سماعي هذه العبارة المليئة بالإطراء انتابتني رعشة بحيث ما عدت أقوى على الوقوف، وجدت كرسياً

وجلست عليه وقد اعتلت الحمرة وجهي وأنا شديدة الارتباك. ما إن جلست حتى جاء هذا الرجل وجثا عند ركبتيّ. هنا فقدت صديقتك سيسيل صوابها، كنت، كما قالت أمي، مذعورة تماماً. وقفتُ بعد أن أطلقت صرخة حادة كالرعد، تصوّري. راحت أمي تقهقه بضحكة مجلجلة وهي تقول لي: «حسناً! ماذا أصابك؟ اجلسي واعطِ قدمك للسيد». في الحقيقة يا صديقتي الحبيبة، كان هذا السيد هو الحذّاء. لا أستطيع أن أشرح لك كم كنت خجلة. لحسن الحظ، لم يكن هناك سوى أمي. أظن أنني عندما سأتزوج، لن أستخدم هذا الحذّاء أبداً. لن يعرف بهذه القصة سوانا! وداعاً. الساعة تقارب السادسة، والخادمة تخبرني بلزوم ارتداء ملابسي. وداعاً عزيزتي صوفي، أحبك كما لو أنني ما زلت في الدير.

ملاحظة: لا أعرف مع من أبعث برسالتي هذه. سوف أنتظر إذاً مجيء جوزفين.

*باريس، في ٣ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثانية

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

عُد ياعزيزي الڤيكونت، عُد. ماذا أنت فاعل؟ ماذا يمكن أن تفعل عند عمّة عجوز أوصت بكل أملاكها لغيرك؟ ارحل على الفور، أنا بحاجة إليك. مرّت في خاطري فكرة رائعة وأودّ حقيقة أن أعهد إليك تنفيذها. يجب أن تكون كلماتي القليلة هذه كافية لتكون فخوراً باختياري إياك. عليك الحضور بسرعة وتلقّي أوامري وأنت جاثٍ

على ركبتيك، لكنك تستغلّ طيبتي، حتى منذ توقفت عن استخدامها. وما بين تعاقب الكراهية الأبدية والغفران الكامل، أرى أن سعادتك بحاجة إلى طيبتي. أريد إذاً أن أُعلمك بمشاريعي، ولكن اقسِمْ لي، أنت النبيل المخلص، أنك لن تخوض أية مغامرة قبل أن تنهي هذه المغامرة، مغامرة تليق ببطل. سوف تكون في خدمة الحب والانتقام، وتكون لديك في نهاية الأمر خدعة جديدة تضاف إلى مذكراتك، نعم في مذكراتك، لأنني أريدها أن تنطبع هناك، وسأتكفّل أنا نفسي بكتابتها. ولكن، دعنا من ذلك ولنعد إلى ما يشغل تفكيري.

السيدة دو ڤولانج ترغب في تزويج ابنتها: هذا سرّ أيضاً، لكنها أطلعتني عليه البارحة. ومن تظن أنها اختارت صهراً لها؟ الكونت دوجيركور. من كان ليقول إنني سأصبح نسيبة لجيركور؟ هذا ما يغيظني أشد الغيظ! حسناً! ألم تحزر بعد؟ آه، يا صاحب الذهن البليد! هل سامحته على مغامرته ليصبح مدير القصر إذاً؟ وأنا أليس لدي ما أشتكي منه أكثر أيها القاسي؟! (لفهم هذا المقطع، يجدر بالقارئ أن يعرف أن الكونت دوجيركور هجر الماركيزة دوميرتويّ من أجل زوجة القهرمان التي فضّلت عليه الڤيكونت دوڤالمون، وحينذاك تعلّق الڤيكونت والماركيزة أحدهما بالآخر، وبما أن هذه المغامرة تسبق أحداث هذه المراسلات بكثير، رأينا أن نحذف كل مراسلاتهما). ولكنني أهدّئ نفسي الآن، والأمل بالانتقام يعيد الطمأنينة إلى روحي.

لقد أصابك السأم مئة مرة، وكذلك أنا، من الاهتمام الذي يوليه جيركور بالمرأة التي سيتزوجها، ومن زهوه الأحمق الذي يدعوه إلى الظن أنه سيتلافى قدره المحتوم. أنت تعرف رأيه المضحك عن

التعليم في الأديرة، وتحيّزه المضحك أكثر بخصوص تحفظ الشقراوات. في الواقع، أراهن أنه على الرغم من الستين ألف ليرة إيراد الصغيرة ڤولانج، ما كان ليقدم على هذا الزواج لو كانت سمراء، أو لو لم تكن تعلمت في الدير. لنثبت له إذاً أنه ليس أكثر من أحمق. سوف يصبح ذلك ذات يوم من دون شك. ليس هذا ما يضايقني الآن، لكن المضحك في الأمر أنه سيبدأ منذ تلك اللحظة. كم ستتسلى أنت وأنا غداة اليوم التالي حين سماعه يتباهى! ذلك لأنه سيفعل ذلك، وإذا ما قمت بالتلاعب بهذه الفتاة، ستكون هناك مصيبة إذا لم يصبح جيركور مثل آخرين غيره أضحوكة باريس.

على كل حال، إن بطلة هذه الرواية الجديدة تستحق كل اهتمامك، فهي رائعة الجمال، بالكاد بلغت الخامسة عشرة، إنها برعم وردة، خرقاء حقيقية كما لم تشهد عيناك من قبل وبعيدة كل البعد عن التصنّع. ولكن، أنتم الرجال، لا تخشون ذلك، إضافة إلى أنها غضيضة الطرف تعد بالكثير، أضف إلى ذلك أنني أنصحك بها، وليس عليك إلا أن تشكرني وتطيعني.

سوف تتلقى رسالتي هذه غداً صباحاً. أطلب إليك أن تكون في منزلي غداً في السابعة مساء. لن أستقبل أحداً قبل الثامنة ولا حتى الحاكم النبيل، إذ لا مزاج لديه لقضية كبيرة كهذه. ها أنت ترى أن الحب لا يعميني. في الساعة الثامنة أعيد إليك حريتك وتعود للعشاء مع الجميلة، لأن الأم وابنتها ستكونان عندي على العشاء. وداعاً، ها قد تجاوزنا منتصف النهار. قريباً لن أنشغل إلا بك.

*باريس، في ٤ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثالثة

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كارنيّ

لا أعرف شيئاً حتى الآن يا صديقتي الحبيبة. البارحة على العشاء كان عند أمي ضيوف كثر. على الرغم من الجهد الذي بذلته في تفحص الرجال على الخصوص، فقد سئمت أيّما سأم. رجال ونساء، نظر الجميع إليّ مليّاً، ثم بدأ الهمس في الآذان. كنت أعرف تمام المعرفة أنهم يتحدثون عني، وهذا ما جعلني أحمرّ خجلاً، لم يكن بيدي حيلة. كم وددت ألا يحدث لي ذلك، إذ إنني لاحظت أن النساء الأخريات لا تعلو وجوههن الحمرة حين ينظر إليهن الرجال، أو أن الأحمر الذي يضعنه، هو الذي يحول ربما دون رؤية ما يسبب لهن الانزعاج. كم يصعب ألا تعلو الحمرة وجهك حين يحدّق رجل فيه!

أكثر ما أقلقني هو عدم معرفتي بماذا يفكرون بخصوصي. أحسب أنني سمعت مرتين أو ثلاثاً كلمة «جميلة»، لكنني سمعت بوضوح كلمة «خرقاء»، ولا شك أن هذا صحيح تماماً، إذ إن المرأة التي قالت ذلك هي نسيبة لأمي وصديقة مقربة، ويبدو أنها اتخذتني صديقة لها على الفور أيضاً. كانت الوحيدة التي حدثتني قليلاً أثناء السهرة. سوف نتناول العشاء في بيتها غداً.

سمعت أيضاً بعد العشاء رجلاً يتحدث عني بالتأكيد، كان يقول لرجل آخر: «يجب تركها حتى تنضج، سوف نرى هذا الشتاء». ربما يكون هو الشخص الذي سأتزوجه، ولكن لن يحدث ذلك إلا بعد أربعة أشهر! أريد حقاً أن أعرف من يكون.

ها هي جوزفين تقول إنها على عجل. أريد أن أحكي لك المزيد عن تصرفاتي الخرقاء. آه! أظن أن هذا السيد على صواب! بعد العشاء بدأ لعب الورق، فجلست إلى جوار أمي. لا أعرف كيف حدث ذلك، لكنني غفوت في الحال إلى أن أيقظني صخب الضحك. هل كانوا يضحكون عليّ؟ أظن ذلك حقاً. سمحت لي أمي بالانسحاب وهذا ما أسعدني جداً. تصوري، كانت قد تجاوزت الساعة الحادية عشرة. وداعاً صوفي الغالية، أحبّي دائماً صديقتك سيسيل. أؤكد لك أن العالم ليس مسلياً كما كنا نتخيّله.

*باريس، في ٤ أغسطس/آب ‎**‎١٧.*

الرسالة الرابعة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ في باريس

أوامرك ظريفة، وطريقتك في إعطائها أكثر ظرافة بحيث تجعلني أعشق الاستبداد. إنها ليست المرة الأولى التي أتأسف فيها، فأنت تعلمين أنني لم أعد عبداً لك. وإن كنت وحشاً كما تقولين، إلا أنني أذكر مراراً وبسرور لا يوصف، الزمن الذي كنت تشرفينني خلاله بأسماء أكثر رقّة لتعاودني الرغبة في استحقاقها، وينتهي المطاف بك من جديد كي نقدم للعالم مثالاً عن الجلد والمثابرة. لكن هناك مصالح أكبر تستدعينا، إذ إن الغزو هو قدرنا، ويجب أن نلبّي النداء. ربما نلتقي في آخر حياتنا المهنية. أقول ذلك دون أن أغضبك يا جميلتي الماركيزة، فأنت تمشين معي على قدم وساق، ومذ افترقنا

في سبيل سعادة العالـم، ونحن نبشّر بالإيمان، كل منا من جهته، وأحسب أنك في تبشيرك بالحب قد نلت من المهتدين أكثر مني بكثير. أعرف جيداً حميّتك وحماستك الشديدتين، وإذا كان هذا الإله سيحاكمنا ذات يوم على أفعالنا، فسوف تكونين شفيعة لإحدى المدن الكبرى، في حين سيكون صديقك قديس قرية على الأكثر. لا شك أن هذه اللهجة تفاجئك، أليس كذلك؟ لكنني، ومنذ ثمانية أيام، لا أسمع ولا أتحدث سواها. وكي أتقنها أكثر، أرى نفسي مجبراً على عدم إطاعتك.

لا تغضبي واصغي إليّ يا مَودع أسرار قلبي كلها، سوف أسرّ لك بأكبر مشروع هيأته حتى الآن. ماذا تعرضين عليّ؟ إغواء فتاة يافعة لم ترَ ولم تعرف شيئاً، ويمكن أن تستسلم لي، إن أمكن القول، من دون أية مقاومة، وسوف يدوّخها أول إطراء، وقد يستولي عليها الفضول أسرع مما يستولي عليها العشق؟ عشرون شاباً غيري يمكن أن يُفلحوا في أمر كهذا. ليس هذا هو المشروع الذي يمكن أن يشغلني، سوف يمنحني الظفر به من المجد بقدر المتعة، ومن يعدّ لي إكليل النصر متردّد ما بين الآس أو ورق الغار، أو على الأغلب سوف يجمعهما معاً لتكريم انتصاري. أنت بالذات يا صديقتي الجميلة سوف تكرّمين بإجلال عظيم، وتقولين بحماسة: «هذا رجل يهواه فؤادي». أنت تعرفين زوجة الرئيس تورڤيل، ورعها، حبها الزوجي، مبادئها الصارمة، هذا ما سوف أهاجمه، هذا هو العدو الذي يليق بي، هذه هو الهدف الذي أنوي بلوغه.

إذا كان نيل النصر عصيّاً، فسيكون لي على الأقل شرف المحاولة.

ها أنا أستشهد لك ببيت شعر رديء لشاعر كبير (لافونتين).

تعرفين أن الرئيس هو في بورغونيّ على أثر قضية كبرى (آمل أن يخسر واحدة أكبر)، وعلى زوجته المكسورة القلب أن تقضي كل مدة هذا الترمل المضني. قدّاس كل يوم، زيارات لبعض فقراء المقاطعة، صلوات الصباح والمساء، نزهات بمفردها، أحاديث تقوى مع عمتي العجوز، وأحياناً لعبة ويسك كئيبة. هذه هي تسلياتها الوحيدة. أنا أعدّ لها ما هو أكثر فاعلية. لقد قادني ملاكي الرؤوف إلى هنا من أجل سعادتي وسعادتها. من دون وعي مني، أكرّس أربعًا وعشرين ساعة في مراعاة المجاملات. كم ستكون عقوبتي كبيرة في حال أجبرت على العودة إلى باريس! لحسن الحظ، تحتاج لعبة الويسك إلى أربعة أشخاص، وبما أنه لا يوجد هنا سوى كاهن المنطقة، حثّتني عمتي العتيدة على التضحية والبقاء من أجلها لبضعة أيام. يمكنك أن تخمّني أنني وافقت. لا تستطيعين أن تتصوري كم تدلّلني منذ ذلك الحين وتشدّد على رؤيتي بانتظام لحضور الصلوات والقدّاس. وهي لا تشك البتة بالإله الذي أعبده هناك.

ها أنذا إذاً، منذ أربعة أيام، مستسلم لشغف شديد. أنت تعلمين جيداً كيف أكون حين أرغب بشدّة، وكيف أزيل العقبات، لكن ما تجهلينه هو أن الوحدة تزيد من نار الرغبة. لم يعد يسيطر على تفكيري سوى فكرة واحدة أفكر فيها نهاراً وأحلم بها ليلاً: أحتاج حقيقة إلى الحصول على هذه المرأة كي أنقذ نفسي من سخافة عشقها، فأنت تعلمين إلى أين يمكن أن توصلنا رغبة مكبوتة. أيتها اللذة الشهية! أتوسل إليك من أجل سعادتي وبشكل خاص من أجل راحتي. كم نحن سعداء لكون النساء لا يحسنّ الدفاع عن أنفسهن! وإلا ما كنا إلى جوارهن سوى عبيد أذلاء. أشعر في هذه اللحظة بالامتنان تجاه النساء السهلات، امتنان يوصلني بشكل طبيعي للركوع

عند قدميك. أركع هناك لأنال عفوك وأنهي رسالتي الطويلة. وداعاً يا صديقتي الرائعة. من دون ضغينة.

*من قصر... في ٥ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الخامسة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

هل تعلم أيها الڤيكونت أن رسالتك تتصف بالوقاحة النادرة ومن الممكن أن أغضب بسببها؟ لكنها كانت الدليل الواضح على أنك فقدت رشدك وهذا ما شفع لك وأنقذك من نقمتي. وبما أنني صديقة كريمة ومرهفة الإحساس، فقد نسيت شتيمتك لأنشغل بالخطر المحدّق بك. وإن كانت مملة جداً إعادة أحدهم إلى رشده، إلّا أنني أقرّ بحاجتك إليها في الوقت الراهن. أن تنال زوجة الرئيس تورڤيل! ولكن يا لها من نزوة سخيفة! بوسعي أن ألمح الآن تفكيرك الطائش الذي لا يرغب إلا في ما هو صعب المنال. ما قصة هذه المرأة إذاً؟ تقاطيع وجهها منتظمة، ولكن من دون أي تعبير، مقبولة الشكل إنما من دون أي مفاتن، تستدعي الضحك باستمرار بسبب قامتها القصيرة ومناديلها الصغيرة التي تربطها حول عنقها! أقول كصديقة لك، لن تحتاج إلى امرأتين على شاكلتها كي تجعلاك تفقد كل احترام. تذكّر إذاً ذاك اليوم الذي كانت تجمع فيه التبرعات في سان روش، وشكرتني كثيراً لأنني أتحت لك رؤية هذا المشهد. ما زلت أراها تعطي يدها لذاك الرجل النحيل ذي الشعر الطويل توشك على السقوط في كل خطوة مع سلّتها المرتفعة فوق رأسها، وكيف كانت

تحمرّ خجلاً عند كل تحية. من كان ليظن حينذاك أنك سترغب في هذه المرأة؟ بالله عليك أيها الفيكونت، عليك أن تخجل من نفسك. عُدْ إلى صوابك وأعدك بأن أحتفظ بالسرّ.

فضلاً عن ذلك، عليك أن ترى المتاعب التي تنتظرك! أي خصم تريد أن تهزم؟ زوجاً؟ ألا تشعر بالإهانة من هذه الكلمة وحدها؟ أي عار ستنال لو أخفقت! مع أنك لن تنال أي شرف لو نجحت! أضيف وأقول: لا تأمل أي متعة. وهل هناك متعة مع متكلّفات الحياء؟ أسمعهن يقلن: نحن متحفظات حتى في قلب المتعة ذاتها، لا يقدّمن إليك سوى نصف متعة. الاستسلام الكامل، هذيان الشهوة حين تغدو اللذة صرفة من فرطها، ملذّات الغرام، هذه ليست معروفة لديهن البتة. أتوقّع لك في أفضل الأحوال أن رئيستك ستظن نفسها منحت أفضل ما لديها عندما ستعاملك كزوجها. وفي الخلوة الزوجية الأكثر حميمية، ليس هناك سوى الزوجين، وهذا ما هو أنكى أيضاً. صديقتك شديدة الورع، وورعها هذا يبقيها في طفولة دائمة. ربما تتغلب على هذه العقبة، ولكن لا تتوهم أنك سوف تقضي عليها، فإن انتصرت على حبها لله، فلن تنتصر البتة على خوفها من إبليس، وعندما ستأخذ عشيقتك بين ذراعيك، ستشعر بقلبها يخفق بين ضلوعها، لا من الحب إنما من الخوف. لو أنك التقيت هذه المرأة قبل الآن، لتمكنت ربما من فعل شيء، لكنها الآن في الثانية والعشرين، ولم يمضِ على زواجها سوى سنتين. صدّقني أيها الفيكونت، عندما تصل امرأة إلى هذا الحد من الجمود، يجدر تركها وشأنها، فلن تكون إلا عديمة الجدوى إلى الأبد.

من أجل هذه المخلوقة الجميلة ترفض أن تذعن لي إذاً، وتدفن نفسك في قبر عمتك وتتخلى عن مغامرة ممتعة خُلقتَ لتنال شرفها؟

أيّ سوء ترى فيما لو تقدّم عليك جيركور بعض الشيء؟ اسمع! أحدثك عن ذلك من دون مزاح، ولكن في هذه اللحظة، أميل إلى التفكير في أنك لا تستحق سمعتك، ويغويني أكثر سحب ثقتي بك. لن أعتاد البتة على البوح بأسراري لعشيق السيدة دوتورڤيل.

غير أنه يجدر بك أن تعلم أن الصغيرة ڤولانج قد أدارت رأس أحدهم، إذ إن الشاب دانسيني مجنون بحبها. هو يغنّي معها، وفي الحقيقة، إنها تغنّي أفضل من أي تلميذة داخلية. لا بد أنهما ردّدا أغاني كثيرة معاً، وأظن أنها ستستسلم بكل طيبة خاطر للانسجام التام معه، لكن دانسيني هذا عبارة عن طفل سيضيع وقته في ممارسة الحب دون أن يصل إلى شيء. من ناحيتها، الصغيرة خجول جداً، وفي كل مرة ستقدّم لها من المتعة أكثر مما قد تنال. أنا غاضبة، وسوف أتشاجر بالتأكيد مع عشيقي لدى وصوله، سأنصحه بأن يكون رقيقاً ولن أتأثر بالانفصال عنه. أنا على يقين أنه لو كنت في مزاج يسمح لي بأن أتركه الآن، فسوف يقع فريسة اليأس، ولا شيء يسلّيني أكثر من يأس العشق. قد يدعونني خوّانة، وهذه الكلمة تسعدني كثيراً، فهي من أرقّ الكلمات في أذن المرأة من بعد كلمة «متوحشة» ويسهل استحقاقها أكثر. أقول لك إنني سأنشغل جدّياً بهذا الانفصال، مع أنك أنت السبب! كما أحمّل ضميرك ذلك. وداعاً. اذكرني في صلوات صديقتك الرئيسة.

*باريس، في ٧ أغسطس/آب ‎**‎١٧.*

الرسالة السادسة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

ما من امرأة على الإطلاق إلا وتستغل السلطة التي عرفت كيف تنالها! حتى أنتِ نفسك التي أدعوك صديقتي الفطنة، ولكنك لم تعودي كذلك، لا تخشين مهاجمتي بخصوص حياتي العاطفية! أي نعوت تجرئين على إطلاقها على السيدة تورڤيل! وأي رجل لا يدفع حياته ثمناً لهذه الوقاحة؟ ومن غيرك قد يرتكب شناعة كهذه؟ رفقاً بي، لا تدخليني في تجارب قاسية كهذه، فلن يكون ردّي الموافقة على أقوالك. باسم الصداقة، انتظري إلى أن أحصل على هذه المرأة إذا أردتِ النمّ عليها. ألا تعلمين أن للّذة وحدها الحق في إزالة وهم الحب؟

ولكن، ماذا أقول؟ هل تحتاج السيدة تورڤيل إلى الحيلة؟ لا، كي تكون رائعة يكفيها أن تكون كما هي. تأخذين عليها سوء أناقتها، أظن أن أي زينة تفسدها، وأي شيء يخفي جمالها يشوّهه. تبدو آسرة في طريقتها بإهمال نفسها. بسبب الحرارة المضنية التي نعاني منها، ترتدي قميصاً رقيقاً يتيح لي رؤية قوامها الملفوف واللدن، تغطي صدرها غلالة من الموسلين فقط، وقد التقطت نظراتي الخاطفة، إنما الثاقبة، مفاتنها الساحرة بسرعة. تقولين إن وجهها يخلو من أي تعبير، ولكن عمَّ تريدين أن يعبّر ولا شيء في الوقت الراهن يعتمل في صدرها؟ لا بالتأكيد، إنها مثل كل نسائنا المغناجات، لا تملك تلك النظرة التي تغوينا أحياناً وتخدعنا دائماً، ولا تعرف كيف تملأ فراغ عبارة بابتسامة مدروسة. وإن كان لديها أجمل أسنان في العالم،

لكنها لا تضحك إلا بما يُضحكها، لكن عليك أن ترَيْها أثناء الألعاب المرحة، فهي تعطي صورة عن المرح البريء والصادق! وعندما تسارع لإعانة فقير، تلوح نظرتها بالفرح الصافي والطيبة العطوف! يجدر بكِ أن ترَيْها عند أقل كلمة مديح أو ثناء كيف يرتسم على وجهها الملائكي هذا الإرباك المؤثر الذي يعبّر عن تواضع لا لبس فيه! إنها تقيّة وورعة، ألهذا السبب تحكمين عليها بالبرود والجمود؟ وأنا أظن العكس تماماً. ألا ترين أن لولا رهافة حسّها المدهشة لما تعلقت بحب زوج غائب طوال الوقت؟ أي دليل أقوى من هذا تريدين؟ غير أنني تمكنت من الحصول على دليل آخر.

وجّهتُ خطواتها أثناء إحدى نزهاتنا نحو خندق علينا اجتيازه، على الرغم من أنها رشيقة جداً، لكنها أكثر خجلاً، -أنت تظنين أن أي امرأة تقية تخشى القفز فوق خندق- وكان عليها أن تعتمد عليّ. أخذتُ بين ذراعيّ تلك المرأة المتواضعة، ما فعلناه هناك من استعدادات لمرور عمتي العجوز جعل تلك المتدينة اللعوب تقهقه ضاحكة، ولكن ما إن أمسكت بها بحركة خرقاء مدروسة، تعانقنا على الفور. ضغطتُ نهدها على صدري، وأحسست في تلك البرهة القصيرة بقلبها يخفق على نحو أسرع. عادت الحمرة اللطيفة تلوّن وجهها وتأكدت من حرجها الطفيف أن قلبها خفق حباً لا خوفاً. حتى عمتي انخدعت مثلك وراحت تقول: «خافت البنت الصغيرة»، لكن براءة الصغيرة الرائعة لم تسمح لها بالكذب وردّت بسذاجة: «آه، لكن لا، ليس لهذا السبب!»، هذه العبارة وحدها أوضحت لي كل شيء. منذ تلك اللحظة، حلّ الأمل السعيد مكان القلق المضني. سوف أنال تلك المرأة، سأخطفها من زوجها الذي يسيء معاملتها، سأجرؤ على خطفها من الإله نفسه الذي تعبده. يا لها من متعة حين

أكون سبب ندمها تارة، ومن يخلصها من هذا الندم تارة أخرى! ولا يخطر في بالي في الوقت الراهن أن أحطم الأحكام المسبقة التي تكبلها، لأنها ستكون سبباً إضافياً أزيده إلى سعادتي ومجدي. لتؤمن بالفضيلة، ولكن لتضحي بها من أجلي، لترعبها خطاياها دون أن تتمكن من ردعها، وإن اضطربت من آلاف المخاوف فسوف تنساها وتتغلب عليها بين ذراعيّ. وحين ستقول لي: «أعبدك» سأكون راضياً لأنها وحدها من بين كل النساء ستستحق قول هذه الكلمة. وعندئذ سأكون حقاً الإله الذي تفضّله.

لنكن حسني النوايا في تدابيرنا السهلة والبطيئة، ما ندعوه سعادة بالكاد يكون لذة. هل أبوح لك بذلك؟ كنت أحسب قلبي قد انطفأ، ولم أعد أرى في نفسي سوى الحواس وبدأت أشكو من كهولة مبكرة. أعادت إليّ السيدة تورڤيل أوهام الشباب الرائعة. بالقرب منها لا أحتاج إلى ذروة المتعة كي أكون سعيداً. الشيء الوحيد الذي يخيفني هو الوقت الذي قد تستغرقه هذه المغامرة، إذ لا يمكن أن أترك شيئاً للمصادفة. على الرغم من أنني أتذكر كل مجازفاتي المتهورة، إلّا أنني لا أستطيع تطبيقها هنا. كي أكون سعيداً بحق، يجدر بها أن تمنحني نفسها وهذا ليس بالأمر السهل.

أنا واثق من أنك ستعجبين بحذري، فلم ألفظ كلمة حب حتى الآن، لكننا لا نزال نقول كلمات الثقة والاهتمام. كي أخدعها أقل ما يمكن، وكي أحتاط من وقع العبارات التي قد تعبر خاطرها، حدثتها بنفسي كما لو أنني متّهم عن بعض قصصي الشهيرة. لا شك أنك كنت ستضحكين لو رأيتها بأي براءة كانت تعِظني. تقول إنها تريد أن تُهديني، لم يساورها الشك حتى الآن في ثمن محاولتها تلك. لا يخطر في بالها وهي ترافع، كما تقول، عن ذنوبي أنها

تتحدث مسبقاً عن قضيتها. ساورتني هذه الفكرة البارحة خلال إحدى مواعظها، ولم أستطع منع نفسي من مقاطعتها وأنا مصغٍ، لأقول لها إنها تتحدث كأحد الأنبياء. الوداع يا صديقتي الجميلة. ها أنت ترين أنني لا أعدم الوسائل.

ملاحظة: للمناسبة، هل انتحر فارسك النبيل المسكين من اليأس؟ في الحقيقة، أنت شخص فاسد أكثر مني بمئة مرة، وكنت سأشعر بالعار لو كان لدي شيء من الكرامة.

*من قصر... في ٩ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السابعة

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كارنيّ

إذا كنتُ لم أخبركِ شيئاً عن زواجي، فذلك لأنني لم أعرف حتى الآن أكثر مما عرفته في أول يوم. أعوّد نفسي على عدم التفكير فيه، وأجد نفسي في أفضل حال من طريقة حياتي. أدرس كثيراً الغناء والعزف على قيثارتي، يبدو لي أنني أزداد حباً لهما بعد أن غاب عني المعلمون، أو بالأحرى منذ أن صار لدي معلم أفضل. السيد النبيل دانسيني، هذا الشاب الذي حدثتك عنه وغنيت معه في بيت السيدة ميرتويّ، يتلطّف في المجيء إلى هنا كل يوم، ويغني معي لساعات طوال. إنه لطيف جداً، ويغني مثل ملاك، يؤلف ألحاناً رائعة يكتب كلماتها. كم هو مؤسف أن يكون نبيلاً من مالطة! يبدو لي أنه إذا تزوج، فسوف تكون زوجته في غاية السعادة.

إنه رقيق، ساحر، لا يبدو أنه يمالق أبداً، مع ذلك، كل ما يقوله إطراء. يلومني باستمرار، على الموسيقى كما على أشياء أخرى، لكنه يخلط في انتقاداته ما بين الاهتمام والمرح بحيث يستحيل ألا تشعري بالامتنان تجاهه. يكفي أن ينظر إليك ليبدو أنه يقول شيئاً لطيفاً، إضافة إلى أنه يجامل كثيراً. البارحة مثلاً، كان قد دُعي إلى حفل موسيقي كبير، لكنه آثر البقاء طوال السهرة عند أمي. لقد أسعدني ذلك كثيراً، لأنه حين لا يكون هنا لا أحد يتحدث إليّ ويصيبني السأم، أما حين يكون هنا فإننا نغني ونثرثر معاً لأن لديه دائماً ما يحدثني به. هو والسيدة ميرتويّ، الوحيدان اللذان أجدهما لطيفين. ولكن، وداعاً يا صديقتي العزيزة. فقد وعدت بأن أتعلم اليوم لحناً، مرافقته من الصعوبة بمكان، ولا أريد أن أخلف بوعدي. سوف أبدأ دراسته إلى حين وصوله.

*من. . . في ٧ أغسطس/آب ‎**١٧ .*

الرسالة الثامنة

من السيدة دوتورڤيل إلى السيدة ڤولانج

سيدتي، لا يمكن لأحد أن يتأثر أكثر مني تجاه الثقة التي تولينني إياها، ولن يهتم أحد أكثر مني بزواج الآنسة ڤولانج. أتمنى لها من أعماق روحي السعادة التي تستحقها من دون أدنى شك، وأعوّل في سبيل ذلك على عنايتك. لا أعرف الكونت دوجيركور كثيراً، ولكن بعد أن تشرف باختيارك، ليس بوسعي إلا أن أكوّن عنه فكرة حسنة. أكتفي سيدتي بأن أتمنى لهذا الزواج نجاحاً سعيداً مثيلاً لزواجي،

والذي كان أيضاً من صنيعك، وأشعر بالامتنان يوماً بعد يوم. آمل أن تكون سعادة الآنسة ابنتك مكافأة على السعادة التي منحتني إياها، وتكون أفضل صديقاتي أسعد الأمهات!

كم يصعب عليّ ألا أستطيع أن أقول لك شخصياً تهنئتي الصادقة هذه، وأتعرف في أقرب فرصة إلى الآنسة ڤولانج. بعد أن اختبرت طيبتك كأم حقيقية، آمل نيل صداقتها كأخت حنون. أرجو أن تتفضلي سيدتي وتطلبي إليها ذلك بانتظار أن أصبح جديرة بصداقتها.

أعتزم البقاء في الريف طيلة مدة غياب السيد تورڤيل. أستغل هذا الوقت كي أستمتع وأستفيد من مجتمع السيدة روزموند المحترمة. إنها سيدة رائعة، لم يُفقدها سنّها المتقدم شيئاً، لا تزال تحتفظ بكامل ذاكرتها ومرحها. جسمها وحده بلغ الرابعة والثمانين ولا يزال ذهنها في العشرين.

ما يبهج عزلتنا هو ابن أخيها الڤيكونت دوڤالمون الذي أراد أن يكرّس بضعة أيام من أجلنا. لم أكن أعرفه إلا من خلال صيته الذي قلّما شجعني على التعرف إليه أكثر، ولكن يبدو لي أنه يستحق أفضل من صيته. هنا، حيث لا تفسده دوامة الناس، ترينه يتحدث بتعقّل بسهولة مدهشة، ويعترف بذنوبه ببراءة نادرة. يتحدث إليّ بكثير من الثقة وأنا أعظه بكثير من الحزم. أنت التي تعرفينه، ستقرّين أن ما أقوم به هداية رائعة. لكنني لا أشك، على الرغم من وعوده، أن ثمانية أيام في باريس سوف تجعله ينسى جميع مواعظي. ستكون إقامته هنا على الأقل انقطاعاً عن سلوكه المعتاد. وحسبي بعد أن رأيت طريقته في العيش، أن أقتنع بأن أفضل ما بوسعه عمله، هو ألا يعمل شيئاً. هو يعرف أنني منشغلة بالكتابة إليك وكلّفني بتقديم

تكريمه اللائق. إليك مني أيضاً كل احترام بما أعرفه عنك من طيبة، وأرجو ألّا ينتابك الشك لحظة بمشاعري الصادقة التي يشرفني أن أحملها إليك...

*من قصر ... في ٩ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة التاسعة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوتورڤيل

لم أشك البتّة، يا صديقتي الجميلة الصغيرة، في المودة التي تكنّينها لي ولا في الاهتمام الصادق الذي تولينه بكل ما يتعلق بي. ولا أردّ على رسالتك لتوضيح هذه النقطة التي آمل أن تستمر بيننا إلى الأبد، لكنني لم أتصور الاستغناء عن التحدث إليك بخصوص الڤيكونت دوڤالمون. أعترف لك بأنني لم أتوقع رؤية اسم الڤيكونت في رسائلك. بالفعل، ما هو الشيء المشترك الذي يجمعكما؟ أنت لا تعرفين هذا الرجل لكي تكوّني فكرة عن روح رجل فاسق. أراك تتحدثين عن براءته النادرة: آه، صحيح، لا شك أن براءة ڤالمون نادرة جداً. إنه كاذب وخطير أكثر مما هو لطيف وجذاب. من أول شبابه، لم يقدم على خطوة أو يقل أية كلمة دون أن يكون من ورائهما مأرب ما، وما كان هذا المأرب إلا مشيناً أو إجرامياً. صديقتي، من بين الفضائل التي أسعى إلى الحصول عليها، ليس التسامح أكثر ما أحب. وأقول أيضاً: إذا كان ڤالمون قد انساق لأهوائه النزقة، لو كان مثل آلاف آخرين غيره ممن أغرتهم أهواء الشباب ثم ندم عليها، لأشفقت عليه وانتظرت ليعود إلى تقدير الناس الشرفاء، لكن ڤالمون

ليس من هذا الطراز. إن سلوكه نتيجة مبادئه، يعرف كيف يحتسب بدقة ما يمكن أن يرتكب من فظاعات دون أن يتعرض للشبهة، ويعرف كيف يكون قاسياً وخبيثاً من دون مخاطر، لهذا اختار ضحاياه من النساء. يمكنني ألا أتوقف عن إحصاء النساء اللواتي أغواهن، ولكن كم واحدة تمكنت من النجاة منه؟ في حياة العزلة التي تعيشينها، لن تصل إليك قصص الفضائح تلك. بوسعي أن أروي لك بعضاً منها مما تقشعر له الأبدان، لكن نظرتك النقية مثل روحك ستتلوث بمشاهد مثلها. بالتأكيد، لن يكون ڤالمون خطراً عليك البتة ولا تحتاجين إلى أسلحة شبيهة للدفاع عنك. الشيء الوحيد الذي أرغب في أن أنقله إليك، أن كل النساء اللواتي أولاهن شيئاً من اهتمامه، سواء نجح في مسعاه أم لم ينجح، ليست هناك واحدة منهن اشتكت منه. وحدها الماركيزة ميرتويّ تمكنت من مقاومته وكبّلت شرّه. أعترف أن هذا الفاصل من حياتها هو أكثر ما يشرّفها بنظري، وكان كافياً لإنصافها في نظر الجميع من بعض الأفعال المتهورة التي تلام عليها في بداية ترملها.

مهما يكن يا صديقتي الجميلة، فإن السنّ التي وصلتُ إليها، إضافة إلى الخبرة، لا سيما الصداقة، تملي عليّ أن أوضح لك أن الناس بدأوا يلحظون غياب ڤالمون، وإذا ما بقي لبعض الوقت كطرف ثالث بينك وبين عمته، فسوف تكون سمعتك بين يديه، وهذا أتعس ما يمكن أن يحلّ بامرأة. لهذا أنصحك بأن تتعهد لك عمته بألا تتمسك به أكثر، وإذا ما أصرّ على البقاء، فأحسب أنه لا يجدر بك البقاء ولا ترددي في ترك الساحة له. ولكن لماذا قد يبقى؟ ماذا هو فاعل هناك في الريف؟ حبذا لو تتبعين تحركاته بواسطة أحد ما، فأنا على يقين بأنك سوف تكتشفين أنه اختار عزلته للقيام بفظاعات

كان يأمل القيام بها في الأنحاء فحسب. ولكن لاستحالة تدارك الشر، دعينا نكتفي بتلافيه.

وداعاً صديقتي الجميلة، لقد تأجّل زواج ابنتي قليلاً. الكونت دوجيركور الذي ننتظر وصوله بين يوم وآخر أرسل يخبرني أن كتيبته تمرّ في كورسيكا، وبما أن الحرب لا تزال دائرة، يستحيل عليه أن يغيب عنها قبل قدوم الشتاء. إن ذلك يغيظني، لكن يحدوني الأمل أن نسرّ برؤيتك في العرس، كنت سأشعر بالحزن لو أنه حصل في غيابك. وداعاً. تقبّلي مني كل الإخلاص.

ملاحظة: على ذكر السيدة روزموند، أنا أحبها كثيراً بقدر ما تستحق.

*من... في ١١ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة العاشرة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

هل أنت مستاء مني أيها الفيكونت أم إنك متّ، أو ما يشبه ذلك؟ فأنت لم تعد تحيا إلا من أجل رئيستك! هذه المرأة التي أعادت إليك أوهام الشباب لن يطول بها الأمر حتى تعيد إليك صفاتك المضحكة. أراك خجولاً وعبداً، وتظن نفسك عاشقاً. تتصرف بعيداً عن مبادئك، تاركاً كل شيء للمصادفة أو بالأحرى للنزوة. ألم تعد تذكر أن الحب، كالطب، هو فن مساعدة الطبيعة؟ ها أنت ترى أنني أهزمك بأسلحتك، لكني لا أفخر بذلك، إذ إنني

أهزم رجلاً مهزوماً. تقول لي: «يجب أن تمنحك نفسها». بالتأكيد يجب أن تمنحك نفسها كالأخريات، مع فارق أنها ستفعل ذلك رغم إرادتها. ولكن، كي تصل إلى أن تمنحك نفسها يجدر بك أن تبدأ أخذها. إن هذا التمييز السخيف هو من تهور الحب، أقول الحب لأنك عاشق. وإذا قلت لك خلاف ذلك فأكون أخدعك وأخفي عنك علّتك. قل لي إذاً أيها العاشق المتيّم، أولئك النساء اللواتي نلتهن، هل تظن نفسك أنك اغتصبتهن؟ لكن، مهما كانت رغبتنا كبيرة، ومهما كنا مستعجلات، فإنّ هناك دائماً مبرراً. وليس هناك مبرر يلائمنا أكثر من كوننا نستسلم للقوة. بالنسبة إليّ، أعترف أن أكثر ما يطيب لي هو هجوم سريع ومحكم يتتابع فيه كل شيء بانتظام وإن كان سريعاً، لا يعرضنا للإرباك الشاق كي نتدارك تصرفاً أرعنَ كان علينا الاستفادة منه، ويحتفظ بالمظهر العنيف حتى في الأشياء التي نمنحها، ويثني بمهارة على هوايتينا المفضلتين: مجد الدفاع ومتعة الهزيمة. أعترف لك بأن هذه الموهبة النادرة جداً قد أبهجت قلبي على الدوام، رغم أنني لم أخضع لإغوائها، وقدّر لي أحياناً أن تكون مكافأتي الوحيدة، كما كان يحدث في مبارياتنا القديمة عندما كان الجمال يعادل القيمة والبراعة.

ولكن، أنت لم تعد أنت، وأراك تتصرف كأنك تخشى الفوز. أجل! منذ متى تتنزهان نهاراً في طرقات مليئة بالحفر؟ حين تريد الوصول، عليك اتخاذ الخيول والطريق الكبير. ولكن لندع هذا الموضوع الذي يكدّرني بقدر ما يحرمني من متعة رؤيتك. اكتب لي على الأقل أكثر مما تفعل الآن وأطلعني على مدى تقدمك. هل تعلم أن خمسة عشر يوماً مضت وأنت مشغول بهذه المغامرة السخيفة وقد أهملت أصدقاءك؟

على سيرة الإهمال، أنت تشبه أولئك الذين يسألون عن صحة أصدقائهم المرضى دون أن يعبأوا بالردّ. ختمتَ رسالتك الأخيرة تسألني ما إذا كان الفارس قد مات. أنا لم أجب، وأنت لم تقلق، ألا تعلم أن عشيقي هو صديقك منذ الطفولة؟ ولكن اطمئن، هو لم يمت، وإن مات فذلك من فرط السعادة، هذا الفارس المسكين، كم هو حنون! إنه مخلوق للحب! ويعرف كيف يحسّ بحيوية! إنه يدوّخني. أقول حقيقة: إن السعادة التي يجدها في حبي تجعلني أتعلق به أكثر.

ذاك اليوم عندما كتبتُ لك أنني أسعى إلى انفصالنا، كم كان سعيداً! مع أنني حاولت بجميع الوسائل جعله يزعل مني عندما علمت بوصوله. لكنني استقبلته ببشاشة، لا أعرف ما إذا كنت فعلت ذلك عن غنج أو عن تعقل. كان يأمل أن يقضي معي ساعتين قبل أن أفتح بابي للناس كافة. قلت له إنني خارجة، سألني إلى أين، لم أجبه، لكنه ألحّ فرددت عليه: إلى المكان الذي لا تكون فيه. لحسن الحظ بقي مذهولاً من هذا الجواب، لأنه لو زاد كلمة واحدة لأعقبتها لا محالة مشاجرة توصلنا إلى الانفصال الذي خططت له. دهشت من صمته، ونظرت إليه لا لشيء، أقسم لك، إلا لأرى وجهه. وجدت فوق ذاك الوجه الرائع تلك التعاسة العميقة والرقيقة في آن واحد، أنت نفسك ما كنت لتقاومها، وانهزمت للمرة الثانية. منذ تلك اللحظة، لم أعد أهتم إلا بالوسائل التي تجنّبه أن يجدني مخطئة. قلت له بأرق لهجة: «إنني خارجة لقضية مهمة، لا بل قضية تتعلق بك، ولكن لا تسألني. سأتناول العشاء في بيتي. عُد وسوف أخبرك». عندذاط استعاد الكلام، لكنني لم أترك له الفرصة لاستخدامه، وأضفت قائلة: «أنا على عجلة من أمري الآن، دعني، إلى اللقاء هذا المساء». قبّل يدي وانصرف.

كي أعوّضه، وربما كي أعوّض نفسي أيضاً، قررت في الحال أن أجعله يتعرّف إلى «بيتي الصغير» الذي لا يشكّ فيه أبداً. ناديت خادمتي ڤيكتوار وقلت لها إنني مصابة بصداع ولتقل لجميع ضيوفي إنني نائمة. وبقيت أخيراً وحدي معها، بينما كانت تتنكّر بملابس بوّاب، كنت أتزيّن مثل خادمة. ثم استدعت على الفور عربة خيل عند باب حديقتي وانطلقنا. عندما وصلت إلى معبد الحب، اخترت الغلالة الأكثر شفافية، من ابتكاري ولا تدع مجالاً لرؤية شيء، مع ذلك تجعل الناظر يستشف ما تحتها. أعدك بواحدة مثلها لرئيستك حين تجعلها جديرة بلبسها.

بعد هذه التحضيرات، بينما كانت ڤيكتوار تهتم بتفاصيل أخرى، رحت أقرأ فصلاً من رواية «صوفا» ورسالة من «هيلوييز»، وحكايتين من «لافونتين»، كي أدوزن جميع النبرات التي سأتحدث بها. في هذه الأثناء، وصل فارسي إلى بابي بالعجلة التي أعهده بها. لكن خادمي رفضه وأخبره بأنني مريضة، كان هذا أول حادث معكّر. سلّمه في الوقت نفسه ورقة مني، مكتوبة ولكن ليس بخط يدي، حسب طريقتي الحذرة. فتحها وقرأها بخط ڤيكتوار: «الساعة التاسعة تماماً في البولڤار، أمام المقاهي». فيما بعد ذهب إلى هناك، ثم جاء خادم صغير لا يعرفه، أو ظن نفسه لا يعرفه، لأن هذا الخادم هو ڤيكتوار نفسها، أخبره بضرورة صرف العربة واتباعه. هذه الخطة العاطفية ألهبت رأسه، والرأس الملتهب لا يضير شيئاً. وعندما وصل، كانت المفاجأة والشوق قد أحدثا لديه متعة لا حد لها. كي أمنحه الوقت ليستعيد هدوءه، رحنا نتنزه قليلاً في الغابة الصغيرة، ثم صحبته إلى البيت. شاهد أولاً مائدة أعدّت لشخصَين، ثم سريراً جاهزاً. انتقلنا إلى الصالون الصغير الذي كان في أحلى زينته. وهناك، ما بين

التفكير والعاطفة، أحطته بذراعي وركعت عند ركبتيه، وقلت له: «آه يا صديقي، لأجل تهيئة هذه المفاجأة لك، ألوم نفسي كثيراً، إذ قد أسأت إليك ظاهرياً في لحظة نزق، واستطعت أن أحجب قلبي عن نظرتك. سامحني على ذنوبي، أريد أن أكفّر عنها بالإفراط في حبك». لك أن تتخيّل تأثير هذا الخطاب الغرامي فيه. أنهضني ومنحني العفو فوق السرير العثماني حيث سجلنا بجنون وبالطريقة نفسها انفصالنا الخالد.

وبما أنه كانت أمامنا ست ساعات لنقضيها معاً، وكنت قد صممتُ على تكريس كل هذا الوقت له أيضاً ليكون ممتعاً، رحت أخفف من غلوائه وحلّ الدلع اللطيف مكان الحنان. لا أظن أنني بذلت في حياتي كل هذه العناية كي أرضيه، ولم أكن أشد سروراً من نفسي. بعد العشاء، رحت أتحوّل إلى طائشة تارة ومتعقلة تارة أخرى، وأحياناً مجنونة وحساسة، لا بل في بعض الأحيان فاسقة، كنت أتسلّى في اعتباره سلطاناً في سراياه يغازل جواريه المفضلات على التوالي. وبالفعل، كانت مداعباته المتكررة، على الرغم من أن المرأة نفسها كانت تتلقاها، جعلته يظنني في كل مرة عشيقة جديدة.

أخيراً، حين طلع النهار، كان لا بد من أن نفترق. ومهما قال، مهما فعل كي يثبت العكس، فقد كان يشعر بالحاجة أكثر مما يشعر بالرغبة. ولدى خروجنا للوداع الأخير، أخذت مفتاح ذاك البيت السعيد ووضعته بين يديه، ثم قلت له: «لم أحصل عليه إلا من أجلك، ومن العدل أن تكون أنت سيد البيت، من حق من يقدّم الأضحية أن يتصرف بالمعبد». بتلك البراعة تفاديت الأفكار التي راودته حول ملكية مشبوهة لبيت صغير. أعرف تمام المعرفة أنه لن يستخدمه إلا من أجلي، وإذا ما أحببت المغامرة والذهاب إليه من

دونه، فلدي نسخة ثانية عن المفتاح. كان يريد بجميع جوارحه العودة إليه كل يوم، لكنني أحبه كثيراً ولا أريد أن أستهلكه سريعاً. عليّ ألا أسمح لنفسي بالتمادي إلا مع الأشخاص الذين أريد هجرهم قريباً. إنه لا يعلم ذلك، ولكن في سبيل سعادته، أعرف عنّي وعنه.

ألاحظ أن الساعة الآن الثالثة صباحاً، وقد كتبت مجلداً بعد أن كانت في نيتي كتابة كلمة قصيرة. تلك هي روعة الصداقة الوثيقة، وهذا ما يجعلني أفضّلك عن الجميع، ولكن في الحقيقة، يعجبني الفارس أكثر.

*من . . . في ١٢ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الحادية عشرة

من السيدة دوتورڤيل إلى السيدة دوڤولانج

سيدتي، رسالتك الصارمة ألقت الرعب في قلبي، ولو أنني لحسن الحظ وجدت هنا جميع أسباب الأمان أكثر منك، فلا تثيري مخاوفي. يبدو أن السيد ڤالمون هذا الذي أخافَ كل النساء قد ألقى أسلحته القاتلة قبل أن يدخل هذا القصر. وهو بعيد كل البعد عن إعداد أي مشاريع ولم يحمل معه أية محاولات للإغراء، حتى صفة الرجل الملاطف التي يعرفها عنه أعداؤه اختفت تقريباً هنا وحلّت محلها صفة الفتى الطيب. يبدو أن هواء الريف هو ما أحدث هذه المعجزة. وما أستطيع أن أؤكده لك أنه وهو معي دائماً، ويبدو أنه يحب ذلك، لم تصدر عنه أية كلمة تشبه الحب، حتى ولا إحدى تلك العبارات التي يسمح الرجال لأنفسهم بقولها، دون أن يكون لديهم

مثله ما يبرر قولها. لا يفرض أبداً مثل هذا التحفظ الذي تضطر كل امرأة محترمة أن تبديه كي تتجنب الرجال المحيطين بها، ولا يستغل ما يوحيه من مرح. ربما كان يميل إلى الإطراء، ولكن بكثير من اللباقة التي يمتزج فيها التواضع والإطراء. أخيراً، لو كان عندي أخ، لتمنيت أن يكون كما السيد ڤالمون هنا. لعل نساء كثيرات يرغبن في ملاطفاته المميزة، وأعترف بأنني ممتنة له لأنه عرف كيف يحكم عليّ ولم يخلط بيني وبينهن.

إن هذه الصورة تختلف اختلافاً كبيراً عن تلك التي رسمتِها لي. ومع ذلك، فإن كلتا الصورتين يمكن أن تتشابها لو حددنا زمن كل منهما. هو نفسه، يعترف بأنه أخطاء كثيرة، لكنني قلما قابلت رجالاً يتحدثون مع نساء شريفات بمثل هذا الاحترام، لا بل بمثل هذه الحماسة تقريباً. وأنت نفسك أخبرتني بأنه لا يخادع في هذا الموضوع أبداً، وتصرفه مع السيدة دوميرتويّ خير دليل. إنه يحدثني عنها بكثير من المديح دائماً، وبهيئة من يبدو متعلقاً بها حقيقة. وكنت أظن، قبل وصول رسالتك، أن الصداقة التي تجمعهما ليست في الواقع إلا حباً. أؤاخذ نفسي على هذا الحكم الباطل الذي أخطأت فيه كثيراً، وهو نفسه بذل ما بوسعه لكي يبرّره. أعترف بأن ما بدر منه من إخلاص شريف أعتبره رهافة حسّ. لا أعرف! ولكن يبدو لي أن من يكنّ لامرأة محترمة مثل تلك الصداقة المخلصة، ليس بفاسق لا يرتجى منه. غير أنني أجهل ما إذا كان يجب تفسير سلوكه العاقل هنا ستاراً لما يحيكه من مغامرات في الأنحاء كما تفترضين. في محيطنا نساء لطيفات، لكنه قلما يخرج، باستثناء الصباح حين يقول إنه ذاهب للصيد. من النادر أن يعود ومعه الطرائد، فهو يؤكد عدم براعته في هذه الرياضة. فضلاً عن أنني قلما أهتم بما يفعله في الخارج، وإن

رغبتُ في معرفة ذلك، فلكي يكون لدي سبب إضافي يقرّبني من رأيك، أو أجعلك توافقين على رأيي.

بالنسبة إلى ما اقترحتِ عليّ كي أسعى إلى تقصير إقامته هنا، يبدو لي أنه من الصعب أن أجرؤ على الطلب من عمته طرد ابن أخيها من بيتها، لا سيما أنها تحبه كثيراً. غير أنني أعدك، ولكن من قبيل الاحترام وليس من قبيل الحاجة، بأن أغتنم الفرصة لأطلب ذلك، سواء إليها أو إليه. أما فيما يخصني، فإن زوجي السيد تورڤيل يعلم بنيّتي البقاء حتى عودته، وسوف يعجب لو غيّرت رأيي بهذه السرعة.

تلك هي توضيحاتي الطويلة يا سيدتي. لكنني أرى من واجبي - خدمة للحقيقة- أن أقدّم شهادة صالحة بحق السيد ڤالمون، شهادة يجدر بي أن أقدّمها لك شخصياً. وأنا لست أقل حساسية منك تجاه الصداقة التي أملت عليك نصائحك. كما أنني مدينة لها أيضاً فيما أبديت من لطف لمناسبة تأخر زواج الآنسة ابنتك. أشكرك بإخلاص، ولكن مهما كان السرور الذي وعدت به نفسي في تمضية هذه اللحظات معك، فإنني أكرّسه من أعماق قلبي كي أعرف أنها هي أيضاً سعيدة، وكيف لا تكون سعيدة وهي بالقرب من أمّ جديرة بحنانها واحترامها. أنا بدوري أشاطرها هاتين العاطفتين اللتين تجعلانني أتعلق بك، وأرجو أن تتأكدي من صدقهما.

لي الشرف في...

*من... في ١٣ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثانية عشرة

من سيسيل دوڤولانج إلى الماركيزة دوميرتويّ

سيدتي، والدتي متوعكة قليلاً ولن تخرج من البيت، وعليّ أن أبقى إلى جوارها. وهكذا، لن يكون لي شرف مرافقتك إلى الأوبرا. أؤكد لك أن أسفي بسبب عدم مرافقتك أكبر من أسفي على عدم حضور العرض. أرجو أن تصدّقي ذلك بشدة. أنا أحبك جداً! هل تتفضلين وتقولين للسيد دانسيني إنني لم أتلقَّ المجموعة التي حدثني عنها، وإنه لو استطاع إحضارها لي غداً فسوف يسعدني ذلك جداً. إذا جاء اليوم، فسوف يُبلّغ بأننا لسنا موجودين، ذلك لأن أمي لا تريد استقبال أحد. آمل أن تتحسن حالها غداً.

لي الشرف في...

من... في ١٣ *أغسطس/آب* ١٧**.

الرسالة الثالثة عشرة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى سيسيل دوڤولانج

انزعجت جداً، يا جميلتي، لأنني حُرمتُ من متعة رؤيتك، وانزعجت أكثر من سبب هذا الحرمان. آمل أن تسنح الفرصة مرة أخرى. سأتولى تنفيذ رغبتك لدى الفارس دانسيني الذي سيحزن كثيراً بالتأكيد حين يعلم بمرض والدتك، وإذا رغبت في أن تستقبلني غداً فسوف أكون إلى جانبها. سوف نهاجم، هي وأنا، السيد

بيلروش في لعبة الورق (البيكه)، وإذا ما فزنا بماله، فسوف نفوز أيضاً بسماع غنائك مع أستاذك اللطيف الذي سأقترح عليه ذلك. إذا كان هذا يلائمكما، أمك وأنت، أتحدث باسمي وباسم الفارسَين. الوداع يا جميلتي، تحياتي إلى العزيزة أمك السيدة ڤولانج. أقبّلك بحنان.

*من... في ١٣ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الرابعة عشرة

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كارنيّ

لم أكتب إليك البارحة يا عزيزتي صوفي، ولكن ليس بسبب اللهو أؤكد لك، فقد كانت أمي مريضة ولم أفارقها طوال النهار. وحين انسحبتُ في المساء، لم يكن لدي الرغبة في أي شيء، ونمتُ سريعاً كي أتأكد من أن النهار قد انتهى، فأنا لم أمضِ نهاراً أطول منه، ليس لأنني لا أحب أمي، ولكن لا أعرف ما أصابني. كان من المفترض أن أذهب إلى دار الأوبرا مع السيدة دوميرتويّ، وكان الفارس دانسيني سيحضر. أنت تعلمين جيداً أنهما أكثر من أحب، وعندما حانت الساعة التي كان يجب أن أكون معهما، انقبض قلبي رغماً عني، وكنت مستاءة من كل شيء، وبكيت، بكيت دون أن أتمكن من التوقف. لحسن الحظ، كانت أمي قد نامت ولم ترني. أنا متأكدة أن الفارس دانسيني كان منزعجاً هو أيضاً، لكنه تسلّى بمشاهدة المسرحية وبالناس، وهذا مختلف عمّا كنت فيه.

لحسن الحظ، تحسنت حال أمي اليوم، وستزورنا السيدة

دوميرتويّ مع شخص آخر والفارس دانسيني، لكنها تأتي دائماً في وقت متأخر، وحين أبقى وحيدة لوقت طويل أشعر بملل شديد. لم تتجاوز الساعة الحادية عشرة الآن، مع أنني سأعزف على قيثارتي قليلاً، كما أنني سأستغرق بعض الوقت في ترتيب نفسي، لأنني أريد أن أكون حسنة المظهر. أظن أن الأم الرئيسة على حق حين كانت تقول إن الفتاة ما إن تدخل المجتمع حتى تبدأ تحب التبرج. لم تتملكني قط رغبة كهذه، في أكون جميلة، إلا منذ بضعة أيام، وأظن أنني لست على هذا القدر من الجمال كما كنت أعتقد، فنحن إزاء النساء المتبرجات نفقد الكثير من جمالنا. فالسيدة دوميرتويّ مثلاً، ألاحظ أن كل الرجال يجدونها أجمل مني، وهذا لا يضايقني البتة لأنها تحبني جداً، كما تؤكد لي أن الفارس دانسيني يجدني أجمل منها، وهذه لباقة منها! لا بل كانت مرتاحة لقول ذلك. لكنني لا أفهم تماماً لماذا تخصني بكل هذا الحب، وهو... آه... إنه يسعدني كثيراً، وأحسّ أنني يكفي أن أنظر إليه كي أكون جميلة. كنت سأنظر إليه باستمرار لولا خشيتي من أن تلتقي نظراتنا، ففي كل مرة يحدث ذلك أشعر بالارتباك، وهذا ما يحيرني ويشعرني بشيء يشبه الألم، ولكن لا بأس.

الوداع يا صديقتي العزيزة، سأبدأ الآن زينتي. أحبك دائماً كالعادة.

*باريس، في ١٤ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الخامسة عشرة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

شرف كبير من جانبك ألا تدعيني لمصيري البائس، فالحياة التي أعيشها هنا متعبة حقاً، من فرط راحتها وتشابه أيامها المملّ. وعندما قرأت رسالتك واطلعت على تفاصيل نهارك الرائع، راودتني نفسي عشرين مرة لخلق حجة من الحجج كي آتي على جناح السرعة لأجثو عند قدميك وأطلب هناك خيانة فارسك الذي لا يستحق سعادته على كل حال. هل تعلمين أنك جعلتني أغار منه؟ كيف تتحدثين عن انفصال نهائي؟ إني أستنكر هذا القَسَم الذي صدر عنا في لحظة هذيان، ونحن لسنا جديرين به ما دمنا لا نستطيع المحافظة عليه. آه... ليتني أستطيع الانتقام ذات يوم بين ذراعيك من الألم الذي سبّبته لي سعادة الفارس من غير قصد. أنا غير جدير بها، أعترف لك بذلك. يعتريني الغضب حين أفكر أن هذا الرجل تمكن، دون أن يشغل تفكيره أو أن يبذل أي جهد، وباتباع غريزة قلبه فحسب، من أن يجد الهناء الذي لم أتمكن من بلوغه. آه... سوف أعكّر عليه هذه السعادة! عديني بأن أعكرها. وأنتِ نفسكِ، ألا تشعرين بالسخط لأنك تبذلين نفسك كي لا تخونيه وهو أسعد منك؟ تظنين أنه بين قيودك والعكس صحيح! هو ينام هانئاً، بينما تسهرين على ملذاته، ماذا كنت ستفعلين أكثر لو كنت جاريته؟

اسمعي يا جميلتي، أنا لا أشعر بأية غيرة، وإن كنت تقيمين العلاقات مع عدة أشخاص، ولا أرى في عشاقك هؤلاء سوى خلفاء للإسكندر الأكبر، غير قادرين على الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية التي

أسودها وحدي. ولكن، أن تمنحي أحدهم نفسك كلياً، ويكون هناك رجل سعيد مثلي! لن أحتمل ذلك، لا تأملي بأن أحتمل. فإما أن تستعيديني، أو أن تختاري لك رجلاً آخر، ولا تخوني عن نزق الصداقة التي لا تنفصم عراها وأقسمنا عليها نحن الاثنين.

وهذا كافٍ من دون شك كي أشكو من الحب. ها أنت ترين أنني أوافقك الرأي وأعترف بأخطائي. إذا كان الحب هو عدم القدرة على العيش من دون امتلاك ما نرغب، والتضحية في سبيله بوقتنا ومسراتنا وحياتنا، فأنا حقيقة عاشق ولم أتقدّم بعد. وليس لدي ما أخبرك به عن هذا الموضوع، باستثناء حدث يشغل بالي كثيراً ولا أدري بعد ما إذا كان يجدر بي أن أخشاه أو آمل منه.

أنت تعرفين خادمي، كنز الدسائس هذا، وهو ممثل حقيقي. وتفهمين جيداً أن لديه تعليمات بأن يكون عاشقاً للخادمة ويدير رؤوس الناس. هذا اللعين أسعد مني، فلقد نجح في مسعاه. اكتشف للتوّ أن السيدة دوتورفيل قد أوكلت إلى أحد خدمها مهمة الحصول على معلومات عن سلوكي، لا بل أن يتبعني في مشاويري الصباحية قدر استطاعته دون أن يلفت النظر. ما عساها تتوقع تلك المرأة؟ أهكذا تجرؤ أشد النساء تواضعاً على القيام بأعمال لا نكاد نسمح لأنفسنا بها؟ أحلّفك، ولكن قبل أن أفكر في الانتقام من هذا المكر النسائي، لنحاول أن نحوّل بالوسائل نفسها هذه الحيلة لمصلحتنا. حتى الآن لم يكن لهذه المشاوير أي هدف، لهذا عليّ أن أجعل لها هدفًا، وهذا يستحق كل اهتمامي. أتركك يا عزيزتي كي أفكر في ذلك. الوداع يا صديقتي الجميلة.

*من قصر... في ١٥ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السادسة عشرة

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كورنيّ

آه، أخيراً يا عزيزتي صوفي، إليك الأخبار! ربما يجدر بي ألا أخبرك بها، ولكن يجب أن أتحدث عنها مع أحد ما وهذا أقوى مني. هذا الفارس دانسيني يبلبل أفكاري بحيث لا أستطيع الكتابة، ولا أعرف بماذا أبداً. منذ أن أمضيت تلك السهرة الجميلة معه ومع السيدة دوميرتويّ لم أحدثك عنه. لم أكن أرغب في أن أخبر أحداً، غير أنني أفكر فيه دائماً. منذ ذلك الحين وهو حزين، شديد الحزن، إلى حد آلمني. وحين سألته عن السبب، رفض الاعتراف، لكنني أراه كئيباً. والبارحة أيضاً، كان أشد كآبة من المعتاد، لكن ذلك لم يمنعه من أن يغني معي بكل لطف كالمعتاد. وفي كل مرة كان ينظر إليّ كان قلبي ينقبض. وبعد أن انتهينا من الغناء، ذهب ووضع قيثارتي في علبتها، ثم حمل إليّ المفتاح، ورجاني أن أعزف مرة أخرى في المساء حين أكون وحدي. لم أشكّ في شيء، ولم أرغب في ذلك، لكنه ألحّ كثيراً حتى وافقت في النهاية، فقد كانت لديه أسبابه. وبالفعل، حين ذهبت إلى غرفتي وخرجت خادمتي، فتحت قيثارتي فوجدت بين أوتارها رسالة مطوية وموقعة باسمه. آه لو تعلمين كل ما قاله لي، فمنذ أن قرأت رسالته وأنا في سعادة غامرة تمنعني من التفكير في أي شيء آخر. أعدت قراءتها في الحال أربع مرات متتالية. ثم خبأتها في مكتبي، ورحت أردّدها في قلبي حتى طار النوم من أجفاني. ما إن أغمض عينيّ حتى أراه أمامي يقول لي بنفسه كل ما قرأته. لم أغفُ حتى ساعة متأخرة، وما إن استيقظت

حتى أخذت رسالته من جديد وبدأت أعيد قراءتها على راحتي. حملتها إلى سريري، وقبّلتها كما لو كانت... ربما لا يجوز تقبيل رسالة هكذا، ولكن لم أستطع منع نفسي من ذلك.

أنا الآن يا صديقتي سعيدة جداً، لكنني في حيرة من أمري، لأنه لا ينبغي بالتأكيد أن أردّ على هذه الرسالة. أعرف أن ذلك غير لائق، لكنه يطلب مني جواباً. وإذا لم أردّ فسوف يزداد حزناً، وهذا شيء محزن بالنسبة إليه! بماذا تنصحينني؟ ولكنك لا تعرفين أكثر مني. أرغب في أن أتحدث بهذا الشأن إلى السيدة دوميرتويّ التي تحبني كثيراً. أودّ حقاً أن أخفّف عنه، لكنني لا أريد أن أقوم في الوقت نفسه بعمل غير لائق. يوصوننا أن نكون طيبي القلب، ثم يحذروننا حين يتعلق الأمر برجل! وهذا ليس إنصافاً على الإطلاق. أليس الرجل قريباً لنا كالمرأة وأكثر؟ أليس آباؤنا كأمهاتنا، وأشقاؤنا كشقيقاتنا؟ ويبقى أخيراً الزوج. مع ذلك، إذا ما أتيت تصرفاً منكراً أخشى أن يفكر السيد دانسيني فيّ بالسوء! آه، أفضل في هذه الحالة أن يبقى كئيباً! سيكون لديّ الوقت الكافي، لأنه كتب بالأمس ولست مجبرة على الكتابة اليوم، كما أنني سألتقي السيدة ميرتويّ هذا المساء وربما أتشجّع وأحكي لها كل شيء. وإذا فعلتُ ما تمليه عليّ فلن ألام على شيء. وقد تقترح عليّ أن أكتب إليه قليلاً كي لا يحزن كثيراً. آه، أنا في همّ وضيق!

وداعاً يا صديقتي الطيبة، قولي لي رأيك دائماً.

*من... في ١٩ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السابعة عشرة

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

آنستي، قبل أن أنساق بداعي السرور أو الحاجة إلى الكتابة إليك، أبدأ التوسل إليك لكي تصغي إليّ، إذ أشعر بالحاجة إلى سعة صدرك كي أجرؤ على التصريح بمشاعري. لأنني إذا أردت أن أبرّرها فحسب، فذلك سيكون من دون جدوى، ما عساي أفعل في نهاية الأمر سوى إظهار مشاعري؟ وماذا أقول لك سوى أن نظراتي وارتباكي وسلوكي، لا بل حالتي الصحية، قد قالت لك ذلك قبلي؟ أجل! ولماذا تغضبين من مشاعر أنت التي خلقتها؟ وكل ما هو صادر منك جدير بأن يردّ إليك، وإن كان مشتعلاً كروحي فهو نقيّ كروحك. هل أذنبت حين عرفت تقدير حسن وجهك ومواهبك الجذابة ومفاتنك الخلابة وهذه البراءة التي تلامس القلب وتضفي قيمة لا تقدر بثمن على صفاتك الرائعة؟ كلا، من دون شك، ولكن قبل أن أكون مذنباً أو تعيساً، هذا هو المصير الذي ينتظرني في حال رفضتِ قبول تكريمي. وهذا أول ما نبع من قلبي. ولولاك لكنت ما أزال مرتاحاً، ولكن ليس سعيداً. حين شاهدتك، لم أعد أعرف الراحة ورحت أرتاب في سعادتي. مع ذلك، أنت تعجبين من تعاستي وتسألينني عن السبب، لا بل ظننت في بعض الأحيان أنها تعذّبك. آه، قولي لي كلمة وسيكون هنائي صنع يديك! ولكن، قبل أن تنطقي بها، فكري أن كلمة واحدة يمكن أن تسبب تعاستي. كوني إذاً الحكم في مصيري، فبكلمة منك، إما أن أكون سعيداً إلى الأبد أو تعيساً إلى الأبد. بين أي أيدٍ أغلى من يديك يمكن أن أعلّق مصيري؟

أنهي رسالتي كما بدأتها بالرجاء إليك أن تردّي على رسالتي. رفضك سيحملني على الظن أنني أهنتك، لكن قلبي يؤكد لك احتراماً يعادل الحب.

ملاحظة: يمكنك استخدام الوسيلة نفسها التي استخدمتها في إيصال هذه الرسالة. يبدو لي أنها مضمونة وملائمة.

من... في ١٨ أغسطس/آب ١٧٭٭.

الرسالة الثامنة عشرة

من سيسل دوڤولانج إلى صوفي كارنيّ

ماذا يا صوفي، تلقين باللائمة عليّ سلفاً عمّا سأفعله؟ عندي من القلق ما يكفي وها أنت تزيدينه. تقولين إنه من الواضح وجوب عدم الرد، لكنك تتحدثين على هواك، كما أنك لا تعرفين حقيقة الأمر، ولستِ هنا كي تري. أنا متأكدة أنك لو كنت مكاني لفعلت مثلي. صحيح أنه عموماً يجدر بنا عدم الردّ، وقد لاحظت في رسالتي البارحة أن ليس في نيتي الرد، لكنني لا أعتقد أن أحداً غيري وجد نفسه في مثل حالتي.

كان عليّ أن أقرر وحدي، إذ إن السيدة دوميرتويّ التي كنت أنتظر رؤيتها البارحة لم تأتِ. كل شيء يجري لمعاكستي. هي التي كانت السبب في التعرف إليه، وأنا لم أرَه ولم أتحدث إليه إلا برفقتها. هذا لا يعني أنني حاقدة عليها، لكنها تتخلى عني الآن في وقت الحيرة، أنا أستحق الرثاء!

تصوّري أنه جاء البارحة كالمعتاد. كنت مضطربة جداً بحيث لم أجرؤ على النظر إليه، ولم يتمكن من أن يكلمني لأن أمي كانت حاضرة. وكنت أخشى من أن يتكدّر عندما سيرى أنني لم أكتب إليه. لم أكن أعرف ما يجب أن أفعل. سألني بعد وقت وجيز ما إذا كنت أريد أن يحضر لي قيثارتي. كان قلبي يضرب بشدة، بحيث لم يكن أمامي سوى أن أجيب بالإيجاب. حين عاد كانت الحال أسوأ بكثير، ولم أنظر إليه إلا لبرهة قصيرة. أما هو فلم يكن ينظر إليّ، لكنه كان يبدو مريضاً. لقد آلمني ذلك جداً. بدأ يدوزن أوتار القيثارة، وعندما سلّمني إياها قال: آه يا آنستي! لم يقل سوى هاتين الكلمتين ولكن بنبرة شديدة الاضطراب وهذا ما زاد انفعالي. بدأت أعزف على قيثارتي دون أن أعرف ماذا أفعل. سألت أمي ما إذا كنا سنغني أم لا، اعتذر مدعياً توعكاً أصابه، أما أنا فلم يكن لدي أي عذر وكان لا بد من أن أغني. كم تمنيت أن أفقد صوتي! اخترت عمداً لحناً لا أعرفه، إذ كنت متأكدة أنني غير قادرة على أن أغني شيئاً، وكان سيلاحظ عليّ شيئاً ما. لحسن الحظ، وصلت في تلك اللحظة إحدى الزائرات، فطلبتُ إليه إعادة القيثارة إلى مكانها. خفتُ أن يغادر على الفور، لكنه عاد.

بينما كانت أمي تثرثر مع السيدة التي جاءت، أردت أن أنظر إليه للحظة واحدة، فالتقت نظراتنا وكان من المستحيل أن أشيح ببصري عنه. بعد قليل، لمحت دموعه تنساب، واضطر أن يبعد وجهه كي لا يراه أحد. لم أستطع تمالك نفسي، وشعرت بأنني سأبكي أنا أيضاً. خرجت على الفور وكتبت بقلم رصاص على ورقة صغيرة: «لا تحزن أرجوك، أعدك بأن أكتب إليك». لا يمكن أن تقولي إن في الأمر سوءاً، لكن ذلك كان أقوى مني. وضعت ورقتي بين أوتار القيثارة

كما سبق ووضع رسالته وعدت إلى الصالون. شعرت بالراحة أكثر، وما أخّرني هو وجود هذه السيدة، لكنها لحسن الحظ كانت تستعجل الذهاب في زيارة. ما إن خَرَجتْ حتى طلبتُ منه استئناف درس الموسيقى. رجوته أن يذهب لإحضار القيثارة، وبدا واضحاً أنه لا يشك في الأمر، لكنه حين عاد كان في غاية السرور! عندئذ وضع قيثارتي قبالتي بحيث لا ترانا أمي، أمسك بيدي وضغط عليها، ولكن بطريقة! لم يستغرق الأمر سوى لحظة حتى سحبتها. وهكذا، لا ألام على شيء، لا تتخيلي أي سعادة أحدثَتها في نفسي.

الآن يا صديقتي العزيزة، ترين جيداً أنني لا أستطيع أن أعفي نفسي من الكتابة إليه بعد أن وعدته بذلك، كما أنني لا أريد أن أسبب له الكآبة من جديد، لأنني أتألم أكثر مما يتألم. ولو كان في الأمر ما يسيء إلى أحد لما فعلته. أي سوء نرتكب حين نكتب لإنسان كي نمنع عنه التعاسة؟ ما يحيرني هو أنني لا أعرف كيف أكتب رسالتي هذه، لكنه سوف يشعر حتماً بأن الذنب ليس ذنبي. وأنا على يقين أن كل ما يصدر عني سوف يسعده دائماً.

وداعاً يا صديقتي العزيزة، إذا رأيتِ أنني على خطأ فقولي لي، لكن لا أظن. كلما اقتربت اللحظة التي سأكتب إليه فيها خفق قلبي دون أن أفهم السبب، مع ذلك، يجب عليّ أن أكتب لأنني وعدته. الوداع.

*من... في ٢٠ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة التاسعة عشرة

من سيسيل ڤولانج إلى الفارس دانسيني

كنت حزيناً جداً بالأمس يا سيدي، وقد آلمني حزنك أشد الألم بحيث استسلمت ووعدتك بالرد على رسالتك. واليوم أيضاً، ما زلت أتألم من أجلك، مع ذلك، لا أريد أن أخلف بوعدي بما أنني وعدتك. وهذا ما يجب أن يثبت لك الصداقة التي أكنّها لك. الآن وقد عرفت، آمل ألا تطلب مني المزيد. كما آمل ألا تخبر أحداً بأنني كتبت إليك، لأنني سألام بالتأكيد على فعلتي ولا أريد مزيداً من الأسى. وآمل بصورة خاصة ألا تكوّن عني أنت بالذات فكرة سيئة، ما سيزيد في عذابي أكثر من أي شيء. وبوسعي أن أؤكد لك أنني لم أراعِ أحداً غيرك هكذا. كم أودّ ألا أراك حزيناً كما كنت، لأن ذلك سيزيل كل سرور لديّ. ها أنت ترى يا سيدي أنني أتحدث إليك بكل صدق. أنا لا أطلب منك سوى أن تدوم صداقتنا على الدوام، ولكن أرجوك، لا تكتب إليّ بعد الآن أبداً.

لي الشرف...

*من... في ٢٠ أغسطس/آب ١٧**‎.*

الرسالة العشرون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

آه! أيها المحتال، أنت تتملّقني خوفاً من أن أسخر منك! لا تخف، أنا أسامحك. فقد كتبتَ إليّ حماقات كثيرة بحيث أسامحك

على التعقل الذي تُلزمك به صديقتك الرئيسة. لا أظن أن فارسي سيكون أكثر تسامحاً مني، فهو رجل لا يؤثر تجديد عقدنا، ولا يجد ما يُمتع في فكرتك المتهورة. مع ذلك، فقد ضحكت كثيراً منها، وكنت فعلاً مستاءة، إذ كان يجب أن أضحك وحدي. لو كنتَ هنا لما عرفتَ إلى أين يمكن أن تقودني تلك الفكاهة. ولكن كان لديّ الوقت للتفكير، فتسلحت بالصرامة. ولا يعني هذا أنني أرفض طلبك نهائياً، ولكنني أرجئه إلى حين، وأنا أفعل عين الصواب. ربما سأضع حينئذٍ شيئاً من الكبرياء، ولكن متى بدأت اللعبة، لا نعرف متى تتوقف. سأكون امرأة يمكن أن تقيّدك من جديد وتجعلك تنسى رئيستك، وإذا كنتُ، أنا اللعوب، فسأثير اشمئزازك من الفضيلة، سوف ترى أية فضيحة! ولتفادي هذا الخطر، إليك شروطي:

عندما تنال حسناءك الورعة وتستطيع أن تقدم لي الدليل، تعال على الفور وسوف أكون مُلكك. أنت لا تجهل أنه في القضايا المهمة، لا تُقبل سوى الأدلة المكتوبة. وبهذا الإجراء، سأشعر بأنني مكافأة بدلاً من أن أكون تعزية، وهذه الفكرة تروق لي أكثر من غيرها. ومن ناحية أخرى، سوف يكون نجاحك مدخلاً سهلاً نحو الخيانة. تعال إذاً، وأحضر لي معك عربون نصرك، أشعر جدّياً بكامل الفضول لمعرفة ما يمكن لهذه المرأة التي تتظاهر بالحشمة أن تكتب بعد مرحلة كهذه، وبأي ستار ستغطي عملها بعد أن رفعت كل ستار عن جسدها. الأمر متوقف عليك، فأنت ترى أنني راهنت بثمن غالٍ، لكنني أحذرك من أنني لن أخفض السعر. بالانتظار يا عزيزي الفيكونت، ستراني وفية لفارسي المحبوب، وأتسلّى بجعله سعيداً، على الرغم مما يحدثه ذلك في نفسي من كآبة.

أظن أنه كان سيجد خصمًا خطيرًا، لو كانت أخلاقي تسمح لي.

إنها الصغيرة ڤولانج، هذه الفتاة تفقدني صوابي، أعشقها حقيقة. إما أنني مخطئة، وإما أنها ستغدو من أبرز نساء العصر. أرى قلبها الصغير ينمو، وهذا مشهد رائع. تعشق منذ الآن رفيقها دانسيني بهيام، لكنها لا تعرف شيئاً عن ذلك بعد. هو أيضاً، رغم عشقه لها، ما يزال خجولاً بسبب صغر سنه، ولا يجرؤ على تعليمها الشيء الكثير. كلاهما يحبني حباً جمّاً، الصغيرة على وجه الخصوص تشعر برغبة قوية في أن تشاطرني سرّها. لاحظتُ منذ بضعة أيام أنها مغتمّة، وكان بإمكاني أن أسدي لها خدمة كبيرة بمساعدتها قليلاً، لكنني لا أنسى أنها طفلة ولا أريد أن أورط نفسي. حدثني دانسيني بوضوح أكثر، لكنني حسمت أمري من ناحيته ولا أريد أن أصغي إليه. أما الصغيرة فأنا أميل إلى اعتبارها تلميذتي، هذه خدمة أقدّمها إلى جيركور الذي يتيح لي الوقت لأنه باقٍ في كورسيكا حتى شهر أكتوبر (تشرين الثاني)، وأعتزم على تهيئة امرأة ناضجة له عوضاً عن تلميذة «داخلي» ساذجة. يا لها من وقاحة حين يجرؤ رجل على النوم هانئاً مطمئناً وهناك امرأة تشتكي منه ولم تنتقم حتى الآن؟ آه لو كانت الصغيرة هنا الآن، لعرفت ماذا سأقول!

وداعاً أيها الڤيكونت، أمسية سعيدة، أتمنى لك النجاح. ولكن حباً بالله، تقدّم إلى الأمام قليلاً، وفكّر أنك إذا كنت لم تنل هذه المرأة، فسوف تحمرّ وجوه النساء الأخريات خجلاً لأنهن نلنك.

من. . . في ٢٠ *أغسطس/آب* **١٧**.

الرسالة الحادية والعشرون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

أخيراً، يا صديقتي الجميلة، قمتُ بخطوة إلى الأمام، وإن لم توصلني إلى الهدف إلا أنها وضعتني على الطريق الصحيح وبدّدت الخوف من أن أكون تائهاً ضالّ السبيل. فقد أعلنتُ حبي أخيراً، وعلى الرغم من أن الصمت المطبق كان الردّ، إلا أنني حصلت على الجواب الأقل غموضاً والأكثر سروراً. ولكن دعينا لا نستبق الأحداث ولنعد إلى البداية. أنت تذكرين أنها أرسلت من يتجسّس على تحركاتي، لذلك أردت أن أجعل هذه الوسيلة المشينة عملاً خيرياً علنياً، وإليك ما فعلت: كلّفت خادمي الأمين بالعثور على بعض البؤساء في الأنحاء ممن يحتاجون إلى المساعدة. لم تكن بالمهمة الصعبة، فقد أخبرني بعد ظهر أمس أنه سيتم هذا الصباح الحجز على أثاث عائلة فقيرة بكامله لأنها لم تتمكن من دفع الضريبة. كما تأكدت بنفسي أنه لا توجد في ذاك البيت أية فتاة أو أية امرأة يمكن أن يجعل سنّها أو وجهها عملي موضع شبهة. وحين تأكدت من المعلومات، أعلنت على العشاء نيتي في الذهاب إلى الصيد في اليوم التالي. وهنا، يجدر بي أن أنصف صديقتي، لا شك أنها شعرت بالندم على الأوامر التي أصدرتها ولم تقوَ على كبح فضولها، فعمدتْ على مخالفة رغبتي. وقالت إن الجو سيكون حاراً جداً، وإنني أخاطر في الوقوع فريسة المرض، ولن أصطاد أية طريدة وسوف أتعب نفسي من دون جدوى. أثناء هذا الحديث، كانت عيناها تتكلمان أكثر مما تريد أن تقول، وجعلتني أدرك أنها تريدني

أن أصدّق دواعيها الحميدة. لكنني لم أتراجع كما تعرفين، وقاومت محاضرتها ضد الصيد والصيادين، وساد جو من الكآبة فوق وجهها الملائكي طوال السهرة. خشيت للحظة أن تلغي أوامرها وتخرّب حيلتي، لكنني لم أحسب حساب فضول المرأة، وكنت مخطئاً، إذ طمأنني خادمي في المساء عينه ونمت نوماً هانئاً.

عند مطلع النهار، نهضت وذهبت. لم أكن ابتعدت أكثر من خمسين خطوة عن القصر حين لمحت جاسوسها يتبعني. مضيت في الصيد وأنا أمشي في الحقول متجهاً إلى القرية المقصودة. ضحكت كثيراً لأن المسكين كان يركض ورائي لا يجرؤ على اتباع طريقي نفسه، بل يضطر أن يمشي ثلاثة أضعاف ما أمشيه. من شدة ما أتعبته من الركض، أنا نفسي شعرت بالحرّ الشديد، فجلست أرتاح تحت شجرة. وبلغت به الوقاحة أن انسلّ وراء دغل لا يبعد عني عشرين خطوة، وجلس هو أيضاً. وقد راودتني نفسي أن أطلق عليه النار، وإن كانت حبات خردق، إلا أنها كانت كافية لتلقّنه درساً عن مخاطر الفضول. لحسن الحظ، تذكرت مجدداً أنه مفيد لي، لا بل ضروري لخطتي، وهذا ما أنقذه.

حين وصلت إلى القرية شاهدت جمعاً، تقدّمت وسألت. رُويت لي القصة، فاستدعيت جابي الضرائب، وقد استولت عليّ عاطفة الكرم. دفعت له بشهامة ستاً وخمسين ليرة، لولاها كان سيُجبر خمسة أشخاص على البؤس والبقاء من دون مأوى. بعد هذا العمل البسيط، يمكنك أن تتخيلي أية جوقة من التكريم والتقدير اجتمعت من الذين أحاطوا بي هناك! وراح رب الأسرة يذرف الدموع عرفاناً بالجميل، دموع وجهه الوقور الذي كادت تجعله أمارات اليأس مخيفاً. كنت أراقب هذا المشهد عندما جاء فلاح

أصغر سناً يقود بيده امرأة وطفلين، تقدّم نحوي بخطوات سريعة وقال لهم: «لنركع جميعنا أمام هذه الصورة المرسلة من الله». وفي اللحظة نفسها، أحاطت بي العائلة وركعت حولي عند قدميّ. أعترف لك بتخاذلي، فقد امتلأت عيناي بالدموع، وشعرت في نفسي بحركة لا إرادية لكنها لذيذة. تعجبت من السرور الذي نحسّ به أثناء عمل الخير، وأميل إلى الظن أن من نطلق عليهم اسم المحسنين ليس لهم الفضل حسب ما يقولون. مهما يكن، فقد وجدت من الإنصاف أن أدفع لهؤلاء الناس مقابل السعادة التي منحوني إياها للتوّ. أخذت من جيبي عشر ليرات ذهبية وأعطيتهم إياها، وبدأوا يشكرونني من جديد، ولكن ليس بالدرجة نفسها من الحرارة. إذ كان الأثر الأقوى في عملي الأول الحقيقي، أما ما تلاه فلم يكن سوى تعبير بسيط عن الامتنان والدهشة من هذه التبرعات الفائضة عن الحاجة.

وسط هذه الابتهالات من الشكر والعرفان، كنت أشبه ببطل مسرحية في مشهد الختام. وكان الجاسوس الوفيّ حاضراً بين الجمع، وبذلك حققت هدفي. انسحبتُ من بينهم وعدتُ إلى القصر. كان كل شيء محسوباً بدقة، وهنأت نفسي، إذ إن هذه المرأة تستحق كل ذاك الاهتمام الذي سيشكّل ألقابي لديها، وأكون بطريقة ما دفعت مقدماً دون أن يكون هناك ما ألام عليه.

نسيت أن أقول لك إنني، وكي أستغل كل شيء لمصلحتي، طلبت من أولئك الناس أن يصلّوا إلى الله من أجلي كي تنجح مشاريعي. سترين ما إذا كانت صلواتهم قد استجيبت بطريقة ما. هناك من ينبّهني أن العشاء جاهز، سيفوت الأوان على إرسال هذه الرسالة إليك إذا لم أنهها بعد العشاء. سيصلك الباقي في الرسالة

التالية كالعادة، وأنا منزعج لأن ما تبقى هو الجزء الأفضل. وداعاً يا صديقتي الجميلة. أنت تسلبين مني لحظة من متعة رؤيتها.

*من... في ٢٠ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثانية والعشرون

من السيدة دوتورڤيل إلى السيدة دوڤولانج

سيدتي، سوف يرتاح بالك حين ستتعرفين على شيَم السيد ڤالمون التي تتناقض، كما يبدو لي، مع جميع تلك الصفات التي نقلوها إليك. كم هو مؤسف أن نكون مجحفين بحق أي كان، وكم هو محزن ألا نرى سوى الرذائل لدى أولئك الذين يتمتعون بالمزايا اللازمة لكي تحببنا بالفضيلة. ربما تحتاجين إلى سعة الصدر كي تعيدي النظر في حكمك القاسي، ويبدو لي أن السيد ڤالمون يستحق هذه الحظوة، لا بل من الإنصاف قول ذلك، وإليك الأسباب:

لقد قام هذا الصباح بإحدى جولاته التي يمكن أن تجعلنا نظن أنها تهدف إلى أحد مشاريعه في الأنحاء، كما خطر في بالك، وألوم نفسي لأنني أخذتها على محمل الجدّ. لحسن حظه، أو بالأحرى لحسن حظنا كي لا نظلمه، كان على أحد خدمي أن يتبعه على الطريق نفسه. وبسبب ذلك، أشبع فضولي الظنون، إنما السعيد. أخبرني بأن السيد دوڤالمون بينما كان يعبر القرية، التقى عائلة بائسة كان يُحجز أثاثها بسبب عدم دفع الضرائب، فسارع ليس إلى دفع الدين فحسب، بل إلى التبرع بمبلغ كبير. لقد كان خادمي شاهداً على عمل الفضيلة ذاك، وأخبرني أيضاً بأن الفلاحين كانوا يتحدثون فيما بينهم أن خادم

السيد ڤالمون قد تقصّى البارحة أخبار سكان القرية المحتاجين. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما قام به ليس شفقة عابرة أملتها عليه المناسبة، بل مشروع مدروس لعمل الخير، أو ميل للإحسان، وهذه أجمل فضيلة في أجمل النفوس. سواء كان ذلك مصادفة أو مقصوداً، يبقى هذا العمل شريفاً يستحق كل ثناء. بمجرد سماع هذه الحكاية تأثرت كثيراً إلى حد البكاء. وأضيف أيضاً أنني حين حدثته عن هذا العمل الذي لم يذكره لي، بدأ يدافع عن نفسه، وبدا كمن لا يعطيه كل هذه الأهمية، وهذا ما جعله يعلو في نظري أكثر لتواضعه.

والآن، قولي لي يا سيدتي المحترمة، إذا كان السيد ڤالمون بالفعل فاسقاً لا أمل منه ويتصرف على هذا النحو، فماذا يبقى للناس الشرفاء؟ ماذا؟! هل يشارك الأشرار الأخيار في متعة عمل الخير المقدّسة؟ هل يرضى الله أن تتلقى أسرة من يد آثم شرير إعانات يعود الفضل فيها للعناية الإلهية؟ وهل يكون مسروراً لسماع أفواه نقية توزّع بركاتها على منبوذ؟ كلا، أفضّل الظن بأن الخطايا مهما طالت ليست أبدية، ولا أصدّق أن من يعمل الخير هو عدو الفضيلة. ربما السيد ڤالمون ليس مثلاً آخر على خطر العلاقات. أتوقف عند هذه الفكرة التي تروق لي، لأنها يمكن أن تساعد في فهمه، كما تجعلني أتمسك بصداقتك الغالية مدى الحياة.

ملاحظة: سنذهب بعد قليل، السيدة روزموند وأنا، لزيارة تلك العائلة البائسة ونضيف إعاناتنا المتأخرة إلى إعانات السيد ڤالمون، وسنصحبه معنا كي نتيح لهؤلاء الناس الطيبين متعة رؤية المحسن إليهم مرة أخرى. هذا كل ما تركه لنا لنفعله.

*من... في ٢٠ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثالثة والعشرون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

أستأنف قصتي: بعد أن اغتسلت سريعاً، عدت إلى الصالون حيث كانت جميلتي تطرّز سجادة صغيرة، بينما كان كاهن المنطقة يقرأ الصحيفة لعمتي العجوز. جلست بالقرب من صديقتي الحائكة. نظرت إليّ نظرات أكثر لطفاً من المعتاد، استنتجت منها أن خادمها قد حكى لها عن مهمته. وبالفعل، لم تستطع محبوبتي الفضولية أن تحتفظ بالسر لوقت أطول، فقاطعت من دون خجل الكاهن المحترم وقالت: «أنا أيضاً لدي خبر مهم أقوله». وبدأت في الحال تروي مغامرتي في القرية بجميع تفاصيلها كأنها تثني على ذكاء جاسوسها. يمكنك أن تتخيلي كم أبديت تواضعي، ولكن من يمكنه أن يوقف امرأة تمتدح من تحب دون أن ترتاب في أمره؟ قررت أن أتركها تسترسل كأنها تقرّظ قديساً. أثناء ذلك الوقت، كنت أراقب، ليس دون أمل، كل ما ينمّ عنها من حب: نظرتها الحيّة، حركتها التي أصبحت أكثر حرية، وبصورة خاصة هذه النبرة في صوتها التي كانت بتهدّجها الملحوظ تفضح انفعال روحها. وما كادت تنهي روايتها حتى قالت لي عمتي: «تعال يا ابن أخي كي أقبّلك». شعرت عندذاك بأن الواعظة الحسناء لا تستطيع أن تمنع نفسها من تقبيلي هي أيضاً. مع ذلك، أرادت أن تتهرب، لكنها كانت بعد قليل بين ذراعيّ. لم تقوَ على المقاومة، بل بقيت عندها القوة كي تتمالك نفسها فحسب، وكنت كلما راقبت هذه المرأة ازداد اشتهائي لها أكثر. سارعتْ إلى حياكتها، واستأنفت التطريز، لكنني لاحظت جيداً أن يدها المرتجفة لم تسمح لها بالاستمرار.

بعد العشاء، أرادت هي وعمتي الذهاب لرؤية الفقراء الذين ساعدتهم «بكل تديّن»، ورافقتهما. سوف أعفيك من وصف هذا المشهد الثاني من عرفان الجميل والمديح. أما قلبي المشغول بذكرى عذبة، فقد كان يستعجل العودة إلى القصر، وأثناء طريق العودة كانت جميلتي أكثر شروداً من المعتاد ولم تنبس ببنت شفة. وأنا أيضاً لزمت الصمت أفكر في استغلال التأثير الذي تركه حادث اليوم. وحدها السيدة روزموند كانت تتحدث ولا نردّ عليها إلا نادراً وباقتضاب. لا شك أننا أضجرناها. لقد استخدمتُها في مشروعي ونجحت. وحين ترجلنا من العربة، ذهبتْ إلى جناحها وتركتنا بمفردنا -جميلتي وأنا- في صالون خافت الأضواء، عتمته العذبة تشجع الحب الخجول. لم أجد صعوبة في توجيه الحديث إلى حيث أريد، وقد أفادتني حماسة الواعظة الحبيبة في ذلك أكثر من براعتي. قالت لي وهي تنظر إليّ بعذوبة: «حين يكون المرء جديراً بعمل الخير إلى هذا الحد، كيف يمكن أن يمضي حياته في ارتكاب السوء؟» فقلت لها: «أنا لا أستحق هذا المديح ولا هذا النقد، ولا أفهم كيف لم تكشفيني حتى الآن، مع أنك في غاية الذكاء، قد تضرّ بي ثقتي عندك، أنت جديرة بها بحيث يستحيل أن أرفض منحك إياها. لسوء الحظ، ربما تجدين سرّ سلوكي في طبيعة سهلة، كنت محاطاً بأناس فاسدين فقلّدت رذائلهم، ولعلي تنازلت عن شيء من كرامتي كي أتفوق عليهم. لقد أغرتني قدوة الفضيلة، دون أن آمل في بلوغ مستواك، لكنني حاولت على الأقل أن أحذو حذوك. أجل! ولعل العمل الذي تمتدحينه اليوم يفقد كل قيمته بنظرك لو عرفت السبب الحقيقي!» ها أنت ترين يا صديقتي كم كنت قريباً من الحقيقة هنا. وتابعت قائلاً: «إذا ما نال هؤلاء المساكين مساعدتي فلا يعود الفضل لي أنا، بل لك، وحين

تظنين أنك ترين عملاً يستحق المديح، فإنني كنت أحاول العثور على وسيلة لأنال الإعجاب، ويجب أن أقول الحقيقة، لم أكن سوى الوكيل الضعيف على ألوهية أعبدها فيكِ (هنا حاولتْ أن تقاطعني، لكنني لم أدعها تفعل) وأضفت: في هذه اللحظة بالذات، إن سرّي يفلت مني من قبيل التخاذل. وقد وعدت نفسي بأن أكتمه، وكنت أجد سعادة في أن أقدّم لفضائلك ولمغرياتك احتراماً صافياً طاهراً ستجهلينه دائماً، لكنه لا يخدع، وحين تكون تحت أنظاري هذه البراءة، لا أستطيع أن ألوم نفسي على مخادعات مذنبة تجاهك. لا تعتقدي أنني أهينك بأمل مجرم، سأكون تعيساً، وأنا أعلم ذلك، لكن عذابي سيكون عزيزاً عليّ، إذ يثبت لي مدى الإفراط في الحب، وها أنذا عند أقدامك، وألقي في صدرك آلامي الأبدية، وسأنهل منها القوة على المكابدة من جديد، وسأجد الطيبة الرؤوف، وسأعتقد أنني قد وجدت العزاء لأنك أشفقت عليّ. آه، أنت التي أعبدك، أصغي إليّ، وارثي لحالي! أغيثيني». في تلك الأثناء، كنت جاثياً عند ركبتيها أعصر يديها بين يديّ، لكنها سحبتهما حالاً، وعقدتهما فوق عينيها وقالت بلهجة يائسة: «آه، يا لي من تعيسة!» ثم انفجرت باكية. لحسن الحظ، كنت قد انسقت في عاطفتي إلى درجة أخذت معها أبكي أنا أيضاً، فاستعدت يديها وغسلتهما بدموعي، وقد كان الاحتراز ضرورياً جداً، لأنها كانت شديدة الانشغال بألمها بحيث إنها ما كانت لتكتشف شدة ألمي لو لم أعثر على هذه الوسيلة كي أخبرها به، ونجحت -فضلاً عن ذلك- في التأمل بحرية بهذا الوجه الفاتن الذي زادته الدموع جاذبية وجمالاً، فالتهب رأسي، وكدت أفقد السيطرة على نفسي إلى درجة أردت معها أن أغتنم الفرصة.

كنت قد نسيت خططي، وخاطرت بأن أضيّع سحر المعارك

الطويلة في سبيل انتصار سابق لأوانه. أجل، لقد انجذبت برغبة شاب، فكدت أعرّض مجد الانتصار على السيدة دوتورڤيل لتفاهة نيل امرأة كثمرة لجهوده. آه، فلتقبلْ، ولكن فلتعارك دون أن تكون لديها قوة على الانتصار، بل قوة على المقاومة، ولتتذوّق بحرية شعور ضعفها، وتضطر إلى الاعتراف به. ولندع الصياد في أرض الغير يقتنص الغزال الذي فاجأه، فعلى الصياد الحقيقي أن يغصبه. إنه مشروع رائع، أليس كذلك؟ ولكنني متأسف الآن لعدم تطبيقه، لولا المصادفة التي جاءت في محلها وأغاثتني من عدم احتراسي.

ثم سمعنا حركة. كان أحدهم آتياً من الصالون، ففزعت السيدة دوتورڤيل ونهضت مسرعة، أمسكت بأحد المشاعل وخرجت، وكان لا بد من تركها تفعل. لم يكن هذا الشخص إلا أحد الخدم. وما إن اطمأننت إلى ذلك حتى تبعتها، ولم أكد أخطو بضع خطوات، وشعرت بي وراءها حتى استولى عليها شعور الخوف، فألقت بنفسها داخل غرفتها وأقفلت الباب وراءها. لحقت بها، لكن الباب كان موصداً من الداخل، ومنعت نفسي من أن أطرق الباب. لو فعلتُ ذلك لكنت أتحت لها فرصة المقاومة بسهولة. وهنا، خطرت لي فكرة حسنة وبسيطة، وهي أن أحاول النظر عبر فتحة القفل. رأيت المرأة المعبودة راكعة على ركبتيها وهي سابحة في دموعها تصلّي بوجل. أي إله كانت تستدعي؟ وهل هناك إله أقوى من الحب؟ عبثاً تبحث الآن عن مساعدة خارجية، فأنا الذي سأقود مصيرها.

وبعد أن شعرت بأنني قمت بما فيه الكفاية اليوم، انصرفت إلى غرفتي وبدأت أكتب إليك. توقعت أن أراها عند العشاء، لكنها أعلنت أنها متوعكة ولزمت الفراش. أرادت السيدة دوروزموند أن تصعد لتراها، لكن المريضة الخبيثة أبلغتها أنها مصابة بصداع قوي

ولا تستطيع أن ترى أحداً. بوسعك أن تتصوري كم كانت السهرة قصيرة بعد العشاء، وأنا الآخر أصبت بصداع. انسحبت إلى غرفتي، وكتبت لها رسالة طويلة أشكو فيها هذه الصرامة، ثم نمت وأنا أنوي أن أسلّمها إياها في الصباح، لكنني لم أنم جيداً كما تلاحظين من تاريخ هذه الرسالة. نهضت وأعدت قراءة رسالتي، فلاحظت أنني لم أراقب نفسي، وأنني وضعت فيها من الحماسة أكثر من الحب، ومن النقمة أكثر من الكآبة، وكان لا بد من إعادة كتابتها من جديد. ولكن يجب أن أكون أكثر هدوءًا أيضاً.

أرى الآن طلوع النهار، وآمل بأن يجلب انتعاش الفجر معه النوم إلى أجفاني. سأذهب لأستلقي في السرير، ومهما كان سلطان هذه المرأة عليّ قوياً، أعدك بألا أشغل نفسي كثيراً بها وبأن يظل عندي وقت للتفكير فيك. الوداع يا صديقتي الحسناء.

*من... في ٢١ أغسطس/آب ١٧**، الساعة الرابعة صباحاً.*

الرسالة الرابعة والعشرون

من الفيكونت دوفالمون إلى السيدة دوتورفيل

آه يا سيدتي، أشفقي عليّ قليلاً وهدّئي من اضطراب روحي. تنازلي وقولي لي ما إذا كان ينبغي أن آمل أو أخاف. أنا الذي وضعت نفسي بين الإفراط في السعادة وبين المغالاة في سوء الحظ، لكن القلق همّ قتّال. لماذا حدثتك؟ لماذا لم أعرف أن أقاوم المتعة المتسلطة عليّ، والتي حملتني على الاعتراف لك بأفكاري؟ لقد كنت سعيداً بأن أعبدك بصمت، وكنت أتمتع على الأقل بحبي وبهذا

الشعور الطاهر الذي لا يعكر صفوه أبداً مظهر ألمك، وكان كافياً لأكون هانئاً. ولكن مصدر السعادة هذا أصبح مصدراً لليأس منذ أن شاهدت دموعك تسيل، ومنذ أن سمعت هذه العبارة القاسية: «آه يا لي من تعيسة!». سيدتي، ستظل كلماتك هذه تدوي طويلاً في قلبي، وأي قدر قاس ذاك الذي جعل أرق العواطف توحي إليك بالذعر والهول؟ وما هو هذا الخوف؟ آه ليتني أشاطرك إياه: إن قلبك الذي أسأت معرفته ليس مخلوقاً للحب، بينما قلبي الذي تتجنّين عليه باستمرار هو الوحيد الحسّاس لذلك، أما قلبك فهو دون رحمة. ولو لم يكن كذلك لما كنت رفضت منح المسكين الذي حدثك عن لواعجه كلمة مواساة، ولما كنت منعت نفسك من نظراته، عندما لا تكون لديه أي متعة سوى أن يراك، ولما كنت جعلت قلقه لعبة قاسية بإبلاغك إياه أنك مريضة دون أن تسمحي له بأن يطمئن على حالتك. بل لكنت شعرت بأن تلك الليلة نفسها التي لم تكن بالنسبة إليك سوى اثنتي عشرة ساعة من الراحة، كانت بالنسبة له قرناً من الآلام.

قولي لي: هل أستحق كل هذه القساوة المؤسفة؟ أنا لا أخشى أن أتخذك حكماً. ماذا فعلت سوى أنني استسلمت لشعور قسري أوحاه لي الجمال وبرّرته لي الفضيلة، وهو مقرون دائماً بالاحترام، وكان الاعتراف البريء به ناتجاً عن الثقة، وليس عن الأمل؟ فهل تخلّين بهذه الثقة التي أنت نفسك -كما بدا لي- سمحت لي بها، والتي استسلمت لها دون تحفظ؟ كلا، لا يمكنني أن أصدق ذلك. وإلا لافترضت وجود خطأ من جانبك، وكان قلبي سيثور لفكرة وجود خطأ واحد فيك. إنني أستنكر ملامتي، وأستطيع أن أكتبها لا أن أفكر فيها. آه! دعيني أعتقد أنك كاملة، وهذه هي المسرة الوحيدة التي تبقى لي. برهني لي أنك كاملة وأوليني عنايتك الكريمة. أي

بائس ساعدته كان بحاجة إلى المساعدة أكثر مني؟ لا تدعيني أعيش في الجنون الذي دفعتني أنت إليه، بل أعيريني عقلك، لأنك أنت من سلب مني العقل والقلب. وبعد أن أصلحتني، أكملي معروفك وأنيري أمامي السبيل.

لا أريد أن أخدعك، لن تتمكني من التغلب على حبي، بل ستعلمينني كيف أكبحه حين توجهين خطواتي وتملين عليّ أقوالي، وبذلك ستنقذينني على الأقل من خوفي التعيس من ألا أعجبك. بدّدي بصورة خاصة هذا الخوف اليائس، وقولي لي إنك سامحتني وتشفقين علي، وأكدي لي سعة صدرك. أعرف أنني لن أنال ما أطمع فيه، ولكن أطلب فقط ما أنا بحاجة إليه الآن. فهل ترفضين ذلك؟

الوداع يا سيدتي، تقبّلي بكل إخلاص عواطفي الصادقة التي لا تقلّل أبداً من احترامي الشديد لك.

*من... في ٢٠ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الخامسة والعشرون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

إليك أخبار الأمس:

في الساعة الحادية عشرة قصدتُ عمتي، ثم ذهبنا معاً الى غرفة المريضة التي كانت لا تزال راقدة. كانت عيناها ذابلتين، وأظن أنها هي أيضاً لم تنم جيداً مثلي. واغتنمت فرصة ابتعاد العمّة قليلاً كي أسلّمها رسالتي، فرفضت أن تأخذها، لكنني تركتها على السرير، ورحت بكل تأدب أقرّب كرسي عمتي العجوز التي أرادت أن تكون

قرب (ولدها الغالي): وكان لا بد من إخفاء الرسالة لكي تتجنب الفضيحة. وقالت المريضة بحماقة إنها تشعر بحرارة خفيفة كما تظن. وهنا دعتني السيدة دوروزموند إلى جسّ نبضها وهي تشيد بمعلوماتي الطبية. وكان أن تحمّلت مريضتي الحسناء حزناً مضاعفاً إذ اضطرت إلى أن تسلّمني ذراعها وشعرت بأن كذبتها الصغيرة ستنكشف. وبالفعل تناولت يدها وضغطها بإحدى يديّ بينما أخذت أداعب باليد الأخرى ذراعها البضّة الممتلئة. لكن الخبيثة لم تستجب لهذه الحركة، وهذا ما جعلني أقول وأنا أسحب يدي: «ليس هناك حتى أقل انفعال». وقد شككت في أن نظراتها كانت صارمة جداً، ولكي أقاصصها، لم أحاول لحظة واحدة فيما بعد أن أقابل نظراتها. ثم قالت بعد برهة إنها تريد أن تنهض، فتركناها وحدها. ظهرت في ساعة الغداء، وكانت كئيبة جداً، وأعلنت أنها لن تذهب إلى النزهة، وفهمت من ذلك أنه لن تتاح لي مناسبة التحدث إليها. وشعرت هنا بأنه لا بد من إطلاق زفرة ونظرة ألم. ومما لا شك فيه أنها كانت تنتظر ذلك، إذ كانت هذه هي اللحظة الوحيدة في النهار التي أستطيع فيها مقابلة نظراتها. وإن بدت عاقلة، إلا أن لديها هي الأخرى حيلها الصغيرة شأنها شأن أي امرأة. ووجدت فرصة لكي اسألها «ما إذا كانت قد تكرّمت بإبلاغي عن مصيري». فوجئت قليلاً حين سمعتها تقول: «أجل، يا سيدي، لقد كتبت لك». وكنت أتشوق للحصول على هذه الرسالة، لكنها لم تسلمني إياها إلا في المساء حين انصرفت إلى غرفتها. ولا أدري ما إذا كان ذلك حيلة أو عدم حذاقة أو حياء، وها أنذا أرسلها إليك الآن ومعها مسودة رسالتي، فاقرئي واحكمي ولاحظي بأي زيف بارع تؤكد لي أنه لا يوجد لديها أي حب على الإطلاق، بينما أنا متأكد من العكس. سوف تشكو إذا

خدعتها فيما بعد، بينما لا تخشى أن تخدعني الآن! فيا صديقتي الحسناء، إن أبرع رجل في العالم لا يستطيع إلا أن يفهم جيداً المرأة الحقيقية، ومع ذلك، يجب أن نتظاهر بتصديق كل هذا الهراء، ونتعب أنفسنا من اليأس، لأن هذه السيدة تحب أن تمثل دور الصارمة! والأفضل ألا نثأر من هذه الخباثة!... آه، صبراً! الوداع، لدي أيضاً الكثير لأكتبه إليك.

وللمناسبة، أرجو أن تعيدي إليّ رسالة قاسية القلب، إذ قد يحدث في ما بعد أن تطلبها كثمن مقابل هذه «البلايا». ويجب أن أكون مستعداً لكل طارئ.

لم أحدثك عن الصغيرة دوفولانج، وسنأتي على ذكرها في أقرب فرصة.

*من قصر... في ٢٢ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السادسة والعشرون

من الرئيسة دوتورفيل إلى الفيكونت دوفالمون

من المؤكّد، يا سيدي، أنك ما كنت لتحصل منّي على أية رسالة لولا تصرّفي الأحمق مساء أمس الذي حملني على أن أفسّر لك اليوم ما جرى. أجل، لقد بكيت، وأنا أعترف بذلك، والعبارة التي تذكّرني بها بكل عناية قد تكون أفلتت مني. دموع وكلمات، لاحظتَ كل شيء، ولا بد إذاً من أن أوضح لك كل شيء.

لقد اعتدت ألا أوحي إلا بالعواطف الشريفة، وألا أسمع سوى أقوال أستطيع أن أصغي إليها دون أن أحمرّ خجلاً، وأتمتع نتيجة

لذلك باطمئنان أجرؤ على القول إنني جديرة به. فأنا لا أعرف أن أخفي أو أقاوم الانطباعات التي أشعر بها. إن التعجب والارتباك اللذين أوقعتني بهما أثارا فيّ الكثير من الخوف نتيجة موقف لا ينبغي أبداً أن يكون من نصيبي. ولعل الخوف من أن تخلط بيني وبين النساء اللواتي تحتقرهن، وأن تعاملني بخفة مثلهن أثار دموعي، وجعلني أقول عن حق، كما أعتقد، إنني تعيسة. هذه العبارة التي تجدها قوية جداً، ستكون لا قيمة لها لو كان لدموعي وكلامي سببٌ آخر، عوضاً عن أن أستنكر مشاعر يمكن أن تهينني، كان بوسعي أن أخشى مشاطرتك إياها.

كلا يا سيدي، لست خائفة، ولو كان عندي خوف، لكنت هربت منك وابتعدت مئات الفراسخ، ولكنت ذهبت أبكي في إحدى الصحارى تعاسة التعرف إليك. وعلى الرغم من تأكدي من أنني لا أحبك مطلقاً، ولن أحبك أبداً، فقد أفعل عين الصواب لو اتبعت نصائح أصدقائي ولا أتركك تقترب مني.

لقد ظننتُ -وهذا هو خطئي الوحيد- أنك ستحترم المرأة الشريفة التي لا تطلب سوى أن تجدك كما أنت وتنصفك، وكان أن دافعت عنك بينما أنت تهينني بأمنياتك الآثمة. أنت لا تعرفني، كلا يا سيدي، أنت لا تعرفني جيداً، وإلا لما ظننت أنك تستطيع أن تجعل من أخطائك حقاً من حقوقك. وبما أنك قلت لي أقوالاً ما كان ينبغي عليّ سماعها، وما كان عليك أن تسمح لنفسك بها، كما ظننت، حين كتبت لي رسالة لا يجدر بي قراءتها، ثم طلبت مني «أن أوجّه خطاك، وأملي عليك أقوالك!». إن الصمت والنسيان، يا سيدي، هما النصيحتان المناسبتان اللتان أسديهما إليك، ويجب عليك أن تتبعهما، عندئذ سيكون لك الحق فعلاً في أن تنال

تسامحي، ولا يتوقف الأمر إلا عليك. . . ولكن لا، لن أتقدّم أبداً بأي طلب إلى من لم يحترمني، وإلى من أساء استغلال طمأنينتي. أنت تجبرني على أن أخشاك، وربما على أن أكرهك، ولكني لا أريد ذلك، ولا أريد أن أرى فيك سوى ابن شقيق أعز صديقاتي. إنني أرفع صوت الصداقة مكان الصوت العام الذي يدينك. لقد أفسدتَ كل شيء، وأتوقع أنك لا تريد أن تتدارك شيئاً.

إنني أصرّ، يا سيدي، على أن أعلن لك أن عواطفك تهينني، وأن الاعتراف بها يسيء إليّ، ولن يأتي يوم أشاطرك إياها. كما أنك تحملني على ألا أراك البتة إذا لم تسدل على هذه القضية صمتاً يبدو من حقي أن أنتظره، لا بل أرجوه منك. أرفق مع هذا المكتوب الرسالة التي كتبتها إلي، وآمل بأن تتفضل بإعادة هذه إلي، وسأكون حقيقة مستاءة إذا بقي أي أثر من حادث كان يجب ألا يكون. لي الشرف أن أكون إلخ. . .

*من. . . في ٢١ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السابعة والعشرون

من سيسيل دوڤولانج إلى الماركيزة دوميرتويّ

يا إلهي، كم أنت طيبة القلب يا سيدتي! وتعلمين جيداً أنه من الأسهل عليّ أن أكتب إليك بدلاً من أن أحدثك! ذلك لأن ما سأقوله صعب للغاية، لكنك صديقتي، أليس صحيحاً؟ آه، أجل يا صديقتي الطيبة، سأحاول ألا أخاف، ثم إني بحاجة إليك وإلى نصائحك! فأنا الآن في حزن شديد ويبدو لي أن الجميع يحزرون في ماذا أفكر، لا

سيما حين يكون هو هنا، إذ أحمرّ خجلاً ما إن ينظرون إليّ. أمس، حين شاهدتِني أبكي، فلأني كنت أريد أن أتحدث إليك ولم أعرف ما الذي منعني، وحين سألتِني عمّا بي، تدفقت دموعي رغماً عني. ثم لم أتمكن من أن أنبسَ ببنت شفة، ولولاك لكانت أمي لاحظت ما بي. كيف كانت ستكون حالتي حينئذ؟ وهكذا أمضي حياتي، لا سيما منذ أربعة أيام. في ذلك اليوم يا سيدتي، أجل في ذلك اليوم كتب إليّ الفارس دانسيني. آه، أؤكد لك أنني حين وجدت رسالته لم أعرف قط ماذا كانت، ولكن، كي لا أكذب عليك، لا أستطيع القول إنني لم أكن مسرورة بقراءتها، هل فهمت؟ كنت أفضّل أن أكون حزينة طول حياتي لو لم يكتب إلي، لكنني كنت أعلم جيداً أنه يجب ألا أقول له ذلك. وأستطيع أن أؤكد لك أيضاً أنني فعلت وكنت غاضبة جداً، لكنه قال إن ذلك كان أقوى من إرادته، وأنا أصدّقه كليّاً لأنني كنت قد قررت ألا أردّ عليه، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي. آه... لم أكتب إليه إلا مرة واحدة، وإن كنت قد فعلت فذلك بقصد الطلب ألا يكتب إليّ أبداً، لكنه ما زال يكاتبني دائماً. وبما أنني لا أردّ عليه فقد لاحظت أنه كئيب، وهذا ما يعذبني أكثر بحيث لا أعرف ماذا أفعل، وماذا سيحلّ بي. إنني في الحقيقة مدعاة للرثاء.

قولي أرجوك يا سيدتي، هل من الإثم أن أردّ على رسائله بين وقت وآخر إلى أن يتعهد هو نفسه بألا يكتب إلي، وأن يبقى كما كنّا سابقاً؟ لأنه لو استمرت الحال هكذا بالنسبة إليّ، فلا أدري ماذا سأصبح. حين قرأت رسالته الأخيرة مثلاً، بكيت لوقت طويل من دون توقف. وأنا متأكدة أنني إذا لم أرد عليه، فسوف نتألم أكثر.

سأبعث إليك برسالته أيضاً، أو بنسخة منها، وأنت احكمي. سترين أن ما يطلبه مني ليس فيه ما يسوء. ومع ذلك إذا وجدت أن

الأمر غير لائق، فأعدك بالامتناع عن الكتابة إليه، لكنني أعتقد أنك تفكرين مثلي وأن لا غضاضة في الأمر.

للمناسبة، اسمحي لي، يا سيدتي، أن أطرح عليك سؤالاً أيضاً: لطالما قيل لي إن الحب خطيئة. ولكن لماذا؟ إن ما يجعلني أوجّه إليك هذا السؤال هو أن الفارس دانسيني يدّعي أنه لا إثم في ذلك أبداً، وأن جميع الناس تقريباً يحبون. إذا كان ما يقوله صحيحاً فإنني لا أفهم لماذا سأكون الوحيدة التي تمنع نفسها من ذلك، أم إن الحب ليس مشيناً إلا بحقّ الآنسات؟ لأنني سمعت والدتي نفسها تقول إن السيدة د... تحب السيد م... ولم تكن تتحدث عن ذلك كما لو أنه شيء معيب. مع ذلك أنا متأكدة من أنها ستغضب عليّ إذا ارتابت فقط بصداقتي للسيد دانسيني. إنها تعاملني دائماً كطفلة، ولا تقول لي شيئاً. كنت أظن أنها حين أخرجتني من الدير فذلك كي تزوجني، ولكن في الوقت الحاضر لا يبدو لي أن هناك شيئاً من هذا القبيل. ولست قلقة لهذا السبب، أؤكد لك. بما أنك الصديقة الحميمة لوالدتي ربما تعرفين ما الأمر، وإذا كنت تعرفين أرجو أن تطلعيني عليه.

هذه يا سيدتي رسالة طويلة، ولكن بما أنك سمحت لي بأن أكتب إليك، فقد اغتنمت الفرصة لكي أقول لك كل شيء، وأنا أعتمد على صداقتك. لي الشرف بأن أكون إلخ...

*باريس، في ٢٣ أغسطس/آب **١٧.*

الرسالة الثامنة والعشرون(*)

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

ماذا يا آنستي؟ أما زلت ترفضين الرد على رسائلي! ولا شيء يمكن أن يجعلك تنثني؟ وكل يوم يحمل معه الأمل الذي جاء به. فما هي إذاً هذه الصداقة التي توافقين على قيامها بيننا إذا لم تكن قوية وتجعلك تشعرين بآلامي؟ إذا كانت تجعلك باردة هادئة، بينما أعاني جميع الآلام القاسية التي لا أستطيع إخماد نارها؟ وإذا كانت لا توحي إليك بالثقة، أليست كافية إذاً لأن تثير شفقتك؟ ماذا؟! صديقك يتعذب ولا تفعلين شيئاً لإغاثته؟ إنه لا يطلب منك سوى كلمة واحدة، وأنت تمنعينها عنه! وتريدين منه أن يكتفي بشعور ضعيف، وتخشين أن تكرّري له التطمينات!

أنت لا تريدين أن تكوني جاحدة، كما قلت أمس. آه! صدّقيني يا آنستي إذا كنت ترغبين في دفع ثمن الحب بعملة الصداقة، ليس لأنك تخافين أن تكوني جاحدة، بل لأنك تشكّين في قيمة هذه الصداقة. ومع ذلك، لا أجرؤ على التحدث إليك عن عاطفة لا يمكن إلا أن تكون عبئاً عليك. وإذا كانت لا تهمّك، يجب عليّ أن أكبتها داخل نفسي بانتظار أن أتعلم كيفية التغلب عليها. أشعر كم أن هذا العمل صعب. إنني لا أكبت نفسي، لأني بحاجة إلى جميع قواي، وسأحاول بشتى الوسائل. وهناك طريقة تكلف قلبي غالياً

(*) هذه الرسالة هي التي أرسلت سيسيل ڤولانج نسخة منها إلى السيدة دوميرتويّ، وبما أن دانسيني يردّد فيها ما ورد في الرسالتين السابقتين، فقد رأينا أن نشرها وحدها يكفي.

وهي أن أكرّر لنفسي دائماً أن قلبك غير حسّاس. لا بل سأحاول أن أراك أقل ما يمكن، وسوف أعثر على حجّة معقولة.

ماذا؟ سأفقد طيب رؤيتك كل يوم! آه، على الأقل لن أكفّ عن التحسّر على ذلك! وسيكون الشقاء الأبدي ثمناً لأشد الحب رقةً. هذا ما تريدينه وهو صنع يديك! أشعر بأنني لن أعثر أبداً على السعادة التي أفقدها اليوم. أنت وحدك المخلوقة لقلبي، وسأقسم لك على ألا أعيش إلا من أجلك! ولكنك لا تريدين أن تقبلي هذا القسم. إن صمتك يعلمني بصورة كافية أن قلبك لا يحسّ بشيء تجاهي، وهو في الوقت نفسه الدليل الأكيد على لامبالاتك وعلى الطريقة القاسية لإبلاغي بذلك.

الوداع يا آنستي.

لم أعد أجرؤ على انتظار جواب، فالحب هو الذي يملي الشوق، والصداقة بكل التعاطف، والشفقة بكل المودة: ولكن الشفقة والصداقة والحب هي أشياء غريبة على قلبك أيضاً.

*باريس، في ٢٣ أغسطس/آب **١٧.*

الرسالة التاسعة والعشرون

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كارنيّ

ألم أقل لك، يا صوفي، إن ثمة حالات نستطيع معها أن نكتب إلى من نحب؟ أؤكد لك أنني ألوم نفسي الآن لأنني اتّبعت رأيك الذي آلم كلينا، الفارس دانسيني وأنا. والدليل على أنني على صواب هو أن السيدة دوميرتويّ - وهي امرأة خبيرة بالتأكيد- قد

انتهى بها المطاف وفكرت مثلي، وكنت قد اعترفت لها بكل شيء. نصحتني في البداية مثلما أشرت، ولكن حين أوضحت لها الأمر جيداً، اقتنعت بأن الحال هنا مختلفة. غير أنها طلبت مني أن أطلعها على جميع رسائلي ورسائل الفارس دانسيني لكي تكون متأكدة من أنني لن أقول إلا ما يجب أن يقال. وها أنا الآن مطمئنة. يا إلهي، كم أحب السيدة دوميرتويّ! إنها طيبة القلب جداً! وهي امرأة محترمة، وهكذا ليس هناك ما يخشى منه.

بما أنني كتبت إلى الفارس دانسيني، فكم سيكون مسروراً، لا بل أكثر سروراً مما يعتقد: لأنني حتى الآن لم أحدثه إلا عن صداقتي، وهو يريد دوماً أن أعلن له حبي، وأعتقد أن الأمر سيان. على كل حال، لم أجرؤ، لكنه يصرّ على ذلك. أطلعت السيدة دوميرتويّ على الأمر، فقالت لي إنني على صواب، ولا ينبغي التحدث عن الحب إلا حين لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك. أنا متأكدة من أنني لن أستطيع منع نفسي لمدة طويلة. على كل حال الأمر سيان، وهذا ما يعجبه أكثر.

لقد قالت لي السيدة دوميرتويّ أيضاً إنها ستعيرني كتباً تتحدث عن كل ذلك، وستعلّمني أيضاً كيف أحسن التصرف وأكتب بأسلوب أفضل مما أفعل الآن. لأنها، كما ترين، تدلّني على جميع أخطائي، وهذا دليل على أنها تحبني، وقد أوصتني فقط بألا أخبر أمي شيئاً عن هذه الكتب، لأن ذلك سيجعلها تظهر كما لو أنها أهملت تربيتي كما يجب مما قد يغضبها. لذلك، لن أعلمها بالأمر أبداً.

إنه لأمر رائع أن تكون هناك امرأة ليست من أهلي ولكنها تبذل مثل هذه العناية الفائقة بي كأمي. ومن حسن حظي أيضاً أنني تعرفت إليها!

طلبتْ إلى أمي أيضاً أن تصحبني معها بعد غد إلى دار الأوبرا، وقالت لي إننا سنكون وحدنا وسوف نتحدث كل الوقت من دون خوف من أن يسمعنا أحد. وأنا أفضّل ذلك على مشاهدة الأوبرا. سنتحدث أيضاً عن زواجي، لأنها قالت لي إنني سأتزوج فعلاً، لكننا لم نستطع أن نتحدث أكثر. ألا ترين من المدهش أن أمي لم تطلعني على شيء بعد؟

الوداع يا صوفي، سأكتب الآن إلى الفارس دانسيني. آه، أنا مسرورة جداً.

*من... في ٢٤ أغسطس/آب ‎**‎١٧.*

الرسالة الثلاثون

من سيسيل دوڤولانج إلى الفارس دانسيني

أخيراً، يا سيدي، أوافق على الكتابة إليك لأؤكّد لك صداقتي وحبّي. لأنك لولا ذلك ستصبح تعيساً. أنت تقول إنه ليس عندي قلبٌ رقيق، لكنني أؤكّد لك أنك مخطئ، وآمل في الوقت الحاضر ألا تشك مطلقاً في الأمر. إذا كنت قد عانيت العذاب لأنني لم أكتب إليك، فهل تظن أن ذلك لم يسبّب لي العذاب أيضاً؟ لكنني مهما يكن، لا أريد أن أرتكب أي إثم، ولو لم أكن متأكّدة من حبّي، لمنعت نفسي من الكتابة إليك. لكن حزنك أثار في نفسي الكثير من الألم، وآمل الآن ألا تحزن بعد الآن، وسوف نكون سعيدَين جداً.

أرجو أن تسعدني برؤيتك هذا المساء، وأن تحضر في ساعة مبكّرة، ومهما يكن، فلن يكون ذلك أبكر مما أتمنّاه. ستتناول

والدتي العشاء في البيت، وربّما تعرض عليك أن تبقى، آمل ألا تكون مُرتبطاً بموعد كما حدث أول أمس. لا بد وأن العشاء كان مُمتعاً حيث ذهبت، لأنك رحلت في ساعة مبكرة. ولكن، لندع الحديث عن ذلك. الآن وقد عرفت أنني أحبّك، أتمنّى أن تبقى معي أطول مدّة لأنني لا أكون مسرورة إلا حين أكون معك، وأتمنى أن تكون كذلك أنت أيضاً.

إنني مُستاءة جداً لأنك ما زلت حزيناً الآن، ولكن الذنب ليس ذنبي. سأطلب أن أعزف على القيثارة ما إن تصل حتى تحصل على رسالتي حالاً. وليس باستطاعتي أن أفعل أفضل من ذلك.

الوداع يا سيدي، أحبّك كثيراً من كل قلبي، في كل مرة أقولها لك أكون سعيدة. وآمل أن تكون مثلي أيضاً.

*من . . . في ٢٤ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الحادية والثلاثون

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

نعم، سنكون سعيدَين من دون شك. إن سعادتي أصبحت مؤكدة لأنني محبوب، وسعادتك لن تنتهي أبداً ما دام هذا الحب الذي أوحيته لي قائماً. ماذا! أنت تحبينني ولا تخشين أن تؤكّدي لي حبك، وكلما ردّدته لي كنت سعيدة! بعد أن قرأت هذه العبارة «أحبك» مكتوبة بخطّ يدك، سمعت فمك الجميل يكرّر هذا الاعتراف، ورأيت عينيك الفاتنتين تحدّقان فيّ فتجمّلان أيضاً تعبير الحنان. لقد تلقّيت قَسَمك بأنك ستعيشين دائماً من أجلي. آه! إليك

قَسَمي أيضاً بأن أكرّس كل حياتي لسعادتك، اقبليه وكوني متأكّدة أنني لن أحنث به.

ما أسعد النهار الذي أمضيناه معاً أمس! آه، لماذا لا توجد لدى السيدة دوميرتويّ دائماً أسرار تفضي بها إلى والدتك كل يوم؟ ولماذا يجب أن تأتي فكرة الخوف الذي ينتظرنا فتختلط بالذكرى اللذيذة التي تشغلني؟ ولماذا لا أستطيع أن أُمسك باستمرار بهذه اليد الجميلة التي كتبت لي: «أحبّك!» فأُفعمها بالقبل، وأثأر لنفسي هكذا من الرفض الذي أظهرته لي وأنال حظوة أكبر؟

قولي لي يا حبيبتي سيسيل، حين عادت والدتك واضطررنا بسبب وجودها إلى تبادل النظرات الشاردة فحسب، وحين لم تتمكّني من مواساتي بتأكيد حبك لي، وبالرفض الذي أبديته في إعطائي أدلة على حبك، ألم تشعري إذاً بأي أسف؟ ألم تقولي لنفسك: «إن قبلة واحدة كان يمكن أن تجعله أكثر سعادة، وأنا التي حرمته هذه السعادة؟» عديني يا صديقتي الحبيبة، أنك في أول فرصة ستكونين أقل قساوة من قبل، وبهذا الوعد سأجد الشجاعة على تحمّل المنغّصات التي تخلقها لنا الظروف، ويصبح الحرمان الظالم مُخفّفاً على الأقلّ لو تأكّد لي أنك تشاطرينني الأسف.

الوداع يا حبيبتي الرائعة: لقد حانت الساعة التي يجب أن أذهب فيها لأراك. سيكون من المستحيل عليّ أن أتركك إلّا لكي أذهب فأشاهدك من جديد. الوداع يا من أحبها حباً جمّاً، أنت يا من سأحبها على الدوام أكثر من أي وقت مضى.

*من... في ٢٥ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثانية والثلاثون

من السيّدة دوڤولانج إلى الرئيسة دوتورڤيل

تريدين إذاً يا سيّدتي أن أؤمن بفضيلة السيّد دوڤالمون؟ أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أسلّم بذلك، وأنني سأحزن جداً لو حكمت عليه كرجلٍ شريف بسبب حادث واحد منفرد. كما لو كان عليّ أن أحكم على رجل صالح بأنّه فاسق بسبب غلطة واحدة. والبشر ليسوا كاملين، سواء كانوا أشراراً أو فاضلين، فللآثم فضائله كما أن للرجل الشريف هفواته. وتبدو لي هذه الحقيقة أكثر ضرورة لأن نؤمن بها، حتى ينبثق عنها التسامح مع الأشرار كما الطيّبين، وهي تصون هؤلاء من الغطرسة، وتُنقذ أولئك من اليأس. ستجدين حتماً أنني لا أمارس جيّداً هذا التسامح الذي أُنادي به، لكنني لا أرى في هذا التسامح إلا تخاذلاً خطيراً حين يؤدّي بنا إلى معاملة الشرّير والفاضل معاً على قدم المساواة.

لن أسمح لنفسي مُطلقاً بأن أبحث عن دوافع عمل السيد دوڤالمون، بل أودّ أن أجدها تستحقّ الثناء. ولكن، ألم يمضِ حياته في نشر البلبلة والعار والفضيحة بين الأُسر؟ اصغي إذا شئت إلى صوت الرجل الذي أعانه، ولكن ذلك يجب ألا يمنعك من سماع صرخات مئات الضحايا التي لطّخها بالعار. وكما تقولين: عندما يصبح مثلاً على خطر العلاقات، ألا يغدو هو على الأقلّ علاقة خطرة؟ تفترضين أنه من الممكن أن يعود إلى الصواب؟ ولنذهب إلى أبعد من ذلك، ونفترض أن هذه المعجزة تمّت. ألا يبقى الرأي العام ضدّه؟ ثم ألا يكفي ذلك لكي تصحّحي موقفك؟ إن الله وحده يستطيع

أن يغفر له في ساعة الندم، فهو يعلم ما في القلوب. لكن البشر لا يستطيعون أن يحكموا على الأفكار إلا من خلال الأعمال، ولا يحقّ لأي واحد منهم، بعد أن يكون فقد احترام الآخرين، أن يشكو من فقدان الثقة الضرورية به، ما يجعل من الصعب إعادتها إليه. فكّري أيضاً يا صديقتي الشابّة أنه في بعض الأحيان يكفي للمرء أن يفقد هذه الثقة حين يبدو أنه لا يُعلّق عليها أهمّية كبرى. وأرجو ألا تتهمي هذه الصرامة ظلماً، لأن هذا الشخص بالفعل هو مفطور على ارتكاب المعصية أكثر من أي إنسان آخر بحيث لا يستطيع أن يمتنع عنها. هذا هو مظهر علاقتك مع السيد دوڤالمون مهما بدت بريئة.

لقد أخافتني الحماسة التي تُدافعين بها عن هذا الرجل، لذا أسارع إلى إنذارك بالاعتراضات التي أتوقّعها. لقد ذكرتِ لي السيدة دوميرتويّ التي غفر لها الناس هذه العلاقة، وأنت تسألين لماذا أستقبله في بيتي. وستقولين لي بدلاً من أن يرفضه الناس الشرفاء، نجده على العكس مقبولاً، لا بل مطلوباً من قبل ما يسمّى المجتمع الراقي. وأعتقد أنني أستطيع الردّ على كل ذلك:

أولاً، إن السيدة دوميرتويّ مُحترمة جدّاً، ولعل عيبها الوحيد أنها واثقة جداً بقواها، فهي قيادية بارعة، يطيب لها أن تقود عربة بين الصخور والفجوات، وترى أن نجاحها وحده يبرّر مسلكها، وأجد من الإنصاف الثناء عليها، لكن من الخطر أن نحذو حذوها، هي نفسها تعترف بذلك وتتهم نفسها. ولفرط ما شاهدَت، أصبحت مبادئها صارمة. ولا أخشى أن أؤكّد لك أنها هي نفسها ستفكّر مثلي.

أما فيما يتعلّق بي، فإنني لا أبرّر نفسي أكثر من الأخريات. بالطبع سوف أستقبل السيد دوڤالمون، فهو يُستقبل في كل مكان، وهذا تناقض آخر في السلوك يجب إضافته إلى آلاف العيوب الأخرى

التي تسود المجتمع، وأنت تعرفين مثلي أننا نقضي حياتنا في مراقبة هذه العيوب، وفي الشكوى منها، وفي الانسياق معها. فالسيد دوڤالمون باسمه اللامع، وثروته الطائلة، ومزاياه الكثيرة المحبوبة، قد عرف مبكراً أنه يكفي للمرء أن يزاول بحذاقة متساوية الإطراء والسخرية حتى يسيطر على المجتمع. لا أحد مثله يملك هذه القدرة المزدوجة، فهو يسحر بالأولى، ويجعل الناس تخشاه بالأخرى. والناس لا يحترمونه، إنما يتملقونه. تلك هي حياته وسط عالم يحتاط الناس منه ولا يتجاسرون عليه، يفضّلون مداراته على أن يجابهوه.

لكن لا السيدة دوميرتويّ نفسها، ولا أي امرأة أخرى تجاسرت ولا ريب على أن تختلي في الريف بمفردهما تقريباً مع رجل كهذا. وكان مُقدّراً على أكثر النساء تعقلاً وأشدّهن تواضعاً أن يضربن المثل على هذا التناقض. اغفري لي يا صديقتي العزيزة هذه الكلمة التي تخرج عن أصول الصداقة. إن نزاهتك نفسها تخونك بشعور الأمن الذي توحيه إليك. فكّري إذاً أن من سيحكمون عليك هم فئتان: فمن ناحية أولئك العابثون الذين لا يؤمنون بالعفّة ولا يوجد بينهم نموذجٌ لها، ومن ناحية ثانية أصحاب الألسنة الطويلة الذين يتباهون بأنهم لا يؤمنون بها، لكي يعاقبوك على أنك كنت فاضلة. اعتبري أنك تفعلين الآن ما لا يجسر بعض الرجال على المخاطرة به. وبالفعل، من بين الشبّان الذين جعل السيد دوڤالمون من نفسه حكماً عليهم، أجد أكثرهم تعقّلاً يخشى أن يبدو مرتبطاً كثيراً بصورة حميمة بينما أنت لا تخشينه أبداً! آه! عودي، عودي إلى صوابك، أستحلفك بالله. وإذا لم تكن الأسباب التي عرضتها عليك كافية كي تُقنعك، فسلّمي نفسك لصداقتي، فهي التي تجعلني أُجدّد إصراري عليك، وهي ستبرّرها

لك. ستجدينها صارمة من دون شك، وكم أودّ أن تكون غير مُجدية، ولكنني أُفضّل أن تتذمّري من إلحاحها بدلاً من إهمالها.
*من... في ٢٤ أغسطس/آب **١٧.*

الرسالة الثالثة والثلاثون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

منذ أن بدأت تخشى النجاح يا عزيزي الڤيكونت، وبدأ مشروعك يشهر أسلحته ضدّك، ورغبتك في الانتصار تقلّ بدلاً من القتال، لم يعد عندي ما أقوله. إن تصرفك هو مثال على الحذر، وسيكون مثالاً على الحماقة في حال افتراض العكس. ولكي أقول لك الحقيقة، أخشى أن تكون قد بنيتَ الأوهام.

لا ألومك لأنك لم تنتهز الفرصة، فمن جهة لا أرى بوضوح أن الفرصة قد حانت، ومن جهة أخرى أعلم جيداً -مهما يُقال- أن الفرصة التي تفوت يُمكن أن تعود، بينما لا يُمكن العودة مطلقاً عن مسعى متعجّل.

لكن الخطأ الحقيقي هو أنك انقدْتَ إلى الكتابة إليها. إنني أتحدّاك في الوقت الحاضر بأن تتنبأ إلى أين يمكن أن يقودك ذلك. فهل تأمل مثلاً أن تُثبت لهذه المرأة أنه ينبغي عليها أن تستسلم لك؟ يلوح لي أن القضيّة قد لا تكون سوى حقيقة عاطفية وليست استعراضاً، ولكي تجعلها ترضى، يجب أن تحرّك عاطفتها وليس تعقّلها. ولكن ما الفائدة في أن تثير عاطفتها بالرسائل، لأنك لن تكون معها حين تقرأها لكي تغتنم الفرصة؟ وحين تبدأ عباراتك

الجميلة في إحداث نشوة عارمة لديها، هل تعتقد أن هذه النشوة ستدوم طويلاً بحيث لا تجد وقتاً للتفكير بتعقّل كي يمنعها من الاستسلام؟ فكّر إذاً في ما تحتاج إليه من الوقت اللازم لكتابة رسالة، وفي الوقت الذي يمكن أن يمضي قبل تسليمها إياها، وانظر كم سيطول الوقت الذي قد تستغرقه امرأة مثل صديقتك الورعة صاحبة المبادئ في أن ترغب بما تحاول ألا ترغب فيه أبداً. إن هذه الوسيلة قد تنجح مع المراهقين الذين عندما يكتبون كلمة «أحبّك» لا يعرفون أنهم يقولون بذلك «إنّي أستسلم إليك»، لكن العفّة المتعقّلة عند السيدة دوتورڤيل تبدو أنها تعرف جيداً معنى العبارات، على الرغم من أنك استبقت الأمر في محادثتك معها، لكنها هزمتك في رسالتها. ثم هل تدري ما الذي يحدث؟ -وهذا ما نختلف عليه-: إنها لا تريد الاستسلام. وهي لكثرة البحث عن الأسباب المعقولة، تجدها ثم تقولها، وبعد ذلك تتمسّك بها، ليس لأنها حسنة بل كي لا تكذّب نفسها.

وفضلاً عن ذلك، هناك ملاحظة أعجب كيف لم تكتشفها، وهي أنه ليس في الحب أسهل من الكتابة والتعبير عما لا نحسّ به. أقصد الكتابة بطريقة مختلفة: ليس بعدم استخدام الكلمات نفسها، ولكن بكتابتها بترتيب مختلف. أعد قراءة رسالتك، ستجد أنه يسودها نظام يفضحك في كل عبارة. وأغلب الظن أن رئيستك ليست على هذا القدر من الذكاء لكي تلاحظها، ولكن هذا لا يهم، إذ لا تأثير لها. وهذا هو خطأ الروايات، فالمؤلّف يبذل المستحيل لكي يثير الحرارة، لكن القارئ يظلّ بارداً. رواية «هيلوييز» هي الوحيدة التي تشذّ عن القاعدة، ورغم موهبة الكاتب، فإن هذه الملاحظة جعلتني أعتقد دائماً أن أساسها صحيح. غير أن ذلك لا ينطبق على الكلام

المباشر. إن الاعتياد على تشغيل الحواس يضيف الحساسية، كما أن سهولة الدموع تضفي على الكلام تأثيراً أعظم. إن التعبير عن الرغبة يمتزج في العيون مع التعبير عن العاطفة. وأخيراً فإن الكلام المتقطّع يؤدّي بسهولة إلى خلق الشعور بالإرباك وبالاضطراب الذي يشكّل بلاغة الحب الحقيقية، لا سيما وجود الشخص المحبوب الذي يشلّ التفكير ويجعلنا نرغب في الاستسلام.

صدّقني أيها الڤيكونت، إنها تطلب إليك ألا تكتب إليها المزيد، فاستغلّ الفرصة لتدارك غلطتك وانتظر المناسبة لكي تتحدّث إليها. هل تدري أن لدى هذه المرأة قوى أكثر مما كنت أتصوّر؟ كما أن دفاعها جيد. ولولا طول رسالتها، والحجّة التي تمنحك إياها لكي تعود فتكسب امتنانها، لما انكشفت قط.

ويبدو لي أيضاً واجب تطمينك بالنجاح، فهي تستهلك قوى كثيرة في آن واحد. وأتوقّع أن تستنزفها من أجل الدفاع عن الكلمة، بحيث لن تبقى لديها القوّة للدفاع عن الأمر الفعلي.

أُعيد إليك رسالتيك، وإذا كنت مُحترساً فستحفظهما حتى تحين اللحظة السعيدة. ولو لم يكن الوقت قد تأخر لكنت حدّثتك عن الصغيرة ڤولانج التي تتقدّم بسرعة وهذا ما يسعدني جداً. وأظن أنني سأنتهي قبلك، ولا شك أنك سعيد الحظ. الوداع اليوم.

*من... في ٢٤ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الرابعة والثلاثون

من الفيكونت دوفالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

تتحدّثين بروعة يا صديقتي الحسناء، ولكن لماذا تتعبين نفسك في إثبات ما لا يجهله أحد؟ أجل، للسير بسرعة في الحب من الأفضل التحدّث بدلاً من الكتابة، وهذا ما تضمّنته رسالتك كما أعتقد. صحيح، ولكن هذا هو أبسط عناصر فن الإغراء. ألاحظ أنك ذكرت استثناءً واحداً فقط لهذا المبدأ، بينما هناك اثنان، إضافة إلى المراهقين الذين يسلكون هذا السبيل عن خجل، ويستسلمون عن جهل، هناك أولئك النساء ذوات التفكير الجميل اللواتي يتركن أنفسهن للعلاقة من قبيل حب الذات، ويوقعهن الزهوّ في الشرك. وإليك مثلاً على ذلك، فأنا متأكّد أن الكونتسية دو ب... التي ردّت بسهولة على رسالتي الأولى لم تكن تحمل أي حب نحوي مثلما لم أكن أحمل نحوها، ولم تجد في ذلك سوى مناسبة لكي تُعالج موضوعاً ينبغي أن يشرّفها.

مهما يكن، فإن أي محامٍ سيقول لك إن المبدأ نفسه لا يُطبّق في هذا المجال. وبالفعل إنك تفترضين أن أمامي الخيار ما بين الكتابة والتحدّث، وليست هذه هي الحال. فمنذ بوحي بالحب وظالمتي التي لا تزال متمسكة بخطّة الدفاع، تبدي براعة متناهية لتجنّب مقابلتي مما قلب جميع خططي. وإذا استمرّ الوضع على هذه الحال، ستحملني على البحث بصورة جدّية عن وسائل جديدة، لأنني من المؤكّد لن أتحمّل أن أكون مهزوماً من قِبَلِها مهما كلّف الأمر. ورسائلي نفسها موضوع حرب صغيرة، فهي ليست مسرورة لأنها لم

تُجب عنها، إنما ترفض استلامها. لكل امرأة إذاً حيلة جديدة، وقد لا تنجح دائماً.

أنت تتذكّرين بأي وسيلة سهلة سلّمتها رسالتي الأولى. كما أن رسالتي الثانية لم تصادف صعوبات أكثر. وقد طلبت إليّ أن أعيد إليها رسالتها، فسلّمتها رسالتي مكانها دون أن يكون لديها أدنى شك، لكنها رفضت بإصرار قبول الثالثة، إما انتقاماً لأنني خدعتها، وإما عن طيش أو عن تعفّف، لأنها ستجبرني على الاعتقاد بذلك، وآمل أن الإرباك الذي وقعت فيه على أثر هذا الرفض أن يكون عقاباً لها في المستقبل.

لم أندهش كثيراً لأنها لم تشأ استلام هذه الرسالة التي قدّمتها إليها بكل بساطة، لأن ذلك معناه الموافقة على شيء ما، وأتوقّع دفاعاً أطول. وبعد هذه المحاولة التي لم تكن سوى تجربة عابرة، وضعت مُغلّفاً لرسالتي، واغتنمت فرصة غياب السيدة دوروزموند والخادمة عندها، فبعثت لها برسالتي مع خادمي طالباً منه أن يقول لها إن هذه هي الورقة التي طلبتها مني. وقد توقّعت أنها ستخشى الرفض حتى لا تثير فضيحة، وبالفعل فقد أخذت الرسالة، وقال لي سفيري الذي طلبت إليه أن يراقب وجهها، وهو لا تنقصه الحذاقة، إنه لم يلاحظ سوى تورّد خفيف قد اعتراها يشبه الارتباك أكثر مما يشبه الغضب.

فهنأت نفسي، لأنها إذا أرادت أن تحتفظ بهذه الرسالة، أو أن تُعيدها إليّ، فلا بد لها من خلق مناسبة لنكون وحدنا مما يتيح لي فرصة التحدّث إليها. ولم تمضِ ساعة على ذلك حتى دخل أحد خدمها إلى غرفتي وسلّمني من قِبل سيّدته رزمة تختلف بالشكل عن رزمتي، وعلى غلافها خطّها المحبوب. سارعت إلى فتح الرزمة فإذا

بها رسالتي مطويّة دون أن تفضّها، وأظن أن خوفها من أن أكون أقل منها حرجاً قد حملها على استخدام هذه الحيلة الشيطانية.

أنت تعرفينني جيداً، ولا حاجة بي إلى أن أصف لك سورة غضبي. وكان لا بد من أن أستعيد هدوئي ورباطة جأشي للتفكير بوسائل جديدة. وإليك ما توصلت إليه:

في كل صباح يذهب أحد الخدم لإحضار البريد الذي لا يبعد من هنا سوى ثلاثة أرباع الفرسخ. وهو يستخدم لذلك صندوقاً مغطى تقريباً مثل صندوق الصدقات، يملك مدير البريد مفتاحاً والسيدة دوروزموند تملك مفتاحاً آخر، وهنا يضع كل واحد بريده أثناء النهار متى يشاء، يحمله الخادم مساء إلى البريد، ثم يعود فيحضره صباح اليوم التالي.

في هذه الأثناء كتبت رسالتي، وحرّفت خطّي عند كتابة العنوان، ورسمت بعناية على الغلاف خاتم بريد مدينة ديجون. اخترت هذه المدينة لأنني وجدت ذلك مفرحاً ولي الحق مثل زوجها بأن أكتب لها من المكان نفسه، كما سمعت جميلتي تردّد مراراً أنها تنتظر رسائل من ديجون. فبدا لي من الإنصاف أن أمدّها بتلك السعادة.

وبعد أن اتخذت هذه الاحتياطات، كان من السهل عليّ أن أُلقي برسالتي بين الرسائل. وسوف تكون لي الفرصة لكي أكون شاهداً على وصول هذه الرسالة إليها بهذه الطريقة. ذلك لأن العادة هنا تقضي بأن يلتئم الجمع عند الصباح بانتظار وصول الرسائل قبل أن يتفرّقوا. وأخيراً، وصل البريد. فتحت السيدة دوروزموند العلبة وقالت وهي تسلّم الرسالة إلى السيدة تورفيل: «من ديجون». فأجابتها بصوت مضطرب وهي تفضّ الرسالة بسرعة: «لكن هذا الخط ليس خط زوجي». وبمجرد أن ألقت عليها أول نظرة فهمت

كل شيء، واعترى وجهها سورة جامحة، حتى إن السيدة دوروزموند لاحظت ذلك. فسألتها: ما بك؟ فاقتربت بدوري وأنا أقول: «إن هذه الرسالة فظيعة جداً»، ولم تجرؤ المرأة الورعة الخجولة على رفع بصرها، ولم تنبس ببنت شفة. كي تُنقذ نفسها من الارتباك، تظاهرت بقراءة الرسالة، ولم تبدُ كأنها تقرأها. فابتهجتُ لاضطرابها، ولم أتمالك نفسي من أن أستفزها فأضفت قائلاً: «إن مظهرك الهادئ يبعث على الظن أن هذه الرسالة قد بعثت في نفسك الدهشة أكثر من الاستياء». وهنا أوحى لها الغضب أكثر مما قد أوحاه لها عدم الحذر، فقالت: «إنها تحتوي على أشياء تهينني وإنني لمندهشة بأن يكون هناك من تجرّأ وكتبها إليّ». قاطعتها السيدة دوروزموند: «ومن بعث إليك بها؟» فقالت: «إنها من دون توقيع». ثم أضافت وهي تمزق الرسالة الجريئة: «ولكن الرسالة وكاتبها لم يبعثا في نفسي إلا الاحتقار». ووضعت قطعها في جيبها، ثم نهضت وخرجت.

وعلى الرغم من هذا الغضب، استلمت الرسالة. وأنا أثق بفضولها إلى درجة أعتقد أنها قرأتها بكاملها.

أما تفاصيل بقيّة النهار فقد تجعلني أُطيل رسالتي جداً، ولكنني أرفق معها مسودّتي رسالتيّ الاثنتين كي تفهمي مثلي. إذا كنت راغبة في متابعة رسائلي، عليك الاعتياد على قراءة خطي في النسخ الأصلية، لأنني لن أتخلى عن نسخها في سبيل أي شيء. الوداع يا صديقتي الحسناء.

*من... في ٢٥ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الخامسة والثلاثون

من الفيكونت دوفالمون إلى الرئيسة دوتورفيل

ينبغي أن أُطيعك يا سيّدتي. وينبغي أن أُثبت لك أنك رغم العيوب التي يسرّك أن تظنيها فيّ، ما زال عندي من الكرامة ما يكفي لئلّا أسمح لنفسي بأي ملامة، ومن الشجاعة ما يكفي لكي أفرض على نفسي أقسى التضحيات. أنتِ تأمرينني بالصمت والنسيان! حسناً! سأرغم حبّي على أن يصمت. وسأنسى -إذا كان بالإمكان- الطريقة القاسية التي استقبلته بها. لا ريب بأن الرغبة في أن أُعجبك لا تمنحك مثل هذا الحق. وأعترف لك أيضاً بأن حاجتي إلى الحصول على تسامحك لا تسمح لك بذلك، لكنك تنظرين إلى حبّي كجسارة وتنسين ما إذا كان ذلك خطأ. فأنت السبب والمبرّر في آن واحد. ثم تنسين أنني وقد اعتدت أن أفتح لك قلبي، حتى وإن كانت هذه الثقة ستضرّ بي، لم يكن بوسعي أن أُخفي عنك المشاعر التي جعلتِها تتغلغل في نفسي. وتنظرين إلى ما هو نتاج نيّتي الحسنة على أنه ثمرة الجرأة. ولقاء الحب الأكثر رقّة والأكثر حقيقة واحتراماً، تُقصينني بعيداً عنك، ثم تحدّثينني أخيراً عن كراهيّتك. وأي إنسان آخر لا يشكو من مثل هذه المعاملة؟ أنا وحدي أرضخ للأمر، وأتحمّل كل شيء دون أن أنبس بكلمة. أنت تضربين وأنا أعبد. إن سلطانك غير المحدود على قلبي يجعلك سيّدته ولك مُطلق الحرية في التصرّف بعواطفي، وإذا كان حبّي وحده يقاوم ولا تستطيعين تحطيمه، فذلك لأنه من صنع يديك ولا دخل لي به.

إنني لا أطلب أبداً تراجعاً لا أفخر به، ولا أنتظر حتى هذه

الشفقة التي جعلني الاهتمام الذي أبديتِه نحوي في بعض الأحيان آمل بها، ولكنني أعتقد، وأنا أعترف بذلك، أن باستطاعتي أن أطلب عدالتك. لقد أخبرتني يا سيدتي أن البعض حاول أن يشوّه صورتي في ذهنك، وأنك لو كنتِ اتبعتِ نصائح أصدقائك لما كنت تركتني أقترب منكِ. وهذه هي عبارتك! فمن هم هؤلاء الأصدقاء؟ لا شك في أن هؤلاء الناس الصارمين ذوي العفّة المتصلّبة يوافقون على أن يكونوا مكشوفين على العلن، ولا شك بأنهم لا يودّون أن يستروا أنفسهم بغموض بحيث لا يفرَّق بينهم وبين الأشرار. إنني لن أنسى أسماءهم ولا مآخذهم. فكّري يا سيدتي في أنه يحقّ لي أن أعرف كل ذلك. لأنك تحكمين عليّ استناداً إلى حكمهم. لا يُحكم على مُتّهم قبل أن تُقال له ما هي جريمته، ودون أن يعرف من اتّهمه. أنا لا أطلب أي عفوٍ آخر، بل أتعهّد سلفاً بأن أبرّر نفسي، وأن أُجبرهم على تغيير آرائهم.

وإذا كنتُ قد احتقرت صيحات الاستنكار من جمهور لا أحترمه كثيراً، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لاحترامك، وحين أُكرّس حياتي لكي أكون جديراً به، فلن أترك نفسي أدانُ بلا عقاب. إنني أقدّر هذا الاحترام أشد التقدير بحيث أجد نفسي مديناً له بهذا الطلب الذي تخشين أن تلبيه لي، وهو ما يعطيني الحق كما تقولين في أن أنال امتنانك. آه، لن أطالب بهذا الامتنان، بل أعتقد أنني سأكون المدين لك بالامتنان إذا أتحت لي الفرصة لكي أكون لطيفاً معك، ابدئي إذاً أن تعيدي إليّ شيئاً من الإنصاف، ولا تتركيني أجهل ما ترغبين فيه مني، وأنا لو كنت أعرف ذلك لكنت جنّبتك مشقة قوله لي. أضيفي إلى متعة رؤيتك السعادة بأن أخدمك، وسوف أهنئ نفسي على تسامحك.

من يمكن أن يمنعك؟ آمل ألا يكون الخوف من الرفض؟ وأشعر بأنني لا أستطيع أن أسامحك على ذلك. ليس لأنني لا أريد أن أعيد إليك رسالتك، فأنا أرغب أكثر منك في ألا تصبح ضرورية لي، لكنني اعتدت أن أرى فيك روحاً رقيقة، وعن طريق هذه الرسالة فقط أستطيع أن أراك كما تريدين أن تكوني بالنسبة إلي. وعندما أتصوّرك حسّاسة -بدلاً من أن توافقي على ذلك- أراكِ بعيدةً عني كل البعد. حتى عندما تغمرك مشاعر حبي ويصبح مبرراً، فإن هذه الرسالة تكرّر لي أيضاً أن هذا الحب يهينك. عندما أراك، يبدو لي أن هذا الحب هو الخير الأسمى، لكنني أجد نفسي أنني بحاجة إلى أن أقرأك لكي أشعر بأن ذلك ليس سوى وهم بشع. أنت تفهمين الآن أن أقصى سعادتي هي في أن أعيد إليك هذه الرسالة المشؤومة، وأن طلبك إياها مرة أخرى، سيكون معناه السماح لي بألا أصدق ما فيها: وأنت لا ترتابين، كما آمل، في تعجلي لإعادتها إليك.

*من... في ٢١ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السادسة والثلاثون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

(عليها ختم مدينة ديجون)

إن قسوتك تزداد يوماً بعد يوم يا سيدتي، وإذا كنت أجرؤ على قول ذلك، فيبدو لي أنك تخشين الظلم كما تخشين التسامح. بعد أن عمدتِ إلى إدانتي دون أن تسمعيني، لا شك أنك شعرت بأن من السهل عليك عدم الاطلاع على حججي بدلاً من الرد عليها. أنت

ترفضين رسائلي بعناد، وتعيدينها إليّ باحتقار، وتجبرينني أخيراً على أن ألجأ إلى الحيلة، بينما هدفي الوحيد هو إقناعك بحسن نيّتي. وإن الضرورة التي وضعتني فيها لكي أدافع عن نفسي تكفي من دون شك لمعذرة الوسائل. ونظراً إلى اقتناعي بصدق عواطفي -يكفي لتبريرها في نظرك أن أجعلك تعرفينها- أسمح لنفسي بسلوك هذا المنعطف الخفيف. وأجسر على الاعتقاد أيضاً بأنك ستغفرين لي، ولن تتفاجئي كثيراً حين تعلمين بأن الحب أبرع في الكشف عن نفسه من اللامبالاة حين تريد استبعاده.

اسمحي إذاً، يا سيدتي، بأن أفتح قلبي بكامله لك، فهو يخصّك ومن العدل أن تعرفيه. لدى وصولي لأول مرة إلى منزل السيدة دوروزموند، كنت أبعد ما يكون عن التنبؤ بالمصير الذي ينتظرني، وكنت أجهل أنك موجودة هنا، وأضيف بالصراحة التي أتميز بها أنني حين علمت بذلك لم أضطرب، ليس لأنني لم أتأثر بجمالك الذي لا يمكن تجاهله، بل لأنني كنت معتاداً أن أشعر فقط بالشهوات، وأنساق وراء تلك التي يشجعها الأمل، ولم أكن أعرف عذابات الحب.

كنتِ شاهدة على إلحاح السيدة دوروزموند في أن تجعلني أبقى هنا لبعض الوقت، وقد أمضيت نهاراً معك، ومع ذلك لم أشعر - أو بالأحرى ظننت بأنني لم أشعر- إلا بالسرور الطبيعي المألوف لأني برهنت على تقديري نحو قريبة محترمة. إن نمط الحياة الذي نعيشه هنا يختلف كثيراً عما اعتدت عليه، ولم يكلفني الأمر أي عناء في أن أتعوّد عليه، دون أن أحاول البحث عن سبب هذا التغيير الذي أخذ يعتمل في نفسي. وقد عزوت ذلك فقط إلى هذه السهولة في الطباع التي أعتقد أنني حدثتك عنها.

ولسوء الحظ (ولماذا يجب أن يكون سوءًا؟)، حين تعرفت إليك جيداً عرفت فوراً أن هذا الوجه الساحر الذي جذبني وحده، كان أقل مزاياكِ، إذ إن روحك السماوية أدهشت وسحرت روحي. فأخذت أعجب بالجمال، وأعبد العفّة. وأخذت دون أن أهدف إلى امتلاكك، أبذل اهتمامي لكي أكون خليقاً بك. وحين أطلب منك الغفران عن الماضي، أطمع في نيل رضاكِ عن المستقبل. كنت أبحث عن رضاكِ في كلامك وأرقبه في نظراتك، في هذه النظرات التي ينبعث منها سحر خطير انتشر من دون هدف وتلقيته من دون حذر.

عندذاك عرفت الحب، ولكن كم كنت بعيداً عن الشكوى! قررت أن أكفّنه بصمت أبدي، وانسقت من دون خوف ومن دون تحفظ إلى هذا الشعور اللذيذ. في كل يوم، كان يزداد سلطانه عليّ، وتحولت المتعة في رؤيتك إلى حاجة، فإذا غبتِ لحظة، ينعصر قلبي أسى، ولدى أي صوت ينبئ بعودتك يخفق فرحاً. ولم أعد أعيش إلا من خلالك ومن أجلك. ومع ذلك، أنت نفسك اشهدي: هل أفلتت مني أية كلمة في مرح الألعاب العابثة أو أثناء محادثة جدية يمكن أن تفضح سرّ قلبي؟

وأخيراً، جاء يوم بدأ فيه سوء طالعي. ولعله من تلاعب الأقدار أن يكون العمل الخيري الذي قمت به هو الإشارة. أجل يا سيدتي، ففي وسط البؤساء الذين أغثتهم، وهو عمل جعلك تنساقين وراء هذه الحساسية الثمينة التي تضفي جمالاً على الجمال نفسه، وتضيف قيمة على الفضيلة. هناك توّهتِ قلباً كان الحب المفعم قد أسكره من قبل. ربما تذكرين أي اهتمام استولى عليّ لدى عودتي! ويا للأسف! كنت أحاول مقاومة ميل شعرت أنه سيصبح أقوى مني.

وبعد أن استنزفت قواي في هذه المعركة غير المتعادلة، أتيحت لي مصادفةً لم أتمكن من توقعها أن أكون وحيداً معك. وهنا وقعت صريعاً، أعترف بذلك، لم يستطع قلبي الطافح أن يمسك نفسه عن الكلام وذرف الدموع. ولكن، هل في ذلك جريمة؟ وإذا كان الأمر كذلك، أليس عقابي كبيراً بالعذاب المرير الذي استسلمت له؟

أنا الذي افترسني حب بلا أمل، أناشدك الرأفة، لكنني لا ألقى سوى كراهيتك. إن عينيّ تبحثان عنك رغماً عني، ولا شيء يسعدهما إلا رؤيتك، وأرتجف إذا قابلت نظراتك. ونتيجة هذه الحالة الظالمة التي وضعتني فيها، أصبحت أمضي الأيام في إخفاء آلامي والليالي في الاستسلام إليها. بينما أنت هادئة مطمئنة، لا تعرفين من هذه الآلام إلا أنك تسببينها لي وتسرّين بها، ومع ذلك فأنت التي تشتكين وأنا الذي أعتذر.

هذه هي يا سيدتي، القصة الصحيحة لما دعوته ذنوبي، والتي كان من الإنصاف لو سمّيتها آلامي: حب طاهر صادق، واحترام دائم لم يخاتل قط، وخضوع كامل: تلك هي المشاعر التي أوحيتها لي، ولا أخشى أن أشكر العناية الإلهية على ذلك.

آه أنت يا من هي من أجمل صنائعها، احتذي حذوها في التسامح! وفكري بآلامي القاسية، فكري في أنني، أنا الواقع ما بين اليأس وأعلى غبطة، كلمة واحدة منك تقرر مصيري إلى الأبد.

*من. . . في ٢٣ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السابعة والثلاثون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوڤولانج

سيدتي، إني أمتثل لنصائحك التي تمليها عليّ صداقتك. أنا المعتادة النزول عند آرائك التي أراها مبنية على التعقل والحكمة دائماً. لا بل أعترف بأن السيد دوڤالمون خطير بالفعل إذا كان قادراً على أن يتظاهر بما يبدو عليه هنا ويظل كما تصفينه. مهما يكن، بما أنك تطلبين مني ذلك، فسوف أبعده عني، سأبذل في سبيل ذلك ما بوسعي، ذلك لأن الأمور التي من المفترض أن تكون أشد سهولة، تغدو مربكة من حيث الشكل.

يبدو لي أنه لا يمكن البتة أن أطلب من عمته هذا الطلب، سيكون الأمر غير لائق بالنسبة إليها وإليه. كما أنني لم أقرر، ليس من دون انزعاج، الابتعاد أنا نفسي، لأنه إضافة إلى الأسباب التي شرحتها لك والمتعلقة بالسيد دوتورڤيل، إذا كان رحيلي سيزعج السيد دوڤالمون كما هو متوقع، فلن يكون من الصعب عليه أن يلحق بي إلى باريس؟ ألن تبدو عودته، التي سأكون هدفها، أكثر غرابة من الالتقاء به في الريف عند سيدة، معروف أنها قريبته وصديقتي؟

لم يبقَ لي إذاً سوى أن أطلب منه هو بالذات أن يبتعد، وأشعر بأن هذا الاقتراح يصعب تطبيقه، مع ذلك، بما أنه يبدو صريحاً لأن يثبت لي أن لديه من النبل أكثر مما يظن به، فأنا لا أيأس من النجاح. حتى إنني لن أستاء من إغوائه، ومن تحيّن الفرصة المناسبة لأجعله يحكم، كما يقول غالباً، بأن النساء الشريفات حقيقة، ليس عليهن ولن يكون عليهن أن يشتكين من تصرفاته. وإذا ما رحل كما

أرغب، فسيكون ذلك احتراماً لي، لأنني لا أشك في أنه ينوي قضاء قسم كبير من الخريف هنا. وإذا رفض طلبي وأصرّ على البقاء، فأنا من سيرحل وأعدك بذلك.

هذا كل ما تطلبه صداقتك مني على ما أظن، وأسارع إلى إرضائها والإثبات لك، على الرغم من الحماسة التي أبديتها في الدفاع عن السيد دوڤالمون، بأنني لست أقل استعداداً لسماع نصائح أصدقائي بل لاتباعها أيضاً.

لي الشرف بأن. . .

*من . . . في ٢٥ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثامنة والثلاثون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

تلقيت للتوّ رزمتك الضخمة يا عزيزي الڤيكونت، ولو صحّ تاريخها لكان يجب أن أتلقّاها قبل أربع وعشرين ساعة. مهما يكن، فإنني لو بدأت الآن قراءتها فلن يكون عندي وقت لكي أُجيبك عنها. ولذلك أُفضّل أن أبلغك فقط بأنني تسلّمتها، وسنتحدّث في موضوع آخر. ليس لأنه لا يوجد عندي ما أُخبرك به في ما يتعلّق بي، بل لأن الخريف لم يترك في باريس تقريباً أي رجل له وجه إنساني. وهكذا فإنني أعيش منذ شهر في رصانة قاتلة، وأي رجل آخر غير فارسي كان أصابه الملل من ثباتي على حبه. وبما أن ثمة ما يشغل بالي، إذ بدأت أتسلّى الآن مع الصغيرة ڤولانج، فسأحدّثك عنها.

هل تدري أنك خسرت أكثر مما تعتقد لعدم اهتمامك بهذه

البنت؟ إنها لذيذة حقاً! وهي لا تمتلك طباعاً ولا مبادئ. وبإمكانك أن تتصوّر كم أن مجتمعها سهل ولطيف. لا أظن أنها ستلمع أبداً في العاطفة، ولكن كل شيء فيها يبشّر بالمشاعر القوية. فهي من دون تفكير ومن دون لباقة، لكنها ذات زيف طبيعي، إذا صحّ القول، حتى إنها تُدهشني أنا نفسي، لأنها ستنجح بصورة ممتازة، نظراً إلى أن وجهها يعبّر في آن واحد عن الطهارة والبراءة. وهي بطبيعة الحال حنون جداً، وأنا أتسلّى بذلك أحياناً: إن تفكيرها يهتاج بسهولة مدهشة. وهي مسلية جداً، بحيث إنها لا تعرف أن ترغب في شيء أكثر مما تعرف ويعتريها أحياناً نفاد صبر غريب، فهي تضحك وتبتئس وتبكي، ثم ترجوني أن أعلّمها بنيّة حسنة. في الحقيقة إنني غيورة تقريباً من ذلك الذي تحتفظ له بهذه المتعة.

لا أذكر ما إذا كنت قد أخبرتك بأنه أصبح لي الشرف منذ أربعة أو خمسة أيام بأن أكون موضع أسرارها. وأنت تُدرك أنني أظهرت في البداية الكثير من الصرامة، لكنني ما إن لاحظت أنها ظنّت أنني مقتنعة بوجهات نظرها الباطلة حتى أظهرت لها أنني أعتبرها محقّة. إنها مُقتنعة كل الاقتناع بأن الفضل في هذا النجاح يعود إلى فصاحتها. لقد كان هذا التدبير الاحتياطي ضرورياً لئلا أورّط نفسي، وكان أن سمحت لها بأن تكتب وتقول «أحبك». في اليوم نفسه، ودون أن ترتاب في الأمر، رتّبت لقاءً سرّياً بينها وبين حبيبها دانسيني. ولكن تصوّر، هو أيضاً أحمق كبير إلى درجة أنه لم ينل منها قبلة واحدة. مع أن هذا الشاب ينظم أروع أبيات الشعر! يا إلهي كم هم رجال الأدب أغبياء! وكم أن هذا الشاب غبي بحيث إنه يحيرني، لأنني في النهاية لا أريد أن أقوده.

في هذا الوقت بالذات ستكون مفيداً لي جداً. فأنت على صلة

وثيقة بدانسيني بحيث تستطيع نيل ثقته، وإذا منحك إياها، فإننا نسير سيراً حسناً. سارع إذاً مع رئيستك لأنني لا أريد أن يفلت جيركور، ما عدا ذلك، لقد تحدّثت عنه بالأمس مع الصغيرة، ووصفته لها وصفاً جيداً بطريقة تبدو معها أنها لو كانت امرأته منذ عشر سنوات لما كرهته أكثر مما تكرهه الآن. لكنني وعظتها بصورة خاصة عن الإخلاص في الزواج، ولا شيء يعادل احتراسي حول هذا الموضوع. وبذلك أكون من جهة قد أعدت إلى نفسها الثقة بسمعتي الفاضلة، ومن جهة أخرى، زدت في نفسها الكراهية التي أريد أن تمنح زوجها إياها. وأخيراً آمل -بجعلها تعتقد أنها لا تستطيع أن تستسلم إلى الحب إلا في هذه الفترة القصيرة المتبقّية لها وهي فتاة عازبة- أن تقرر بسرعة بحيث لا تضيّع شيئاً من الوقت.

الوداع أيها الڤيكونت.

*من... في ٢٧ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة التاسعة والثلاثون

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كارنيّ

إنني كئيبة وقلقة يا عزيزتي صوفي، وقد بكيت طوال الليل تقريباً. وهذا لا يعني أنني لست سعيدة في الوقت الحاضر، لكنني أتنبأ بأن ذلك لن يدوم طويلاً.

كنت أمس في دار الأوبرا مع السيدة دوميرتويّ، وتحدّثنا كثيراً عن زواجي، فلم أعرف منها ما يطمئن. إنه الكونت دوجيركور الذي ينبغي أن أتزوّجه، وسيتم ذلك في شهر تشرين الأول. إنه غني، وذو

مزايا عديدة، عقيد في الجيش و. . . كل ذلك حسن جداً. غير أنه كبير السن، تصوّري أن عمره ستة وثلاثون على الأقل! كما أن السيدة دوميرتويّ تقول عنه إنه مُتجهّم وصارم، وتخشى ألا أكون سعيدة معه. ولاحظت جيداً أنها متأكّدة من ذلك، ولا تريد أن تخبرني كي لا تُحزنني. ولم تحدّثني طوال السهرة تقريباً سوى عن واجبات الزوجات نحو أزواجهن. وهي تعترف بأن السيد دوجيركور ليس لطيفاً أبداً، مع ذلك تقول إن عليّ أن أُحبّه. وقالت لي أيضاً إنني متى تزوّجت يجب ألا أحب الفارس دانسيني أبداً. كما لو أن الأمر ممكن! آه، أؤكّد لك أنني سأحبه دائماً. أتفهمين؟ أنا أُفضّل ألا أتزوّج. فليتدبّر السيد دوجيركور أمره، فأنا لم أبحث عنه. هو الآن موجود في كورسيكا، بعيداً جداً من هنا. أتمنّى أن يبقى هناك عشر سنوات أخرى. ولولا خشيتي من العودة إلى الدير لقلت لوالدتي إنني لا أريد هذا الزوج، لكن الأمر سيكون أسوأ. أنا حائرة جداً، وأشعر بأنني لم أحب السيد دانسيني كما أُحبّه الآن. وحين أفكّر أنه لم يبقَ أمامي سوى شهر واحد لأظل كما أنا، فإن الدموع تطفر من عينيّ فوراً. وليس لي من عزاء إلا في صداقة السيدة دوميرتويّ، فهي ذات قلب طيّب جداً! وتشاطرني جميع أشجاني مثلي تماماً. وهي بالغة اللطف بحيث إنني حين أكون معها لا أعود أُفكّر مُطلقاً في أحزاني. وفضلاً عن ذلك، هي مفيدة جداً، إذ إن القليل الذي أعرفه، عرفته بفضلها. وهي طيبة جداً إلى درجة أنني أحكي لها كل ما أفكّر فيه دون أن أشعر بالخجل مُطلقاً. وحين تجد أن ذلك ليس حسناً فإنها تؤنّبني في بعض الأحيان، ولكن بكل رقّة، ثمّ أُقبّلها من كل قلبي إلى أن يزول غضبها. أستطيع على الأقل أن أُحبّ هذه المرأة بقدر ما أشاء، دون أن يكون في الأمر أي بأس،

وهذا يسرّني كثيراً. مع ذلك، فقد اتفقنا على ألا أُظهر أمام الناس أنني أحبّها إلى هذا الحد، لا سيما أمام أمي حتى لا ترتاب في شيء بخصوص الفارس دانسيني. أؤكد أنني لو استطعت أن أعيش دوماً كما أعيش الآن لكنت أسعد الناس. وليس هناك إلا هذا القبيح دوجيركور!... لكنني لا أريد أن أُحدّثك عنه المزيد، لأنني سأصبح تعيسة من جديد. بدلاً من ذلك، سأكتب إلى السيد دانسيني، لن أُحدّثه إلا عن حبّي، لا عن همومي، لأنني لا أريد أن أُحزنه.

الوداع يا صديقتي الطيّبة، أنتِ ترين جيّداً أنك مخطئة حين تعاتبينني، وإنني مهما كنت «مشغولة» كما تقولين. يظلّ لديّ الوقت الكافي لكي أحبّك وأكتب إليك.

*باريس، في ٢٧ أغسطس/آب **١٧.*

الرسالة الأربعون

من الفيكونت دوفالمون إلى المركيزة دوميرتويّ

لقد وجَدَتْ ظالمتي أنه قليل عليّ ألّا تردّ على رسائلي، وأن ترفض تسلّمها، لذلك تريد الآن حرماني من رؤيتها، وتُطالبني بأن أبتعد عنها. ولكن ما سيُدهشك أكثر، هو أنني أرضخ لكل هذه القسوة. لعلّك تلقين عليّ باللائمة. مع ذلك، لا أعتقد أن عليّ إضاعة فرصة تركها تُصدر لي الأوامر: لأنني كنت مُقتنعاً من ناحية بأن من يُصدر الأوامر يُلزم نفسه بها، ومن ناحية ثانية، لأن السلطة الوهمية التي نتركها للنساء هي إحدى الكمائن التي يصعب عليهن تفاديها. فضلاً عن ذلك، فإن البراعة التي عرفت أن تقوم بها كي

تتجنّب الاجتماع بي وحدها وضعتني في موقف خطير، أعتقد أن من واجبي الخروج منه مهما كلّف الأمر: لأن بقائي باستمرار معها دون أن أتمكّن من إشغالها بحبّي يجعلني أخشى أن تعتاد رؤيتي أخيراً دون أن تضطرب، وهذا وضع تعرفين جيداً كم من الصعب الخروج منه.

غير أنني كما تتصوّرين لم أرضخ للأمر من دون شرط، بل حرصت على وضع شرط مستحيل بحيث أتمكن دائماً من أن أفي بوعدي أو أحنث به، وأخوض معها حديثًا شفهيًا أو كتابيًا في الوقت الذي تكون حسنائي فيه مسرورة مني، لأنها بحاجة لأن أكون مسروراً منها. مع العلم أنني سأكون أخرق إذا لم أجد وسيلة للحصول على بعض التعويض مقابل تنازلي عن ادّعائها مهما كان لا يُطاق.

بعد أن عرضتُ لك وجهات نظري في هذه المقدّمة الطويلة، أبدأ بسرد الأحداث التي جرت خلال اليومين الأخيرين، وأرفق لك، كوثائق ثبوتية، رسالة حسنائي وجوابي عنها، وهكذا تجدين أن قلّة من المؤرّخين يتمتعون بالدقة مثلي.

أنت تذكرين أول من أمس كيف كان وقع رسالتي من ديجون في نفسها. كانت بقية النهار عاصفة جداً، وقد جاءت الورعة الحسناء في وقت الغداء فقط وأعلنت أنها مُصابة بصداع شديد، وهي حجّة تريد أن تُغطّي بها أقسى ما يمكن أن يطرأ على امرأة من فرط الغضب. كان قد تغيّر وجهها بالفعل، حلّت محل مسحة النعومة التي تعرفينها فيها هيئة مُتمرّدة أضفت عليها جمالاً جديداً. وقد وعدت نفسي أن أستخدم هذا الاكتشاف فيما بعد وأستبدل العشيقة الحنون أحياناً بالعشيقة المتمردة.

توقّعت أن يكون ما بعد الغداء كئيباً. ولكي أُنقذ نفسي من

الضجر، تذرعت بحجة كتابة بعض الرسائل وانسحبت إلى غرفتي. عدت إلى الصالون نحو الساعة السادسة، وهنا اقترحت علينا السيدة دوروزموند أن نقوم بنزهة، فوافقنا جميعاً. لكن في لحظة ركوبنا العربة، وربما كي تنتقم مني، تذرعت المريضة المدعية بأن آلامها قد تضاعفت وتركتني أتحمّل وحدي عناء مرافقة عمّتي العجوز. لا أدري ما إذا كانت اللعنات التي كنت أوجهها سراً نحو هذه الأنثى الخبيثة حلّت عليها، لكننا حين عودتنا وجدناها طريحة الفراش.

وفي اليوم التالي، عند الإفطار، عادت إلى حالتها الطبيعية واستعادت رقتها، ما حملني على الظن بأنها سامحتني. ولم نكد نفرغ من تناول الطعام حتى نهضت الحسناء الناعمة بطريقة وقحة، وتوجّهت نحو الحديقة، فلحقت بها كما تتوقّعين، وبادرتها بالسؤال: «من أين جاءتك الرغبة في التنزّه؟» فقالت:

- لقد كتبتُ مُطوّلاً هذا الصباح وأشعر بشيء من التعب في رأسي. فقلت:

- هل ترينني سعيداً لكي تلوميني على هذا التعب؟ فقالت:

- لقد كتبت إليك مطولاً، لكنني أتردّد في تسليمك رسالتي، فهي تتضمّن طلباً، وأنت لم تُعوّدني أن أنال منك ما أطلبه. فأجبت:

- آه... أُقسم لك أنني أوافق عليه إذا كان مُمكناً. فقاطعتني:

- ليس هناك أسهل منه. وإن كنت تعتبره عادلاً فأنا سأتقبله كمعروف. وقدّمت لي رسالتها في هذه الأثناء، فأمسكت يدها، لكنها سحبتها من دون غضب بل بكثير من الارتباك والحدّة، وقالت: «إن الحرّ أشدّ مما كنت أظنّه، يجب أن أعود». ثم سلكت طريق القصر. فقمت بعدة محاولات لكي أُقنعها بمتابعة نزهتها، وتذكرتُ أننا قد نكون على مرمى الأنظار، فاكتفيت بإظهار بلاغتي. وعادت

دون أن تنبس ببنت شفة، واتضح لي أن هذه النزهة لم تكن تهدف إلّا إلى تسليمي رسالتها. ثم صعدت إلى غرفتها، بينما انسحبت أنا إلى غرفتي لكي أقرأ الرسالة التي يُستحسن أن تقرئيها وتقرئي كذلك ردّي عليها قبل أن تفعلي أي شيء آخر.

*في ٢٥ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الحادية والأربعون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

يلوح لي يا سيدي أنك بتصرّفاتك معي، تعمد كل يوم إلى زيادة أسباب الشكوى لديّ ضدّك بإصرارك على الرغبة في بثّي من دون توقّف مشاعر لا أريد، ولا ينبغي بي، الاستماع إليها. إن استغلالك لحسن نيّتي وحيائي لكي تسلمني رسائلك، وبصورة خاصة تلك الوسيلة الخالية من اللباقة التي استخدمتها لإيصال رسالتك الأخيرة إليّ دون أن تخشى تأثير المفاجأة التي قد تُحدثها فيّ فتوقعني في ورطة، كل ذلك ينبغي أن يشكّل عندي مآخذ حادّة عليك تستحقّها. مع ذلك، فبدلاً من العودة إلى التحدّث عن هذه الأخطاء، أتقدّم إليك بطلب سهل وعادل، فإذا نلته منك، أعدك بأن أنسى كل شيء.

لقد قلت لي أنت نفسك يا سيّدي: يجب ألّا أخشى الرفض، وعلى الرغم من أن هذه الجملة قد يتبعها الرفض الوحيد الذي يمكن أن تقوم به نحوي، فإنني أعتقد أنك لن تتراجع عن كلامك الذي أعلنته لي منذ أيام قليلة.

أرجو أن تتلطّف وتبتعد عنّي، وتترك هذا القصر، إذ لا يمكن

لبقائك فيه مدّة أطول إلّا أن يعرّضني أكثر فأكثر إلى حكم جمهور مستعد دائماً ليُسيء الظن بالآخرين، وأنت الذي عوّدته أن يُوجه أنظاره نحو النساء اللواتي يستقبلنك في مجتمعاتهن.

مع أن أصدقائي حذّروني منذ مدّة طويلة من هذا الخطر، لكنني أهملته، لا بل حاربت رأيهم، لشدّة ما جعلني مسلكك تجاهي أعتقد أنك لم ترغب في أن تخلط بيني وبين هذا الحشد من النساء اللواتي تذمرن منك. أما وقد أخذت اليوم تعاملني مثلهن، ولم يعد بوسعي تجاهل ذلك، فيجدر بي تجاه الرأي العام، وتجاه أصدقائي، وتجاه نفسي أن أتّخذ هذا الموقف الضروري. وأستطيع أن أُضيف هنا أنك لن تكسب شيئاً لو رفضت طلبي، بعد أن قررت الذهاب أنا بنفسي إذا أصررت على البقاء. ولكنني لا أحاول التقليل أبداً من الامتنان الذي سأحمله لك تجاه هذا المعروف. وأودّ فعلاً أن تعرف أنني إذا اضطررت إلى الرحيل من هنا، فإن ذلك سيعاكس ترتيباتي. فأثبتْ لي إذاً يا سيدي، أن النساء الشريفات كما قلت لي ذلك مراراً، لا يمكن أن يخشين جانبك البتة. برهن لي على الأقل، أنه حين تكون على خطأ معهن، تستطيع أن تصلح هذا الخطأ.

ولأنني أظن أنني بحاجة إلى ما يبرّر طلبي هذا تجاهك، أقول لك إنك أمضيت حياتك لتجعلها ضرورية، ومع ذلك، لم يتوقف ذلك عليّ فقط. ولكن، دعنا لا نذكر أحداثاً أريد أن أنساها وترغمني على الحكم عليك بقسوة، في الوقت الذي أعرض فيه عليك فرصة استحقاق كل امتناني. الوداع يا سيدي، إن موقفك سيعلّمني بأي مشاعر يجب أن أكون طول الحياة. . .

صديقتك المتواضعة. .

*من. . . في ٢٥ أغسطس/آب ١٧*** .

الرسالة الثانية والأربعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

سيّدتي، مهما كانت الشروط التي تفرضينها عليّ قاسية، فلن أرفض التقيّد بها. أشعر بأنه يستحيل عليّ أن أعاكس أية رغبة من رغباتك. وما دمنا مُتّفقين حول هذه النقطة، أتجرأ بدوري على أن أتقدّم ببعض الطلبات التي يسهل منحها أكثر من طلباتك، والتي لا أرغب بواسطتها سوى الحصول على خضوعي الكامل لإرادتك.

أحدها - وآمل أن أطالب بإنصافك- هو أن تتكرّمي فتُطلعيني على أسماء أولئك الذين يتّهمونني ظلماً عندك، فهم كما يبدو قد أساؤوا إليّ بشدة بحيث صار من حقّي أن أعرفهم. وطلب آخر أنتظره من سعة صدرك: أن تتفضّلي فتسمحي لي بأن أُجاهر من جديد بحبي الذي سيستحقّ أكثر من أي وقت مضى شفقتك.

فكّري يا سيدتي أنني سأسارع إلى إطاعتك في الوقت الذي لا أستطيع معه أن أقوم بذلك إلا على حساب سعادتي، لا بل أقول أكثر من ذلك، رغم الاقتناع الذي أشعر به بأنك لا ترغبين في ذهابي إلّا لكي تُنقذي نفسك من رؤية مؤلمة دائماً لموضع ظلمك.

اعترفي يا سيدتي بأن خشيتك من مجتمع اعتاد أن يحترمك كثيراً إلى حدّ ألّا يجرؤ على أن يحكم عليك بالسوء، هي أقل من خشيتك لما يسببه لك من إزعاج وجود رجل تسهل معاقبته أكثر من لومه. أنتِ تُبعدينني عنك كمن يشيح بنظره عن رؤية بائس لا يريد إغاثته.

ولكن، حين سيضاعف الغياب لواعجي، إلى من غيرك أستطيع

أن أتوجّه بشكواي؟ وممن غيرك أنتظر المؤاساة الضرورية؟ فهل ترفضينها وأنت السبب في شقائي؟

لن تعجبي من دون شك أيضاً من أن قلبي يملي عليّ قبل أن أذهب، أن أبرّر أمامك المشاعر التي أوحيتِ بها إليّ، كما أنني لا أجد الشجاعة على الابتعاد قبل أن أتلقّى الأمر من فمك.

إن هذا السبب المزدوج يجعلني أطلب منك لحظة واحدة للتحدث معكِ. ومن غير المجدي أن نعوّض ذلك بالرسائل: إذ بوسعنا أن نكتب المجلّدات دون أن نُحسن شرح ما يمكن لربع ساعة من المحادثة أن توضحه جيداً. لن يصعب عليك إيجاد الوقت لكي تمنحيني إياه، لأنني مهما كنت مُتعجّلاً في أن أمتثل لطاعتك، فأنت تعلمين أن السيدة دوروزموند عالمة بنيّتي تمضية جزء من الخريف عندها، وينبغي على الأقل أن أنتظر وصول رسالة ما كي أتذرع بقضيّة تستدعي سفري.

الوداع يا سيّدتي، لم تكلّفني قط كلمة كهذه مثل هذا الجهد كي أكتبها، لأنها تذكّرني بفكرة انفصالنا. آه، لو كنتِ تتصوّرين كم جعلتني أتعذّب! وأظن أنني سأنال بعضاً من امتنانك على طاعتي. تفضّلي على الأقلّ برحابة صدرك وتقبلي مني تأكيد حبّي الحنون والأشدّ احتراماً.

من... في ٢٦ *أغسطس/آب* ١٧**.

ملحق الرسالة الأربعين

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

لنفكّر الآن بتعقّل، يا صديقتي الحسناء. أنت ترين مثلي أن المُتشككة الشريفة السيدة دوتورڤيل لا تستطيع أن توافق على طلبي الأول، وتخون بذلك ثقة أصدقائها حين تفصح لي عن أسماء الذين يتهمونني. وهكذا، فإنني بهذا الشرط، لا أكون قد تعهّدت نحوها بشيء. لكنك تلاحظين أيضاً أن هذا الرفض من جانبها سيفتح مجالاً للحصول على بقية الطلبات. وهكذا سأفوز، بابتعادي عنها وباعترافها، بخوض مراسلات منتظمة، لأنني لا أعوّل كثيراً على الموعد الذي أطلبه منها، والذي لا يهدف إلا إلى تعويدها سلفاً عدم رفض طلبات أخرى حين تصبح ضرورية لي. والشيء الوحيد الذي بقي عليّ أن أفعله هنا قبل سفري هو أن أجد وسيلة أعرف بواسطتها من هم الأشخاص الساخطون عليّ. لكن حسنائي هدّأت مع ذلك غضبي بالاهتمام الذي بدر منها حيال انزعاجي المصطنع. ولم يفتني أن أؤكد لها أنني، منذ بعض الوقت، عانيت من اضطرابات شديدة أضعفت صحتي. أمّا وقد اقتنعت أنها هي من كان السبب في ذلك، أفلا يجدر بها أن تعمل راضية على تهدئتها؟ ولكن على الرغم من تقواها، فهي ترفض أن تتصدّق عليّ بأي حب، وهذا الرفض كافٍ بنظري كي أسمح لنفسي بسرقة هذه الصَدَقة. ولكن وداعاً، إذ إنني وأنا أكتب إليك لا أفكر إلّا في رسائلها اللعينة.

*من. . . في ٢١ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثالثة والأربعون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

لماذا تحاول يا سيدي أن تقلل من قيمة امتناني؟ لماذا تريد أن تطيعني نصف طاعة، وتساوم نوعاً ما على طريقة شريفة؟ ألا يكفيك إذاً أن أشعر بعبء الثمن؟ أنت لا تطلب مني الكثير فحسب، بل تطلب مني أموراً مستحيلة. إذا كان أصدقائي قد حدثوني حقيقة عنك، فذلك لأنهم يريدون مصلحتي: وإن كانوا مخطئين في حقك، إلا أن نيتهم سليمة. ثم تريدني أن أعترف لك بأسمائهم وأبوح بأسرارهم! لقد اخطأت بالتحدث إليك عنهم، وأشعر بفداحة خطئي الآن. إن ما يكون مجرد سذاجة مع أي شخص آخر، يصبح بمثابة حماقة معك. وقد أقع فريسة الهمّ إذا ما وافقتك على طلبك. إنني أناشدك، أناشد ضميرك وشرفك، هل تظن أنني قادرة على القيام بهذا العمل حتى تطلبه مني؟ هل كان لا بد من أن تطلبه مني؟ كلا ولا ريب. إنني متأكدة أنك لو فكرت جيداً لما عدت إليه مرة أخرى أبداً. أما طلبك الآخر، بأن تكتب إليّ، فإن الموافقة عليه ليست أسهل من الأول، وإذا شئت أن تكون منصفاً، فلست أنا التي ستوقعها في حبائلك. أنا لا أودّ الإساءة إليك البتة، ولكن باعترافك نفسه، نظراً إلى السمعة التي اشتهرت بها، ربما تستحقها نوعا ما، فأي امرأة تستطيع أن تعترف بأنها تتبادل وإياك الرسائل؟ وأي امرأة شريفة يمكن أن تقرر القيام بعمل ستكون مضطرة إلى إخفائه؟

ثم لو كنت متأكدة أن رسائلك لن تتضمن ما أتذمر منه، أو لو أنني أستطيع التبرير لنفسي باستلامها، فلربما جعلتني الرغبة عندئذ

أبرهن لك أن الإنصاف وليست الكراهية هو الذي يملي عليّ تصرفاتي، ولكنت تجاوزت هذه الاعتبارات القوية، وفعلت أكثر مما بوسعي وسمحت لك بالكتابة إليّ في بعض الأحيان. وفي الحقيقة، إذا كنت تصرّ على ذلك كما تقول، فعليك أن تقبل بالطلب الوحيد الذي رجوته منك، والذي يمكن أن يجعلني أوافق. ولو كان لديك بعض العرفان بالجميل تجاه ما أفعله من أجلك الآن، لما خالفتني ولكنت رحلت على الفور.

اسمح لي أن ألفت نظرك بهذا الخصوص، إلى أنك تلقيت رسالة هذا الصباح، ولم تنتهز الفرصة لكي تُعلم السيدة دوروزموند برحيلك كما وعدتني. وآمل الآن ألا يكون هناك ما يمنعك من التقيد بكلامك، وأحسب أنك لتنفيذ وعدك، لن تنتظر ذلك الموعد الذي تطلبه مني، لأنني لست مستعدة للقيام به على الإطلاق. وعوضاً عن الأمر الذي تدّعي أنه ضروري لك، لن أكرر سوى الرجاء بهذا الشأن. الوداع يا سيدي.

*من... في ٢٧ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الرابعة والأربعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

شاطريني فرحي يا صديقتي الحسناء فأنا محبوب، وقد انتصرتُ على القلب المتمرد. عبثاً حاول المراوغة، لكن براعتي السعيدة فاجأت تكتّمه، وأصبحت أعرف كل ما تهمني معرفته بفضل مساعيّ النشيطة. ومنذ تلك الليلة، ليلة أمس السعيدة، أجد نفسي في هناء

بعد أن استعدت كل وجودي وكشفت النقاب عن سرّ مُزدوج من الحب والظلم: سأتمتع بالأول، وأنتقم من الآخر. سأطير من متعة إلى متعة. إن التفكير وحده في ذلك يجعلني أحلّق بالخيال إلى درجة أنني أجد من الصعب قليلاً أن أتذكر احتراسي. ولا بد أن أضع شيئاً من التنسيق في هذه القصة التي لدي لأطلعك عليها. فلنحاول إذاً.

ففي اليوم نفسه، بعد أن كتبتُ إليك رسالتي، تلقّيت رسالة من الورعة السماوية أُرفقها لك. وسترين أنها تمنحني بكل سذاجة الإذن لكي أراسلها. لكنها تعجّل رحيلي، وأشعر بأنني لا أستطيع أن أخالفها طويلاً دون أن يسبب لي ذلك شيئاً من الأذى.

وفي تلك الأثناء، كانت تعصف بي رغبة ملحّة لكي أعرف من يمكن أن يكتب ضدي، وكنت ما زلت غير متأكد من الطريقة التي سأتبعها. وحاولت أن أحظى بثقة خادمتها الخاصة لكي أحملها على أن تسلّمني محتويات جيوب سيدتها التي تستطيع أن تستولي عليها بسهولة في المساء وتعيدها إلى مكانها في الصباح دون أن تثير شكوكها. فعرضت عليها عشر ليرات ذهبية مقابل هذه الخدمة البسيطة، ولكنني لم أجد أمامي سوى امرأة شديدة الحذر، خجول، بحيث لم تنفع معها بلاغتي ولا رشوتي. وكنت لا أزال أحاول إقناعها حين دقّت ساعة العشاء، وكان لا بد من تركها وأنا سعيد بأنها شاءت أن تعدني بكتمان السرّ الذي لم أكن أعوّل عليه مطلقاً. لم أشعر بغضب كهذا من قبل، شعرت بأنني واقع في ورطة، وأخذت ألوم نفسي طوال السهرة على تصرفي الطائش.

عدت إلى غرفتي وأنا مفعم بالقلق، وتحدّثت بالأمر مع خادمي الأمين الذي من المفترض أن يكون له عندها بعض الحظوة بوصفه عشيقها السعيد. طلبت منه إمّا أن يحمل هذه البنت على أن تفعل ما

طلبته منها، وإما على الأقلّ أن يتأكّد من كتمانها السرّ. لكنه، وهو الذي لا يرتاب عادة بشيء، بدا كأنه يشكّ في نجاح هذه المفاوضة، وأبدى لي ملاحظة أدهشتني بعمقها، إذ قال لي: «إن سيّدي يعلم بالتأكيد أكثر مني أن مُضاجعة فتاة تعني جعلها تفعل كل ما يُعجبها، ولكن من المُستبعد أن نجعلها تفعل ما نريد». (ذكاءُه يدهشني أحياناً) ثم أضاف: «هناك ما يبعث على الظن أن لدى هذه الفتاة عشيقاً آخر في باريس، وأنا لم أغازلها هنا إلا لشدة ضجري من حياة الريف. وهكذا، لولا حماستي من أجل خدمة سيّدي لما كنت ضاجعتها سوى مرّة واحدة» (يا له من كنز هذا الفتى!). «أما فيما يتعلّق بالسر، فماذا ينفع أن نجعلها تعد بكتمانه إذا كانت لا تخشى شيئاً إذا خدعتنا؟ ولو حدّثناها مرّة أخرى عنه، فإننا بذلك نلفت انتباهها إلى أنه سرّ مُهم، مما يثير رغبتها في إفشائه إلى سيدتها».

وكلّما استفاض في إبداء ملاحظاته، زاد ارتباكي. ولحسن الحظ أخذ الأحمق يثرثر، وبما أنني كنت بحاجة إليه فقد تركته يفعل. أعلمني وهو يروي لي قصّته: نظراً إلى أن الغرفة التي تشغلها الفتاة ليست مُنفصلة عن غرفة سيّدتها إلّا بحاجز بسيط يجعل من السهل سماع أي حركة مُريبة، كان يجتمع بها في غرفته كل ليلة. وضعت خطّتي على الفور وأبلغته بها، ثم نفّذناها بنجاح.

انتظرت حتى الساعة الثانية صباحاً كي أذهب إلى غرفته كما اتفقنا. وتحت حجّة أنني دققت الجرس عدّة مرّات دون أن يسمعني، ذهبت ومعي سراج صغير وفتحت باب غرفته. كان خادمي يقوم بدوره ببراعة مع الفتاة. كان مشهداً صغيراً من المفاجأة واليأس والاعتذار، فوضعت حدّاً له بأن كلّفته بتسخين ماء ادّعيت حاجتي إليه، بينما كانت الخادمة المتحرجة في غاية الخجل، لا سيما أن الخبيث كان

قد أمرها بأن تتزيّن بما يلائم المشهد بحيث لم تعرف كيف تُبرّر نفسها.

وحين شعرت بأنه كلّما كانت هذه الفتاة مُهانة، سَهُل عليّ أن أسيطر عليها، لم أسمح لها بأن تغيّر شيئاً من وضعها ولا من زينتها. وبعد أن أمرت خادمي بأن ينتظرني في غرفتي، جلست إلى جانبها على سرير في غاية الفوضى، ثم بدأت حديثي. كنت بحاجة إلى أن أحتفظ بالسلطان الذي فرضه الموقف، فحافظت على هدوئي، وهذا ما كان له تأثير كبير في موقف العاشقة. حدّثتها بكل هدوء عن الموضوع الذي يهمّني دون أن أتمادى في حرّيتي معها وكأنني أتحدث مع وكيلي، مع العلم أن نضارتها وهذه المناسبة كانتا تتيحان لي الفرصة لأفعل ما أريد.

وكانت شروطي أنني سأحتفظ بسرّها بأمان، شرط أن تُسلّمني غداً في الساعة نفسها أو ما حولها محتويات جيوب معلّمتها. ثم أضفت قائلاً: «بما أنني كنت قد عرضت عليك عشر ليرات ذهبية أمس، فإنني أعدك بها اليوم ولا أريد أن أستغلّ موقفك هذا». وكان أن وافقتْ على ذلك، كما تتوقّعين، فانسحبت عندذاك إلى غرفتي، وسمحت للثنائي السعيد باستدراك ما فاتهما من الوقت. أما أنا فقد اغتنمت الوقت كي أنام. وعند استيقاظي أردت أن أختلق مُبرّراً كي لا أجيب عن رسالة حسنائي قبل أن أطّلع على أوراقها السرّية، وهذا ما لم يكن ممكناً إلّا في الليلة التالية، فقرّرت الذهاب إلى الصيد لأقضي النهار كلّه تقريباً.

قابلتني لدى عودتي ببرود شديد، ما جعلني أعتقد أنها مستاءة لأني لم أظهر الكثير من الحماسة في الإفادة من الوقت المتبقّي لي هنا، لا سيما بعد رسالتها اللطيفة الأخيرة. هذا ما استنتجته من لوم

عمّتي السيدة دوروزموند بسبب هذا الغياب الطويل، وقد علّقت حسنائي على ذلك بقولها: «آه! ليس علينا لوم السيد دوڤالمون على اندفاعه في المتعة الوحيدة التي يمكن أن يجدها هنا». فشكوت هذا الظلم بحقّي واغتنمت الفرصة لأؤكّد أنه يسرني أكثر أن أكون بصحبة السيدتين المحترمتين، وأنني سأضحّي للبقاء معهما بكتابة رسالة مهمّة جداً كان عليّ أن أكتبها اليوم. ثم أضفت قائلاً: «لقد ذهبت إلى الصيد علّني، ببذل مجهود شاقٍ، يسعفني النوم أخيراً، لأنني لم أنم منذ عدّة ليال». وقد أفصحت نظراتي ما فيه الكفاية عن قصة الرسالة سبب أرقي. وهكذا، حرصت طوال السهرة على أن أُظهر رقّة كئيبة بدا لي أنها نجحت تماماً، لكنني كنت أُخفي تحتها فقدان صبر لا يحتمل بانتظار الساعة التي سأتسلّم فيها السرّ الذي أصرّت على إخفائه عنّي. افترقنا أخيراً، وبعد فترة قصيرة، حملت إليّ الخادمة الأمينة الثمن المتّفق عليه مقابل كتماني سرّها.

وما إن أصبح هذا الكنز ملك يديّ، حتى قمت بجرده بالحرص الذي تعهدينه فيّ. لأن من المهمّ إعادة كل شيء إلى مكانه. وقعت بين يديّ أولاً رسالتان من زوجها، تتضمّنان خليطاً لا يُهضم من تفاصيل المحاكمات ولواعج غرام زوجي، تحمّلت بصبر قراءتهما بالكامل، ولم أجد فيهما أيّ كلمة تتعلّق بي، فأعدتهما إلى مكانهما بغضب، لكن غضبي خفّ كثيراً حين وقعت بين يديّ قصاصات رسالتي الشهيرة من ديجون، وقد جُمعت بعناية. لحسن الحظ، خطر ببالي أن أُعيد قراءتها. وبإمكانك أن تتصوّري كم كانت فرحتي عارمة حين وجدت فوقها آثاراً واضحة من دموع ورعتي المعبودة. وأعترف أنني استسلمت إلى حركة شابٍ مراهق، وقبّلت الرسالة بنشوة لم أتخيل نفسي قابلاً لها. ثم تابعت تفحّصي للرسائل فعثرت على جميع

رسائلي الأخرى مرتّبة حسب تسلسلها التاريخي. ولعلّ أكثر ما أدهشني أيضاً أنني عثرت على رسالتي الأولى التي ظننت أنها أعادتها إليّ، وقد نسختها بيدها بأمانة، وبخطّ مضطرب يدلّ على تأثّر قلبها الرقيق أثناء كتابتها.

وحتى ذلك الحين، كنت غارقاً في الحب، لكن الغضب اجتاحني. من تعتقدين يكون ذاك الذي يريد الإساءة إلى سمعتي لدى هذه المرأة التي أعبدها؟ وأي امرأة حيزبون خبيثة تعتقدين أنها تحوك مثل هذه الإساءة؟ أنت تعرفينها، إنها صديقتك وقريبتك السيدة دوفولانج. أنت لا تتصوّرين أية حكاية من الفظاعات الجهنّمية المزعومة كتبت لها عني، وهي وحدها التي عكّرت صفو هذه المرأة الملائكية. بسبب نصائحها وآرائها الخطيرة تريد التضحية بي وأجد نفسي مُجبراً على الابتعاد. آه، يجب إغواء ابنتها من كل بدّ! ولكن ذلك ليس كافياً، إذ يجب أن نوصلها إلى الضلال. وبما أن عمر هذه المرأة الملعونة يضعها بمنأى عن ضرباتي، فلا بد من ضربها في أعزّ ما تحبّ.

إنها تريد إذاً أن أعود إلى باريس! وهي تُجبرني على ذلك! فليكن، سوف أعود، ولكن ستبكي كي أعود. إن ما يزعجني هو أن دانسيني أصبح بطل هذه القصة، وهو من منشأ شريف وهذا ما يمكن أن يُزعجنا. غير أنه عاشق وأنا أراه غالباً، وقد نستفيد من وضعه هذا. ها قد نسيت نفسي في فورة غضبي ولم أكمل رواية ما حدث اليوم، فلنستأنف:

شاهدت هذا الصباح حسنائي الحسّاسة من جديد، ولم أرها بمثل هذا الجمال أكثر مما كانت عليه اليوم. وهذه، بلا شك، أجمل لحظة في حياة امرأة، لا بل اللحظة الوحيدة التي تشرق فيها بهذا

الانتشاء الروحي الذي طالما تحدّث عنه الكثيرون ونادراً ما نشعر به. . . لحظة نكون متأكّدين من حبّها، دون أن نتأكّد بعد من مفاتنها، وهذه هي تماماً حالتي التي وجدت نفسي فيها اليوم. ولعل التفكير أيضاً في أنني سأحرم من لذّة رؤيتها، قد ساعدت على مضاعفة جمالها. أخيراً لدى وصول البريد، تسلّمت رسالتك المؤرّخة في ٢٧، وفيما كنت أقرأها تردّدت أيضاً فيما إذا كنت سأحافظ على وعدي، لكنني التقيت بنظرات حسنائي، وقد كان من المستحيل عليّ في ذلك الحين أن أرفض طلبها.

أعلنت رحيلي إذاً. وبعد قليل، تركتنا السيدة دوروزموند بمفردنا، ولكنني كنت ما أزال على بعد خطوات من المرأة النفور عندما نَهضتُ وقد بان عليها الفزع وقالت: «دعني يا سيدي، أستحلفك بالله أن تتركني وشأني». لكن هذا الرجاء الحار الذي كشف عن أفعالها، لم يؤدِّ إلّا إلى شحن رغبتي. كنت واقفاً قربها، فأخذتُ يديها اللتين كانت قد شبكتهما بطريقة مؤثّرة، وبدأتُ هنا في توسّلات ناعمة حين لا أعرف أي شيطان أعاد السيدة دوروزموند إلى الصالون، أما الورعة الخجول التي كانت لديها جميع الدواعي لكي تخاف، فقد اغتنمت الفرصة وانسحبَت.

مع ذلك مددتُ لها يدي، فقبلت وشعرتُ بشيء من اللطف الذي لم تحصل عليه منذ وقت طويل، وحاولتُ وأنا أكمل الشكوى أن أشدّ على يدها، فأرادت في البداية أن تسحبها، لكنها بعد إصراري المُلحّ استسلمت بكل طيبة خاطر رغم أنها لم تتجاوب مع هذه الحركة ولا مع كلامي. وحين وصلنا إلى باب غرفتها أردتُ أن أقبّل هذه اليد قبل أن أفارقها، وهنا بدأ الدفاع يبدو صريحاً، لكنني قلت لها بكل رقّة: «فكّري إذاً أنني راحل»، ما جعلها ترتبك. وما

إن طبعت قبلتي حتى سحبَت يدها ودخلتْ إلى غرفتها حيث كانت خادمتها موجودة، وهنا تنتهي قصّتي. أفترض أنك ستكونين غداً في زيارة الماريشالة دو. . . ولن أذهب لرؤيتك بالتأكيد، وأتوقّع عند مقابلتنا الأولى أنه سيكون لدينا أكثر من قضيّة لنتباحث بأمرها معاً، وبصورة خاصة قضيّة الصغيرة دوفولانج التي لن أنساها، فقد قرّرت أن تسبقني هذه الرسالة إليك ومهما كانت طويلة فإنني لن أختمها إلا حين أرسلها إلى البريد، إذ في الحالة التي أنا فيها الآن، كل شيء يتوقّف على فرصة معيّنة، وأتركك الآن كي أذهب وأقتفي أثرها.

ملاحظة: الساعة الآن التاسعة مساء.

لا جديد حتى الآن ولا أية لحظة حرّية، لا بل أحرص على أن أتجنّبها. وفي الأثناء، سوف أُظهر المزيد من التعاسة التي تفرضها الظروف، لكن هناك حدث لا يخلو من الأهميّة، وهو أنني كُلّفت من قبل السيدة دوروزموند بدعوة السيدة دوفولانج لكي تأتي وتمضي عندها بعض الوقت في الريف.

الوداع يا صديقتي الحسناء، وإلى الغد، أو بعد غد على أقصى تعديل.

*من. . . في ٢٨ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الخامسة والأربعون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيّدة دوڤولانج

سيدتي، لقد رحل السيد دوڤالمون هذا الصباح، كنتِ قد أبديتِ رغبة شديدة في هذا الرحيل بحيث أجد من واجبي أن أعلمك به. غير أن السيدة دوروزموند تأسفت كثيراً على سفر ابن شقيقها الذي لا بد من الاعتراف بأن صحبته ممتعة. وقد أمضت الصباح كله وهي تحدثني عنه بالحساسية التي تعهدينها فيها، دون أن تخفي مديحها له. وقد وجدت أن اللباقة تقضي بأن أصغي إليها من دون مخالفتها، مع العلم أنه يجب التسليم بأنها محقّة في نقاط كثيرة، وشعرت فضلاً عن ذلك بأنني ملامة لأنني كنت السبب في حرمانها من متعة صحبته. بطبيعة الحال، أنت تعلمين أنه ليس لديّ ما يسلّي هنا سوى القليل، وأن نمط الحياة الذي نعيشه هنا يزيد الأمر سوءاً.

لو أنني لم أتصرف بحسب توجيهاتك، لكنت خشيت أن أتصرّف بشكل لا يليق بي، لكنني تأثرت حقيقة لحزن صديقتي المحترمة إلى درجة أنني كنت أود أن أشاطرها دموعها من كل قلبي.

إننا نعيش الآن على أمل أن تقبلي الدعوة التي سيقدّمها إليك السيد دوڤالمون من قبل السيدة دوروزموند، وأرجو ألا تشكّي مطلقاً في أنني سأكون سعيدة جداً بلقياك. في الحقيقة، أنت تدينين لنا بهذا التعويض. وسأكون مسرورة جداً لأغتنم هذه الفرصة وأتعرف إلى الآنسة دوڤولانج، كما سأكون قريبة منك كي أعبّر لك عن مشاعر التقدير.

*من... في ٢٩ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة السادسة والأربعون

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

ماذا جرى لك يا معبودتي؟ من الذي سبب لك هذا الانقلاب المفاجئ القاسي؟ وأين هو قسمك ألا تتغيّري؟ أمس فقط، كنت تكررينه وأنت في غاية السرور! من يستطيع اليوم أن يجعلك تنسينه؟ لقد راجعت نفسي طويلاً ولم أعثر على السبب عندي، وكم يؤلمني أن أبحث عنه لديك. آه، أنت لست فتاة خفيفة ولا مخاتلة، وحتى في هذه اللحظة من اليأس، لا يمكن أن يساور روحي أي شك مهين. مع ذلك، أي قدر عابث جعلك تتغيرين؟ كلا، أنت لست قاسية القلب. سيسيل اللطيفة، سيسيل التي أعبدها، والتي تلقيت منها العهود، ما كانت لتتجنب نظراتي البتة، وما كانت لتعاكس المصادفة السعيدة التي وضعتني بقربها. وإذا كانت ثمة أسباب لا أستطيع فهمها وقد حدت بها أن تعاملني بمثل هذا الجفاء، ما كانت لترفض على الأقل أن تخبرني.

آه، أنت لا تدرين، ولن تدري أبداً كم جعلتني أتعذب اليوم، وكم أتعذب الآن! فهل تعتقدين أنني قادر على العيش دون أن أكون محبوباً من قبلك؟ مع ذلك، حين طلبت منك كلمة، كلمة واحدة تبددين بها مخاوفي، بدلاً من الردّ، عمدت إلى إظهار الخوف من أن يسمعك أحد. وهذا الحاجز الذي لم يكن له وجود حينذاك، خلقته على الفور عندما اخترت مقعدك بعيداً عني. وحينما اضطررت إلى تركك، سألتك عن الساعة التي أستطيع فيها أن أراك غداً، فإذا بك تتظاهرين بأنك تجهلينها، وكان ينبغي أن تحدّدها السيدة والدتك.

وهكذا فإن هذه اللحظة التي هي أشدّ ما أرغب فيه، والتي يجدر بها أن تقربني منك غداً، لن تخلق في نفسي إلا القلق، وبدل السرور برؤيتك العزيزة على قلبي، سيحل الخوف من أن أكون قد أزعجتك.

لقد بدأت أشعر منذ الآن بهذا الخوف يكبلني، فلا أجرؤ على أن أحدثك عن حبي. إن كلمة «أحبك» التي كنت أحب تكرارها كثيراً، هذه الكلمة اللطيفة التي كانت تكفي لهنائي، لم تعد تقدّم لي، إذا كنت قد تغيّرتِ، سوى صورة يأس أبدي. مع ذلك، ليس بوسعي أن أؤمن بأن تعويذة الحب هذه فقدت كل قوتها، وما زلت أحاول قولها أيضاً. أجل يا سيسيل: أحبك. كرري معي إذاً هذه الكلمة التي تعبّر عن سعادتي، وفكّري في أنك عودتني سماعها، وأنك بحرماني إياها، ستحكمين عليّ تحمّل عذاب لن ينتهي -مثل حبي- إلا بانتهاء حياتي.

*من... في ٢٩ أغسطس/آب **١٧.*

الرسالة السابعة والأربعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

لن أراكِ اليوم أيضاً يا صديقتي الحسناء، وإليك أعذاري التي أرجو أن تتلقّيها برحابة صدر.

أمس، بدلاً من أن أعود فوراً، توقّفت عند الكونتيسّة... التي يقع قصرها تقريباً على طريقي. طلبت إليها أن أتعشّى عندها، لذلك لم أصل إلى باريس إلّا نحو الساعة السابعة. نزلت إلى دار الأوپرا حيث كنت آمل أن أجدك.

بعد انتهاء الأوپرا ذهبت لمقابلة صديقات لي من الأسرة. التقيت هناك صديقتي القديمة إيميلي مُحاطة بحاشية كبيرة من النساء والرجال كانت قد دعتهم في المساء نفسه إلى العشاء في ب... وما كدت أخالط هذا الحشد، حتى دُعيت إلى العشاء معه ورحب بي أشد ترحيب. ودعاني أيضاً رجل قصير القامة بَدين، كان يهذر بمزيج من الهولندية والفرنسية، وقد علمت أنه هو بطل هذه الحفلة، فقبلت الدعوة.

أثناء الطريق علمت أن المنزل الذي نقصده هو الثمن المتّفق عليه مقابل ما تكرّمت به إيميلي على هذا الوجه البشع، وأن حفل العشاء هذا هو بمثابة حفلة عرس حقيقي. لم يكن الرجل القصير يتمالك نفسه من شدّة الفرح. بانتظار السعادة التي وعد بها، بدا لي أنه راضٍ جداً إلى درجة شعرت معها بالرغبة في مضايقته. وهذا ما فعلته بالفعل.

والصعوبة الوحيدة التي صادفتها كانت في أن أُقنع إيميلي بأن ثراء العمدة الهولندي موضع شك. لكنها وافقت بعد شيء من التردّد المصطنع على الخطّة التي رسمتُها، وهي أن تملأ هذا البرميل القصير بالخمرة، وتضعه بذلك خارج المعركة طوال الليل.

شجعتنا الفكرة الرائعة التي كوّناها عن سكّير هولندي على استخدام جميع الوسائل المعروفة. وقد نجحنا تماماً، بحيث إنه عندما وصل طبق التحلية بعد العشاء، لم يعد يقوى الرجل على إمساك كأسه. لكن إيميلي المنقذة وأنا لم نكفّ عن ملء الشراب حتى سقط أخيراً تحت المائدة، وقد وصل إلى حالة من السكر كانت ستجعله دائخاً لثمانية أيام. قرّرنا عندذاك أن نرسله إلى باريس. وبما أنه لم يكن قد احتفظ بعربته، فقد حمّلته في عربتي وحللت مكانه.

وقد هنأني المجتمعون الذين انسحبوا أيضاً على أثره، وتركوني سيّد الموقف. جعلني هذا المرح، وربّما عزلتي الطويلة، أرى إيميلي امرأة تثير الرغبة، فوعدتها بالبقاء معها حتى عودة الهولندي من غيبوبته.

كانت هذه البادرة اللطيفة من جانبي ثمناً لتكرّمها عليّ بإعارتي مكتبها لكي أكتب إلى حسنائي الورعة التي وجدتُ من الممتع أن أبعث إليها برسالة مكتوبة على سرير امرأة أخرى، أو تقريباً بين ذراعيها، مرتكباً بذلك خيانة كاملة لحبّها، وصفت فيها بدقة وضعي وتصرفي. إيميلي التي قرأت الرسالة ضحكت بجنون، وأرجو أن تضحكي أنت أيضاً.

وبما أنه ينبغي أن تُختم رسالتي بخاتم بريد باريس، فإنني أرسلها إليك وأتركها مفتوحة. هل تتفضلين بقراءتها وإغلاقها ووضعها في البريد. أرجو ألا تستخدمي ختمك ولا أي رمز من رموز الحب. الوداع يا صديقتي الحسناء.

ملاحظة: أُعيد الآن فتح رسالتي. قررت إيميلي الذهاب إلى مسرح الإيطاليين. سأغتنم هذا الوقت لكي أذهب وأراك. سأكون عندك في الساعة السادسة على الأكثر. وإذا كان هذا يناسبك فسنذهب معاً نحو الساعة السابعة لنزور السيدة دوڤولانج. سيكون من غير اللائق أن أؤجّل الدعوة التي كُلّفت بإبلاغها إياها من قِبل السيدة دوروزموند. إضافة إلى أنني سأكون مسروراً جداً لمشاهدة الصغيرة ڤولانج.

الوداع أيتها السيدة الجميلة. سأكون مسروراً جداً بتقبيلك حتى يغار الفارس مني.

*من . . . في ٣٠ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الثامنة والأربعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

بعد ليلة عاصفة لم يُغمض لي فيها جفن، بين اضطراب نار تأكلني وانعدام كامل لجميع طاقات روحي التي سأبحث عنها لديك يا سيّدتي... هدوء أحتاج إليه، غير أنني لا آمل أن أنعم به بعد الآن. إن الوضع الذي أنا فيه الآن بينما أكتب إليك، يجعلني أعرف أكثر من أي وقت مضى قوّة الحب التي لا تُقاوم. فأنا أجد صعوبة في الاحتفاظ بأي سلطان عليّ لكي أضع أفكاري موضع الترتيب. وأتوقّع أنني لن أختتم هذه الرسالة دون أن أضطر إلى قطعها. ماذا؟! هل يمكن إذاً أن آمل أن تشاطريني بضعة أيام هذا الاضطراب الذي أعانيه في الوقت الحاضر؟ ومع ذلك، أجرؤ على الاعتقاد بأنك لو عرفته يوماً فلن تكوني عديمة الإحساس كليّاً. صدّقيني يا سيّدتي إن الطمأنينة الباردة ورقاد الروح، وهما صورة عن الموت، لا يقودان أبداً إلى السعادة، وأن العواطف الجياشة وحدها تستطيع أن توصل إليها. ورغم العذاب الذي تجعلينني أعانيه، أستطيع أن أؤكّد من دون خوف أنني في هذه اللحظة بالذات، أكثر سعادة منكِ. عبثاً تُرهقينني بقساوتك المؤسفة، فهي لن تمنعني من الانسياق بكليتي وراء الحب وأنسى، في الجنون الذي يُحدثه الحب لي، اليأس الذي تدعينني فيه. هكذا أريد أن أثأر من المنفى الذي حكمت به عليّ. لم أشعر قط بمثل هذا الشعور من قبل في الكتابة إليك، شعور لذيذ لكنه قويّ. كل شيء هنا يزيد من نشوتي: الهواء الذي أتنفّسه مُفعم بالشهوة، والمنضدة التي أكتب عليها تُكرّس لأول مرّة لهذه الغاية،

وقد أصبحت عندي بمثابة مذبح مُقدّس للحب، وكم ستصبح جميلة بنظري! وددت لو أن أخطّ فوقها القَسم بأن أحبّك دوماً. أرجوك، اغفري لي اضطراب حواسي. لربّما ينبغي عليّ أن أقلّل من أحلامي التي لا تشاطرينني إياها. ينبغي أن أتركك لبعض الوقت كي أبدّد نشوةً تزداد كل لحظة وتُصبح أقوى منّي.

أعود إليك يا سيدتي، ولا ريب أنني سأعود دائماً بالعجلة نفسها. غير أن شعور السعادة فرّ مني بعيداً جداً، وحلّ محلّه شعور الحرمان القاسي. ما النفع في أن أُحدّثك عن عواطفي ما دمتُ أحاول عبثاً البحث عن وسائل أقنعك بها؟ فبعد جهود كثيرة مُتكرّرة، أصبحت الثقة والقوّة تخونانني معاً. وإذا كنت أعيد تصور مسرّات الحب، فذلك لكي أشعر بالأسف الشديد لحرماني منها، أنا لا أرى مصدراً لذلك سوى تسامحك. وأشعر في الوقت الراهن كم أنا بحاجة إلى سعة صدرك لكي آمل الحصول عليها. مع ذلك، فإن حبي لم يكن قط أشدّ احتراماً لك مما هو عليه الآن، كما أنه لم يفترض به أن يُهينك. إنه حب لا يمكن أن تخشاه العفّة الشديدة، ولكن أنا نفسي أخاف أن أُحدثك كثيراً عن العذاب الذي أعانيه. وبعد أن تأكّدت من أن الشخص الذي يسبّبه لا يشاطرني إياه، فلماذا على الأقلّ أستغلّ طيبته؟ ومن الأفضل أن أقاسي وحدي بدلاً من إضاعة المزيد من الوقت في رسم صورة مؤلمة. وأنا لا أمنع نفسي من الرجاء بأن تجيبي عن رسالتي، وبألّا ترتابي بحقيقة عواطفي.

*باريس، في ٣٠ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة التاسعة والأربعون

من سيسيل دو ڤولانج إلى الفارس دانسيني

بعيداً عن الخفّة أو المخاتلة، يكفيني يا سيدي أن أكون مدركة موقفي تماماً كي أشعر بضرورة تغييره. فقد قطعت عهداً بأن أضحي بنفسي من أجل الله إلى حين أتمكن من أن أقدم إليه عواطفي التي أكنّها نحوك، كما أن حالة التديّن التي أنت فيها الآن تجعلها أكثر إثماً. أشعر بأن ذلك سيسبب لي المزيد من العذاب، ولن أخفي عليك أنني أول من أمس بكيت كلما فكرت فيك، لكنني آمل أن يمنحني الله نعمة تزودني بالقوة الضرورية لكي أنساك، كما أطلب منه صباح مساء. وأنتظر من خلال صداقتك ونبلك ألا تحاول أن تثنيني عن القرار الصالح الذي أوحيَ إليّ به، والذي أحاول أن أتمسك به. بالنتيجة، أطلب إليك أن تتلطف بعدم الكتابة إليَّ ما دمت أخبرك سلفاً بأنني لن أجيب أبداً، وقد تضطرني إلى إطلاع والدتي على كل ما يجري، ما يحرمني تماماً من متعة رؤيتك.

سوف أحتفظ لك بالودّ الذي أشعر به دون أن يكون هناك من إثم في ذلك، وأتمنى لك كل السعادة من أعماق روحي. أشعر بأنك لن تعود لتحبني كالسابق، وعسى أن تحب فتاة أخرى أفضل مني. لكن ذلك سيكون عقاباً آخر، أكبر من الغلطة حين منحتك قلبي الذي يجب ألا امنحه إلا لله ولزوجي حين سيكون لي زوج. أرجو أن تترأف الرحمة الإلهية بضعفي، وألا تتيح لي من العذاب إلا ما أستطيع تحمّله.

الوداع يا سيدي. أود حقاً أن أؤكد لك أنه لو سمح لي بأن

أحب أحداً لما كان سواك. ولكن هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك، ولعله أكثر مما يجب.

*من... في ٣١ أغسطس/آب ١٧**.*

الرسالة الخمسون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

أهكذا تتقيد، يا سيدي، بالشروط التي وافقت عليها بأن أتلقى رسائلك في بعض الأحيان؟ وهل يمكنني «ألا أتذمر منها» وأنت لا تحدثني فيها إلا عن عاطفة أخاف أن أستسلم لها دون أن أخلّ بجميع واجباتي؟

الخلاصة، لو كنت بحاجة إلى أسباب جديدة لكي أحتفظ بهذا الخوف، فيبدو لي أنني أستطيع أن أجدها في رسالتك الأخيرة. وبالفعل، في الوقت الذي تظن أنك تمتدح الحب، ماذا تفعل سوى أنك تظهر لي عواصفه المخيفة؟ من ذا الذي يرغب في سعادة ثمنها عقله، وفي مسرات قصيرة الأمد لا يأتي من بعدها إلا الحسرات، إن لم يكن الندم؟

أنت نفسك، يا من لديك هذا الجنون الخطير الذي خفّفت من تأثيره العادة، ألست مضطراً مع ذلك إلى الاعتراف بأنه يصبح أحياناً أقوى منك؟ ثم ألست أول من يتذمر من نفسه لما يسببه من اضطراب لاإرادي؟ فأي فوضى مخيفة يمكن أن يحدثه إذاً في قلب جديد حسّاس، إضافة إلى عظمة التضحيات التي سيضطر إلى بذلها؟

أنت تعتقد يا سيدي، أو يبدو لك أنك تعتقد، أن الحب يقود إلى

السعادة، وأنا مقتنعة جداً بأنه يجعلني تعيسة إلى درجة أود معها ألا أسمع باسمه أبداً. يبدو لي أن الحديث عنه فقط يعكر الهدوء، وأرجوك من قبيل الذوق والواجب أن تحتفظ بالصمت حول هذا الموضوع.

على كل حال، إن هذا الطلب من السهل جداً تلبيته لي في الوقت الحاضر. وحين تعود إلى باريس، ستجد فيها مناسبات كافية تُنسيك عاطفة لم تولد إلا من باب الاعتياد على الاهتمام بمثل هذه الأشياء، ولم تزدد إلا بسبب سأمك من الريف. ألستَ الآن في المكان نفسه الذي رأيتني فيه بكثير من اللامبالاة؟ هل تستطيع أن تخطو الآن خطوة واحدة دون أن تقابل قدوة عن سهولة تغيّرك؟ ألست مُحاطاً بنساء جميعهن أجمل منّي ولهن الحق أكثر منّي بإطرائك؟ فأنا لا أملك الغرور الذي تُلام عليه بنات جنسي، وأملك أقلّ أيضاً هذا التواضع الزائف الذي ليس سوى مظهر ناعم من مظاهر التكبّر. لذلك، أقول لك بكل نيّة طيّبة إنني لا أعرف إلّا وسائل قليلة تُثير الإعجاب: حتى ولو ملكتها كلها، فلا أعتقد بأنها كافية لجعلك تثبت. لذلك، حين أطلب إليك ألا تهتم بي بعد الآن، لا يعني ذلك سوى الرجاء أن تفعل اليوم ما كنت تفعله من قبل؟ من المؤكّد أنك ستفعله أيضاً خلال وقت قصير. ومع ذلك فإنني أطلب إليك العكس.

إن هذه الحقيقة التي لا تغيب عن بالي، ستكون وحدها سبباً قوياً كي لا أرغب في الإصغاء إليك. فلديّ أمور كثيرة أخرى، لكنني أصرّ -دون أن أدخل معك في نقاش طويل- على رجائي لك، كما فعلت من قبل، بألا تُحدّثني عن عاطفة ينبغي عليّ ألا أُصغي إليها، ولا أريد أن أُجيب عنها.

من... في الأول من سبتمبر/أيلول **١٧.

القسم الثاني

الرسالة الحادية والخمسون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

في الحقيقة أيها الڤيكونت، أنت غير مُحتمل. تعاملني باستخفاف كبير كما لو كنت عشيقتك. هل تعلم أنني غاضبة وأشعر في هذه اللحظة باستياء عارم؟ ماذا؟! يجب عليك أن تقابل دانسيني غداً صباحاً؟ أنت تعلم كم هو مهم جداً أن أتحدّث إليك قبل هذه المقابلة. تركتني أنتظرك طوال النهار دون أن تقلق، بينما ذهبت لتتسكع لا أعرف في أي مكان؟ جعلتني أذهب مُتأخّرة «من دون تهذيب» لأرى السيدة دوڤولانج حيث جميع النساء العجائز وجدنني «أثير العجب». كان لا بد لي من أن أقدّم إليهن الملاطفات طوال السهرة لكي أخفف من استيائهن. لأنه يجب عدم إغضاب العجائز، فبأيديهن سمعة الصغيرات.

الساعة الآن الواحدة ليلاً، وبدلاً من أن أنام، لأنني أكاد أموت من النعاس، يجب أن أكتب لك رسالة طويلة ستضاعف شعور النعاس بسبب الضجر منها. لا شك أنك سعيد جداً لأنه ليس لدي الوقت الكافي لأؤنّبك، ولكن لا تظن أنني سأسامحك، بل لأنني على عجلة من أمري. فاسمع إذاً وبسرعة.

بقليل من البراعة غداً يمكنك أن تصبح موضع أسرار دانسيني.

إن أفضل وقت للثقة هو ساعة المصيبة! فقد ذهبت الصغيرة سيسيل للاعتراف عند أحد الكهنة، وقد روت له كل شيء مثل طفلة. منذ ذلك الحين وهي مضطربة البال خوفاً من الشيطان، إلى درجة أنها تريد أن تقطع مع المسكين كل صلة. وقد حدّثتني عن جميع وساوسها الصغيرة بحماسة جعلتني أعرف منها كم امتلأ رأسها بالمخاوف. ثم أطلعتني على رسالة الانفصال التي هي عبارة عن ورقة نعي. ثرثرت معي لمدّة ساعة دون أن تقول كلمة ذات معنى، لكنها أثارت حيرتي كثيراً لأنني لم أستطع أن أكشف نفسي أمام هذه الفتاة بتفكيرها الأهوج.

لاحظت من خلال هذه الثرثرة أنها ما زالت تحب دانسيني، ووجدت لديها بسبب سذاجتها أدلة لا تُخفي هذا الحب البتة. فبعد أن ساورها القلق من جرّاء الرغبة في الاهتمام بحبيبها، والخشية من الإثم إذا اهتمّت به، تصوّرتْ أن عليها أن تُصلّي كي تنساه. وبما إنها تكرّر صلاتها في كل لحظة من لحظات النهار، فهي تجد بذلك الوسيلة للتفكير فيه من دون توقّف.

ولو أن هذا حدث مع شخص مجرّب غير دانسيني، لرأى فيه ما يشجّع، لكن الفتى شديد الغباء إلى درجة أننا إذا لم نساعده، فسوف يلزمه الكثير من الوقت كي يتغلب على أقل العقبات، ولن يبقى لدينا الوقت لكي ننفّذ مشروعنا.

أنت على حق فعلاً، هذا مؤسف! وأنا أيضاً مُستاءة مثلك لأن الفتى بطل هذه القصة. ولكن، ماذا نستطيع أن نفعل؟ ما حصل قد حصل، وهذه غلطتك. طلبتُ أن أطّلع على جوابه، فإذا به يثير الشفقة. إنه يحاول إقناعها من دون انقطاع أن «أية عاطفة تلقائية لا

يمكن أن تكون جريمة»، وبما أنها ستظلّ تلقائية، يجب على الأقل الكفّ عن مقاومتها! وهذه الفكرة بسيطة جداً بحيث إنها خطرت على بال الصغيرة نفسها. وهو يشكو من تعاسته بطريقة مؤثّرة جداً، لكن عذابه لطيف ويبدو قويّاً وصادقاً إلى درجة أنه يُخيّل إليّ أن من المستحيل على أي امرأة ترك رجل لليأس إلى هذه الدرجة. وهناك خوف من أن تتخلّى الصغيرة عن هذه النزوة. وهو يوضّح لها أخيراً أنه ليس «راهبة» كما كانت تظنّه، ولكن ذلك لا يُناقض ما يفعله.

ومهما يكن، فبدلاً من إضاعة وقتي في التحليل الذي قد يورّطني، وربما دون أن أتوصّل إلى الإقناع، وافقت على مشروع الانفصال، لكنني قلت لها إنه من الأفضل في مثل هذه الحالة الإعراب عن الأسباب بدلاً من كتابتها، وإنه جرت العادة إرجاع الرسائل وكل الكلام الفارغ الذي تلقّته. وبمسايرتي الصغيرةَ في آرائها، جعلتها تقرّر تحديد موعد مع دانسيني. وبادرنا حالاً إلى تدبير الوضع بجعل الأم تخرج دون ابنتها، وسيكون موعد هذه اللحظة الحاسمة غداً بعد الظهر، وقد أُبلغ دانسيني بالأمر. ولكن، حباً بالله، أرجوك أن تقنع هذا الراعي الجميل بأن يكون أقلّ فتوراً. وعلّمه -لأن من الضروري أن تشرح له كل شيء- أن الطريقة الصحيحة للقضاء على الوساوس، هي عدم إضاعة أي شيء مع أولئك الموسوسين.

الخلاصة، كي لا أدع هذه الحادثة السخيفة تتكرّر، لم يفتني أن أثير بعض الشكوك في ذهن الصغيرة حول تكتّم الكهنة المعرّفين. وأؤكّد لك أنها الآن تعاني أشدّ العذاب من أن يخبر مُعرّفها أمها بكل شيء. آمل بعد أن أتحدّث معها مرّة أو مرّتين أيضاً، ألا تذهب وتروي حماقاتها إلى أول عابر سبيل.

الوداع أيها الڤيكونت، عليك بتوجيه دانسيني، إذ سيكون من المخجل ألا نفعل ما نريد بهذين الصغيرين. وإذا صادفنا عقبات أكثر مما كنا نعتقد، فلنفكّر، لكي نجدد حماستنا، أنت بأن الأمر يتعلّق بابنة السيّدة ڤولانج، وأنا بأنها ستكون زوجة جيركور.

الوداع.

من... في ٢ سبتمبر/أيلول **١٧.

الرسالة الثانية والخمسون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

تحظرين عليّ يا سيدتي أن أتحدّث إليكِ عن حبّي. ولكن، أين أجد الشجاعة الكافية على إطاعتك؟ إنني منشغل فقط بعاطفة يجب أن تكون لطيفة، لكنك تجعلينها قاسية. كما إنني أعيش واهناً في المنفى الذي حكمتِ به عليّ، ولا أحيا إلّا في الحرمان والحسرة، فريسة عذابات لا تنفكّ تزداد لتذكّرني باستمرار بلا مبالاتك. فهل يجب أن أفقد أيضاً العزاء الوحيد الباقي لديّ؟ وهل يمكن أن يكون لديّ عزاء آخر سوى أن أفتح لك أحياناً روحي التي تملأينها بالاضطراب والمرارة؟ هل تشيحين بنظرك عنّي حتى لا تشهدي الدموع التي تجعلينني أذرفها؟ وهل ترفضين حتى قبول تقدير التضحيات التي تطلبينها؟ أفلا يكون إذاً جديراً بك وبروحك الشريفة الرقيقة أن تعطفي على بائسٍ كنت أنت السبب في بؤسه، بدلاً من أن ترغبي أيضاً في زيادة آلامه تبريحاً بتمنعك الظالم والقاسي في آن واحد؟ تتظاهرين بالخوف من الحب، ولا تريدين أن تري أنك أنت

وحدك تسبّبين الآلام التي تلومينه عليها. آه! لا شكّ في أن هذا الشعور مُرهق جداً حين لا يشاطره به أبداً الشخص الذي يوحيه. ولكن، أين نجد السعادة إذا لم يوفّرها لنا حبٌ متبادل؟ فالصداقة الحنون، والثقة من دون تحفّظ، والآلام المُخفّفة، والمباهج المتزايدة، والأمل المُفرح، والذكريات الجميلة، أين نجدها كلّها خارج نطاق الحب؟ تتحدثين ظلماً عن هذا الحب، أنت التي كان يجدر بك، لكي تتمتّعي بجميع المسرات التي يوفّرها لكِ، أن ترضي به، وبذلك أنسى آلامي التي أعانيها فلا أهتمّ إلا بالدفاع عنه.

أنت تدفعين بي إلى الدفاع عن نفسي، لأنني فيما أكرّس حياتي لكي أعبدك، تمضين حياتك في البحث عن مساوئي. وكنتِ قد افترضتِ أنني لعوب مخاتل مستغل، إضافة إلى بعض المساوئ التي اعترفتُ لك بها بنفسي، ويسرّك أن تخلطي بين ما كنت عليه في الماضي وبين ما أنا عليه الآن. لم يكفكِ أن تركتني للعذاب والعيش بعيداً عنكِ، بل أضفتِ إلى ذلك تهكّماً لاذعاً حول مسرّات تعلمين جيداً كم جعلتِني عديم الإحساس تجاهها. أنت لا تصدّقين وعودي ولا عهودي، حسناً إذاً! بقيت لي ضمانة واحدة أقدّمها إليكِ لن ترتابي بها على الأقل، ألا وهي أنتِ نفسك. لا أطلب إليكِ سوى أن تسألي نفسك بنيّة صافية إذا كنتِ لا تؤمنين بحبّي: إذا كنتِ تشكين لحظة واحدة في أنكِ أنت وحدك تسيطرين على روحي، وإذا لم تكوني متأكّدة من أنك عملت على استقرار هذا القلب الذي اعتاد حقيقة أن يكون طيّاراً، فإنني أوافق على تحمّل عبء هذه الخطيئة، وسوف أبكي مؤنّبًا نفسي، لكنني لن أعترض، بل على العكس، وبذلك تكونين عادلة تجاهنا نحن الاثنين، وستكونين مضطرة إلى الاعتراف بينك وبين نفسكِ بأنه لم يكن ولن يكون لكِ أي منافس،

أتوسل إليك لا تجبريني بعد اليوم على مقاومة الأوهام، ودعي لي على الأقلّ هذا العزاء الوحيد بألا أراكِ ترتابين في عاطفة لا تنتهي حقيقة ولن تنتهي أبداً إلّا بانتهاء حياتي. واسمحي لي يا سيدتي أن أرجوك الإجابة بصورة إيجابية عن هذه النقطة من رسالتي.

وإذا كنتُ قد تركتُ تلك الفترة من حياتي التي تبدو أنها تُسبّب لي أذى قاسياً عندك، فليس لأن الحجج تعوزني لكي أدافع عنها.

فماذا فعلتُ، بعد كل شيء، سوى أنني لم أقاوم الدوّامة التي رُميت فيها؟ لقد دخلتُ معترك الحياة صغيراً من دون خِبرة. تناقلتني أيادي حشد من النساء، تسابقن، جميعَهن، وبسهولة على إثارة حواس لا شك أنهن شعرن بأنها غير مؤاتية لهن. فهل كان عليّ أن أكون وحدي القدوة في إبداء مقاومة لم يقف بوجهها أحد؟ أم كان عليّ أن أعاقب نفسي من لحظة الإثم التي دُفعتُ إلى ارتكابها غالباً بإلحاح غير مجدٍ، كنَّ سيعتبرنني معها أحمق؟

ولكن، بوسعي القول إن نشوة الحواس هذه، وربما هذا الجنون في المباهاة، لم يصلا إلى قلبي. قلبي الذي خُلق من أجل الحب، ولم تكن العلاقات الغرامية إلا لتسليته، ولم تثر اهتمامه على الإطلاق. صحيح أنه كان محاطاً بنساء مُغريات، لكنهن مُحتقرات، ولم تدخل أية واحدة منهن إلى أعماق روحي. كنّ يقدّمن لي المتع، فيما كنت أبحث عن الفضائل، حتى ظننت نفسي في النهاية ضائعاً، لأنني كنت رقيقاً، شديد الحساسية.

حين شاهدتكِ فقط أُضيئت نفسي... وعرفت على الفور أن سحر الحب يعود إلى فضائل الروح، وهي وحدها تستطيع أن تكون السبب في التطرف، ثم تبرره. وشعرت أخيراً بأنه من المستحيل عليّ أيضاً ألّا أحبّك، أو أن أحب أحداً غيرك.

هذا هو يا سيدتي القلب الذي تخشين من الاستسلام إليه، وهذا هو المصير الذي عليك أن تحكمي عليه. ولكن مهما كان الحكم الذي تتخذينه، فلن تُغيري شيئاً من العواطف التي تشدّني نحوكِ، وهي عواطف راسخة كالفضائل التي انبثقت عنها.

من... في ٣ سبتمبر/أيلول **١٧.

الرسالة الثالثة والخمسون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

التقيت دانسيني، لكنني لم أحصل منه إلّا على نصف أسراره، وكان مصرّاً بشكل خاص على أن يتكتم على اسم الصغيرة ڤولانج التي لم يتحدّث عنها إلّا كأنها امرأة عاقلة جداً، لا بل ورعة بعض الشيء. وقد روى لي بكثير من التحفّظ مغامرته، لا سيما الحادث الأخير. حاولت إثارة حماسته قدر استطاعتي، ثم مازحته كثيراً لشدة رقّته ووساوسه، لكنه بدا لي مُتمسّكاً بها، لهذا لا أستطيع أن أكون مسؤولاً عنه. الخلاصة: أستطيع أن أُخبرك المزيد عنه بعد غد. سأصحبه غداً إلى ڤرساي، وسوف أهتم في انتزاع أسراره خلال الطريق.

الموعد الذي كان من المفترض أن يكون اليوم يعطيني بعض الأمل أيضاً، فقد تجري الأمور لمصلحتنا، وربما لن يبقى لنا الآن إلا أن نهتم بانتزاع الاعتراف والحصول على جميع الإثباتات، لأن الفتاة الصغيرة تثق بي أكثر من عشيقها المتكتّم ولو أنه ثرثار. في هذه الأثناء، سأبذل ما بوسعي.

الوداع يا صديقتي الحسناء، إنني مستعجل جداً. لن أراك هذا المساء ولا غداً. وإذا عرفت شيئاً ما من جهتك، فاكتبي إليّ كلمة عند عودتي، لأنني سأعود لأنام في باريس بالتأكيد.

*من. . . في ٣ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الرابعة والخمسون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

أجل هناك شيء يجب أن تعرفه عن دانسيني، وإذا كان قد رواه لك فذلك ليفتخر بنفسه. أنا لا أعرف شخصاً أكثر منه غباوة في الحب. وألوم نفسي أكثر فأكثر على الحسنات التي قدمناها له. هل تدري أنني ظننت نفسي متورّطة بسببه! وأننا نتجه نحو الفشل الذريع؟ آه سأنتقم منه، أعد بذلك.

عندما ذهبت أمس إلى بيت السيدة دوڤولانج، لم تكن ترغب في الخروج لأنها كانت تشعر بالتوعك. توجب عليّ استخدام كل بلاغتي لكي أجعلها تقرر الخروج. كانت قد حانت ساعة وصول دانسيني قبل ذهابنا، وهذا ما كان سيفسد كل شيء، لا سيما أن السيدة دوڤولانج كانت قد أخبرته عشية أمس أنها لن تكون في البيت. وكنا -ابنتها وأنا- على أحرّ من الجمر. وأخيراً خرجنا. حين ودّعتني الصغيرة ضغطت على يدي بعطف. على الرغم من نيتها الصادقة في قطع العلاقة مع دانسيني، فقد كنت أتوقّع حدوث العجائب في السهرة.

ولكن، لم تنته مخاوفي عند هذا الحد، إذ لم يمضِ نصف ساعة علينا ونحن في زيارة السيدة دو. . . حتى أُصيبت السيدة دوڤولانج

بعارض صحّي، لكن ألمها كان هذه المرّة شديداً. وكما يفترض، طلبت أن تعود إلى منزلها. لم أكن أريد ذلك خشية أن نفاجئ الشاب والفتاة، وخفت أن أثير الشكوك لدى الأم بإلحاحي على عدم العودة إلى المنزل، لذلك قرّرت أن أزيد من قلقها على صحّتها، ولحسن الحظ لم يكن ذلك صعباً. وأبقيتها ساعة ونصفاً لدى الصديقة دون أن أوافق على عودتها إلى منزلها خشية أن تؤثّر اهتزازات العربة فيها. ولم نعد إلى منزلها إلا في الساعة المُتّفق عليها. بعد رؤيتي مظهر الصغيرة الخجول لدى وصولنا، آمل على الأقل ألا تكون جهودي قد ذهبت أدراج الرياح.

جعلتني الرغبة في معرفة ما حدث أبقى قرب السيدة دوفولانج التي خلدت إلى النوم فور وصولها بعد أن تناولَت العشاء في سريرها. ثم تركناها في ساعة مُبكرة، بحجّة أنها بحاجة إلى الراحة، وانتقلنا إلى جناح الصغيرة. لقد نفّذت الصبية كل ما كنت أنتظر منها: زالت المخاوف، وتبادلا العهود مجدداً على الحب دائماً إلخ... إلخ... وقد فعلت كل شيء بطيبة خاطر. لكن الأحمق دانسيني لم يتقدّم خطوة واحدة من النقطة التي كان فيها من قبل. أوه! يمكن أن تختلف مع هذا الفتى، فالمصالحات معه ليست خطيرة.

وتؤكّد الصغيرة مع ذلك أنه طلب المزيد، لكنها عرفت كيف تدافع عن نفسها. وأنا أراهن أنها تتباهى بنفسها أو أنها تبرّر له، وقد تأكّدتُ من ذلك تقريباً. وبالفعل، لقد اجتاحتني رغبة في معرفة أي دفاع يمكن لهذه الفتاة أن تكون قادرة عليه. ملأت، أنا المرأة البسيطة -من حديث إلى حديث- رأسها إلى أقصى حد... وأخيراً، تستطيع أن تصدّقني، فأنا لم أرَ شخصاً حساساً لمفاجآت الحواس

أكثر منها. في الحقيقة، إن هذه الفتاة العزيزة لطيفة جداً! وهي تستحقّ عشيقاً آخر. وستكون لها على الأقل صديقة مخلصة، لأنني صدقاً أخذت أتعلّق بها. لقد وعدتها بأن أدرّبها، وأظن أنني سأفي بوعدي، إذ لطالما لاحظت كم أنا بحاجة إلى امرأة أتبادل معها الأسرار، وإنني أُفضّل هذه عن سواها. ولكن ليس بوسعي أن أفعل شيئاً ما دامت ستبقى على حالها، وهذا سبب آخر للحقد على دانسيني.

الوداع أيها الڤيكونت، لا تحضر غداً إلى زيارتي، إلا إذا أردت المجيء في الصباح، فقد رضخت لإلحاحات الفارس من أجل تمضية ليلة في البيت الصغير.

*من... في ٤ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الخامسة والخمسون

من سيسيل ڤولانج إلى صوفي كارني

لقد كنتِ على صواب يا عزيزتي صوفي، إن تنبؤاتك تنجح أكثر من نصائحك. وكما توقّعتِ، كان دانسيني أقوى من المعرّف ومنك ومنّي بالذات، وها قد عدنا تماماً إلى حيث كنا. آه! أنا لست نادمة. وأنتِ لو لمتني، فذلك لأنك لا تعرفين أي مسرّة أجدها في حب دانسيني. كم يسهل عليك أن تقولي ما يجب أن أفعل، ولا شيء يمنعك من ذلك. لكنك لو تختبرين كم يسبب لنا الشعور بحزن شخص نحبه العذاب، وكيف أن فرحه يصبح فرحنا، وكم يصعب قول كلمة «لا»، حين تكون كلمة نعم هي التي نعنيها، لما كنت

دُهشتِ من شيء: أنا نفسي التي شعرت بذلك بحدّة، لم أستطع أن أفهم حتى الآن. هل تعتقدين مثلاً أنني أستطيع أن أرى دانسيني يبكي دون أن أبكي معه؟ أؤكد لك أن ذلك مستحيل. وحين يكون سعيداً أشعر أيضاً بالسعادة مثله. تستطيعين أن تقولي ما تريدين، لكن ذلك لن يغيّر شيئاً، وأنا متأكّدة أن الأمور تسير على هذا النحو.

أتمنّى أن أراكِ يا عزيزتي في مكاني. كلا، ليس هذا تماماً ما أعني. لأنني بالتأكيد لا أريد أن أتخلّى عن مكاني إلى أحد، لكنني أتمنّى لو تكونين قد أحببتِ أحدهم لا لكي تفهميني أكثر، وتوبخيني أقل، بل لكي تكوني أكثر سعادة، أو بالأحرى، لكي تبدئي حينذاك فقط في أن تكوني سعيدة.

إن تسلياتنا وضحكاتنا جميعها ليست سوى لعب أطفال، ولا يبقى منها شيءٌ بعد أن تمضي، لكن الحب، آه من الحب... كلمة واحدة، نظرة واحدة، يكفي أن تعرفي أنه هنا... يا لها من سعادة! وحين أشاهد دانسيني لا أعود أرغب في أي شيء آخر البتة، وحين لا أراه، فإنني لا أرغب إلا فيه! ولا أدري كيف يحدث ذلك! حتى ليقال إن كل ما يعجبني يشبهه. وحين لا أراه، أرغب فيه أكثر. لا أعرف كيف أفسّر لك ذلك، ولكن كأن كل ما يعجبني يغدو شبيهاً به. وحين لا يكون معي وأستطيع أن أفكّر فيه دون أن يليهيني أي شيء، وأنا وحدي مثلاً، أشعر بسعادة أيضاً. ما إن أُغمض عيني حتى أراه ماثلاً أمامي حالاً، وأبدأ أتذكّر كلامه وأظن نفسي أسمعه. إن ذلك يجعلني أتأوّه، ثم أشعر بنار، باضطراب ولا أستطيع البقاء في مكاني. كأنه عذاب، عذاب يولّد عذوبة لا أستطيع أن أصفها لك.

أعتقد حين يكون الإنسان عاشقاً، أن العشق يطغى على

الصداقة. ومع ذلك، فإن الصداقة التي أكنّها لك لم تتبدّل، وهي ما زالت كما كنا في الدير. لكن ما أقوله لكِ، بتّ أشعر به مع السيدة دوميرتويّ. ويبدو لي أنني أحبها كما أحب دانسيني وكما أحبّك أنتِ، وفي بعض الأحيان أتمنّى لو تكون هو. ربما سبب ذلك لأن صداقتي معها ليست صداقة طفولة كصداقتنا نحن، أو ربما لأنني أراهما غالباً معاً، ما يجعلني أقع في الحيرة. وأخيراً، كلمة حق: هما الاثنان سبب سعادتي. على كل حال، ليس هناك من سوء في كل ما أفعله. ولا أطلب سوى أن أظل على ما أنا عليه. ليس هناك سوى فكرة الزواج التي تقضّ مضجعي، لأنه لو كان السيد دوجيركور كما وصفوه لي -وأنا لا أشك في ذلك- فإنني لا أدري ماذا سيحلّ بي. الوداع يا عزيزتي صوفي. أحبك دائماً بكل حنان.

*من. . . في ٤ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة السادسة والخمسون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

بماذا يُفيدك يا سيدي الجواب الذي تطلبه مني؟ ألن يكون تصديق عواطفك سبباً آخر لكي أخشاها؟ حتى لو لم أهاجم أو أدافع عن صدقها، ألا يكفي، أو بالأحرى، ألا يجب أن يكفيك أن تعرف أنني لا أريد، لا بل ينبغي ألا أجيبك عنها؟

لنفترض أنك تُحبّني حقيقة (وأنا أرضى بهذا الافتراض فقط كي لا تعود إلى بحث هذا الأمر)، فهل سنتمكن من تجاوز العقبات التي تفصلنا؟ أفلا يكون لديّ إذاً سوى التمنّي بأن تتغلّب على هذا الحب

قريباً، وأنا بنفسي سأساعدك في ذلك حين ألجأ إلى انتزاع كل أمل؟ أنت نفسك تقول: «*هذه العاطفة مضنية حين لا يُشاطرك إياها الشخص الذي يوحي بها*». غير أنك تعلم جيداً أنني لا يمكن أن أشاطرك إياها، وإن حدث ذلك فلن أكفّ عن الشكوى ولن تكون سعيداً البتة. آمل أن تحترمني ولا تشكّ في ذلك لحظة. كُفّ إذاً، ناشدتك بالله، كفّ عن تعكير صفو قلب هو في أشد الحاجة إلى الطمأنينة، ولا تحملني على الندم لأنني تعرّفت إليك.

إنني محبوبة ومحترمة من زوج أُحبّه وأحترمه، وتنحصر واجباتي ومتعي في هدف واحد. إنني سعيدة ويجب أن أكون سعيدة. وإن كانت هناك متع أكثر حرارة، فأنا لا أرغب فيها البتة، ولا أريد أن أعرفها. فهل هناك ما هو أجمل من أن يعيش الإنسان في سلام مع نفسه؟ وأن تكون جميع أيامه صافية؟ وأن ينام من دون قلق، ويستيقظ من دون تأنيب ضمير؟ إن ما تسمّيه سعادة ليس إلا فوضى حواس، أو عاصفة من الأهواء مخيفة المنظر، حتى عن بعد. آه... كيف لي أن أواجه العواصف؟! وكيف أجسر على ركوب بحر يغمره حطام ألوف ألوف الغرقى؟ ومع مَن؟ لا يا سيدي، سأبقى على الأرض، أعتزّ بجميع القيود التي تربطني بها. بوسعي تحطيمها، لكنني لا أريد. لو لم تكن موجودة لسارعت إلى البحث عنها.

لماذا تتعلّق بخطاي؟ ولماذا تعاند باستمرار وتلاحقني؟ إن رسائلك التي يجب أن تكون نادرة تتعاقب بسرعة. ومع أنها يجب أن تكون عاقلة، غير أنك لا تحدّثني فيها إلا عن حبّك الجنوني. أنت تحيطني بفكرتك أكثر مما تفعله بشخصك. صحيح أنك ابتعدت بشكل من الأشكال، لكنك تنبعث لي بشكل آخر. الأشياء التي أطلب منك ألا تقولها، تعيد قولها إنما بطريقة أخرى. لعلّك تستمتع

بإرباكي بحجج جذّابة، وتتهرّب من حججي. لا أريد بعد الآن أن أردّ عليك ولن أردّ عليك. كيف تُعامل النساء اللواتي أغويتهن! وبأي ازدراء تتحدّث عنهن! أودّ الاعتقاد بأن بعضهن جديرات بذلك. ولكن، هل كلهن مُحتقرات إلى هذا الحد؟ أجل، من دون شك، لأنهن خُنّ واجباتهن لكي يركضن وراء حب «آثم». ومنذ هذه اللحظة، فقدن كل شيء، حتى احترام ذلك الذي ضحّين من أجله بكل شيء. إن هذا التعذيب عادل، لكن التفكير فيه وحده تقشعر له الأبدان. ولكن، ماذا يهمّني؟ لماذا أشغل نفسي بهن وبك؟ ماذا يهمّني على كل حال؟ بأي حق تأتي لتُفسد هنائي؟ دعني يا سيدي، دعني ولا ترَني بعد الآن. لا تكتب إليّ مُطلقاً، أرجوك، بل أُصرّ عليك. هذه الرسالة هي الأخيرة التي تتلقّاها مني.

من ... في ٥ *سبتمبر/أيلول* **١٧.

الرسالة السابعة والخمسون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

وجدت رسالتك أمس لدى وصولي، وقد سرّني جداً غضبك. يبدو أنك لا تشعرين بأخطاء دانسيني حين يرتكبها تجاهك. ولا ريب بأنك انتقاماً منه عوّدت «خليلته» على القيام ببعض الخيانات الصغيرة له. أنت حقاً كائن شرير! نعم، أنت رائعة، ولا يُدهشني ألا أن تقاومك الفتاة أقل من دانسيني.

وأخيراً، أصبحتُّ أعرف تماماً من هو بطل الرواية الجميل هذا! ولم يعد يُخفي عني أي سرّ. كرّرت كثيراً على مسامعه أن الحب

الشريف هو ذروة الحب، وأن عاطفة واحدة أفضل من عشر مكائد، وإنني أنا نفسي الآن عاشق وخجول. وقد وجد عندي في شخصي قدوة تتفق مع تفكيره، بحيث إنه في غمرة غبطته من سذاجتي، روى لي كل شيء، وأقسم لي على منحي صداقته من دون تحفّظ. غير أننا لم نتقدّم خطوة واحدة بعد في مشروعنا.

في البدء، أظهر لي أن طريقته تقوم على أساس أن الآنسة تستحقّ المداراة أكثر من المرأة التي ليس لديها شيء تخشى فقدانه. وهو يجد بصورة خاصة أنه حين تكون الفتاة أغنى منه بكثير كما هو الحال معه الآن، لا شيء يشفع للرجل حين يضعها في الخيار بين الحاجة إلى الزواج به وبين أن تعيش مجللة بالعار. تبيّن لي أن اطمئنان الأم وسذاجة الفتاة، كل ذلك يُرهبه ويوقفه عند حدّه.

والمزعج في الأمر ليس مجادلة حججه وإن كانت صحيحة، إذ يمكن دحضها بشيء من الحنكة طالما هي سخيفة، ولكن ما يحول دون ذلك هو أنه لا يشتكي من وضعه، بل إنه سعيد كما هو الآن. وبالفعل، إذا كانت الغراميات الأولى تبدو بصورة عامّة شريفة وبريئة كما يُقال، وإذا كانت بطيئة في سيرها، فليس لأن ذلك عائد إلى الرِقّة والحياء، بل لأن القلب، وقد اندهش بعاطفة مجهولة، يتوقّف إذا صحّ التعبير عند كل خطوة ليتذوّق المتعة التي يشعر بها. وتكون هذه المتعة في غاية القوّة بالنسبة إلى قلب جديد، بحيث تشغله إلى درجة تُنسيه أي متعة أخرى. إن هذا صحيح بالفعل، فالعاشق الإباحي، مهما كان فاسقاً، يصبح منذ هذه اللحظة، أقلّ استعجالاً للمتعة. وأقول أخيراً: إن سلوك دانسيني مع الصغيرة ڤولانج لا يختلف كثيراً عن سلوكي مع السيدة دوتورڤيل. مع فوارق بسيطة.

كان ينبغي لإثارة حواس شابنا العزيز خلق عقبات لم يشهد

مثلها، وخصوصاً لأنه كان بحاجة إلى المزيد من الغموض، فالغموض يقود إلى الجرأة، ولا أستبعد الظن أنكِ قد خرّبت مشروعنا بتسهيل السبل أمامه، ولربما كانت طريقتك رائعة مع رجل ذي خبرة ليس لديه سوى الشهوات، ولكن كان بإمكانك أن تتوقّعي بالنسبة لشاب يافع شريف وعاشق، بأنّ أكثر ما يتمناه: برهان على الحب، وبالنتيجة كلما كان مُتأكداً بأنه محبوب، بادر أقلّ إلى المغازلة. ما العمل الآن؟ لست أدري، ولكنني لا أتوقّع بأن تُغتصب الصغيرة قبل الزواج، وبذلك تكون قد ضاعت جهودنا. أنا غاضب جداً، ولا أجد أي حلّ.

فيما أكتب إليكِ هنا، أعتقد أنك تفعلين ما هو أفضل مع فارسك، وهذا ما يذكّرني بأنك كنتِ قد وعدتني بأن تخونيه معي، وما زلت أملك وعدك خطّياً، لكنني لا أريد أن أجعل منه وعداً خيالياً. أنا موافق على أن موعد تنفيذه لم يَحن بعد، ولكن سيكون لطفاً منك ألا أنتظره طويلاً، وأنا أعدك بكل عنايتي. فما رأيك يا صديقتي الحسناء؟ ألم تتعبي بعد من ثباتك؟ وهل فارسك هذا رائع إلى هذا الحد؟ آه، دعيني أقول: أود أن أحملك على الاعتراف بأنك إذا كنت قد وجدت فيه بعض المزايا فذلك يعني أنك نسيتني.

الوداع يا صديقتي الحسناء، أُقبّلك كما أشتهيكِ، وإنني أتحدّى جميع قبلات الفارس إذا استطاعت أن تكون بمثل هذه الحرارة.

*من... في ٥ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الثامنة والخمسون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

من أين استحققتُ يا سيدتي الملامات التي توجّهينها إليّ والغضب الذي تُبدينه نحوي؟ فالتعلّق الشديد بكل احترام، والخضوع الكامل لأقلّ رغباتك، يختصران قصّة عواطفي ومسلكي كلّها.

أنا الذي أضناني الحب الشقيّ، لم يبقَ لي من سلوى سوى رؤيتكِ، وقد أمرتني بأن أحرم نفسي منها، فامتثلتُ دون أن أهمس بحرف. وثمناً لهذه التضحية سمحتِ لي بأن أكتب إليكِ، واليوم تريدين أن تنتزعي مني هذه المتعة الوحيدة. فهل أترك نفسي أُسلب من هذه المتعة من دون محاولة الدفاع عنها؟ كلا دون شك. إذ كيف لا تكون عزيزة على قلبي وهي الوحيدة التي بقيت لي؟

تقولين إن رسائلي كثيرة جداً! فكّري إذاً أرجوك، في أنني لم أقضِ لحظة واحدة في منفاي الذي استمرّ لعشرة أيام دون أن أنشغل بك، ولم تتلقي مني خلال ذلك سوى رسالتين. *لم أحدّثك فيهما إلا عن حبي!* ولكن ماذا بوسعي القول سوى بما أفكر؟ جلّ ما استطعت فعله هو أنني خفّفت الإفصاح -وتستطيعين أن تُصدّقيني- لأنني لم أدعك ترين إلا ما كان من المستحيل عليّ إخفاؤه. تهدّدينني أخيراً بأنك لن تردّي بعد الآن على رسائلي. وهكذا، كأني بك لم تهنئي حين عاملت بقسوة الرجل الذي يُفضّلك على الجميع، ويحترمك أكثر مما يحبّك، فإذا بك تريدين أن تضيفي الاحتقار أيضاً. ولماذا هذه التهديدات وهذا الغضب؟ ما حاجتك إلى كل ذلك؟ ألستِ متأكّدة من أنك مُطاعة، حتى في أوامرك الظالمة؟ وهل باستطاعتي

أن أُعارض أي رغبة من رغباتك؟ ألم أبرهن على ذلك من قبل؟ ولكن، هل تستغلّين هذا السلطان الذي تملكينه عليّ؟ إذ بعد أن جعلتني تعيساً، وبعد أن أصبحت ظالمة، هل سيكون من السهل عليكِ إذاً أن تتمتّعي بهذا الهناء الذي تؤكّدين أنه ضروري لك؟ ألن تقولي لنفسكِ أبداً: لقد جعلني سيدة مصيره، فسبّبت تعاسته؟ استغاث بمساعدتي، فنظرت إليه من دون شفقة؟

هل تعرفين إلى أي حد يمكن أن يصل يأسي؟ كلا. لكي أحسب آلامي، ينبغي أن تعرفي إلى أي درجة أحبّك، أنت لا تعرفين قلبي.

مقابل أي شيء تضحّين بي؟ مقابل مخاوف وهمية. ومن الذي يوحي إليك بها؟ رجل يعبدك، رجل لا تتوقفين عن فرض سلطانك المطلق عليه. ماذا تخشين إذاً؟ كيف يمكن أن تخشي من عاطفة ستكونين أنت دوماً سيدتها، توجّهينها كما تشائين؟ لكن خيالك يخلق وحوشاً، وكل الرعب الذي تسبّبه لك هذه الأشباح تعزينها إلى الحب. ثقي بي قليلاً، وسوف تختفي هذه الأشباح.

قال أحد الحكماء: «لكي نبدّد مخاوفنا، يكفي دوماً أن نتعمّق في البحث عن أسبابها». إن هذه الحقيقة تنطبق على الحب بصورة خاصّة! أَحبّي، وسوف تزول مخاوفك. وستجدين مكان الأشياء التي تُخيفك عاطفة لذيذة، وعاشقاً حنوناً خاضعاً. ولن تدع لك جميع أيامك المفعمة بالسعادة أي ندم آخر سوى أنك أضعتِ بعضها في اللامبالاة. أنا نفسي، مذ أقلعت عن أخطائي، لم أعد أعيش إلا من أجل الحب، وإني لنادم على وقت ظننت أنني قضيته في متعي ومسرّاتي، وهأنذا أشعر الآن أنك وحدك مصدر سعادتي. لكنني أتوسل إليك ألا تُعكّري المتعة التي أجدها في الكتابة إليكِ بسبب الخوف من ألا أعجبك. لا أريد أن أعصي أمرك، لكنني أجثو عند

قدميك، وأطالب بالسعادة التي تريدين أن تسلبيها منّي، وهي الوحيدة التي تركتها لي. أصرخ إليك قائلاً: «أصغي إلى توسلاتي وانظري إلى دموعي. آه، هل ستصدّينني؟».

*من... في ٧ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة التاسعة والخمسون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

أعلميني إذا كنتِ تعرفين معنى هذيان دانسيني هذا! ماذا حدث إذاً؟ وماذا أضاع؟ لعل حسناءه غضبت عليه من تحفّظه الأبدي. يجب أن أكون منصفاً بحقه وأظهر غضباً أقلّ. ماذا سأقول له هذا المساء في الموعد الذي طلبه منّي، والذي حدّدته له كيفما اتفق؟ من المؤكّد أنني لن أضيّع وقتي في الإصغاء إلى أشجانه، إذا كان ذلك لن يجدي نفعاً، إذ إن الاستماع إلى لواعج الحب ليس مُحتملاً إلا في الأغاني أو مع الألحان. أبلغيني إذاً ماذا حدث! وماذا يجب أن أعمل! وإلا فإنني سأخلّ بالموعد لأتجنّب الضجر الذي أتوقّعه. هل أستطيع أن أتحدّث إليك هذا الصباح؟ إذا كنتِ «مشغولة» اكتبي إليّ كلمة واحدة على الأقل وأطلعيني على دوري.

أين كنتِ في الأمس إذاً؟ أنا لا أتوصل إلى رؤيتك. في الحقيقة لم يكن من الضروري بقائي في باريس في شهر أيلول. احزمي أمركِ إذاً، لأنني تلقّيت الآن دعوة مُلحّة من الكونتيسّة دو ب... كي أذهب لرؤيتها في الريف، وهي تدعوني بكل ظرف وتقول: «إن زوجي يملك أجمل حديقة في العالم يحتفظ بها لمِتع أصدقائه». أنت

تعرفين أن لي بعض الحق في هذه الحديقة، وسأذهب لأراها إذا لم تكوني بحاجةٍ إليّ. الوداع، تذكّري أن دانسيني سيكون عندي حوالى الساعة الرابعة.

من . . . *في ٨ سبتمبر/أيلول* ‎**١٧ .

الرسالة الستون

من الفارس دانسيني إلى الڤيكونت دوڤالمون

(مُرفقة مع الرسالة السابقة)

آه يا سيدي، إنني في يأس شديد. لقد فقدت كل شيء، ولا أجرؤ على الإفضاء بسرّ آلامي على الورق، لكنني بحاجة إلى أن أبوح به إلى قلب صديق وفيّ وموثوق به. في أي ساعة أستطيع أن أراك لأبحث لديك عن العزاء والنصح؟ لقد كنت سعيداً جداً يوم فتحت لك قلبي! لكن الوضع اليوم أصبح مختلفاً! إن ما أعانيه من عذاب ليس إلا قسطاً صغيراً من شجوني وقلقي على إنسان عزيز جداً، وهذا ما لا أقوى على تحمّله. أنت أسعد مني حظّاً، إذ تستطيع أن تراها، وأنا أنتظر من صداقتك ألا ترفض لي هذا المسعى. ولكن، يجب أن أُحدّثك، أن أُطلعك على الأمر. سوف ترثي لحالي وتغيثني، فأنا ليس لي أمل سواك. أنت حسّاس وتعرف ما هو الحب، أنت الوحيد الذي أستطيع أن أثق به. فهل سترفض مساعدتي؟

الوداع يا سيدي، إن العزاء الوحيد الذي أشعر به في عذابي هو التفكير في أنه ما زال لدي صديق مثلك. أرجوك أن تعلمني في أي

ساعة أستطيع أن ألقاك. وإذا لم يكن هذا الصباح، أودّ أن يكون في ساعة مبكرة بعد الظهر.

*من... في ٨ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الحادية والستون

من سيسيل ڤولانج إلى صوفي كارني

عزيزتي صوفي، ارثي لحال صديقتك المسكينة سيسيل فهي تعيسة جداً! أصبحت أمي تعرف كل شيء الآن، ولا أفهم كيف تسنّى لها أن تشكّ، ومع ذلك فقد اكتشَفَتْ كل شيء. ففي مساء أمس بدت مستاءة قليلاً، لكنني لم أعلّق أهمية على ذلك. بانتظار أن تنهي لعبتها رحت أتحدّث بمرح مع السيدة دوميرتويّ التي تناولت العشاء هنا، وقد تحدّثنا طويلاً عن دانسيني، ولا أظن أن أحداً استطاع أن يسمعنا. ثم انصَرَفَتْ، وذهبتُ بدوري إلى غرفتي.

كنت أخلع ملابسي حين دخلت أمي وأخرجت الخادمة، ثم طلبت مني مفتاح مكتبي. اللهجة التي خاطبتني بها سببت لي اضطراباً شديداً بحيث لم أقوَ على تمالك نفسي. تظاهرتُ بأنني لم أعثر عليه، ولكن في النهاية كان لا بد من أن أُطيع. كان أول درج فتَحَته هو ذاك الذي أُخبئ فيه رسائل الفارس دانسيني. اضطربتُ كثيراً، وعندما سألتني ما هذا؟ لم أستطع أن أُجيبها سوى أنه لا شيء. لكنني حين رأيتها تقرأ أول رسالة، بحثت عن أقرب أريكة، إذ شعرت بدوار شديد حتى أُغمي عليّ. وما إن استعدت رشدي حتى استدعت أمي الخادمة ثم انسحبت وهي تقول لي أن أنام بعد أن أخذت معها جميع

رسائل دانسيني. إنني أرتجف في كل مرة أفكّر فيها بأنني سأراها من جديد. لم أتوقف عن البكاء طول الليل.

أكتب إليكِ عند الفجر على أمل أن تأتي جوزفين. إذا استطعت أن أتحدّث معها وحدي، فسأطلب إليها أن تنقل إلى السيدة دوميرتويّ رسالة صغيرة سأكتبها إليها الآن، وإلا سأضعها مع رسالتك، وأرجو أن تبعثي بها أنت من قِبلي، فأنا لا أتلقّى أي عزاء إلا منها. نستطيع على الأقلّ أن نتحدث عنه، لأنني لم أعد آمل رؤيته. أنا حزينة جداً! وقد تتكرّم وتبعث برسالة إلى دانسيني باسمي. لأنني لا أجرؤ على الوثوق بجوزفين في هذه المهمّة، ولا بخادمتي، ربما تكون هي التي أخبرت أمي بوجود رسائل في مكتبي.

لن أكتب إليكِ مُطوّلاً، لأنني أريد أن أستغل الوقت في الكتابة إلى السيدة دوميرتويّ، وكذلك إلى دانسيني، لكي تكون رسالتي جاهزة في حال وافقَت على تسليمها. بعد ذلك، سأنام حتى إذا ما دخل أحدهم لرؤيتي فسيجدني في السرير. سأقول إنني مريضة لكي أُعفي نفسي من مقابلة أمي. فعلاً أنا لا أكذب، لأنني أتألم الآن أشدّ مما لو كنت مُصابة بالحمّى. عيناي تحرقانني لفرط ما بكيت، وأشعر بثقل فوق معدتي يمنعني من التنفّس. حين أُفكّر أنني لن أرى دانسيني، أتمنّى أن أموت. الوداع يا عزيزتي صوفي، لا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك، فالدموع تخنقني.

*من... في ٧ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الثانية والستون

من السيدة دوڤولانج إلى الفارس دانسيني

سيدي، بعد أن استغللت ثقة أم وبراءة طفلة، لن يُدهشك ولا شك أنك لن تكون موضع ترحيب في منزل تناسيت فيه جميع المبادئ بعد أن قدّم إليك الصداقة الخالصة. أُفضّل أن أرجوك عدم المجيء إلى منزلي، بدلاً من إصدار أوامر إلى خدمي يمكن أن تحرجنا جميعاً، لو أبدوا الملاحظات تجاهك. ولي الحق بأن أرجوك ألا تضطرني إلى اللجوء إلى هذه الوسيلة، وإني أُنذرك أيضاً بأنك إذا قمت في المستقبل بأقل محاولة إلى جرّ ابنتي إلى الضياع الذي أوقعتها فيه، فسأعمد إلى عزلها عزلةً قاسية أبدية لكي أخلّصها من ملاحقاتك. وعليك وحدك يتوقف ذلك إذا كنت لا تخشى أن تسبب لها الحظ التعيس، كما لم تخشَ من قبل محاولة تلويث شرفها. أما بالنسبة إليّ فقد حدّدت اختياري، وأعلمتها به.

تجد طيّ الرسالة رزمة رسائلك، وأحسب أنك ستعيد إليّ بالمقابل جميع رسائل ابنتي، وترضى بعدم ترك أي أثر من حادث لا نستطيع أن نحتفظ منه بأي ذكرى. أنا من دون استنكار، وهي من دون خجل، وأنت دون تبكيت ضمير. لي الشرف يا سيدي أن أكون إلخ...

من... في ٧ *سبتمير/أيلول* **١٧**.

الرسالة الثالثة والستون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

نعم، سأشرح لك رسالة دانسيني: إن الحادث الذي جعله يكتب رسالته إليك هو كما أعتقد من صنع يديّ، لا بل أفضل ما صنعت. فمنذ أن تلقيت رسالتك الأخيرة لم أضيّع وقتي سدىً، وقلت لنفسي كما يقول المهندس الأثيني: «إن ما قاله، سأفعله». يحتاج بطل الرواية الجميل هذا إلى عقبات، فهو ينام على حرير! آه! فليأتِ إليّ الآن وسأجد له عملاً. فإما أن أخطئ وإما أن أقضّ مضجعه. يجب أن يتعلم قيمة الوقت، وأنا مسرورة لأنه الآن نادم على الوقت الذي أضاعه. وينبغي، كما قلتَ أنت، أن يحتاج إلى مزيد من الغموض. حسناً، لن تعوزه هذه الحاجة بعد الآن أبداً. وأنا مُصممة على ذلك، فأنا أتعلّم من أخطائي وأقوم بإصلاحها. إليك إذاً ما فعلت:

لدى عودتي صباح أمس الأول إلى بيتي، قرأت رسالتك ووجدتها رائعة. واقتنعت بأنك حدّدت موضع الألم تماماً، فلم أهتم إلا بإيجاد الوسيلة لشفائه. وقد بدأتُ مع ذلك النومَ، لأن فارسي الذي لا يتعب لم يدعني أنام لحظة واحدة، وظننت أنني سأشعر بالنعاس ولكن على العكس تماماً. فقد كرّست نفسي كليّاً لدانسيني، إذ إن الرغبة في إخراجه من حال الخمول، وكذلك الانتقام منه، لم يسمحا بأن يغمض لي جفن إلا بعد أن رتبت خطتي، ثم ارتحت لمدة ساعتين.

ذهبت في المساء نفسه إلى منزل السيدة ڤولانج، وأخبرتها وفق خطتي سرّاً عن ظنّي بوجود علاقة خطرة بين ابنتها وبين دانسيني. إلا

أن هذه المرأة الحذرة منك، كانت معميًا على قلبها إلى درجة أنها أجابتني بأنني مخطئة بالتأكيد وأن ابنتها لا تزال طفلة إلخ. . . لم أستطع أن أقول لها كل ما أعرفه، فاستشهدتُ بنظرات وأقوال «تمليها عليّ فضيلتي وصداقتي». تحدثتُ معها مثلما تتحدث امرأة ورعة، وفي سبيل توجيه الضربة الحاسمة، تماديت وقلت لها: «أظن أنني شاهدت تبادل رسالة بينهما». ثم أضفت: لقد تذكرت أنني رأيت ذات يوم عندما فتحت سيسيل أمامي درج مكتبها أوراقاً كثيرة تحتفظ بها من دون شك. وهنا سألتها: هل أنت على علم بوجود مراسلات متكررة عندها؟ هنا شحب وجه السيدة دوڤولانج، ورأيت الدموع تترقرق في عينيها. وقالت لي وهي تضغط على يدي: أشكرك يا صديقتي الفاضلة سأحاول أن أستوضح الأمر.

بعد هذه المحادثة القصيرة التي لا يمكن أن تثير الشبهة، اقتربت من الفتاة، ثم تركتها بعد قليل كي أرجو أمها بألا تحرجني أمام ابنتها، فوعدتني الأم بكل طيبة خاطر، وقلت لها كم سيكون من حسن حظي لو أن «هذه الطفلة» تمنحني ثقتها كي تفتح لي قلبها وتجعلني أتمكّن من «تقديم نصائحي الحكيمة إليها». وما طمأنني إلى أنها لن تخلف بوعدها هو أنني لا أشك في أنها تريد أن تتفاخر باختراق خصوصية ابنتها. وهكذا، وجدت نفسي هنا مأذونة بأن أحتفظ بلهجة الصداقة مع البنت دون أن أبدو مزيفة بنظر الأم، وهذا ما أردت تجنبه.

وجدت نفسي في حديث ودّي مع الصغيرة لوقت طويل من دون إثارة شكوك السيدة ڤولانج. اغتنمت الفرصة -في المساء نفسه بعد أن انتهيت من تنفيذ خطتي- وانتحيت بالفتاة جانباً وبدأنا نتحدث بأمر دانسيني الذي لا تملّ منه البتة. ورحت أتسلى في إثارة حماستها

بالمتعة التي ستنالها عند رؤية دانسيني غداً. ليس هناك أي ضرب من الجنون إلا وجعلتها تقوله. كان لا بد من منحها الأمل بعد ما حطمته لها في الحقيقة. كما أن كل ذلك سيؤدي إلى جعل الضربة أكثر تأثيراً، وأنا مقتنعة بأنه كلما كان عليها أن تتعذب، استعجلت أكثر لكي تعوّض ما فاتها في أول فرصة. ومن الأفضل تعويد المرء الذي ندرّبه على الحركات الكبرى طالما نوجّهه إلى المغامرات الكبرى.

على كل حال، أليس عليها أن تذرف بعض الدموع مقابل متعة الحصول على حبيبها دانسيني؟ إنها متيّمة به! نعم، وقد وعدتها بأنها ستناله. إنه كابوس سيكون الاستيقاظ منه ممتعاً. ومهما يكن، يلوح لي أنها ستكون مدينة لي بالامتنان. في الواقع حين نضيف شيئاً من الخبث، ينبغي أن نتسلى جيداً:

«*والحمقى موجودون في الحياة لتغذية متعنا*» [عبارة من مسرحية لغروسيه].

وأخيراً، انصرفت وأنا مسرورة جداً من نفسي، وقلت: إما أن تزيد العقبات حيوية دانسيني فيضاعف حبه، وعندئذ سأخدمه قدر استطاعتي، وإما أنه مغفل، كما يخيل لي أحياناً، فيستسلم لليأس ويعترف بهزيمته. وفي هذه الحالة أكون على الأقل قد انتقمت منه كما انتقم مني، وبهذا أكون قد زدت من احترام الأم لي، ومن صداقة الفتاة نحوي وثقة الاثنتين معاً. أما جيركور، هدف أول مساعيّ، بما أنني المسيطرة على تفكير زوجته الآن وفيما بعد، فسأكون تعيسة جداً أو حمقاء إذا لم أجد ألف وسيلة لأجعل منها ما أريد. خلدت إلى النوم مع هذه الأفكار العذبة. وهكذا نمت ولم أستيقظ إلا في ساعة متأخرة.

لدى استيقاظي، وجدت رسالتين: إحداهما من الأم والأخرى من البنت. لم أستطع منع نفسي من الضحك حين وجدت في الرسالتين هذه العبارة نفسها «*منك وحدك أنتظر بعض العزاء*». أليس ذلك ممتعاً أن أواسي الاثنتين، وأن أكون الوكيلة الوحيدة لمصلحتين متضاربتين بشكل مباشر؟ ها أنذا كالإله أتلقى التمنيات المتعارضة من بشر عميان، دون أن أغيّر شيئاً في قراراتي التي لا رجوع عنها. غير أنني تخليت عن هذا الدور المهيب كي أقوم بدور الملاك المعزّي، وكان أن زرت الصديقتين على التوالي محاولة للتفريج عنهما.

بدأت بالأم، إذ وجدتها في حالة من الكآبة تجعلك تنتقم لنفسك مما سبّبته لك من مضايقات في أمر الورعة الحسناء. وقد نجح كل شيء بصورة رائعة: وكان قلقي الوحيد هو أن تغتنم السيدة ڤولانج هذه الفرصة للفوز بثقة ابنتها، وهذا ما سهّل المهمة عليّ، إذ لم أستخدم معها سوى لغة اللطف والمودة، وقدمت النصائح المتعقلة بلهجة متسامحة وحنون. لحسن الحظ تسلّحتْ بالصرامة، وأساءتْ التصرف بحيث إنني كنت على وشك التهليل. صحيح أنها فكّرت في هدم جميع مشاريعنا بالقرار الذي اتخذَته بإرجاع ابنتها إلى الدير، لكنني تداركت هذه الضربة، وجعلتها تعمد فقط إلى التهديد به في حالة استمر دانسيني في ملاحقاته، وذلك بقصد حمل الاثنتين على أن تحذر إحداهما الأخرى، وهذا ضروري لنجاح الخطة.

ثم ذهبت لرؤية الابنة. لا يمكنك أن تتصور كم زاد العذاب من جمالها! أؤكد لك أنها غالباً ما كانت تبكي غنجاً ودلالاً، لكن هذه المرة كانت تبكي من دون مكر، وقد أدهشتني فيها هذه الميزة الجديدة التي لم أكن أعهدها فيها من قبل، وكنت سعيدة بمراقبتها. ولم أقدم إليها في البداية سوى مواساة خرقاء تزيد الآلام أكثر من أن

تخففها. وكادت تختنق حقيقة، إذ لم تعد تبكي، وخشيت للحظة أن تصاب بالإغماء. نصحتها بالاستلقاء في الفراش، وقد رضيت، وطلَبتُ إلى الخادمة أن تأتي لمساعدتها. لم تتخلص من زينتها، وما لبث شعرها الأشقر أن تبعثر على كتفيها وفوق صدرها الذي كان منكشفاً بكامله، فقبّلتها، وإذا بها تستسلم بين ذراعيّ وراحت تبكي من جديد بسهولة. يا إلهي! كم كانت جميلة! آه لو أن المجدلية كانت بهذا الجمال لكانت تائبة خطرة أكثر مما هي آثمة.

وحين استلقت الحسناء الحزينة في السرير، أخذتُ أواسيها هذه المرة من كل قلبي. طمأنتها أولاً بشأن خوفها من العودة إلى الدير، وجعلتها تأمل بأنها سترى دانسيني سرّاً. ثم جلستُ على السرير وقلت لها: «لو كان هنا الآن»، وبدأت أدور حول هذا الأمر، آخذة بها من تسلية إلى أخرى حتى لم تعد تتذكر شيئاً مما سبب لها الألم. ثم افترقنا ونحن مسرورتان الواحدة من الأخرى، لولا أنها حمّلتني رسالة إلى دانسيني، وهذا ما رفضته بإصرار. وإليك الأسباب وسوف توافق عليها من دون شك:

أولها: لا أريد أن أتورط تجاه دانسيني، وهو السبب الوحيد الذي قلته للصغيرة. وهناك أسباب كثيرة بيني وبينك، إذ يجب ألا نجازف بثمرة أتعابنا حين نتيح لهذين الشابين وسيلة سهلة جداً لتخفيف أشواقهما؟ ولن أكون مستاءة حين سأجعلهما يضطران إلى إشراك بعض الخدم في هذه المغامرة، لأنها في النهاية إذا جرت بصورة حسنة كما آمل، ينبغي أن تُعرف حالاً بعد الزواج، وليست هناك وسائل لنشرها أضمن من الخدم. أما لو حدثت أعجوبة ولم يتحدث الخدم بالفضيحة، نحن سنكشفها، وسيكون عندئذ من السهل إلقاء اللوم عليهم.

عليك إذاً أن توحي بهذه الفكرة إلى دانسيني اليوم، وبما أنني غير واثقة من خادمة الصغيرة ڤولانج التي تبدو هي نفسها حذرة منها، فانصحه بخادمتي ڤيكتوار الأمينة، وسأسعى إلى نجاح الأمر. هذه الفكرة تعجبني جداً، ستكون الأسرار ملك أيدينا نحن فقط، وليس لهم. لم أنهِ قصتي بعد.

فيما كنت أتمنع عن قبول نقل رسالة الصغيرة، كنت أخشى في أية لحظة أن تقترح عليّ وضعها في البريد، وما كنت لأتمكن من رفض ذلك. لحسن الحظ، إما بسبب اضطرابها وإما بسبب جهلها، أو لأنها تهتم بالجواب أكثر من رسالتها، لم تعد إلى الحديث عن ذلك. ولكن، لكي أبعدها عن هذه الفكرة، أو على الأقل لأحول بينها وبين استخدامها، اتخذت قراري على الفور. ذهبت إلى الأم وحملتها على أن تقرر إبعاد ابنتها بعض الوقت إلى الريف؟ وأين؟ ألا يخفق قلبك فرحاً؟ لدى عمتك العجوز دوروزموند. لا بد أن تبلغها الخبر اليوم: وهكذا، سيتاح لك أن ترى ورعتك الحسناء. وبفضل مساعيّ ستتدارك السيدة دوڤولانج بنفسها خطأها الذي ارتكبته بحقك.

ولكن أصغِ إليّ جيداً، ولا تهتم بقضاياك كثيراً بحيث تغيب هذه القضية عن بالك، بل فكّر في أنها تهمني. أريد أن تجعل من نفسك مراسل هذين الشابين ومستشارهما. أبلغ إذاً دانسيني بخبر هذه الرحلة، واعرض عليه خدماتك. ولا تجد صعوبة في إيصال أوراق اعتمادك إلى الحسناء الصغيرة، بل أزل هذه العقبة حالاً، بأن تدلّه على طريق خادمتي. وليس هناك من شك في أنه سيقبل، وستنال لقاء أتعابك ثقة قلب جديد ممتع على الدوام. كم ستتورد الصغيرة المسكينة خجلاً حين تسلّمك أولى رسائلها؟ وفي الحقيقة، إن دورك

كموضع أسرار يبدو لي تسلية رائعة، خصوصاً حين تكون مشغول الفكر بشيء آخر، كما هي حالك الآن.

يتوقف حلّ هذه العقدة على مسعاك إذاً. فكر في اللحظة المناسبة لجمع هذين الممثلين. والريف يتيح ألف وسيلة، وسيكون دانسيني مستعداً بكل تأكيد للذهاب إلى هناك عند أول إشارة منك. يكفي الليل، مع تنكر ونافذة، وغير ذلك ما أدراني؟ ولكن إذا عادت الفتاة من رحلتها كما ذهبت فسوف أدينك. وإذا كنت تجد أنها بحاجة إلى بعض التشجيع من جانبي، اكتب إليّ. أعتقد أنني أعطيتها درساً ممتازاً حول أخطار الاحتفاظ بالرسائل بحيث إنها لن تجسر على الكتابة إليه في الوقت الحاضر، وما زلت أضعها نصب عينيّ لأجعل منها تلميذتي.

أظن أنني نسيت أن أخبرك بأن شكوكها بشأن فضح الرسالة قد حامت أولاً حول خادمتها، لكنني حوّلتها نحو المعرّف، وأكون بذلك قد أصبت عصفورين بحجر واحد.

الوداع أيها الڤيكونت، ها قد مضى وقت طويل وأنا أكتبُ إليك، وقد تأخرت عن الغداء. ولكن عزة نفسي والصداقة أملتا عليّ هذه الرسالة وكلتاهما ثرثارة. الخلاصة: ستصلك هذه الرسالة قبل الساعة الثالثة. وهي كل ما تحتاج إليه.

هل ما زلتَ تشكو مني الآن؟ إذا كنت تجرؤ. إذا راودتك نفسك، اذهب وشاهد غابة الكونت دو ب. . . تقول إنه يحتفظ بها لإمتاع أصدقائه! هل هذا الرجل صديق جميع الناس؟ ولكن الوداع، فأنا جائعة.

من. . . في ٩ *سبتمبر/أيلول* **١٧.

الرسالة الرابعة والستون

من الفارس دانسيني إلى السيدة دوڤولانج

(مسوّدة مُرسلة ضمن الرسالة السادسة والستين
من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ)

سيدتي، لن أحاول أن أبرّر سلوكي، ولن أشتكي من موقفك، فأنا حزين جداً من حدث كان السبّب في تعاسة ثلاثة أشخاص، جميعهم جديرون بحظ أسعد. كما أنني أتألم أكثر لحزن كنت سببه بدلاً من أن أكون ضحيّته. لقد حاولت مراراً منذ أمس أن يكون لي الشرف بالردّ عليك دون أن أقوى على ذلك. غير أن لديّ أشياء كثيرة أجبر نفسي على قولها لك. وإذا كانت هذه الرسالة تفتقر إلى التنظيم وتتابع الأفكار فذلك لأن وضعي -كما تشعرين- مؤلم جداً كي أسامح نفسي.

اسمحي لي أولاً أن أحتجّ على العبارة الأولى من رسالتك، فأنا أجرؤ وأقول: لم أستغل ثقتك ولا براءة ابنتك، بل احترمت هذه وتلك في تصرّفاتي، وأنا حريص كل الحرص عليهما. وحين تجعلينني مسؤولاً عن عاطفة خارجة عن إرادتي، أُضيف من دون خوف: إن العاطفة التي أوحَت إليّ بها الآنسة ابنتك قد لا تُعجبكِ، لكن يجب ألا تُهينك. وعن هذه القضية التي تتعلّق بي هناك الكثير مما أستطيع قوله، لهذا لا أريد سواك قاضياً، وسوى رسائلي شهوداً.

تحظّرين عليّ المجيء إلى بيتك في المستقبل، سوف أخضع من دون شك لكل ما تُصدرينه من أوامر بهذا الشأن. لكن هذا الغياب

الكليّ المفاجئ، ألن يدعو إلى الاستغراب أكثر مما أردْتِ تجنّبه حين امتنعت عن إصدار هذا الأمر إلى بواب منزلك؟ سوف أُصرّ على هذه النقطة، لأنها أكثر أهميّة بالنسبة إلى الآنسة دوڤولانج مما هي بالنسبة إليّ. أناشدك إذاً أن تزني كل شيء باهتمام، وألا تدعي قسوتك تضرّ بحذرك، لاقتناعي بأن مصلحة الآنسة ابنتكِ وحدها هي التي تُملي عليكِ قراراتك. سأنتظر أوامر جديدة من جهتك.

أما في حال سماحك لي بأن أحصل على شرف حضور مجلسك في بعض الأحيان، فإنني أتعهّد لك يا سيدتي (وتستطيعين أن تثقي بوعدي) بألّا أستغلّ أبداً هذه المناسبات لكي أحاول التحدّث على انفراد مع الآنسة دوڤولانج، أو أسلّمها أي رسالة. إن الخوف من أن أورّط سمعتها، يلزمني بهذه التضحية، كما أن السعادة في أن أراها بعض الأحيان ستعوّضني عن ذلك.

هذه النقطة من رسالتي هي أيضاً الجواب الوحيد ردّاً على أقوالك بشأن مصير الآنسة دوڤولانج الذي ترينه متوقفاً على سلوكي، وقد أخدعك لو وعدتك بأكثر من ذلك. لو أن غاوياً خبيثًا في مكاني، لكان أجّل مشاريعه في هذه الظروف ويروح يتحيّن الفرصة المناسبة، لكن الحب دافعي ولا يسمح لي سوى بشعورين هما: الشجاعة والثبات.

مَن؟ أنا! أوافق على أن تنساني الآنسة دوڤولانج وأنساها؟ كلا. كلا. أبداً. بل سأظلّ وفيّاً لها، وقد أقسَمتُ أمامها على ذلك، وها أنا أُجدّده اليوم. عفواً يا سيدتي، لقد شردتُ، يجب أن أعود.

بقي عندي أمر آخر لمعالجته معكِ، أمر الرسائل التي تطلبينها مني. كم يؤلمني في الحقيقة أن أُضيف على الأخطاء التي تجدينها فيّ رفضي للامتثال لهذا الطلب. لكنني أرجوك اصغي إلى أعذاري،

وتذكّري أن العزاء الوحيد لعذابي بعد فقداني صداقتكِ، هو الأمل بأن أحتفظ باحترامك.

إن رسائل الآنسة دوفولانج العزيزة دوماً على قلبي، وقد أصبحتْ أكثر قيمة الآن، هي الأثر الوحيد الذي بقي لي، وهي وحدها تصوّر لي عاطفة تمثّل كل ما هو رائع في حياتي. مع ذلك، تستطيعين أن تصدقيني بأنني لست مستعداً لحظة واحدة لأن أقوم بمثل هذه التضحية. إن الندم على حرماني منها أقل من الرغبة في أن أبرهن على احترامي الشديد لكِ، ولكن هناك اعتبارات أقوى تمنعني. وأنا متأكّد أنك أنتِ نفسكِ لا تستطيعين أن تلوميني عليها.

صحيح أنك تملكين سرّ الآنسة دوفولانج، ولكن اسمحي لي أن أقول لك إن ذلك ناتج عن وقع المفاجأة ولا علاقة له بالثقة. وأنا لا ألوم هنا مسعى يفرضه حرص الأم، بل أحترم حقوقك، لكنها لا تجعلني أستغني عن واجباتي. إن واجبي الأكثر قداسة من كل شيء هو عدم خيانة الثقة التي مُنِحتُها، ولو عرضتُ أمام الغير أسرار قلب لم يشأ أن يكشفها إلا أمام ناظري، سأكون مخلّاً بهذه الثقة. فإذا وافَقَتْ الآنسة ابنتك على أن أسلّمكِ إياها، فلتقلْ! إن رسائلها لن تنفعك في شيء، وإذا شاءت على العكس أن تحتفظ بسرّها بينها وبين نفسها، فلا تتوقعي مني أن أُبلغكِ أنا بذلك.

أما فيما يتعلّق بالكتمان الذي تريدين أن أدفن به هذا الحادث، فكوني مطمئنّة يا سيدتي، إذ إن كل ما يخصّ الآنسة دوفولانج، تحسّبت له. إن هذا المستودع الذي كان يُسمّى حتى الآن *«أوراق للحرق»* بات يُدعى الآن *«أوراق تخصّ الآنسة دوفولانج»*. يجب أن يُبرهن لك هذا القرار الذي اتخذته أن رفضي لا علاقة له بالخوف من أن تجدي في هذه الرسائل عاطفة يمكن أن تتذمّري منها أنت شخصياً.

هذه يا سيدتي رسالة طويلة جداً، وما كنت أريدها أن تكون بهذا الطول إلا لكي تُزيل من نفسكِ أقلّ شكّ في شرف عواطفي، وفي أسفي الصادق لكوني لم أُعجبكِ، وفي احترامي العميق الذي أتشرّف بـ. . .

*من. . . في ٩ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الخامسة والستون

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

(رسالة مفتوحة مرسلة إلى السيدة دوميرتويّ
ضمن الرسالة السادسة والستين من الڤيكونت دوڤالمون)

آه! يا عزيزتي سيسيل ماذا سيحلّ بنا؟ وأي إله سيُنقذنا من العذاب الذي يهدّدنا؟ ليت الحب يمنحنا على الأقل الشجاعة على تحمّلها! كيف أصف لك دهشتي ويأسي لدى رؤية رسائلي، وقراءتي كلمة السيدة دوڤولانج؟ من الذي استطاع أن يخوننا؟ وحول من تحوم شبهاتك؟ هل يمكن أن تكوني قد ارتكبتِ بعض التهوّر؟ ماذا تفعلين الآن؟ ماذا قيل لك؟ أريد أن أعرف كل شيء، فأنا أجهل كل شيء. لعلّك لست على اطلاع أكثر منّي.

أرسل لك رسالة أمكِ، ونسخة عن جوابي عليها، وآمل أن توافقي على ما قلته لها. أحتاج أيضاً إلى الموافقة على المساعي التي قمت بها منذ وقوع هذا الحادث المشؤوم، وجميعها تهدف إلى معرفة أخبارك وإطلاعك على أخباري. ثم من يدري؟ ربما أراكِ ثانية بحرّية أكثر من أي وقت مضى.

هل تُدركين، يا عزيزتي، أي مسرّة ستكون لنا حين نلتقي مجدداً، ونتبادل القَسم على حبّ خالد، ونرى بأعيننا ونشعر بروحينا بأن هذا القَسم لن يكون مُخادعاً؟ وأي عذاب لا يمكن أن يُنسينا لحظة اللقاء الرائعة؟ آه، آمل أن يتحقّق ذلك. كل ذلك بسبب المساعي التي قمتُ بها والتي أناشدكِ أن توافقي عليها. ماذا أقول؟ إني مدين بذلك إلى رعاية أرقّ صديق، وطلبي الوحيد هو أن تسمحي لهذا الصديق بأن يكون صديقك أيضاً.

لعلّه ينبغي عليّ ألّا أمنح ثقتك من دون موافقتك؟ لكن عذري الوحيد هو التعاسة والحاجة، فالحب هو الذي يقود خُطاي، وهو الذي يطلب أن تسامحيني على حاجتي إلى الإفضاء بأسراري، ولولا ذلك لبقينا ربما متفرّقين إلى الأبد. أنت تعرفين الصديق الذي أُحدّثك عنه. إنه صديق المرأة التي تُحبّينها أكثر من الجميع: الڤيكونت دوڤالمون.

كان هدفي من التحدّث إليه أن أرجوه لتتعهّد السيدة دوميرتويّ بتسليم رسالتي إليكِ، لكنه هو نفسه أراد أن يخدمنا، إذ إن السيدة التي ستزورينها هي عمته. وسوف يغتنم هذه الفرصة ليكون هناك في وقت زيارتك. وهكذا، ستمرّ رسائلنا عن طريقه. وهو يؤكّد أيضاً أنه يستطيع، إذا سمحت له بتوجيهك، أن يخلق الفرصة لكي نلتقي دون أن تتورّطي بشيء.

والآن، يا عزيزتي سيسيل، إذا كنتِ تحبّينني وتشفقين لحالي، وإذا كنت، كما آمل، تشاطرينني أحزاني، هل ترفضين منح رجل سيكون ملاكنا الحارس ثقتك؟ إذ لولاه لكنت وقعت في يأسٍ مرير لعدم تمكّني من تخفيف الأشجان التي أسبّبها لكِ، وهي ستنتهي كما آمل. ولكن، عديني يا صديقتي الحنون بأنك لن تستسلمي لليأس

وتُغلبي. حين أفكر بعذابك، أشعر بألم لا يحتمل. إنني أضحّي بحياتي في سبيل سعادتك! وأنت تعرفين ذلك. يقينك بأنكِ معبودة، هل سيحمل بعض العزاء إلى روحك! إن روحي بحاجة إلى أن تؤكّدي لي أنكِ سامحْتِ الحب على الآلام التي جعلك تعانينها.

الوداع يا حبيبتي، الوداع يا صديقتي الحنون.

من... في ٩ سبتمبر/أيلول **١٧**.

الرسالة السادسة والستون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

سترين يا صديقتي الحسناء، لدى قراءتك هاتين الرسالتين المُرفقتَين، ما إذا كنتُ قد أحسنتُ تنفيذ خطتك. ومع أن كلتيهما مؤرّخة اليوم إلا أنهما كُتبتا البارحة في بيتي وتحت أنظاري. فالرسالة الموجّهة إلى الصغيرة توضّح كل ما نريده. لا يمكن للمرء إلا أن يخشع أمام عمقِ آرائك، لو حكمنا على نجاح مساعيكِ. لقد أصبح دانسيني في أشدّ الحماسة، ومن المؤكّد أنه عند أول فرصة لن يدع لكِ ما تلومينه عليه. وإذا أرادت حسناؤه الساذجة أن تكون مطواعة، فسيتم كل شيء بعد وصوله إلى الريف بقليل، ولدي مئة وسيلة جاهزة. بفضل مساعيكِ أصبحتُ بالفعل صديق دانسيني.

هذا الشاب لا يزال يافعاً! هل تصدّقين أنني لم أحصل منه على وعد للأم بالتوقف عن حبه. كأن في الأمر ما يزعج حين يُعطي الإنسان وعداً يكون مصمّماً على عدم الوفاء به! فقد كان يكرّر لي باستمرار: سيكون ذلك خداعاً. لا أرى هذا الوسواس مطمئناً،

خصوصاً إذا كان يرغب في إغواء الفتاة؟ هكذا هم الرجال! جميعهم آثمون في غاياتهم، وما يظهرونه من تخاذل في تنفيذها يسمّونه نزاهة.

مهمتك الآن أن تجعلي السيدة دوڤولانج تتقبّل تلك العواطف التي أراد فتانا وضعها في رسالته. أبعدي عن تفكيرها فكرة الدير. وحاولي أيضاً أن تتخلّي عن طلب رسائل الصغيرة، فهو لن يُعيدها أبداً، ولا يريد أن يفعل ذلك، وأنا من رأيه، فالحب والعقل هنا مُتّفقان. لقد قرأت تلك الرسائل، وأصابني السأم، لكنها يمكن أن تصبح مفيدة. سوف أوضح لك:

على الرغم من جميع الاحتياطات التي نتّخذها، فقد يحدث ما لم يكن في الحسبان ويلغى الزواج، ألا يمكن أن تفشل جميع مخططاتنا ضد «جيركور». ولكن، بما أنني ما زلت أريد الانتقام من الأم، فإنني أحتفظ بحق تلويث شرف ابنتها. ولكن باختيار ما يعنينا من هذه المراسلة، ستبدو الصغيرة ڤولانج بأنها هي التي قامت بالمساعي الأولى ووقعت في الفخ. إن بعض هذه الرسائل يمكن أن تورّط الأم لا بل قد تمسّها، بسبب إهمال لا تُسامح عليه. يراودني شعور أن الموَسوَس دانسيني هو أول من سيثور، لكن بما أنه سيكون موضع هجومنا، فأعتقد أننا سنصل إلى غايتنا. ولكن، هناك احتمال من أصل ألف أن يتحول الحظ على هذا الشكل، لهذا يجدر بنا أن نتوقع كل شيء.

الوداع يا صديقتي الحسناء، تكرّمي بالمجيء إلى العشاء غداً عند السيدة ماريشال دو***، لم أستطع رفض الدعوة.

أعتقد أنني لست بحاجة إلى أن أُوصيكِ بالتكتّم أمام السيدة دوڤولانج بشأن عزمي على الذهاب إلى الريف. عليها بالأحرى أن

تبقى في المدينة، لأنها حين ستصل إلى هناك لن ترحل في اليوم التالي. لو أنها تمنحنا فقط ثمانية أيام فسأنفذ كل شيء.

*من. . . في ٩ سبتمبر/أيلول ‎**‎١٧ .*

الرسالة السابعة والستون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

سيدي، لم أكن أود الإجابة عن رسالتك، ولعل الارتباك الذي أشعر به في هذه اللحظة هو خير دليل على أنه ينبغي ألا أفعل ذلك، ومع ذلك لا أريد أن أدع لك أي موضوع للشكوى مني، وأرغب في أن أُقنعك بأنني فعلت كل ما بوسعي من أجلك.

تقول إنني سمحت لك بأن تكتب إليّ؟ أنا أوافقك على ذلك، ولكن حين تذكّرني بهذا السماح، هل تعتقد أنني نسيت الشروط التي بموجبها مُنِحتَهُ؟ ولو أنني تقيّدت بها، وقلّما فعلتَ، هل كان من الممكن أن تتلقّى جواباً واحداً مني؟ ومع ذلك، هذا هو جوابي الثالث. وبينما تفعل كل شيء لإيقاف هذه المراسلة، فإنني أبحث عن الوسائل للإبقاء عليها. وهناك وسيلة واحدة، وإذا رفضت الأخذ بها، فستكون بذلك قد برهنت لي -رغم ما تقول- على استخفافك بها.

دع إذاً هذه اللغة التي لا أستطيع ولا أود الاستماع إليها، وتخلَّ عن عاطفة تُهينني وتُخيفني. ربما يجدر بك أن تعلّق الآمال عليها أقل حين تفكّر في أنها العقبة الوحيدة التي تُفرّقنا. فهل تكون هذه العاطفة هي الوحيدة التي يمكن أن تعرفها؟ وهل أحمّل الحب الذنب حين أراه يستبعد الصداقة؟ وأنت نفسك هل يمكن أن يكون لديك شعور

لا تريده لصديقتك، تلك التي لطالما رغبت في أن يكون لديها مشاعر أكثر رقّة؟ لا أريد أن أعتقد ذلك: فهذه الفكرة المُهينة تثير حفيظتي وتبعدني عنك دون رجعة.

حين أمنحك صداقتي يا سيدي، أعطيك كل ما هو لي، وكل ما أستطيع أن أتصرّف به. هل يمكن أن ترغب في أكثر من ذلك؟ كي أستسلم لهذا الشعور الرائع، والذي كان ينتظره قلبي، لا أنتظر سوى موافقتك. والوعد الذي أطلبه منك أن تكون صداقتي كافية لإسعادك. سأنسى كل ما قيل لي، وسأعتمد عليك لتبرير اختياري.

أنت ترى صراحتي ولا بد أن تُثبت لك ثقتي. ويتوقّف الأمر عليك فقط لكي تزيدها أيضاً: ولكنني أحذّرك من أن أول كلمة حب (تنطق بها) ستحطّمها إلى الأبد، وتُعيد إليّ جميع مخاوفي وستكون بالنسبة إليّ بمثابة إنذار بصمت أبدي تجاهك.

وإذا كنتَ كما تقول *«قد عدت عن خطئك»*، ألا تُفضّل أن تكون موضع صداقة امرأة شريفة، بدلاً من أن تكون مبعث تبكيت ضمير امرأة مذنبة؟ الوداع يا سيدي، أنت تشعر بأنني بعد أن تحدّثت بهذه الطريقة لا أستطيع أن أقول شيئاً قبل أن تجيبني.

من... في ٩ سبتمبر/*أيلول* ١٧**.

الرسالة الثامنة والستون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

كيف أردّ يا سيدتي على رسالتك الأخيرة؟ وكيف أجرؤ على أن أكون صريحاً حين يمكن لصدقي أن يضيّعني تجاهك؟ هذا غير مهم،

لا بد من ذلك، وسأتسلّح بالشجاعة. أقول في نفسي وأكرّر القول: الأفضل أن أكون جديراً بك بدلاً من أن أنالكِ، وهل كان ينبغي أن ترفضي منحي سعادة أرغب فيها باستمرار؟ يجب أن أبرهن لكِ على الأقل أن قلبي جدير بها.

كم هو مُؤسف أن أكون، كما قلتِ «*قد عدتُ عن أخطائي*»! وبأي انتشاء من الفرح كنت قرأتُ رسالتكِ ذاتها التي ما زلت أرتجف في الردّ عليها اليوم! تُحدّثينني فيها «بصراحة» وتثبتين لي «ثقتك»، وتعرضين عليّ أخيراً «صداقتكِ»: يا لها من أشياء رائعة يا سيدتي! وأي أسف لعدم التمكّن من انتهاز الفرصة؟ لماذا لم أعد كما كنت؟

لو كنتُ الآن كما كنت بالفعل، ولو كان لديّ نحوك ميل عادي، ميل خفيف، وليد الإغراء واللذّة، ما يسمّونه اليوم «الحب»، لسارعتُ إلى أخذ كل ما أستطيع نيله دون أن أهتمّ بالوسائل، شرط أن توفّر لي الفوز، ولكنت شجّعتُ صراحتَكِ كي أكشف عن مكنونات نفسكِ، ورغبت في ثقتك وفي نيّتي أن أخونها، وقبِلتُ صداقتكِ على أمل أن أُضيّعها. ماذا يا سيدتي؟ هل تُخيفكِ هذه الصورة؟ حسناً! إنها صورة من صنع يديّ فيما لو وافقتُ على أن أكون صديقكِ كما قلت لك.

مَن، أنا؟ هل أقبل أن أشاطر أحداً غيري عاطفة صادرة عن روحكِ؟ إذا حدث وقلتُ لك ذلك فلا تُصدّقيني البتّة. منذ تلك اللحظة، سأحاول أن أخدعكِ. ويمكن أن أرغب فيكِ أيضاً، لكنني بالتأكيد لن أحبّك.

ولا يعني ذلك أن الصراحة المُحبّبة، والثقة اللطيفة، والصداقة الحساسة، لا قيمة لها بنظري، لكن الحب، الحب الحقيقي، كما توحين إليّ به، يجمع هذه العواطف كلّها ويمنحها حياة وقوة، ولا

يمكن أن يكون بهذا الهدوء وهذا البرود في الروح التي تسمح بالمقارنات، أو تتألم من الأفضليات. كلا يا سيدتي، لن أكون أبداً صديقك. فأنا سأحبّك أرقّ الحب، لا بل أحرّ الحب مع أنه أشدّ احتراماً. بوسعك أن توقعيه في اليأس، ولكن لا يمكن أن تزيليه.

بأي حق تتصرّفين بقلب ترفضين هواه؟ وبأي قساوة تحسدينني على سعادة حبّك؟ إن هذه السعادة ملكي، وهي مُستقلة عنكِ. سأعرف كيف أدافع عنها، وإذا كانت مصدر دائي، فإنها أيضاً دوائي.

لا، وألف لا. استمرّي في رفضك القاسي، ولكن دعي الحبّ لي. أنت تستمتعين في تعذيبي! فليكن. حاولي أن تُنهكي شجاعتي، فأنا أعرف على الأقل كيف أحملك على تقرير مصيري. وربما يأتي يوم تنصفينني فيه، ليس لأني آمل بأن أجعلك تشعرين بي، بل لتقتنعي وتقولي لنفسك: لقد أسأت الحكم عليه.

ولنقل ما هو أكثر: أنتِ تظلمين نفسك. لأن التعرّف بك دون أن أحبّك، وعدم الثبات في حبك، هما أمران مستحيلان أيضاً. وعلى الرغم من التواضع الذي يزيّنك، إلّا أن قلبي يرقّ شفقة عليك، بدلاً من إدهاشك بعواطف أنت سببها. أما بالنسبة إليّ، وقد عرفت أن أحترمك، فلا أريد أن أفقد هذا الاحترام. وإذ يستحيل أن أوافق على عروضك المغرية، أُجدّد عند قدميك قسمي على حبّك دوماً.

*من... في ١٠ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة التاسعة والستون

من سيسيل ڤولانج إلى الفارس دانسيني

(قصاصة مكتوبة بالقلم الرصاص وأعاد نسخها دانسيني)

تسألني ماذا أفعل؟ أنا أحبك وأبكي. والدتي لم تعد تُكلّمني، وقد نَزعت مني الورق والأقلام والحبر. أستخدم القلم الرصاص الذي بقي عندي لحسن الحظ، وها أنا أكتب إليك على قصاصة من رسالتك. يجب أن أوافق على كل ما فعلته. إنني أُحبّك حُبّاً شديداً بحيث أتخذّ جميع الوسائل لكي أحصل على أخبارك وتحصل على أخباري. لم أكن أحب السيد دوڤالمون، ولم أكن أظنه صديقك، لكنني سأحاول اعتياده، وسوف أحبّه من أجلك. لا أعرف من الذي فضحنا. لعلّها خادمتي أو معرّفي. أنا تعيسة جداً: سنذهب غداً إلى الريف، وأجهل إلى متى سنبقى هناك. يا إلهي! لن أراك بعد الآن! لم يبقَ لي مكان. الوداع. حاول أن تقرأ رسالتي. هذه الكلمات المكتوبة بالقلم ربما ستُمحى، لكن عواطفي ستظل محفورة في قلبي.

*من... في ١٠ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة السبعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

لديّ خبر مهم أُبلغك إياه، يا صديقتي العزيزة.

كنت مدعواً إلى العشاء أمس كما تعلمين عند الماريشالة دو...

وأخذنا نتحدّث عنكِ، وقلتُ -كما تظنين- ليس كل شيء أعرفه عنكِ حسنًا فحسب، بل كل ما لا أعرفه. بدا أن الجميع كانوا من رأيي، ثم تراخت المحادثة كما يحدث دائماً حين لا يتحدّث أحدهم إلا بالخير عن قريبه، وإذ بأحد المُعترضين، وهو بريڤان، يقف ويقول: «أشكّ في رزانة السيدة دوميرتويّ، وأعتقد أن ذلك عائد إلى خفّتها أكثر من مبادئها، وربما يصعب اللحاق بها أكثر من نيل إعجابها. ويحدث أحياناً، حين نركض وراء امرأة، أن نصادف رجالاً آخرين يلاحقونها أيضاً. يمكن لهؤلاء أن يكونوا مثلها إن لم يكونوا أفضل منها، لكن بعضهم يلتفت إلى حب جديد، والبعض الآخر يتوقّف من الملل، وربما يجدر بسيدة باريس أن تُدافع عن نفسها أقل من غيرها». ثم أضاف وقد شجعته ابتسامة بعض السيدات: «أما فيما يتعلّق بي، فإنني لن أصدّق فضيلة السيدة دوميرتويّ إلا بعد أن أكون قد أهلكتُ ستة خيول في مغازلتها».

وكان وقع هذه المزحة الثقيلة قوياً كجميع النكات التي لها علاقة بالنميمة، وأثناء الضحك الذي أثارته عاد بريڤان وجلس، ثم تحوّل الحديث. لكن الكونتيسّتَين دو ب... اللتَين كانتا تجلسان بالقرب من صاحبنا تابعتا النميمة معه. وكنت لحسن الحظ على مقربة منهم واستمعت إلى ما دار بينهم.

وقد قبل التحدّي بأن يوقعك في حبائله، وأعطى الوعد بأن يروي كل شيء. ومثل كل الوعود التي تُعطى في مغامرة كهذه، سيكون عند وعده. ولكن ها أنتِ قد أُنذرْتِ بالأمر وأنت تعرفين المثل القائل: «لقد أعذر من أنذر».

بقي عليّ أن أُخبرك أن بريڤان هذا الذي لا تعرفينه هو في غاية اللطف لكنه كثير الدهاء. وإذا كنتِ قد سمعتني أقول العكس في

بعض الأحيان، فذلك لأني لا أُحبّه. ويطيب لي أن أعاكس نجاحاته، لأنني لا أجهل كم يزاحمني على حوالى ثلاثين امرأة من أجمل نساء باريس.

وبالفعل، لقد حاولت مطوّلاً أن أمنعه من تحقيق بطولته الكبيرة هذه، لكن يبدو أنه يصنع المعجزات دون أن تكون له هذه الشهرة كلّها، لكن مغامرته الثلاثية التي جعلت الأنظار تصوّب نحوه، منحته ثقة جديدة في نفسه كانت تعوزه حتى الآن وجعَلَته حقيقة ممن يُخشى جانبهم. ولعله الرجل الوحيد الذي أخشى أن أصادفه في طريقي اليوم. وبغضّ النظر عن مصلحتك، فإنك تؤدّين لي خدمة كبرى لو جعلته عرضة للسخرية إذا قام بهذه المحاولة. أتركه بين يديك الأمينتين وكلّي أمل في أن يكون رجلاً غريقاً بعد عودتي.

أعدكِ، مُقابل ذلك، بأن أمشي إلى النهاية في مغامرة طفلتك، وأن أهتم بها كما سأهتمّ بورعتي الحسناء.

بعثت إليّ الصغيرة للتوّ مشروع استسلامها. تكشف رسالتها بالكامل عن رغبتها في أن تكون مخدوعة. هل هناك وسيلة أكثر ملاءمة وأكثر سهولة من هذا العرض؟ إنها تريد أن أكون «صديقها»، لكنني أنا الذي أحب الوسائل الجديدة الصعبة، لن أدعها تصفّي حسابها معي بمثل هذا الثمن البخس. فمن المؤكّد أنني لم أعاند أشد العناد في سبيلها كي أصل إلى مثل هذا الإغراء العادي.

أما مشروعي فهو على العكس تماماً، أريدها أن تشعر، تشعر جيداً بقيمة وفداحة كل تضحية من تضحياتها في سبيلي، ولا أريد أن أقودها بسرعة حتى لا يُلاحقها الندم، وأخيراً أمست عفّتها في احتضار طويل. وأوجهها باستمرار نحو هذا الهدف المحزن، دون أن أمنحها سعادة ضمّها بين ذراعيّ إلا بعد إجبارها على عدم إخفاء

رغبتها في ذلك. في الواقع سأكون قليل القيمة إذا لم أبذل العناء في سبيل أن أكون مطلوباً، وأستطيع هكذا أن أنتقم من امرأة متعالية تبدو أنها تحمرّ خجلاً إذا اعترفَت بأنها تعبدني.

رفَضْتُ الصداقة الثمينة إذاً، وتمسّكت بلقبي كعاشق. ولا أُخفي أن هذا اللقب الذي لا يبدو لأول وهلة سوى تلاعب مع الألفاظ، هو مع ذلك مهم جداً لمن يريد الحصول عليه، لذلك فقد بذلت عناية فائقة في كتابة رسالتي، وحاولتُ أن أملأها بنوع من الاضطراب الذي يمكن أن يعطي صورة عن العاطفة. وكتبت في نهايتها كلاماً غير متعقّل قدر استطاعتي، لأن من دون كلام غير عاقل لا يمكن أن تظهر العاطفة الرقيقة. وأعتقد أن النساء عن طريق هذا المنطق يتفوّقن علينا في رسائل الحب.

ثم اختتمت رسالتي بملاطفة جاءت بعد ملاحظاتي العميقة، لأنه بعد أن يتعب قلب المرأة لبعض الوقت يحتاج إلى الراحة. وقد لاحظت أن الملاطفة، بالنسبة إلى جميعهن، هي أنعم وسادة يمكن تقديمها إليهن.

الوداع يا صديقتي الحسناء، سأرحل غداً وإذا كانت لديكِ أوامر تعطينني إياها للكونتيسّة دو... فسأتوقّف عندها لتناول الغداء على الأقل. أنا مُستاء لأنني راحل دون أن أراك، بلّغيني أوامرك العليا وزوّديني بنصائحك الحكيمة في هذه اللحظة الحاسمة.

لا تنسي أن تدافعي عن نفسكِ جيداً أمام بريڤان، وأرجو أن أتمكّن يوماً ما من أن أعوّض لكِ هذه التضحية! الوداع.

*من... في ١١ سبتمبر/أيلول ١٧***.

الرسالة الحادية والسبعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

نسيَ خادمي الطائش حقيبتي في باريس، وفيها رسائل حسنائي ورسائل دانسيني إلى الصغيرة ڤولانج! بقي كل شيء هناك وأنا بحاجة إليها كلها. سيسافر اليوم لتدارك حماقته. فيما يسرج الآن حصانه، سأروي لكِ ما حدث معي الليلة الماضية: لأنني أرجوكِ أن تعرفي أنني لا أضيّع وقتي البتة.

المغامرة في حد ذاتها لا أهميّة لها، وهي ليست سوى إحماء مع الڤيكونتيسّة دو م. . . ولكنها أمتعتني بتفاصيلها. ويسرّني أن أُبرهن لك أنني إذا كنت موهوباً في إضاعة عقول النساء إلا أن البراعة لا تنقصني في إنقاذهن، ولا أغامر إلا بما هو أصعب وأكثر مرحاً. فأنا لا ألوم نفسي على عمل الخير، شرط أن يختبرني أو يسلّيني.

وجدْتُ الڤيكونتيسّة هنا، وبما أنها أصرّت مع الآخرين على أن أمضي الليلة في القصر فقد قلت لها: «أوافق، شرط أن أُمضيها معكِ». لكنها أجابتني: «هذا مستحيل، ڤريساك هنا». وقد ظننت أنني أشرّفها بعرضي، لكن كلمة «مستحيل» هذه أثارت غضبي كالعادة. شعرت بأنني مُهان لأنها تضحّي بي في سبيل ڤريساك، فأصررت على شرطي.

لم تكن الظروف مواتية لي، إذ إن ڤريساك هذا بحماقته أثار شكوك الڤيكونت حتى إن الڤيكونتيسّة لم تعد تستطيع استقباله عندها. وقد كانا قد دبّرا هذه الرحلة كي يحاولا اختلاس بعض الليالي معاً. وقد أبدى الڤيكونت في البداية بعض الحنق لأنه سيقابل ڤريساك هنا،

ولكن بما أنه شغوف بالصيد أكثر من أنه غيور، لم يبقَ على هذه الحال طويلاً. وأنت تعرفين الكونتيسّة صاحبة القصر، بعد أن وضعت الڤيكونتيسّة في غرفة في الممر الكبير، وضعت الزوج من جهة والعشيق من جهة أخرى، وتركتهم يتدبّرون أنفسهم فيما بينهم. لسوء حظ الجميع، كنت في غرفة مواجهة للكل.

وفي ذلك اليوم، أي أمس، ذهب ڤريساك الذي يداهن الڤيكونت كما يمكنك أن تتصوري، إلى الصيد برفقته، مع أن شغفه قليل بالصيد، وكان يأمل أن يروّح عن نفسه في الليل بين ذراعي الزوجة تعويضاً عما سبب له الزوج من ضجر طوال النهار. لكنني رأيت أنه سيكون بحاجة إلى الراحة، واهتممت بجميع الوسائل لجعل عشيقته تتركه يأخذ قسطه من الراحة.

وقد نجحتُ في ذلك، إذ أخذت وعداً منها بأن تثير معه مشاجرة بسبب رحلة الصيد هذه، والتي لم يشترك فيها بالطبع إلا من أجلها. كانت هذه أسوأ حجّة يمكن أن تُتخذ، لكن الڤيكونتيسّة تتفوق على جميع النساء بهذه الصفة المشتركة، أي بوضع الغضب محلّ العقل، بحيث تسهل تهدئتها فقط لأنها على خطأ. فضلاً عن ذلك، لم يكن الوقت ملائماً للإيضاحات، وبما أنني لا أطمع إلا بليلة واحدة فقد وافقتُ على أن يتصالحا في اليوم التالي.

وهكذا، لدى عودة ڤريساك، قابلتْه بالعبوس. أراد أن يسألها عن السبب، لكنها تشاجَرَت معه. حاول أن يبرّر نفسهُ، لكنها اتخذت من حضور الزوج ذريعة لقطع المحادثة. حاول أخيراً أن يغتنم فرصة غياب الزوج لحظة لكي ترضى بالإصغاء إليه في المساء. هنا أصبحت الڤيكونتيسّة رائعة، إذ ثارت غضباً على جرأة الرجال الذين يعتقدون أن لهم الحقّ باستغلال طيبة المرأة أكثر، حتى ولو

كانت تشتكي منهم. بعد أن غيّرت الموضوع بتلك البراعة، راحت تتحدّث برقة وعطف، بحيث بقي ڤريساك صامتاً مرتبكاً، حتى أنا ظننت أنها على حق. تعلمين أنني صديق للطرفين، لكنني كنت طرفاً ثالثاً في هذه المُحادثة.

أخيراً أَعلَنَتْ، وقد بدت راضية، أنها لن تُضيف إلى متاعب الغرام متاعب الصيد، وأنها ستلوم نفسها فيما لو عكّرت متعة كهذه. ذهب الزوج إلى النوم، أما ڤريساك المسكين الذي لم تُتح له حرية الجواب، فقد توجّه إليّ، وروى مُطوّلاً حججه التي أعرفها أكثر منه، ورجاني أن أتحدّث إلى الڤيكونتيسّة فوعدتُه بذلك. وقد حدّثتها بالفعل، ولكن كي أشكرها وأتّفق معها على ساعة لقائنا ووسائله.

تقيم الڤيكونتسة في غرفة بين زوجها وعشيقها، وقد اعتادت أن تذهب إلى غرفة ڤريساك بدلاً من أن تستقبله في غرفتها، وبما أنني أحتلّ غرفة مواجِهة لها، فهي تعتقد أن مجيئها إلى غرفتي أكثر أماناً، وأنها ستحضر فور تخلّصها من خادمتها، وليس عليّ إلّا أن أدَع باب غرفتي موارباً.

وقد تم تنفيذ كل شيء كما اتفقنا عليه. ووافتني بشوق بعد منتصف الليل.

«*بلباسها البسيط وجمال انتُزع من النوم*» [بيت من مسرحية بريتانيكوس لراسين].

وبما أنني لا أُحب المباهاة، فإنني لن أتوقّف عند تفاصيل تلك الليلة، لكنك تعرفينني جيداً، وقد كنت راضياً عن نفسي.

كان لا بد من أن نفترق عند الفجر، وهنا بدأت القصّة، فالڤيكونتيسة الطائشة ظنّت أنها تركت باب غرفتها نصف مفتوح،

لكننا وجدناه مُقفلاً، وكان المفتاح في الداخل. لا يمكنكِ أن تتصوّري بأي كلمات عبّرت عن اليأس، إذ قالت لي: «آه.. لقد انفضحت». وعليّ أن أعترف أنه كان من المُمتع تركها في هذا الموقف، ولكن هل أدع امرأة تتعذب حين تنفضح بسببي؟ وهل أفعل كما يفعل سائر الرجال حين يتخاذلون أمام مثل هذه الظروف؟ كان يجب العثور على وسيلة. ماذا كنت ستفعلين يا صديقتي الحسناء؟ إليكِ ماذا فعلت، وقد نجحت:

لقد تبيّن لي حالاً أن بالإمكان خلع الباب، ولكن بعد إحداث ضجّة كبيرة. أقنعت الڤيكونتيسّة إذاً، ليس من دون عناء، بأن تُطلق صرخاتٍ حادّة مُفزعة مثل: *إلى اللص، أو إلى المجرم*... إلخ. واتّفقنا على أن أدفع الباب لدى أول صرخة، ثم تركض إلى سريرها. ولا تتخيّلي كم احتجت من الوقت لحملها على ذلك، حتى بعد أن وافقت. كان لا بد من فعل ذلك، ولدى أول ركلة مني انخلع الباب.

أجادت الڤيكونتيسّة الدور ولم تُضيّع ثانية واحدة، لأنه في اللحظة نفسها هرع كل من الڤيكونت وڤريساك والخادمة راكضين إلى غرفة السيدة.

كنت الوحيد بينهم هادئ الأعصاب، واغتنمتُ الفرصة كي أطفئ مصباح السرير وأُلقيه على الأرض، يمكنك أن تتصوّري كم سيكون سخيفاً ادّعاء هذا الهلع المُخيف والمصباح مُضاء في غرفتها. ثم وبّختُ الزوج والعشيق على نومهما العميق مؤكّداً لهما أن الصيحات التي ركضتُ على أثرها ومحاولاتي لخلع الباب قد استغْرقَت على الأقل خمس دقائق.

استعادت الڤيكونتيسّة المستلقية في سريرها شجاعتها فيما بعد. أيّدتني وأقسَمَتْ أعظم الإيمان بأن هناك لصاً في غرفتها، وقالت

بمزيد من الصدق إنها لم تُصَب في حياتها كلها بمثل هذا الذعر. ثم بحثنا في كل مكان فلم نعثر على شيء، حين لفتُّ الأنظار إلى المصباح المُلقى على الأرض، واستنتجت أن جرذاً من دون شك قد سبّب هذا التخريب والذعر. تقبّل الجميع رأيي، وبعد تبادل بعض النكات حول الجرذان، كان الڤيكونت أول من ذهب إلى غرفته لينام، راجياً زوجته أن تقتني في المستقبل جرذاناً أكثر هدوءاً.

بقي ڤريساك وحده معنا، ثم اقترب من الڤيكونتيسّة ليقول لها بحنان إن ذلك كان انتقاماً من قِبَل الحب. وقد ردّت عليه وهي تنظر إليّ: «لقد كان غاضباً جداً إذاً لأنه عرف أن ينتقم بشدّة» ثم أضافت: «لكنني تعبة جداً وأريد أن أنام».

وكنت نتيجة لذلك في حالة من الصفاء، وقبل أن نفترق تدخلت لمصلحة ڤريساك وعملت على التوفيق بينهما. تبادل العاشقان القبلات، ونلت نصيبي من القبلات من الطرفين. ولم أهتم كثيراً بقبلات الڤيكونتيسة، بل أعترف أن قبلات ڤريساك سرّتني جداً. ثم خرجنا معاً. وبعد أن تلقّيت منه الكثير من الشكر، ذهب كل منّا إلى غرفته.

إذا وجدتِ هذه القصة ممتعة، فإنني لا أطلب إليكِ كتمانها كالسرّ. الآن، وقد استمتعتُ بها، فمن العدل أن يستمتع الجمهور بها بدوره. لن أحدثك الآن إلا عن هذه الحكاية، ربما قريباً سنتحدّث كثيراً عن البطلة.

الوداع، ها قد مضت ساعة وخادمي ينتظر، ولا آخذ من الوقت سوى أن أُقبّلك وأُوصيكِ أن تحترسي من بريڤان.

من قصر... في ١٣ سبتمبر/أيلول **١٧**.

الرسالة الثانية والسبعون

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

(سُلِّمَت في ١٤ سبتمبر/ أيلول)

آه يا حبيبتي سيسيل! كم أحسد دوڤالمون على حظه! فهو سيراك غداً. سوف يسلِّمك هذه الرسالة وأنا بعيد عنك مُضنى، أجرجر حياتي المعذَّبة بين الحسرات والبؤس. يا صديقتي الطيبة، أشفقي على آلامي، وبصورة خاصة ما سبّبته لي فأنا إزاءها خائر القوى.

كم هو مؤلم أن أكون السبب في شقائك! فلولاي لكنتِ سعيدة مطمئنة البال. فهل تسامحينني؟ قولي... آه! قولي إنك سامحتني، قولي أيضاً إنك تحبينني وستحبينني دائماً. أنا محتاج إلى أن تكرّري لي ذلك، ليس لأنني أشكّ في حبك، بل يبدو لي أنه كلما كان المرء متأكداً منه، استعذب سماعه أكثر. أنتِ تحبينني، أجل أنت تحبينني من أعماق روحكِ، لن أنسى أن هذه آخر كلمة سمعتها منكِ وأحتفظ بها في قلبي محفورة في أعماقه! آه، بأي حبور لبّاها فؤادي!

وا أسفاه! لم أكن أتوقّع في تلك اللحظة من السعادة المصير المخيف الذي ينتظرنا. فلنهتم إذاً يا حبيبتي سيسيل، بالوسائل التي تخفّف عنه. وحسبي أن صديقي سيكون عوناً لنا لكي ننجح في ذلك حين تمنحينه صداقة هو جدير بها.

لقد حزنت، وأنا أعترف بذلك، لأنك كوّنتِ فكرة سيئة عنه، وهي من تحذيرات أمكِ. لقد كان ذلك لكي يذكّرني بأنني أهملت منذ بعض الوقت هذا الرجل المُحبّب حقيقة، الذي يفعل اليوم كل ما بوسعه من أجلي، ويعمل في النهاية من أجل أن يجمعنا، بينما تعمل

أمكِ على تفرقتنا. إنني أستحلفك يا صديقتي العزيزة، بأن تنظري إليه نظرة أفضل. فكّري أنه صديقي، وأنه يريد أن يكون صديقكِ، وهو الذي يستطيع أن يُعيد إليّ السعادة في أن أراكِ، وإذا لم تكن هذه الأسباب لتقنعكِ، يا سيسيلتي فذلك لأنك لا تحبينني بقدر ما أحبك، ولم تعودي تُحبينني كما أحببتني! آه لو كان عليكِ أن تحبيني يوماً أقلّ! ولكن لا. إن قلب سيسيل هو لي، وسيكون لي مدى الحياة، وإذا كان عليّ أن أخشى شقاء حب بائس، فإن ثباتها على الأقل سينقذني من عذابات حب خائن.

الوداع يا صديقتي الرائعة، لا تنسي أنني أتعذّب، وأن الأمر لا يتوقّف إلا عليكِ لتجعليني سعيداً، سعيداً جداً. اسمعي أمنية قلبي واقبلي أرقّ قبلات الحب.

*باريس، في ١١ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الثالثة والسبعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى سيسيل ڤولانج

(مُرفقة بالرسالة السابقة)

لقد علم الصديق الذي يخدمك أنه ليس لديك ما يلزم للكتابة، وقد تدبّر الأمر. تجدين في الغرفة المقابلة للجناح الذي تشغلينه، تحت الخزانة الكبيرة باتجاه يدك اليسرى، كمية من الورق والأقلام والحبر، سوف يُجدّدها متى أردتِ. ويبدو له أنك تستطيعين أن تتركي رسائلك في المكان نفسه إذا لم تجدي لها مكاناً أكثر أماناً.

وهو يطلب إليكِ ألا تشعري بالإهانة إذا بدا أنه لا يُبدي نحوكِ

أي اهتمام أثناء اللقاءات، أو إذا نظر إليك كما ينظر إلى طفلة. إن هذا التصرف ضروري كي يوحي بالأمان الذي يحتاجه، ومن أجل العمل بشكل فعّال في سبيل سعادة صديقه وسعادتك. سيحاول أن يخلق المناسبات لكي يتحدّث إليك حين يكون لديه ما يُطلعك عليه أو يسلّمك إياه، وهو يأمل أن يتوصّل إلى ذلك إذا أبديتِ حماسة في مساندته. وينصحكِ بأن تُعيدي إليه الرسائل التي ستتلقّينها تباعاً كي لا تخاطري وتتورّطي بسببها.

وهو يختم هذه الرسالة مؤكداً لك أنكِ إذا منحته ثقتكِ، فسيبذل كل ما بوسعه كي يخفّف من الاضطهاد الذي سببته أمّ قاسية لشخصين، أحدهما هو خير صديق، والآخر يبدو له جديرًا بأرقّ الاهتمام.

*من قصر... في ١٤ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الرابعة والسبعون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

آه! منذ متى يا صديقي، تخاف بسهولة؟ هل بريڤان هذا مُخيف إلى هذا الحد؟ ولكن، لاحظ كم أنا بسيطة ومتواضعة! لقد قابلت مراراً قاهر النساء الرائع هذا الذي بالكاد كنت أنظر إليه! لكن رسالتك جعلتني أتنبّه إليه. وقد تداركت ظلمي له أمس، إذ كان في دار الأوبرا قبالتي تقريباً، فاهتممت به. إنه وسيم على الأقلّ، لا بل في غاية الوسامة، ملامحه ناعمة ورقيقة! ورؤيته عن قرب تزيد من جماله. أنت تقول إنه يريدني؟ بالطبع، هذا يشرّفني ويسعدني.

وبصراحة، لديّ رغبة فيه. وأسرّ لك أنني بدأتُ المساعي الأولى ولا أدري ما إذا كانت ستنجح، وإليك ما حدث:

لدى خروجي من دار الأوبرا، كان على بُعد خطوتين مني. أعطيت بصوت عالٍ موعداً مع الماركيزة دو... لكي نتعشّى معاً يوم الجمعة عند الماريشالة... وأعتقد أن هذا هو المنزل الوحيد الذي أستطيع أن أُقابله فيه، ولا شكّ في أنه سمعني. ماذا لو لم يحضر هذا اللئيم؟ ولكن قل لي إذاً، ألا تعتقد أنه سيأتي؟ هل تعلم أنه إذا لم يأتِ فسأكون مُستاءة طوال السهرة؟ سوف ترى أنه لن يجد صعوبة في «ملاحقتي»، ولعل ما سيُدهشك أكثر، أنه سيجد صعوبة أقل كي ينال إعجابي. يقول إنه يريد أن يُهلِك ستة جياد لكي يغازلني. آه! سوف أنقذ حياة تلك الجياد، ولن أصبر على الانتظار طويلاً. أنت تعلم أنه ليس من شيمي أن أجعل العاشق يتعذّب ما إن أتخذ قراري بشأنه.

أوه! اِعترف بأنني أجد متعة في التحدّث بتعقّل! أليس «إنذارك المهمّ» نجاحاً كبيراً؟ ولكن، ماذا تريد؟ إنني أعيش في بطالة منذ مدّة طويلة! مضى أكثر من ستة أسابيع لم أسمح لنفسي خلالها بأي مرح، وها قد أتتني الفرصة، فهل أرفضها؟ ألا يستحقّ هذا الوسيم العناء؟ هل هناك متعة أكبر من ذلك! مهما كان المعنى الذي تفسّر به هذه الكلمة؟

أنت نفسك مضطرّ لأن تُنصفه، لأنك لا تمتدحه فحسب، بل تغار منه. أجل سأكون قاضياً بينكما، ولكن، لا بد أولاً من أن أعرف معلومات عنه، وهذا ما أنوي فعله. سأكون قاضياً نزيهاً، وسوف أضعكما في الميزان نفسه. بالنسبة إليك، لديّ ذكرياتك، وقد جرى التحقيق في قضيّتك بشكل كامل. أليس من العدل أن أهتمّ الآن بخصمك؟ هيا، نفّذ أوامري بطيبة خاطر. في البداية أخبرني ما هي

هذه المغامرة الثلاثية التي هو بطلها. أنت تحدّثني عنها كما لو أنك تحدثني عن شيء آخر، بينما لا أعلم عنها شيئاً. يبدو أنها حدثت أثناء رحلتي إلى جنيف، وقد منعتك غيرتك من أن تكتبها إليّ. تدارك هذه الغلطة في أقرب وقت وفكّر «أن لا شيء يتعلّق به إلا ويهمّني». يبدو لي أن الناس كانوا يتحدّثون بهذه القضية لدى عودتي، ولكنني كنت منشغلة بأمر آخر. وأنا نادراً ما أُصغي إلا إلى أخبار اليوم نفسه أو ما قبله.

أما إذا كان ما أطلبه منك سيُغيظك قليلاً، أليس هذا أقل ثمن تدين لي به مقابل العناية التي بذلتها من أجلك؟ أليست هي العناية نفسها التي قرّبتك من رئيستك في الوقت الذي أدّت بك حماقاتك إلى الابتعاد عنها؟ ألست أنا أيضاً من وضع بين يديك ما يجعلك تنتقم من مكيدة السيدة دوڤولانج المريرة؟ لقد شكوت مراراً من الوقت الذي تضيّعه في البحث عن مغامراتك. الآن ها هي في متناول يديك: الحب، الكراهية، ليس عليك إلا أن تختار. كلاهما ينام تحت سقفٍ واحد، وأنت تستطيع بمضاعفة جهودك، أن تُداعب بيد وتضرب بالأخرى.

أنت مدين لي أيضاً بمغامراتك مع الڤيكونتيسة، ولو أنني مسرورة بذلك، تقول: يجب أن نتحدّث عنها، لو أتيحت لك الفرصة كي تختار ما بين التكتم أو الفضيحة، يجدر بك أن تقتنع بأن هذه المرأة لا تستحق مثل هذه الطريقة الشريفة.

كما لدي ما يجعلني أتذمّر منها، إذ إن الفارس بيلروش يراها أجمل مما أريد، ولأسباب كثيرة أخرى، سيكون من الأفضل لي أن أقطع علاقتي بها: لا شيء يريحني أكثر من القول: لم يعد بوسعي رؤية هذه المرأة.

الوداع أيها الڤيكونت، فكّر أن الوقت ثمين جداً في المكان الذي أنت فيه. وأنا سأستغل وقتي من أجل سعادة بريڤان.

*باريس في ١٥ سبتمبر/أيلول **١٧.*

الرسالة الخامسة والسبعون

من سيسيل دوڤولانج إلى صوفي كارني

(ملاحظة: تسرد سيسيل دوڤولانج في هذه الرسالة تفاصيل كل ما وقع لها من أحداث سبق للقارئ أن اطلع عليها في نهاية القسم الأول وقد وجدنا من الأفضل حذف هذا التكرار. ثم تتحدّث أخيراً عن الڤيكونت دوڤالمون كما يأتي):

أؤكّد لك أنه رجل رائع. إن والدتي تتحدّث عنه بالسوء بينما يتحدّث عنه دانسيني بالخير، وأظنّ أنه على حق، فأنا لم أرَ في حياتي رجلاً بمثل دهائه. عندما سلّمني رسالة دانسيني، فعل ذلك أمام جميع الناس، ولم يلاحظ أحد شيئاً، صحيح أنه اعتراني خوف شديد لأنني لم أكن أتوقّع ذلك، لكنني الآن أصبحت أنتظره، لقد فهمت جيداً كيف يجب أن أتصرّف كي أسلّمه جوابي. كم من السهل التفاهم معه! لأنه يملك نظرة تقول كل ما يريد. لا أدري كيف يفعل ذلك! وقد قال لي في الرسالة التي حدّثتُكِ عنها إنه لن يبدو مُهتمّاً بي أمام والدتي، وبالفعل يبدو كأنه لا يفكّر فيّ، مع ذلك في كل مرة أبحث عن نظراته، أكون متأكّدة بأنني سأقابلها على الفور.

توجد هنا صديقة طيبة لأمي لم أكن أعرفها من قبل، تبدو أنها لا تحب السيد دوڤالمون مطلقاً على الرغم من أنه يحيطها بعنايته.

أخشى أن يسأم قريباً من الحياة التي يمضيها هنا ويعود إلى باريس. سيكون ذلك مزعجاً جداً، لا شك أنه طيب القلب حتى يأتي خصّيصاً لكي يؤدّي خدمة إلى صديقه وإليّ! كم أودّ أن أعبّر له عن امتناني، لكني لا أعرف ماذا أفعل كي أتحدّث إليه. وحين ستتاح لي الفرصة، سأكون خجولة جداً بحيث لن أعرف ماذا سأقول له.

ليس هناك سوى السيدة دوميرتويّ أتحدّث معها عن حبّي بحرّية. وربما معكِ أيضاً، وأروي لك كل شيء. أرتبك دائماً حين أتكلم، حتى مع دانسيني نفسه، أشعر رغماً عني بشيء من الخوف يمنعني من أن أقول له كل ما أفكّر فيه، وألوم نفسي كثيراً على ذلك. إنني أضحّي بكل ما لديّ في سبيل لحظة واحدة أستطيع أن أقول له فيها، مرة واحدة فقط، كم أحبّه. وعده السيد دوڤالمون، إذا سمحت له بأن يوجّهني، بأن يرتّب لنا فرصة اللقاء. سأفعل كل ما يريد، لكنني لا أستطيع أن أفهم كيف سيكون الأمر مُمكناً.

الوداع يا صديقتي العزيزة، لم يبقَ عندي مكان أكتب عليه.

*من قصر... في ١٤ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة السادسة والسبعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

إما أن رسالتك ساخرة لم أفهمها، أو أنك كنت في حالة هذيان خطيرة جداً عندما كتبتها. لو لم أكن أعرفكِ جيداً يا صديقتي الحسناء، لكنت حقيقة ارتعبت. ومهما حاولتِ أن تقولي، فأنا لا أرتعب بسهولة.

مع أنني قرأت رسالتك مراراً، إلّا أنني لم أتقدّم خطوة واحدة، فأنا لم أجد وسيلة واحدة كي أُفسّر بها رسالتكِ حسب المعنى الطبيعي الذي تُعطيه. فماذا عنيتِ إذاً؟

هل ترين أنه من غير المجدي أن أولي اهتماماً بعدوّ لا يخيف؟ ولكن في هذه الحالة يمكن أن تكوني على خطأ، لأن بريڤان في الحقيقة لطيف، لا بل هو أكثر مما تتصوّرين. إنه يتمتّع بشكل خاص بموهبة مفيدة جداً، فهو يعرف كيف يشغل الناس بحبّه، بالبراعة التي لديه في التحدّث عنه في حلقات المجتمع وأمام جميع الناس، مُنتهزاً أول فرصة يجدها. قليلات هن النساء اللواتي ينجَون من الكمين الذي ينصبه لهن. ذلك لأنهن جميعاً يدّعين الذكاء، وكل واحدة منهن تريد إثبات ذلك. غير أنك تعلمين أن المرأة التي توافق على التحدّث عن الحب ينتهي بها المطاف إلى أن تعلق به على الفور، أو تتصرّف كما لو كانت عالقة في الحب. وهو ينجح دائماً بهذه الطريقة التي يبرع فيها إلى درجة كبيرة بحيث يجعل النساء أنفسهن يعترفن بهزيمتهن. وإليك ما اختبرته بنفسي:

لم أعرف سرّ بريڤان إلا عن طريق معاوني، لأنني لم أكن أبداً على علاقة وثيقة به. كنا ستة أشخاص، وكانت الكونتيسّة ب. . . التي تظن نفسها ماكرة، متظاهرة بالتحدّث عن أمر عام أمام كل من لم يسمع بالخبر، حدّثتنا بالتفاصيل ما يُفهم منه أنها استسلمت لبريڤان، وكل ما جرى بينهما. وقد روت هذه الحكاية باطمئنان، حتى إنها لم تضطرب من الضحك الشديد الذي اجتاحنا جميعاً في وقت واحد. أراد أحدنا أن يعتذر لأنه ظهر وكأنه شكّ في ما قالته، أو بالأحرى في ما تبدو أنها قالته، لكنها أجابت بحدّة مؤكدة أنه ليس هناك أحد يعرف أكثر منها بما حدث، حتى إنها لا تخشى أن تسأل

بريڤان نفسه عمّا إذا كانت قد أخطأت بكلمة واحدة.

تيقنت إذاً أن هذا الرجل يشكّل خطراً على الجميع. ولكن، بالنسبة إليك أيتها الماركيزة، ألا يكفي أنه «*جميل، جميل جداً*» كما تقولين أنتِ نفسك؟ أو أن يوجّه إليكِ *إحدى هذه الهجمات التي يُعجبك أن تكافئيها أحياناً*، من دون *أي سبب آخر سوى أنك تجدينها بارعة حقاً*؟ أو أنك وجدت من الممتع أن تسلّمي نفسك لأي سبب كان؟ أو... من يدري؟ هل أستطيع أن أحزر ألوف النزوات التي تدور في رأس امرأة، والتي بها وحدها يتعلّق جنسك؟ الآن، وبعد أن أُنذرتِ بالخطر، لا أشك في أنك ستسلمين له نفسكِ بسهولة، ولكن كان لا بد من تحذيرك. أعود من جديد إلى رسالتك... ماذا عنيتِ بها؟

إذا لم تكن سوى تهكّم على بريڤان، حتى وإن كانت طويلة، فهي لا تفيد بشيء، يجب أن تجعلي منه أضحوكة أمام الناس، وأكرّر لك رجائي في هذا الأمر.

آه، أظن أنني عرفت اللغز! إن رسالتك نبوءة، ليس عمّا ستفعلينه، بل عمّا سيعتقد أنك مستعدة لتفعليه عند السقوط الذي تدبرينه له. أوافقك كل الموافقة على هذا المشروع الذي يتطلب مع ذلك الكثير من المداراة. أنت تعرفين مثلي أن خداع أي رجل، أو تلقي مغازلاته، هما بنظر الجمهور الشيء نفسه، إلا إذا كان هذا الرجل مغفلاً، وبريڤان ليس من هذا النوع بشكل من الأشكال. وإذا ما فاز ظاهرياً فحسب، فسوف يتباهى ويروي كل شيء. وسيصدقه الأغبياء، أما الخبثاء فسيدّعون أنهم صدقوه: فماذا ستكون وسائلك؟ احذري! أنا خائف عليك، ليس لأنني أشكّ في براعتك، ولكن «لا يقع سوى الشاطر».

لا أعتقد أنني أشد غباوة من أي رجل آخر، ففي سبيل إلصاق العار بامرأة وجدت مئة وسيلة، لا بل لدي ألف، لكنني حين أفكّر كيف تستطيع أن تنجو هذه المرأة مني، لا أرى أي احتمال البتة. وأنت نفسك يا صديقتي الحسناء التي يعتبر سلوكها مثالياً، لطالما ظننت أنني أرى فيك السعادة أكثر من البراعة.

لكنني على كل حال، أبحث عن سبب ليس له وجود. وأنا أعجب من نفسي كيف أعالج منذ ساعة بصورة جدية ما هو ليس سوى مزحة من جانبك بالتأكيد. سوف تهزئين مني حتماً! فليكن، ولكن بسرعة، ودعينا نتحدث في أمر آخر. في أمر آخر؟ لقد أخطأت، فالأمر هو نفسه. لأن هناك دوماً نساء أحصل عليهن وأخريات أفقدهن، وغالباً من الفريقين.

لدي هنا كما لاحظت جيداً، ما يجعلني أتمرن في هذين النوعين معاً، ولكن ليس بالسهولة نفسها، وأظن أن الانتقام سيحدث بصورة أسرع من الحب. لقد وافقت الصغيرة ڤولانج، وأنا مستعد لمهمتي. لم يعد الأمر متوقفاً إلا على المناسبة، وأتكفّل بخلقها. لكن الحال ليست كذلك بالنسبة إلى السيدة دوتورڤيل، فهذه المرأة تخيب الأمل ولا أفهمها البتة. أصبح عندي مئة دليل على حبها، ولكن عندي ألف دليل آخر على مقاومتها. في الحقيقة، أحياناً يصيبني الذهول.

أحدثتُ الكثير من الضجيج لدى دخولي لكي أكون محطّ الأنظار، واستطعت أن أرى بنظرة خاطفة فرح عمتي العجوز وغضب السيدة دوڤولانج، والسرور المشوّش لابنتها. أما حسنائي فقد كانت تدير ظهرها إلى الباب، بسبب المكان الذي تجلس فيه. وقد شغلها في اللحظة نفسها شيء ما، فلم تلتفت. لكنني وجهت الكلام إلى السيدة دوروزموند، وعند أول كلمة عرفت الورعة الحسّاسة صوتي،

فندّت عنها صرخة ظهر لي فيها من الحب أكثر من المفاجأة أو الفزع. تقدّمت حينذاك كي أرى وجهها: كان صخب روحها وصراع أفكارها وعواطفها قد ارتسما على وجهها بعشرين طريقة مختلفة. جلست على الغداء بجانبها. لم تعرف تماماً ماذا تقول ولا ماذا تفعل. حاولت أن تتابع الأكل فلم تجد إلى ذلك سبيلاً. أخيراً، وبعد مضيّ أقل من ربع ساعة، أصبح الارتباك والسرور أقوى منها، فلم تتخيّل طريقة أفضل من طلب الإذن بمغادرة المائدة، والتجأت إلى الحديقة بحجة أنها بحاجة إلى بعض الهواء. أرادت السيدة دوڤولانج أن ترافقها، لكن الورعة الرقيقة لم تسمح لها بذلك. لا شك في أنها كانت جذلة تماماً لأنها وجدت ذريعة لتكون وحدها وتستسلم لانفعالات قلبها اللذيذة من دون مضايقة أحد.

اختصرت الغداء قدر استطاعتي، لكن السيدة دوڤولانج الخبيثة كانت تتعجّل إزعاجي فور تقديم الحلوى، فقد نهضت سريعاً تبحث عن المريضة الفاتنة، لكنني توقعت حركتها وسارعت بتشجيع جميع الحضور على القيام بمثل هذه الحركة. وبما أنني نهضت في الوقت نفسه، انساق كل من الصغيرة ڤولانج وكاهن القرية يحذوان حذونا، بحيث وجدت السيدة دوروزموند نفسها وحيدة على المائدة مع العجوز القائد الفارس دوتيه... فتهيأ الاثنان للخروج أيضاً. توجّهنا جميعاً لموافاة حسنائي التي وجدناها وحدها في الغابة الصغيرة قرب القصر. وبما أنها لم تكن بحاجة إلى النزهة أكثر من حاجتها إلى العزلة، فقد فضّلت أن تعود معنا بدلاً من أن نبقى معها.

وبعد أن تأكدت أنه لن تتاح للسيدة دوڤولانج فرصة التحدث إليها على انفراد، فكرت في تنفيذ أوامرك، واهتممت بمصالح ربيبتك. بعد تناول القهوة مباشرة، صعدت إلى غرفتي، ودخلت

كذلك إلى الغرف الأخرى لكي أتعرف إلى أرض المعركة. أعددت ترتيباتي لكي أضمن مراسلة الصغيرة، وبعد هذا العمل المفيد قمت بكتابة كلمة إلى الفتاة أعلمها فيها بالأمر وأطلب منها منحي ثقتها. وأرفقت ورقتي برسالة دانسيني. ثم عدت إلى الصالون، حيث وجدت حسنائي مستلقية فوق كرسي طويلة في حالة من الاسترخاء اللذيذ.

أنعش هذا المنظر أنظاري وأيقظ رغباتي التي شعرت بأنها يجب أن تكون حنوناً وخاطفة، لذلك جلست بطريقة أستطيع معها أن أستغلها. وكان تأثيرها الأول أن أخفضت السماوية الورعة عينيها الواسعتين المتواضعتين. تأملت للحظات هذا الوجه الملائكي، ثم رحت أتفحص كل شخصها، وأتسلى بتخمين الاستدارات والأشكال من خلال ثوبها الرقيق، ولكن غير المناسب. ثم نزلت ببصري من الرأس حتى القدمين وبالعكس. كانت نظرة صديقتي الجميلة مصوبة نحوي، وأخفضتها على الفور. ولكي أشجعها على مبادلتي النظرات حوّلت أنظاري عنها. وهنا، قام بيننا اتفاق ضمني، أول معاهدة في الحب الخجول الذي يسمح بالنظرات أن تتلاحق بانتظار أن تتلاقى لإرضاء حاجة تبادل النظرات.

ولاقتناعي بأن هذه المتعة الجديدة كانت تشغل حسنائي كلياً، حرصت على ضمان أمننا المشترك. وبعد أن تأكدت أن حديثاً حماسياً كان يجنبنا ملاحظات المجموعة، حاولت أن أفهم من عينيها ما تحدثني به صراحة بلغتها. ولهذا، فاجأت أولاً بعض النظرات ولكن بكثير من التحفظ بحيث لا يثير حفيظة التواضع، لكنني تصنعت الارتباك لأطمئن شخصها الخجول. شيئاً فشيئاً اعتادت أنظارنا التلاقي، والتحديق لمدة أطول، وفي النهاية ما عادت تنفكّ.

ولاحظت في نظراتها هذا الاسترخاء الممتع، وهو مؤشر سعيد للحب والرغبة، لكن ذلك كان لبرهة، وما لبث أن عادت إلى نفسها وغيّرت موقفها ونظرتها بشيء من الخجل.

لم أشأ أن ترتاب في أني لاحظت حركاتها المختلفة، فنهضت بسرعة وأنا أسألها كأني خائف إذا كانت منزعجة من شيء ما. وجاء الجميع على الفور وأحاطوا بها. تركتهم جميعاً يمرون أمامي. وبما أن الصغيرة ڤولانج التي كانت منهمكة في التطريز قرب النافذة تحتاج إلى بعض الوقت كي تترك تطريزها لتوافيهم، اغتنمت الفرصة لكي أسلّمها رسالة دانسيني.

كنت بعيداً عنها قليلاً، فرميت المكتوب فوق ردائها. لم تعرف في الحقيقة ماذا تفعل. ولو رأيتِها لكنت ضحكت كثيراً من مظهر الارتباك والمفاجأة الذي بدا عليها. مع ذلك، لم أضحك بتاتاً، لأني خشيت أن تفضحنا بتصرفاتها الخرقاء، لكنها فهمت من نظرة خاطفة وإيماءة واضحة أن عليها أن تضع الرسالة في جيبها.

أما بقية النهار فلم تكن بالأهمية ذاتها. إن ما جرى منذ ذلك الحين سيؤدي إلى حوادث تسرّين بها، على الأقل فيما يتعلق بربيبتك. ولكن، من الأفضل استخدام الوقت لتنفيذ الخطط بدلاً من الكلام عنها. هذه هي الصفحة الثامنة التي أكتبها إليك وقد تعبت. الوداع إذاً.

لعلك لا تشكّين في أن الفتاة قد ردّت على رسالة دانسيني(*)، كما تلقيت جواباً من حسنائي رداً على رسالة وجهتها إليها غداة وصولي. أبعث إليك بالرسالتين سواء قرأتهما أم لا، لأن الثرثرة

(*) هذه الرسالة لم نعثر عليها.

الدائمة التي لا تُمتعني كثيراً قد لا تهم شخصاً لا مصلحة له في الأمر.

الوداع أيضاً مرة أخرى، أحبك دائماً جداً، ولكني أرجوك -إذا عدت للتحدث عن بريڤان ثانية- أن تجعليني أفهمك.

قصر... في ١٧ سبتمبر/أيلول **١٧**.

الرسالة السابعة والسبعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

سيدتي، من أين يأتي كل هذا الحرص الذي تبذلينه للهروب مني؟ كيف يمكن لأشواقي الرقيقة ألا تلقى من جانبك إلا معاملة لا تكاد تكون مقبولة تجاه رجل هو أحقّ بالرثاء؟ إن الحب يدفعني إلى الارتماء عند قدميكِ، وحين تضعني المصادفة السعيدة بالقرب منكِ، تفضّلين التظاهر بمرض يقلق أصدقاءك بدلاً من أن توافقي على البقاء إلى جانبي! كم من مرة أمس حوّلت أنظارك عني حتى تحرميني من متعة نظرة؟ وإذا كنت قد استطعت أن أجد في إحداها للحظة واحدة شيئاً من التساهل، فلقد كانت خاطفة بحيث بدا لي أنك لم ترغبي في أن أتمتّع بها فترة أطول، وهذا ما أشعرني بعذاب لحرماني منها.

أجرؤ على القول: إن هذه المعاملة ليست جديرة بالحب، ولا تسمح بها الصداقة! مع ذلك، أنت تعلمين جيداً أي واحدة من العاطفتين تُحركني، ولا أظنّ أنك ترفضين الأخرى. هذه الصداقة الثمينة التي اعتقدْتِ ولا ريب أني جدير بها، لأنك شئت عرضها عليّ، ماذا فعلتُ إذاً منذ ذلك الحين حتى فقدتها؟ هل أضرّت بي

ثقتي عندك؟ وهل تعاقبينني على صراحتي؟ ألا تخشين على الأقل من استغلال الأولى والثانية؟ وبالفعل، ألم أضع سرّ قلبي في صدر صديقتي؟ أليس في سبيلها وحدها كنت مضطراً لرفض شروط كان يكفيني أن أقبلها لكي أمنح نفسي سهولة عدم التقيّد بها، أو أن أستغلها لمنفعتي؟ هل تريدين أخيراً، بسبب قسوة لا أستحقّها، أن تجبريني على الاعتقاد أنه كان ينبغي أن أخدعكِ لأنال المزيد من التسامح؟

لست نادماً البتة على سلوك مدين به إليك، ومدين به إلى نفسي، ولكن أي قدر محتوم يجعل كل عمل شريف أقوم به نذير شؤم بشقاء جديد؟

بعد أن تعطّفتِ بالثناء الوحيد تجاهي، أرى نفسي أبكي لأول مرة من الشقاء لأنني لم أنل إعجابكِ. وبعد أن برهنتُ لك على خضوعي التام لأوامركِ، وحرمتُ نفسي من رؤيتكِ كي أطمئنك فقطِ، إذا بكِ تريدين قطع كل مراسلة معي، وحرماني من هذا التعويض القليل مقابل تضحية أنت فرضتها، وسلبتني الحب الذي أعطاكِ وحده هذا الحق. وأخيراً، بعد أن حدّثتكِ بإخلاص لم تُضعفه مصلحة هذا الحب نفسها، أراكِ تهربين مني اليوم كما لو كنت زير نساء خطير عُرف بالغدر.

ألا تتعبين من ظلمك إياي البتة؟ أعلميني على الأقل ما هي الأخطاء الجديدة التي جعلتك تتحاملين عليّ بكل هذه القسوة، ولا تترددي في إملاء الأوامر التي تريدين أن أتّبعها، وحين أتعهّد بتنفيذها، هل أطلب الكثير إذا طلبتُ معرفتها؟

من... في ١٥ *سبتمبر/أيلول* **١٧.

الرسالة الثامنة والسبعون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

تبدو مُندهشاً من موقفي يا سيدي، ولا ينقصك سوى أن تحاسبني، كما لو كان يحق لك إيلامي. أعترف بأنه كان الأجدر بي أن أندهش وأشتكي أكثر منك، لكن منذ الرفض الذي أبديته في رسالتك الأخيرة، قررت أن ألجأ إلى لامبالاة لا تدع مجالاً للملاحظات ولا للمآخذ. مع ذلك، بما أنك طلبت مني توضيحات عن هذا الموقف، وأنا بفضل السماء، لا أشعر بأن هناك ما يمكن أن يمنعني من تقديمها إليك، فأنا أودّ أن أخوض معك مرة أخرى في شرح هذا الموضوع.

إن من يقرأ رسائلك يظن أنني ظالمة وغريبة الأطوار. أعتقد أنني أستحق ألا يأخذ أي إنسان هذه الفكرة عني، خصوصاً أنت. وحين برّرتُ موقفي، لا شك أنك شعرت بأنك تجبرني على أن أتذكّر كل ما حدث بيننا، وظننت أنك ناجح لا محالة في هذا الامتحان. وأنا من جهتي لم أظن أنني سأكون خاسرة، على الأقل بنظرك، ولم أخشَ الدخول في هذا الامتحان. ربما كان هو السبيل الوحيد لمعرفة من منّا يحقّ له أن يشكو من الآخر.

وإن حسبنا الأيام يا سيدي، منذ وصولك إلى هذا القصر، لاعترفتَ -كما أعتقد- بأن سمعتك هي التي جعلتني أُبدي بعض التحفّظ تجاهك. وكان بإمكاني، من دون الخوف من أن أُتهم بالإفراط في التعفّف، أن أتقيّد بعبارات المجاملة الباردة. كنت ستعاملني بتسامح أكثر، وربما كنت ستجد من الطبيعي أن امرأة قليلة

الخبرة مثلي لا تقدّر مزيّتك. ولكن، كان لا بد لي من اتخاذ موقف الحذر، وما كان ذلك ليكلّفني شيئاً لو اتبعته. لا أُخفي عليك أنه حين جاءت السيدة دوروزموند تخبرني نبأ وصولك، اضطررت إلى تذكّر صداقتي نحوها وصداقتها نحوي، حتى لا تلاحظ كم أغاظني الخبر.

أقرّ بكل طيبة خاطر بأنك بدوتَ لي في البداية بصورة أفضل من تلك التي كوّنتها عنك، ولكن اعترف بأن ذلك لم يدم طويلاً، وبأنك سئمت سريعاً من الإكراه الذي لم يعوّض لك ما يكفي حين اتخذت عنك فكرة جيدة.

عندذاك، استغللت حسن نيّتي وطمأنينتي، ولم تخشَ أن تبادلني عاطفة لم تكن تشكّ في أنها تُهينني. وفيما كنتَ منشغلاً باستفحال أخطائك ومضاعفتها، كنت أحاول أن أجد مبرّراً كي أنساها حين عرضت عليك فرصة تداركها، على الأقل قسماً منها. وقد كان طلبي عادلاً إلى حد أنك أنت نفسك لم تستطع أن ترفضه. ولكن حين منحتك تسامحي، اغتنمت الفرصة لكي تطلب مني السماح لك بالكتابة إليّ، وهو أمر كان يجب عليّ ولا شك ألّا أمنحك إياه، ومع ذلك فقد نلته. وقد فرضتُ شروطاً أيضاً، غير أنك لم تتقيّد بواحد منها. وكان أن راسلتني بحيث كانت كل رسالة تفرض عليّ واجب عدم الرد. وفي الوقت الذي جعلني عنادك أبعدك عني، في تصرّف ربما أستحق اللوم عليه، حاولتُ بالوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تسمح لي بالتقرب منك. ولكن ما هو ثمن العاطفة الشريفة بنظرك؟ أنت تحتقر الصداقة، وفي هذيانك الجنوني، لا تحسب حساباً للعذابات أو للحياء، ولا تبحث إلا عن الملذّات والضحايا.

أرى تصرفاتك خفيفة لا تتوافق مع مآخذك، لذلك تنسى وعودك، أو بالأحرى تتلاعب لخرقها. وبعد أن وافقتَ على الابتعاد

عني، إذا بك تعود إلى هنا دون أن يدعوك أحد، ودون أن تحترم توسلاتي أو مبرراتي، ودون حتى أن يكون في نيتك إبلاغي بالأمر، لم تخشَ أن تعرّضني لمفاجأة وقعها ولو كان بسيطاً بالتأكيد، إلا أنها ربما فُسّرَت على نحو سيّئ من قِبل الأشخاص الذين حولنا. إن هذه اللحظة من الارتباك التي خلقتها، عمدتَ إلى زيادتها بدلاً من أن تحاول إزالتها أو تحويلها. اخترتَ بدقة الجلوس إلى جانبي إلى المائدة، ثم حملني عارض بسيط على المغادرة قبل الآخرين. وبدلاً من أن تحترم عزلتي، دعوت الجميع إلى موافاتي. وبعد أن عدت إلى الصالون، كنت كلما أقوم بخطوة أجدك بجانبي، وكلما تفوهت بكلمة، أنت دائماً من يردّ. وأي كلمة تافهة مني استخدمتها حجّة لكي تخوض معي محادثة لا أريد سماعها، لا بل يمكن أن تورّطني: أخيراً، يا سيدي، مهما كانت البراعة التي تضعها في حديثك، فإن ما أفهمه أنا يستطيع الآخرون أن يفهموه أيضاً.

وهكذا، اضطررت بسببك إلى التزام الجمود والصمت، مع ذلك، لم تكفّ عن ملاحقتي. لا أستطيع أن أرفع أنظاري دون أن أقابل أنظارك، وأنا مضطرة باستمرار لأن أحوّل بصري عنك، لا بل إن تصرّفاتك الهوجاء تجعل أنظار الآخرين موجهة نحوي في الوقت الذي أودّ فيه أن أتخلّص من أنظاري نفسها.

فضلاً عن ذلك، أسمعك تشكو من معاملتي وتندهش من استعجالي في الهروب منك! الأجدر بك أن تلومني على سعة صدري، وأعجب أنني لم أرحل عند وصولك. ربما كان عليّ أن أفعل ذلك. وقد تجعلني أضطر إلى اتخاذ هذا القرار القاسي، ولكن الضروري، إذا لم تكفّ أخيراً عن ملاحقاتك المهينة. كلا، لا أنسى ولن أنسى مطلقاً، ما هو واجبي تجاه نفسي، وتجاه ما عقدت عليه

النيّة، وهي نيّة أحترمها وأعزّها. أرجوك أن تصدّق أنني إذا اضطررت يوماً إلى هذا الاختيار الشقيّ، بين أن أضحّي بها أو أضحّي بنفسي، فلن أتردد لحظة واحدة. الوداع يا سيدي.

*من... في ١٦ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة التاسعة والسبعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

كنت أعتزم الذهاب إلى الصيد هذا الصباح، لكن الطقس رديء للغاية، وليس لديّ ما أطالعه سوى رواية جديدة قد تُضجر حتى التلميذة الداخلية، ولن نتغدّى قبل ساعتين. وهكذا رغم رسالتي الطويلة أمس سأتحدث إليك مطوّلاً اليوم أيضاً. وأنا متأكّد أنني لن أُضجركِ لأنني سأحدّثك عن «الوسيم جداً» بريڤان.

كيف لم تسمعي بمغامرته الشهيرة، تلك التي فرّقت من كان لا يمكن تفريقهم؟ أراهن أنك ستتذكّرينها لدى أول كلمة، مع ذلك سأرويها لك ما دمتِ ترغبين في سماعها.

أنت تتذكرين كيف كان أهل باريس بأسرها مندهشين من صداقة ثلاث نساء جميعهن جميلات ولديهن المواهب نفسها والتطلعات ذاتها، وقد ظللن دائماً على علاقة لا تنفصم عراها منذ أن دخلن المجتمع. وقد ظُنّ أن سبباً مجهولاً هو سرّ هذه العلاقة الحميمة، لكن على الرغم من أنهن أصبحن محاطات بحاشية من المعجبين، كن يتقاسمن إطراءهم، وبعد أن عرفن مقامهن بسبب ما كن يتعرّضن له من ملاحقات واهتمام، صار اتحادهن أقوى، حتى قيل إن الفوز

بإحداهن معناه الفوز بالاثنتين الباقيتين دائماً. وكان يؤمل بأن تؤدّي فترة الحب إلى إثارة شيء من التزاحم بينهن، وبدأ أجمل الشبان يتزاحمون على شرف التفريق بينهن. وأنا نفسي كنت سأضع نفسي في طريقهن لولا أن غرام الكونتيسة دو... أعاقني عن خيانتها قبل أن أحقّق غايتي معها.

وفي الأثناء، وقع اختيار جميلاتنا الثلاث في حفل تنكّري على ثلاثة عشّاق، وكان الجميع على انسجام تام. ومع أن هذا الحدث لم يُثر من العواصف ما توقّعه الجميع، بل على العكس جعل صداقتهن أشد بسبب الأسرار بينهن.

وقد انضمّ فريق الطامعين البائسين من الشبان إلى فريق النساء الحسودات، وصار الثبات المشين لهؤلاء الفتيات الثلاث تحت رحمة القيل والقال. وكان البعض يزعم أن القانون الأساسي «لجمعية غير المتفرّقات» (هكذا كانوا يدعونهنّ في ذلك الحين) يقضي بتقاسم الأملاك، وأن الحب نفسه خاضع للقانون نفسه. وأكد آخرون أن العشّاق الثلاثة الذين لا خصوم لهم، لم يكونوا خصوماً فيما بينهم، وقد تم اختيارهم بداعي اللباقة من قبل الجميلات لا أكثر، دون أن ينالوا من لقب العشّاق شيئاً.

ولكن هذه الإشاعات، الصحيحة أو الباطلة، لم تؤدّ إلى النتيجة المتوقعة، بل شعر الأزواج الثلاثة بأن هلاكهم في تفرّقهم، فقرّروا الصمود في وجه العاصفة. أما الناس فسرعان ما سئموا من هذا الكلام العقيم وراحوا يتسلّون بأشياء أخرى، وتحوّل انتقادهم إلى مديح. غلبت الحماسة وبلغت بهم حد الجنون عندما أعلن بريڤان أنه مستعد لأن يتحقق من الأمر بنفسه، مسلّطاً بذلك أنظار المجتمع وأنظاره على هؤلاء النساء العجيبات.

سعى إذاً وراء أولئك الحسناوات، ودخل بسهولة إلى مجتمعهن متفائلاً. كان يعرف أنه ليس من السهل اختراق حياة الناس السعداء. وبالفعل، اكتشف على الفور أن تلك السعادة التي يتباهون بها هي موضع غيرة لا أكثر. ولاحظ أن بين هذه الثنائيات التي لا تفترق، كان البعض يبحث عن المسرّات خارجها، لا بل كان ينشغل بالتسلية، واستنتج أن أواصر الحب أو الصداقة قد انحلّت، وأن حب الذات والعادة وحدهما احتفظا بقوتهما.

مع ذلك، كانت صداقة الجميلات الثلاث في الظاهر على حالها، لكن الرجال الأكثر حرية في سلوكهم، كانوا يتغيبون في سبيل مهمات عليهم إنجازها أو أعمال عليهم متابعتها، ونادراً ما كانت السهرات تجمع الكلّ.

كان هذا السلوك لمصلحة بريڤان، إذ كان يتوجّه إلى كل واحدة يتركها حبيبها ليواسيها. وهكذا، قدّم خدماته إلى الصديقات الثلاث على التعاقب وتبعاً للظروف. وقد شعر بسهولة بأن اختيار واحدة منهن سيجعله يخسر، وأن العار المزيف حين تجد نفسها أول خائنة سيثير غضب المفضّلة بينهن، وأن كرامة الاثنتين المجروحة ستجعلهما تعاديان العاشق الجديد، وقد لا تتورعان عن معاملته بحزم تبعاً لمبادئهما الكبرى. وأخيراً، ربما تؤدي الغيرة إلى إثارة اهتمام خصم يُخشى جانبه، ما قد يشكّل مصاعب في وجهه. وهكذا، أصبح كل شيء سهلاً في مشروعه الثلاثي، وكانت كل امرأة متسامحة لأنها مهتمة به، وكل رجل كذلك، لأنه كان يظن نفسه غير معنيّ بالأمر.

وأخيراً، جاء اليوم الحاسم، إذ بعد أن حصل بريڤان على اعتراف الفتيات الثلاث بحبه، وجد نفسه سيد الموقف، وبدأ لعبته على أكمل وجه كما سترين: كان الزوج الأول غائباً، والثاني سيرحل

في الغد عند مطلع النهار، وكان الثالث في المدينة. كان من المفترض أن تجتمع الجميلات الثلاث عند الأرملة على العشاء، لكن السيد الجديد لم يسمح بأن يُدعى العشاق القدامى. وفي الصباح نفسه، وجّه ثلاث رسائل إلى جميلاته الثلاث: أرفق مع الأولى صورة كان قد تلقاها منها، ومع الثانية رسومات حب رسمتها بيدها، ومع الثالثة خصلة من شعرها. وافقت بالمقابل كل واحدة على التضحية بالطرف الثالث، وأرسلت إلى عشيقها السابق رسالة تقطع فيها علاقتها به.

كان هذا أكثر مما يريد. تلك التي يغيب زوجها في المدينة، كانت حرة خلال النهار فقط، لذلك تم الاتفاق على أن تتظاهر بوعكة صحية تبرّر غيابها عن العشاء، وهكذا تقضي الأمسية مع بريڤان، أما الليلة فكانت عند من كان زوجها غائباً، ثم قضى وقته مع الأخيرة عند مطلع النهار في الصباح، أي ساعة رحيل الزوج.

بريڤان الذي لا يترك شيئاً للمصادفة، سارع فيما بعد إلى الأرملة الحسناء وافتعل معها مشاجرة تؤمن له أربعًا وعشرين ساعة من الحرية. وبعد أن أنهى ترتيباته، عاد إلى بيته يعتزم أخذ قسط من الراحة، إذ كانت قضايا أخرى بانتظاره.

وقد اتضح للعشاق الثلاثة من خلال الرسائل كل شيء. ولم يشكّ أي واحد منهم في أن حبيبته ضحّت به في سبيل بريڤان، ومما زاد في غضبهم شعور المهانة بالهجران فوق الخيبة، وقرر كل واحد منهم أن يدعو خصمه المحظوظ إلى المبارزة.

استقبل كل واحد منهم باحترام، ولكن دون أن يفقد متعة هذه المغامرة أو ألقها، وحدّد للثلاثة موعداً في اليوم التالي في الزمان والمكان نفسيهما، عند أحد أبواب غابة بولونيا.

ذهب بريڤان في الموعد إلى المكان الذي حدّده لهم فوجد خصومه الثلاثة وقد اندهشوا من التقائهم هناك، وربما تعزّى كل واحد منهم برؤية رفيقَيه واقعَين في المشكلة ذاتها. قابلهم بريڤان بهيئة نبيلة وقال لهم هذا الخطاب الذي نُقل إليّ بإخلاص:

«أيها السادة، لا بد أنكم حزرتم سبب وجودكم هنا معاً، فأنتم مُشتركون في الشكوى مني، وأنا مستعد لأعطيكم كل الحق في ذلك، اختاروا بالقرعة من الأول فيكم سيأخذ بثأر أنتم الثلاثة لكم الحق به، لم أحضر معي أي مساعد أو شاهد، ولست في معرض الإهانة، أنا هنا لا أطلب إلا إصلاح الأمر». وهنا، استرسل بدوره اللعوب وأضاف: «أعرف أنني مهزوم لا محالة، ولكن مهما كان المصير الذي ينتظرني، فلقد عشت طويلاً، ونلت حب النساء واحترام الرجال».

فيما كان خصومه يتبادلون النظرات بصمت، شعروا بأن المعركة لن تكون متكافئة، استأنف بريڤان كلامه: «لا أُخفي عليكم أنني قضيت أمس ليلة متعبة للغاية، وسيكون كرماً منكم لو تلطّفتم وسمحتم لي بالذهاب لأستعيد قواي. ولكنني أصدرت أوامري بإحضار غداء جاهز إلى هنا، فامنحوني شرف قبول دعوتي، ولنتغدَّ الآن معاً، لا بل لنمرح ونستمتع بغدائنا. يمكننا أن نتبارز في سبيل قضايا تافهة، ولكن لا يجوز أن تفسد علينا روح المرح».

قبل الشبان الدعوة، وأظهر بريڤان الكثير من اللطف، وكان من البراعة بمكان بحيث لم يُهن أياً من خصومه وأقنعهم بأنهم جميعاً نجحوا، وأن أياً كان غيره كان سيحظى بالفتيات الثلاث لو حاول محاولته. وهكذا، خرج الجميع من المأدبة أصدقاء، وهم على قناعة أن فتيات كهؤلاء لا يستحققن أن يقتل الإنسان نفسه من أجلهن.

وكان أن وحّدت الفكرة الجميع وزادت في قوتها الخمرة، وما هي إلّا لحظات حتى خرج الجميع من دون ضغينة، أصدقاء من دون تحفظ.

لم يشأ بريڤان الذي يحب هذا النوع من الحبكات لدى الآخرين أن يضيع شيئاً من شهرته، فانتهز المناسبة ببراعة لإنجاح مشاريعه وقال للشبان الثلاثة: «كان حرياً بكم أن تنتقموا من عشيقاتكم الخائنات بدلاً من أن تحاولوا الانتقام مني، وها أنذا أعرض عليكم الفرصة. لأنني أنا نفسي بدأت أشعر مثلكم بالإهانة، إذا لم يستطع أيٍ واحد منكم أن يجعل الواحدة منهن تثبت على عهده، فهل أستطيع أنا أن أثبّت الثلاث معاً؟ معركتكم هي معركتي، اقبلوا دعوتي إلى العشاء هذا المساء في بيتي المتواضع، وآمل ألا أكون بذلك قد أجّلت طويلاً فرصة انتقامكم». أرادوا أن يستوضحوه عن الغاية، فردّ بلهجته المتعالية التي يفرضها الموقف: «أظن أنني أمتلك زمام الأمور الآن، لذلك دعوا الأمر لي واعتمدوا عليّ». وافق الجميع، وتبادلوا مع صديقهم الجديد القبلات وافترقوا إلى المساء بانتظار نتائج وعوده.

ولم يضيّع صاحبنا وقته، عاد رأساً إلى باريس، وتوجّه إلى حسناواته الثلاث. حصل منهن ببراعة على وعد بالحضور إلى منزله في المساء نفسه لتناول العشاء معه على انفراد، وقد حدّد لكل منهن موعداً مختلفاً عن موعد الأخرى بمدة ساعة واحدة من الوقت. وبعد أن أنهى ترتيباته، انسحب وأخبر الشبان الثلاثة، وذهبوا هم الأربعة بمرح ينتظرون ضحاياهم.

حين وصلت الأولى استقبلها بريڤان وحده بشوق وقادها إلى مخدع الغرام حيث اعتقدت نفسها أنها ذات حظّ كبير، ثم اختفى بحجّة تافهة، تاركاً مكانه للعاشق المغدور.

وبإمكانكِ أن تتصوّري مبلغ خجل امرأة ليست معتادة المغامرات في مثل هذه اللحظة، حيث يكون الفوز بها سهلاً. ويتحوّل اللوم إلى عطف، وهكذا سُلّمت الجارية الهاربة إلى سيدها من جديد، وهي سعيدة بأنها تستطيع أن تأمل نيل غفرانه، واستعادة علاقتها به. وعُقدت معاهدة الصلح في مكان منعزل بين العاشقين، من جديد، ثم أخليا المسرح لممثّلين آخرين شغلاه بالطريقة نفسها وقاما بتمثيل الرواية نفسها.

غير أن كل واحدة من النساء الثلاث ظنت أنها وحدها قد وقعت في الفخ. لكن دهشتهن وارتباكهن ما لبثا أن تضاعفا وقت العشاء حين اجتمع الأزواج الثلاثة. وبلغ الارتباك أوجه حين عاد بريڤان وظهر وسط الجميع، وبلغت به الجرأة القاسية أن قدّم اعتذاره للخائنات الثلاث فاضحاً بذلك سرّهن كي يكشف لهنّ كم كنّ مخدوعات.

مع ذلك، جلس الجميع إلى المائدة وتمالكوا أنفسهم من جديد، كان الكره يحتل القلوب على عكس ما قيل، وأيقظ المرح الرغبة التي أضفت المزيد من الروعة، واستمرّت حفلة العربدة هذه حتى الصباح، وحين افترق الجميع، ظنت النساء أنهن نِلن الصفح، لكن الرجال الذين كانوا لا يزالون حاقدين عليهن، انفصلوا عنهن في الصباح انفصالاً لا رجوع عنه. وبما أنهم كانوا غير راضين عن هجر خليلاتهم، أنهوا ثأرهم بفضح مغامرتهم معهن. ومنذ ذلك الحين، ذهبت واحدة منهن إلى الدير، وعادت الاثنتان إلى قريتهما تذويان من الغمّ.

هذه هي قصّة بريڤان، عليكِ الآن أن تقرّري ما إذا كنت تريدين أن تُضيفي إلى أمجاده وتتعلّقي بأذيال عربة انتصاره. لقد أثارت

رسالتك قلقي، وأنتظر بنفاد الصبر جواباً أكثر تعقّلاً وأكثر وضوحاً على رسالتي الأخيرة.

الوداع يا صديقتي الحسناء، حاذري من الأفكار المرحة أو الغريبة التي تُغريكِ دائماً بسهولة. وفكّري أن الذكاء وحده ليس كافياً في التصرّفات التي تسلكينها وأن أي هفوة تصبح شقاء لا دواء له. واشعري أخيراً بأن الصداقة الحذرة يجب أن تكون دليل متعك.

الوداع، أحبك مع ذلك كما لو كنت متعقّلة.

*من... في ١٨ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الثمانون

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

سيسيل، يا عزيزتي سيسيل، متى يحين وقت تلاقينا؟ ومن يعلّمني كيف أعيش بعيداً عنكِ؟ ومن يمنحني القوة والجرأة؟ لا، أبداً، لن أستطيع تحمّل هذا الغياب المرير، وكل يوم يأتي يزيد في شقائي، ولا أرى له من نهاية! إن ڤالمون الذي وعدني بالإسراع إلى إغاثتي ومواساتي يُهملني، ولعله نسيني. إنه قريب ممن يحب ولا يعرف كم يتعذّب المرء حين يكون بعيداً عن حبيبه. حين أوصل إليّ رسالتكِ الأخيرة لم يكتب إليّ شيئاً. ومع ذلك، فهو الذي يجب أن يُبلغني متى أستطيع أن أراكِ وبأي طريقة. أليس لديه إذاً ما يقوله لي؟ وأنت نفسك ما عدت تحدّثينني عن ذلك، أما عدت تشاطرينني هذه الرغبة؟ آه يا سيسيل، سيسيل، أنا حزين جداً! أحبك أكثر من أي وقت مضى، لكن هذا الحب الذي كان روعة حياتي أصبح الآن همّها الأوحد.

كلا، لا أستطيع أن أعيش هكذا. لا بد لي أن أراكِ. نعم، ولو للحظة قصيرة. حين أستيقظ، أقول لنفسي: «تُرى متى أراها» وحين أنام أقول: «إنني لم أرَها قط». وهذه الأيام الطويلة ليس فيها لحظة سعادة واحدة. وكل ما حولي حرمان وندم ويأس، وجميع هذه الآلام تأتيني من تلك التي أنتظر منها مسرّتي! زيدي على هذه الآلام المميتة قلقي على آلامك، لتكوّني فكرة عن وضعي. أفكّر فيك بلا انقطاع، ليس من دون اضطراب. وإذا رأيتكِ تعيسة بائسة أتألم من كلّ أشجانك. وإذا رأيتكِ هادئة مطمئنة تتضاعف أشجاني، وهكذا ألقى التعاسة في كل مكان.

آه كم كانت الحال مختلفة حين كنتِ تقيمين في الأماكن نفسها! كان كل شيء ممتعاً. وكان اليقين من أنني سأراكِ يُضفي الحلاوة على أوقات الغياب، والوقت الذي أُمضيه بعيداً عنكِ يقرّبني منك بمروره. وإذا قمتُ ببعض الواجبات فذلك كي أكون جديراً بكِ، وإذا نمّيت بعض المواهب فلأنني أطمح إلى نيل إعجابك أكثر. حتى حين تشغلني عنك التسليات، لا أنفصل عنكِ. ففي المسرح كنت أحاول أن أحزر ماذا يمكن أن يكون قد أعجبَكِ. وكل حفلة موسيقية تذكّرني بمواهبكِ ومشاغلنا اللذيذة معاً.

بين الناس أو في النزهات، كنت أبحث عن أقلّ شبه بكِ، أقارنك بالجميع. وكل لحظة من النهار موسومة بتكريم جديد. وفي كل مساء، أُقدّم الولاء عند قدميكِ.

أما الآن، فماذا بقي لي؟ حسرات مؤلمة، وحرمان أبدي، وأمل ضئيل زاده صمت ڤالمون، وصمتك زاده قلقاً. تفصل بيننا عشرة فراسخ، لكن هذه المسافة التي يسهل عبورها أصبحت بالنسبة إلي

عقبة لا أستطيع اجتيازها! أناشد صديقي وحبيبتي، لكن الاثنين يقابلانني ببرود وصمت.

ماذا جرى إذاً لصداقة ڤالمون النشيطة؟ وماذا جرى خصوصاً لمشاعرك الرقيقة التي كانت تجعلك تبرعين في إيجاد الوسائل للقائنا كل يوم؟ أستعيد أحياناً ذكراها دون أن أكفّ عن الرغبة فيها، وأجد نفسي مضطراً إلى التضحية بها في سبيل اعتبارات وواجبات لم تحدثيني عنها. كم من مرة قاومتِ حججي؟ تذكرين يا سيسيلتي كيف كانت حججي تخضع لرغباتك، ولم أشعر بأنني ضحيت آنذاك. إن ما ترغبين في نيله أتحرّق أنا شوقاً لمنحه. لكنني أطلب منكِ أخيراً - ويا له من طلب- أن أراكِ لحظة قصيرة، أجدّد لك وأتلقّى خلالها قسماً من الحب الأبدي الدائم. أليس في ذلك سعادتكِ كما هي سعادتي؟ إنني أستبعد هذه الفكرة اليائسة التي تزيد في عذابي. أنت تحبينني، وستحبينني دائماً كما أعتقد، وأنا متأكّد من ذلك. ولا أريد أبداً أن أشكّ في هذا الأمر، لكنني أدعو إلى الرثاء، ولا أستطيع أن أتحمّل أكثر من ذلك، الوداع يا سيسيل.

*باريس، في ١٨ سبتمبر/أيلول ‎**‎١٧ .*

الرسالة الحادية والثمانون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

كم تُثير مخاوفك شفقتي! كأنك تبرهن لي تفوّقي عليك! وتريد أن تُعلمني كيف أتصرّف؟ آه، أيها المسكين ڤالمون، أيّ بَون بيني وبينكَ! كلا.. إن كبرياء جنسكِ كلّها لا تكفي لسدّ الهوّة التي تفصل

بيننا. لأنك تعجز عن تنفيذ مشاريعي، وترى أنها مستحيلة! أن تكون متعجرفاً وضعيفاً فذلك يكبّل رغبتك في أن تفهم وسائلي وتحكم على أساليبي! في الحقيقة أيها الڤيكونت، إن نصائحك أثارت استيائي، ولا أُخفي عليك ذلك.

كي تغطي تصرّفك الأخرق مع رئيستك، رحت تستعرض أمامي كما لو أنك حقّقت نصراً كيف استطعت أن تُبلبل طمأنينة امرأة خجول تحبك. وهنا أودّ أن أُصدّقك. ثم إنك حصلت على نظرة، نظرة واحدة فقط منها، وهنا أنا أبتسم، وأرجو أن تبتسم معي. لعلّك شعرت، رغماً عنك، بوضاعة سلوكك الذي حاولت أن تُخفيه عني حين أخبرتني عن الجهد الكبير الذي يتطلّبه جمع شابَين يتحرّقان شوقاً لكي يتقابلا، وكلاهما -وأقول ذلك بصورة عابرة- مدين لي وحدي بحرارة هذه الرغبة، وهنا أوافقك على ذلك أيضاً.

أخيراً، تسمح لنفسك بهذه المفخرة لكي تقول لي بلهجة مدّعية «*أن من الأفضل استخدام الوقت لتنفيذ المشاريع بدلاً من روايتها*». إن هذه المباهاة لا تؤذيني، وأسامحك عليها... ولكن، أن تظن أنني بحاجة إلى حذرك، وأنني سأضيع نفسي إذا لم أتقيّد بآرائك، وأن عليّ أن أُضحّي من أجلها بمتعة أو برغبة: في الحقيقة يا ڤيكونت إنك تفاخر جداً بثقة شئت أن أمنحك إياها!

وأي عمل قمتَ به لم أسبقك فيه ألف مرة بأشواط؟ لقد أغويتَ وأضعتَ عقول نساء كثيرات، ولكن أية صعوبات كان عليك أن تتغلّب عليها؟ وأي عقبات تجاوزت؟ وأين جدارتك في كل هذا؟ وجه جميل: هذا وليد المصادفة. صفات لطيفة: وليدة التمرين دائماً. تلاعب في الكلام: ولكن هذا يمكن استبداله بلغة مُحرّفة عند الحاجة، وقاحة تُحسد عليها: ولكنها عائدة ربما إلى نجاحاتك

الأولى. تلك هي وسائلك إذا لم أخطئ العد، لأنك بالنسبة إلى الشهرة التي استطعت أن تنالها، لن تُطالبني كما أعتقد أن أحسب حساباً لفن خلق مناسبات الفضائح.

أما فيما يتعلّق بالحذر والرقة، فأنا لن أتحدّث عن نفسي، ولكن أية امرأة في العالم تملك منهما أكثر منك؟ ها هي رئيستك تقودك كما لو كانت تقود طفلاً!

صدقني أيها الفيكونت، من النادر الحصول على الخصال الحميدة التي يمكن الاستغناء عنها. بما أنك تحارب من دون مجازفة، تتصرّف من دون احتراس. أنتم معشر الرجال، ليست الانهزامات بالنسبة إليكم سوى نجاحات أقل. وفي هذه المباراة غير المتعادلة فإن ثروتنا هي عدم الخسارة، ومصيبتكم عدم الفوز. وحين أمنحك بقدر ما لدينا من المواهب، فكم ينبغي علينا إذاً أن نتفوّق عليكم، بسبب حاجتنا لاستخدام مواهبنا بصورة مستمرة!

لنفترض أنك تبذل من البراعة للتغلّب علينا بقدر ما نبذل نحن للدفاع عن أنفسنا أو للاستسلام، ولكن وافقني القول إنها تصبح عديمة الفائدة بعد نجاحكم. تهتمّون بحبكم الجديد فحسب، وتستسلمون له من دون خوف أو تحفّظ، إذ لا يهمكم طوال مدّة النجاح.

في هذه العلاقات المُتبادلة حقيقة، وحدكم تستطيعون وباختياركم استخدام لغة حب إما لتقويتها أو لقطعها: ونبقى سعيدات أيضاً، فيما لو فضّلتم الغموض على الوضوح. واكتفيتم بهجران مذلّ، ولم تجعلوا من معبودات الأمس ضحايا الغد.

ولكن، حين تشعر امرأة تعيسة الحظ بثقل القيد، فأي أخطار تواجه إذا حاوَلَت التملّص منه أو إذا تجرأت فقط على إزالته؟ إنها تحاول، وهي ترتجف، فقط أن تُبعد عنها الرجل الذي يدفعه قلبها

بجهد. وإذا أصرّ على البقاء، فإن ما تمنحه للحب، يجب أن تسلّمه إلى الخوف:

تفتح ذراعيها فقط، بينما يظلّ قلبها موصداً.

وعليها أن تفكّ بحذر وبراعة هذه الروابط نفسها التي كان بإمكانكم أن تقطعوها. وتكون تحت رحمة عدوّها دون وسيلة إذا لم يكن كريماً. وكيف يمكن انتظار الكرم منه؟ فإذا كان لديه منه فإنه يُمدح عليه، وإذا كان على العكس فإنه لا يُلام؟

أنت لا تنكر من دون شك هذه الحقائق المبتذلة لشدة وضوحها. وإذا كنتَ مع ذلك قد رأيتني أتصرّف بأحداث وآراء، وأجعل من هؤلاء الرجال المُخيفين جداً ألعاباً لنزواتي أو لنوازعي: أجرّد البعض من الرغبة، ومن البعض الآخر من قوة إيذائي. وإذا كنتُ قد عرفت على التوالي، وحسب أهوائي المتنقّلة، أن أعلّق ورائي أو أُبعد عني هؤلاء الرجال:

أولئك الجبابرة العُتاة أُنزلوا عن عروشهم وأصبحوا عبيدي.

وإذا كنتُ قد حافظت مع ذلك خلال هذه الثورات المتكررة على سمعتي الطاهرة، أفلا يجدر بك أن تستنتج أنني وُلدت لكي أثأر لجنسي وأسيطر على جنسكم، وقد عرفت أن أبتكر لنفسي وسائل مجهولة حتى عن نفسي؟

آه! احتفظ بنصائحك ومخاوفك لأولئك النساء المنتشيات اللواتي يصفن أنفسهن بنساء «العواطف»، ويحملهن الخيال على الظن بأن الطبيعة وضعت حواسهن في رؤوسهن. نساء لا يفكّرن أبداً، لذلك يختلط عليهن الأمر باستمرار بين العشق والعاشق.

ويتصوّرن في أوهامهن المجنونة، أن ذلك الرجل الذي بحثن لديه عن المتعة هو المستودع الوحيد لها. متطيّرات حقيقيات ينظرن إلى الكاهن نظرة إيمان واحترام بسبب خوفهن من الإله فقط.

يمكنك أن تخاف أيضاً على أولئك المغرورات أكثر من الفاضلات اللواتي لا يعرفن عند الحاجة أن يوافقن على أن يُتركن.

وتستطيع أن ترتجف خوفاً بصورة خاصة على أولئك النشيطات في فراغاتهن اللواتي تدعوهن حسّاسات ويستولي عليهن الحب بسهولة وبكل قوة، ويشعرن بالحاجة إلى الاهتمام به أيضاً حتى ولو كنّ لا يتمتّعن به، ويستسلمن من دون أي تحفّظ لهيجان أفكارهن، ويبدأن كتابة هذه الرسائل اللاهبة الناعمة جداً إنما الخطيرة جداً، ولا يخشين أن يسلّمن هذه البراهين على تخاذلهن إلى الشخص الذي يسبّبها، ولا يرين في عشيقهن الحالي عدوّهن المُقبل بسبب عدم احتراسهن.

ولكن! أي شبه بيني وبين هؤلاء النساء المتهورات؟ متى رأيتني أبتعد عن القواعد التي كتبتها بنفسي وأخفق في مبادئي؟ أقول مبادئي عَرَضاً، لأنها ليست كمبادئ النساء الأخريات التي تُمنح مصادفة، وتُقبل من دون تفحّص، وتُتبع بحكم العادة، بل إنها ثمرة تفكيري العميق، وقد خلقتها بنفسي وأستطيع أن أقول إنني صنع ذاتي.

دخلت المجتمع وأنا ما أزال يافعة، وانصرفت وأنا بحالة من الصمت وعدم الحركة إلى الاستفادة بالمراقبة والتفكير. بينما كان يُظن بي طائشة ولاهية، لأنني كنت قلما أُصغي إلى الأحاديث التي يُريدون أن أسمعها، كنت ألتقط بعناية جميع الأحاديث التي يحاولون أن يخفوها عني.

هذا الفضول المفيد الذي استخدمته لكي أتعلّم، علّمني أيضاً

التخفّي، ذلك أنني اضطررت غالباً إلى إخفاء ما يجذب انتباهي أمام أنظار من يُحيطون بي، فحاولت أن أقود أنظاري على هواي. وصارت لدي منذ ذلك الحين مقدرة على اتخاذ هذه النظرة الشاردة التي مدحتَها دائماً. وبعد أن شجّعني هذا النجاح الأول، جهدت كي أكيّف بالطريقة نفسها تعابير وجهي. فإذا شعرت ببعض الغمّ، كنت أعوّد نفسي اتخاذ هيئة وادعة، لا بل مسرورة. وقد وصلت بي الحماسة إلى درجة تسببت لذاتي بآلام، لكي أبحث خلال ذلك عن تعبير اللذّة. وقد روّضت نفسي بالعناية ذاتها وبعذاب أكثر لكي أطرد عوارض بهجة غير متوقعة. وهكذا، عرفت كيف أسيطر على تعابير وجهي بتلك القوة التي أدهشتك مراراً.

كنت لا أزال صغيرة أيضاً ومن دون مصلحة، ولكن لم يكن عندي سوى تفكيري، وكنت أثور غضباً لو سلبه أحد مني أو فاجأني ضد رغبتي. وبعد أن تزوّدت بهذه الأسلحة الأولى، حاولت استخدامها. ولأنني لم أكن راضية، ولم أدع أحداً يخترقني، رحت أتسلّى بالظهور بأشكال مختلفة، واثقة بحركاتي، أراقب أقوالي، فأكيّف هذه وتلك حسب الظروف، أو وفق أهوائي. ومنذ ذلك الحين، أصبحت طريقة تفكيري من اختصاصي، ولم أعد أُظهر إلا ما أرى فائدة من إظهاره.

وقد أوصلني هذا العمل على نفسي إلى الاهتمام بتعابير الوجوه وطباع الهيئات، وقد نجحت في إلقاء هذه النظرة الخاطفة الثاقبة التي علّمتني الخبرة ألا أثق بها كثيراً، والتي لم تخدعني إلا نادراً.

لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة، حين كنت أمتلك هذه المواهب الخارقة التي كانت سبب شهرة قسم كبير من سياسيينا، ولم أكن إلا في المراحل الأولى من العلم الذي أردت أن أناله.

قد تتصوّر أنني حاولت كجميع الفتيات أن أكتشف الحب وملذّاته، لكن بما أنني لم أدخل الدير قط، ولم تكن لديّ أي صديقة مقرّبة، أو أمّ متيقّظة تراقبني، لذلك لم يكن لديّ سوى أفكار غامضة يصعب تحديدها. حتى الطبيعة التي كان عليّ أن أرضى عنها بالتأكيد، لم تمنحني في ذلك الوقت أي دليل. حتى ليقال إنها كانت تعمل بصمت على إتقان ما صنعته يدها. عقلي وحده كان يختمر، ولم أكن أرغب في المتعة، كنت أريد أن أتعلّم فحسب، ورغبتي في ذلك أوحت إليّ بالوسائل.

وشعرت بأن الرجل الوحيد الذي أستطيع التحدّث إليه في هذا الموضوع دون أن أورّط نفسي هو المُعرّف. فاتخّذت قراري على الفور. تغلّبت على خجلي الصغير، متباهية أمامه بخطيئة لم أرتكبها، اتهمت نفسي بأنني *«فعلت ما تفعله النساء»*. وقد كانت هذه عبارتي بالضبط. ولكن حين قلت ذلك لم أكن أعلم في الحقيقة ما هي الفكرة التي أُعبّر عنها.

لكن أملي لم يخب تماماً ولم يحقّق كليّاً، ذلك أن الخوف من أن أنكشف قد حال دون أن أتنوّر، لكن الرجل الصالح صوّر لي الخطيئة عظيمة جداً بحيث استنتجت أن متعتها لا بد أن تكون فائقة الحد. فعوضاً عن معرفتها صرت أرغب في تذوّقها.

لم أكن أعرف إلى أين كان يمكن أن تقودني هذه الرغبة، ولعدم خبرتي الكافية، فإن فرصة واحدة كان يمكن أن تجعلني أضيع. لكن أمي أبلغتني بعد أيام قليلة لحسن الحظّ بأنني سأتزوّج قريباً، وهكذا وصلت إلى ذراعَي السيد دوميرتويّ وأنا عذراء.

انتظرت باطمئنان اللحظة التي يجب أن أتعلّم فيها، وكنت بحاجة إلى التفكير لكي أُظهر الارتباك والخوف. ليلة العرس التي

ترى فيها النساء إما القسوة أو اللذة، كانت تشكّل بالنسبة لي فرصة للاختبار، سواء في الألم أو في اللذة، كنت أراقب كل شيء، ولا أرى في هذه المشاعر المختلفة إلا وقائع للتعلّم والتأمّل.

وأصبحت أميل إلى هذا النوع من الدرس مع البقاء وفيّة لمبادئي. وشعرت، ربما بغريزتي، بأن لا أحد يجب أن يكون أبعد من زوجي في الحصول على ثقتي، فقرّرت أن أبدو عديمة الإحساس بنظره. كان هذا البرود الظاهر أساس ثقته العمياء. وقد أضفت إليها بعد التفكير مظهر الطيش الذي يسمح به عمري، بحيث لم يكن يراني طفلة أكثر إلا حين كنت ألاعبه بمزيد من الجرأة.

وفي تلك الأثناء، وأنا أعترف لك، في البداية تركت نفسي أنقاد في دوامة المجتمع، وانسقتُ كلياً وراء تسلياته التافهة. ولكن بعد عدة أشهر، أخذني السيد دوميرتويّ إلى ريفه الكئيب. وكان الخوف من السأم قد أيقظ في داخلي حب الدراسة من جديد. وحين وجدت نفسي محاطة بأناس تضعني المسافة بيني وبينهم بمنأى عن الشبهة، اغتنمت الفرصة لكي أفتح حقلاً أوسع لتجاربي. وهناك، تيقّنت بشكل خاص أن الحب الذي طالما وصفوه لنا بأنه مصدر ملذّاتنا ليس سوى مبرّر لها.

وجاء مرض السيد دوميرتويّ ليقطع عليّ مشاغل ممتعة، وكان لا بد من اللحاق به إلى المدينة، حيث عاد يبحث عن العلاج، ومات كما تعلم بعد وقت قصير. وعلى الرغم من أنني لم أكن أشكو منه، فقد شعرت بالحرية التي سيمنحني إياها ترمّلي، ووعدت نفسي بأن أستفيد من ذلك.

كانت والدتي تظن أنني سأدخل الدير أو سأعود لأعيش معها،

لكنني رفضت هذا وذاك، وكل ما فعلته بدافع اللباقة أنني عدت إلى الريف نفسه حيث كان ما زال عليّ أن أُكمل بعض الملاحظات.

وقد عزّزتها بالمطالعة، ولكن لا يأخذنك الظن أنها كانت من النوع الذي تفترضه. بل درست عاداتنا في الروايات، وآراءنا في الفلاسفة، لا بل بحثت عن الأخلاقيين الأشدّ صرامة وما يفرضونه علينا، وهكذا تيقنت مما يمكن عمله، ومما يمكن أن نفكّر فيه، ومما يجب أن نبدو عليه. بعد أن تعمّقت في هذه المواضيع الثلاثة، وحده الموضوع الأخير كان يشكّل بعض الصعوبة في تنفيذه، وكنت أرجو أن أتغلّب عليها، ورحت أبحث عن الوسائل.

ثم بدأت أسأم من متعي الريفية القليلة التنوّع، والتي لا تناسب نشاط عقلي. وشعرت بالحاجة إلى الدلال الذي صالحني مع الحب، لا لكي أشعر به حقيقة، بل لكي أوحيه وأتظاهر به. كنت قد قرأت وقيل لي: عبثاً يمكن إخفاء هذه العاطفة، مع ذلك كنت أرى أنه يكفي للتوصّل إليها إضافة تفكير المؤلّف إلى براعة الممثّل. ورحت أتمرّن على النوعين وربما بشيء من النجاح، لكنني بدلاً من البحث عن تصفيق لا طائل منه على المسرح، قرّرتُ أن أستخدم في سبيل سعادتي ما تُضحّي به الكثيرات في سبيل المباهاة.

مرّت سنة عليّ وأنا في هذه المشاغل المختلفة، وحين سمح لي حدادي بالظهور، عدتُ إلى المدينة حاملة مشاريعي الكبرى، ولم أتوقّع من نفسي ما فعلته لدى أول عقبة صادفتها.

كانت العزلة الطويلة والاعتكاف المتقشّف قد أَضْفَيا عليّ بريق عفّة كان يُفزع أجمل الشبان، لذلك كانوا يتجنّبونني ويتركونني لحشد من المُضجرين سعوا جميعهم إلى طلب يدي. لم يكن الإحراج في رفضهم، بل في غيظ عائلتي نتيجة هذا الرفض. ورحت أقضي الوقت

في هذه الإزعاجات الداخلية في حين كنت قد وعدت نفسي بتمضيته في أمتع اللحظات. كنت مضطرّة إذاً -لكي أقرّب البعض وأبعد البعض الآخر- إلى إظهار تصرّفات متناقضة، وأعمل على تشويه سمعتي بالجهد الذي بذلته للمحافظة عليها. وقد نجحت في ذلك بالسهولة التي تظنّها. ولكن، بما أنني لم أكن مستسلمة لأية هواية، فإنني لم أفعل إلا ما رأيته ضرورياً، وأقيس بحذر جرعاتي من الطيش.

بعد أن حقّقت الهدف الذي أريده، عدت على أعقابي، ورويت ما حدث لي إلى بعض النساء اللواتي، بسبب عجزهن عن بلوغ المثل العليا، يفتحن قلوبهن أمام النساء الفاضلات والمحترمات. وقد نَجَحَتُ بصورة لم أكن أتوقّعها، إذ بدأت تلك النساء الفاضلات يثنين عليّ في كل مكان. وبلغت بهن الحماسة العمياء، لما يسمونه صنع أيديهن، وصرن يصرخن مدافعات عني لدى أقل انتقاد يوجّه إليّ. منحتني الوسيلة نفسها أيضاً رضا النساء المدّعيات، لاقتناعهن بأنني رفضت أن أسلك مسلكهن، ورحن يزدن في إطرائي كي يبرهنّ للناس أنهن لسن نمّامات.

ومع ذلك، كان أن جذب سلوكي القديم العشّاق نحوي، ولكي أتدبّر نفسي بين هؤلاء وبين المدافعات عني، ظهرتُ بمظهر المرأة الحسّاسة إنما الصعبة، التي من فرط حساسيتها تزوّدت بأسلحة ضد الحب.

وهكذا، بدأت أنشر مواهبي الكبرى التي امتلكتُها على مسرح الجمهور العريض. وكان ينصبّ اهتمامي الأول في الحصول على سمعة المرأة المنيعة. وللوصول إلى ذلك، كنت أتظاهر أمام الرجال الذين لا يُعجبونني مُطلقاً بأنني أتقبّل إطراءهم، وأستخدمهم ببراعة

لكي أنال شرف المقاومة، في حين كنت أستسلم من دون خوف للعاشق المفضّل. لكن حيائي الظاهر لم يكن يسمح لذاك العاشق بالانضمام إليّ أمام المجتمع. وهكذا، كانت أنظار المجتمع مصوّبة دائماً نحو العاشق التعيس.

أنت تعلم كم أقرّر بسرعة: ذلك أنني لاحظتُ أن تصرّفات النساء السابقة هي التي تفضح سرهنّ دائماً. ومهما حاولن، فإن الحديث عنهن لا يبقى نفسه، قبل النجاح أو بعده، ولا يخفى هذا الاختلاف على المراقب الواعي مثلي. لذلك، وجدت أنني إذا أخطأت في اختياري سيكون ذلك أقل خطورة من أن أدع الاختيار يأتي من تلقاء نفسه. وبهذه الطريقة، كنت أفوز أيضاً في استبعاد مظهر الحقيقة الذي يُبنى على أساسه وحده حكم الناس علينا.

غير أن هذه الاحتياطات، إضافة إلى حرصي على عدم الكتابة، أو عدم تسليم أي دليل على انهزامي، قد تبدو زائدة عن الحد، لكنها ليست كافية. وبعد أن فتشتُ في قلبي ودرست قلوب الآخرين، رأيت فيها أنه لا يوجد شخص إلا ويحتفظ بسرّ يهمّه ويحرص على ألا ينكشف مطلقاً، وهذه حقيقة يبدو أن العصور القديمة قد عرفتها أكثر منا، وقصّة شمشون ودليلة ليست إلا مثالاً خارقاً عليها. ومثل دليلة، استخدمت قوتي لاكتشاف هذا السرّ المهم. وكم من شمشون عصري أمسكتُ بشعره تحت مقصّي! ولم أعد أخاف منه. وأولئك الرجال هم الوحيدون الذين سمحت لنفسي بأن أُهينهم أحياناً. ولأنني كنت أكثر مرونة مع الآخرين، استخدمتُ فنّي لأجعلهم خائنين دون أن أبدو مُحبّة للتنقّل، ومنحتهم صداقة ظاهرة، وجعلتهم يعتقدون بفخر أن كلاً منهم كان الوحيد الذي حظي بحبي، فحملتهم بذلك على الكتمان. وأخيراً، حين افتقدت هذه الوسائل عرفت، عن طريق

السخرية أو النميمة، كيف أخنق سلفاً تلك الثقة التي كان يمكن أن يحصل عليها هؤلاء الرجال الخطرون.

إن ما أقوله لك هنا، تراني أمارسه باستمرار، ثم إنك تشكّ في حذري! حسناً! تذكّر عندما أحطتني باهتمامك الأول: لم أبتهج يوماً كما أبهجني إطراؤك. كنت أشتهيك قبل أن أراك. وبعد أن أغرتني سمعتك، كان عليّ أن أُضيفك إلى أمجادي. كنت أتحرّق شوقاً إلى مصارعتك جسداً إلى جسد. كانت هذه أول مرة سيطر فيها هواي لفترة من الزمن. ومع ذلك، لو أنك أردتَ أن تفقدني صوابي، فما هي الوسائل التي كان بإمكانك أن تستخدمها؟ أقوال لا تجدي ولا تترك أي أثر، سمعتك وحدها ستجعلها مشبوهة، أو سلسلة أحداث لا أساس لها من الصحّة تجعل روايتها بصدق تبدو كأنها رواية فاشلة. في الحقيقة لقد سلّمتك منذ ذلك الحين جميع أسراري، لكنك تعلم أي مصلحة تربطنا.

وبما أنني أقوم الآن باستعراض حياتي أمامك، أودّ أن أفعل ذلك على خير وجه. وأسمعك هنا تقول إنني على الأقل تحت رحمة خادمتي. وبالفعل، إذا كانت لا تملك أسرار عواطفي، فهي تملك أسرار أعمالي. وحين حدّثتني عنها في الماضي، قلتُ لك إنني واثقة بها. وكان هذا الجواب وحده كافياً لتطمأنتك. وعهدتَ إليها منذ ذلك الحين بأسرارك الخطرة. ولكن الآن، بريڤان يثير قلقك ويجعل رأسك يدور، وأنا أشك في أنك تصدّق أقوالي. لذلك، يجب أن تُعيد النظر في كل آرائك.

أولاً، إن هذه الخادمة هي شقيقتي بالرضاعة، وإن هذه الرابطة قد تبدو لا قيمة لها بالنسبة إلينا بعكس ما هي عليه بالنسبة إلى أشخاص مثلها. فضلاً عن ذلك، أنا أملك سرّها، وأكثر من ذلك

أيضاً، لقد كانت ضحيّة حب جنوني، ولو لم أسارع إلى إنقاذها لكانت ضاعت. وقد أراد أقاربها، صوناً للشرف، أن يحجزوها، فاستشاروني في الأمر، ورأيت بنظرة خاطفة كم يمكن أن أستفيد من غضبهم، وطلبت إليهم أن يثقوا بي، ثم سألتهم الصفح عنها، واستفدت من مكانتي لدى الوزير العجوز وجعلتهم يوافقون جميعاً على أن أكون المسؤولة عن سلوك ابنتهم، وبيدي قرار تنفيذ قرارهم أو التوقّف عنه، وفق ما أحكم عليه وأقدّره في سلوك هذه الفتاة. إنها تعلم إذاً أن مصيرها بين يديّ. وحين لن تردعها هذه الوسائل القوية، فإن فضح سلوكها سيستبعد الصدق عن أقوالها.

إضافة إلى هذه الاحتياطات التي أعتبرها أساسية، لديّ ألوف الاحتياطات الأخرى إما محليّة أو مرهونة بالمناسبات التي يُمليها التفكير أو العادة عند الحاجة. تفاصيلها دقيقة جداً، وتطبيقها أكثر أهميّة، إذا أردت أن تتوصّل إلى معرفتها، لا بد من أن تُزعج نفسك وتتعرّف على سلوكي.

هل تدّعي أنني أُتعب نفسي كثيراً من دون نتيجة، وأنني بعد أن ارتقيت فوق مستوى النساء الأخريات بأعمالي المُرهقة، أرضى بأن أزحف مثلهن في مسلكي بين عدم الحذر والحياء؟ وإنني قد أخشى رجلاً إلى درجة لا أرى خلاصي منه بالهروب؟ كلا، أيها الڤيكونت، كلا أبداً. إما النصر أو الموت. أما فيما يتعلّق ببريڤان، فإنني أود أن أناله، وسأناله، ولن يقول ذلك لأحد، وبكلمة واحدة: هذه هي قصّتي. الوداع.

*من... في ٢٠ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الثانية والثمانون

من سيسيل ڤولانج إلى الفارس دانسيني

يا إلهي، كم آلمتني رسالتك! مع أنني تلقيتها بأشدّ لهفة! وكنت آمل أن أجد فيها عزاءً وإذا بي أجد نفسي أشد عذاباً مما كنت عليه من قبل. بكيت كثيراً وأنا أقرأها، وليس هذا ما أؤاخذك عليه، فقد سبق أن بكيت مراراً بسببك دون أن يزيد ذلك من ألمي، لكن الأمر لم يكن كذلك هذه المرة.

ماذا تعني إذاً بقولك إن حبك أصبح عذاباً لك، وأنك لا تستطيع أن تعيش على هذه الصورة، ولا أن تتحمّل وضعك الحالي مدة أطول؟ هل ستكفّ عن حبي لأن ذلك لم يعد مُبهجاً كالماضي؟ يبدو لي أنني لست أسعد حالاً منك، بل على العكس، مع ذلك فإن حبي لك يزداد. وإذا كان السيد دوڤالمون لم يكتب إليك، فليس الذنب ذنبي، إذ إنني لم أستطع أن أرجوه ذلك، لأنني لم أكن معه على انفراد، وكنا قد اتّفقنا على ألا نتحادث أبداً أمام الآخرين. وكل ذلك إكراماً لك، من أجل أن يتسنّى له تحقيق ما ترغب فيه بأسرع وقت ممكن. ولا أقول إنني لا أريده أنا أيضاً، بل تستطيع أن تكون واثقاً بذلك. ولكن، ماذا تريدني أن أفعل؟ فإذا ظننت أن الأمر سهل، فاعثر إذاً على الوسيلة، ولا أتمنى أكثر من ذلك.

هل تظن أن من الممتع أن تؤنبني والدتي كل يوم، وهي التي لم تعتد أن توجّه إليّ كلمة واحدة في السابق، بل على العكس؟ وفي الوقت الحاضر، أصبح الوضع أسوأ مما كنت عليه في الدير، لكنني أتعزّى لأنني أتحمّل ذلك من أجلك. مرّت عليّ لحظات كنت أجد

نفسي مرتاحة جداً لهذا الشعور، ولكن عندما أفكّر في أنك غاضب دون أن يكون الذنب ذنبي، أُصاب بحزن شديد لعله أشدّ ما أصابني حتى اليوم.

إن استلام رسائلك وحده يضعني في حالة من الإرباك الشديد، ولو لم يكن السيد دوڤالمون في غاية الحذق لما عرفت ماذا أفعل. كما أن الكتابة إليك أصعب من ذلك، إذ لا أجرؤ على ذلك طيلة الصباح لأن والدتي بقربي دائماً، وتأتي في كل لحظة إلى غرفتي. في بعض الأحيان، أستطيع الكتابة بعد الظهر بحجّة أنني أريد أن أُغنّي أو أعزف على القيثارة، ويكون لا بد لي من أن أقطع الكتابة عند كل سطر لكي يسمعوني أتمرّن. لحسن الحظ، تنام خادمتي عندي في المساء أحياناً، فأبلغها أنني سأنام وحدي كي تذهب وتترك لي النور مضاءً. أغمر نفسي عندئذ بغطاء حتى لا يُرى الضوء، وأصيخ السمع إلى كل حركة كي أتمكّن من إخفاء كل شيء في حالة جاء أحدهم. كم أتمنّى أن تكون هنا لترى بنفسك! ولتعرف أن على المرء أن يكون مُتيّماً لكي يفعل ذلك. أخيراً، في الحقيقة، أنا أفعل كل ما بوسعي، وأودّ لو أفعل المزيد.

من المؤكّد أنني لا أرفض أن أقول لك أحبك وسأحبك دائماً، وإنني لم أقل ذلك قط من كل قلبي كما أقوله الآن. وها أنت غاضب! لقد أكَّدتَ لي أن ذلك يكفي لجعلك سعيداً. ولا تستطيع أن تُنكره، لأنه وارد في رسائلك. صحيح أنها ليست عندي، لكنني أتذكّرها كما لو كنت أقرأها كل يوم. ولكن بما أننا الآن مفترقان، فإنك لا تفكّر كالسابق! غير أن هذا الفراق لن يدوم إلى الأبد أليس كذلك؟ يا إلهي كم أنا تعيسة! وأنت السبب في ذلك!

بخصوص رسائلك، آمل أن تكون قد احتفظت بتلك التي

أخذتها والدتي مني وأعادتها إليك. آمل أن يأتي يوم وتعيدها إليّ كلّها. كم سأكون سعيدة حين أتمكّن من الاحتفاظ بها دون أن يرى أحد في ذلك أي غضاضة! في الوقت الحاضر أسلّمها كلها إلى السيد دوڤالمون وإلا ستكون هناك مخاطرة لو فعلت خلاف ذلك، وعلى الرغم من ذلك، فإنني لا أسلّمه رسائلك دون أن يسبّب لي ذلك الكثير من العذاب.

الوداع يا صديقي العزيز، أحبّك من كل قلبي. وسأحبّك كل حياتي. وآمل ألّا تكون غاضباً، وساعة أتأكد من ذلك سأكون سعيدة. اكتب إلي في أقرب فرصة، فأنا سأظلّ تعيسة إلى أن تصلني رسالتك.

*من قصر... في ٢١ سبتمبر/أيلول ١٧***.

الرسالة الثالثة والثمانون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

الرحمة يا سيدتي، لنستأنف هذه المحادثة التي قُطعت للأسف! عساي أتمكّن من الوصول إلى الإثبات لك أنني أختلف عن الصورة البشعة التي رسموها لك عني. عساي أتمكّن بصورة خاصة، من أن أتمتّع أيضاً بهذه الثقة الغالية التي بدأتِ تبدينها تجاهي! أراك تضيفين السحر على العفّة فتزدادين جمالاً، وتوقظين في النفس جميع المشاعر النبيلة! آه... هنا يكمن إغراؤك، وهو الأقوى والوحيد الذي يمكن أن يكون قوياً ومحترماً.

لا شك في أنه يكفي المرء أن يراكِ كي يرغب في نيل إعجابك.

ويكفي أن يسمعك في المجتمع حتى تزداد هذه الرغبة. ولكن مَن كان محظوظاً بمعرفتك واستطاع أن يقرأ روحك، لن يلبث أن يندفع في أشرف حماسة، ويتغلغل في نفسه إجلال شبيه بالحب فيعبد فيك صورة جميع الفضائل. لعلّني مخلوق أكثر من غيري كي أُحب هذه الفضائل وأتبعها، لكنني انسقتُ وراء بعض الأخطاء التي أبعدتني عنها، وقد أتيت وقرّبتني إليها وجعلتني أشعر من جديد بكل روعتها، فهل تسمّين هذا الحب الذي شعرت به تجاهك جريمة؟ وهل تلومين ما كان صنع يديكِ؟ وهل ستلومين نفسك على مصلحتك أيضاً؟ وأي إثم يمكن أن يُخشى نتيجة عاطفة طاهرة؟ وهل يمكن نكران لذّتها؟

إن حبي يُخيفك، وتجدينه عنيفاً لا ضابط له... فخفّفيه إذاً بحبّ أرقّ، ولا ترفضي السلطان الذي أقدّمه لك، وأُقسم أنني لن أتخلّى عنه أبداً، وأجرؤ على الاعتقاد أنه لا يخالف الفضيلة. ألن تكون تضحيتي عذاباً لو لم أكن متأكّداً من أن قلبكِ سيعوّضني عن ذلك؟ وأي رجل إذاً هو ذاك الشقيّ الذي لا يعرف كيف يتمتّع بالحرمان الذي يفرضه على نفسه، والذي لا يفضل كلمة أو نظرة على جميع المِتع التي يستطيع أن يقنصها؟! وقد ظننتِ أنني هذا الرجل! ثم خفتِ مني! آه، لماذا لا تتوقّف سعادتكِ عليّ؟! سأنتقم منكِ حين أسعدكِ! لكن، لا السلطان الرقيق ولا الصداقة العقيمة يمكنهما تحقيق هذا المبتغى، الحب وحده يمكنه ذلك.

إن هذه الكلمة تُخجلكِ! لماذا؟ أي غرابة تجدها روحك في تعلّق أرقّ، واتّحاد أقوى، وفكرة واحدة، وسعادة واحدة، وآلام واحدة؟ هذا اسمه حب! وذلك هو على الأقلّ ما توحينه وما أشعر به! وهو أيضاً الذي يقدّر الأفعال حسب مزاياها، وليس حسب

قيمتها. إنه كنز النفوس الحسّاسة الذي لا ينضب، ويصبح كل شيء ثميناً إذا صدر عنه أو من أجله.

هذه الحقائق الواضحة والرائعة في الواقع، ما الذي يُخيفك فيها؟ وأي مخاوف يمكن أن يسببها لك رجل حسّاس لا يتيح له الحب سعادة سوى سعادتكِ؟ اليوم، إنها أمنيتي الوحيدة. سأضحّي بكل شيء لكي أحقّقها، ما عدا العاطفة التي توحينها، فاقبلي أن تشاطريني إياها، وستكيّفينها على هواكِ. ولكن، لنكفّ عن المعاناة مما يفرّقنا في الوقت الذي يجب أن يجمعنا. لو كانت الصداقة التي عَرَضتِها عليّ ليست سوى كلمة لا نفع منها، ولو أنها كانت -كما قلتِ لي بالأمس- أرقّ عاطفة تعرفها روحك، وهي التي يُشترط وجودها بيننا، فإنني لا أرفضها مطلقاً، ولكن لتحكم هي على الحب، ولتوافق على الإصغاء إليه، وعندئذ سيكون رفض الإصغاء إليها ظلماً.

إذا ما تحدثنا ثانية فلن يكون هناك ما يعيب أكثر من الأولى. ويمكن للمصادفة أن تخلق المناسبة، كما تستطيعين أنت نفسكِ أن تحدّدي الوقت. وأنا أود الاعتقاد أنني على خطأ، ولكن ألا تفضّلين أن تُعيديني إلى الصواب بدلاً من محاربتي؟ أم إنك ترتابين بطواعيتي؟ ولو لم يأتِ هذا الشخص الثالث المزعج فيقطع علينا تقاربنا، لكنتُ قد أصبحت كليّاً من رأيكِ، ومن يدري إلى أين يمكن أن تمضي سلطتك!

ماذا أقول لكِ؟ إن هذه القوة التي أنساق إليها دون أن أحسب لها حساباً لا تُقهر، وهذه الفتنة الطاغية التي تجعلكِ سيدة أفكاري وأعمالي، أخشاها أحياناً. يا أسفي! هل ينبغي عليّ أن أخشى هذه المحادثة التي أطلبها منكِ؟ ربما أجد نفسي بعدها، وقد تقُيّدت

بوعدي، مقتصراً على الاحتراق بنار حب أشعر جيداً بأنها لا يمكن أن تنطفئ، دون أن أجرؤ على التوسّل إليك لإغاثتي! آه! يا سيدتي! الرحمة، لا تستغلّي سلطانك عليّ! ولكن ماذا! إذا كان ينبغي أن تكوني أكثر سعادة، وإذا كان ينبغي أن أبدو أكثر جدارة بكِ، فأي آلام لا يمكن أن تخفّ نتيجة هذه الفكرة المواسية! أجل! أشعر بذلك. إن الحديث إليك أكثر يمنحكِ أسلحة أقوى ضدّي، ويعني أن أخضع كليّاً لإرادتكِ. ليس من السهل مقاومة رسائلكِ، مع أنها أقوالك بالذات، ولكنك ستكونين موجودة هنا لإعطائها القوة. مع ذلك، إن متعة سماعكِ تجعلني لا أبالي بالأخطار، على الأقل سأشعر بسعادة لأنني فعلت كل شيء من أجلكِ حتى ولو كان ضد مصلحتي، وتصبح تضحياتي تكريماً لك. سأكون سعيداً جداً لأثبت لك ذلك بألف طريقة، كما أشعر به بألف شكل، وإنك ستكونين دوماً دون أن أستثني نفسي، أعزّ مخلوق على قلبي.

*من قصر... في ٢٣ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الرابعة والثمانون

من الفيكونت دوفالمون إلى سيسيل فولانج

لقد لاحظْتِ كم عاكستنا الظروف في الأمس، إذ لم أستطع طوال النهار أن أسلّمك الرسالة التي كانت معي، ولا أعلم ما إذا كنت سأجد اليوم فرصة مناسبة أيضاً. أخشى أن أورطّك فيما لو بذلت من الحماسة أكثر من البراعة، ولن أسامح نفسي البتة على تهوّر قد يكون معاكساً ويسبب اليأس لصديقي بجعلك تعيسة إلى

الأبد. مع ذلك، أنا أعرف شوق العشاق، وأعلم كم يكون مضنياً في وضعك، حين تتحمّلين عذاب بعض التأخير في سبيل نيل العزاء الوحيد الذي يمكن أن تتمتعي به في هذا الوقت. ولفرط ما اهتممت بوسائل إبعاد العقبات، عثرت على وسيلة سيكون تنفيذها سهلاً لو أوليتِ بعض الانتباه.

أظنني لاحظت أن مفتاح غرفتكِ التي تُفضي إلى الرواق موجود دائماً فوق مدفأة والدتكِ. سيكون كل شيء سهلاً بواسطة هذا المفتاح، ولعلّك تشعرين جيداً بذلك. ولكن، لتعذر الحصول عليه، أستطيع أن أزوّدك بنسخة منه. وللتوصّل إلى ذلك، يجب أن يكون هذا المفتاح بحوزتي لمدة ساعة أو ساعتين. قد تجدين الفرصة السانحة لأخذه. وحتى لا يلاحظ أحد فقدانه، فقد بعثت إليك هنا مفتاحاً آخر شبيهاً به، كي لا يلفت النظر وجود فرق بينهما، إلا إذا حاول أحدهم تجربته، وهذا ما لن يقوم به أحد. ينبغي عليكِ فقط أن تعلّقي به شريطة زرقاء بالية مثل تلك المُعلّقة في مفتاحك.

لا بد من السعي للحصول على هذا المفتاح غداً أو بعد غد في ساعة الغداء، إذ سيكون من السهل عليك إعطائي إياه ثم إعادته إلى مكانه في المساء، ففي هذا الوقت لن تنتبه والدتكِ. وسوف أُعيده إليك في وقت العشاء، إذا تفاهمنا جيداً.

أنت تعلمين أننا حين ننتقل من الصالون إلى غرفة الطعام، السيدة دوروزموند تسير دائماً في المؤخّرة وسأتأبّط ذراعها بيدي. ليس عليكِ إلا أن تتركي شغل التطريز بهدوء، أو أن تتركي أي شيء آخر يسقط بطريقة تجعلك تتأخرين. عندئذٍ تعرفين كيف تأخذين المفتاح الذي سأهتمّ بإمساكه وراء ظهري. ويجب ألا تغفلي -بعد أن تعطيني إياه- السير إلى جانب عمتي العجوز وملاطفتها قليلاً. وإذا

حدث أن وقع منك هذا المفتاح، فلا ترتبكي، سأتظاهر كما لو أنه وقع مني، وسأتدبّر كل شيء.

إن الثقة القليلة التي تضعها والدتك فيكِ، والأساليب القاسية التي تتبعها نحوكِ، تجبرك على اللجوء إلى هذه الوسيلة. فضلاً عن ذلك، إنها الوسيلة الوحيدة الممكنة لكي تستمري في تلقّي رسائل دانسيني وتسليم رسائلك إليه، وأي وسيلة أخرى هي في الحقيقة خطرة، ويمكن أن تُضيع عليكما كل شيء.

بمجرد أن يصبح المفتاح معنا، سيبقى علينا اتخاذ بعض الاحتياطات لتلافي صرير الباب والقفل. وهذا في غاية السهولة: تجدين تحت الخزانة نفسها حيث وضعت لك الورق، ريشة وزيتاً. تذهبين في بعض الأحيان إلى غرفتك وحدك، فاغتنمي الفرصة لكي تزيّتي القفل والمفصّلات، والانتباه الوحيد الذي يجب أن تبذليه هو تفادي لطخ الزيت على ثيابك. ويجب عليك أيضاً انتظار الليل، لأنك إذا فعلته بما عهد فيك من ذكاء، فلن يُلاحظ أحد أبداً في اليوم التالي.

وإذا ما لاحظ أحدهم، فلا تترددي في أن تقولي إن ذلك من عمل نجّار القصر. وفي هذه الحالة، يجب أن تُحدّدي الوقت وتستشهدي بالكلام الذي قاله لك، مثلاً قال: إنه يزيّت أقفال الأبواب التي لا تُستخدم حتى لا تصدأ. لأنك إذا لم تفعلي فلن يبدو صحيحاً، لأنك كنت شاهدة على هذه الفوضى دون أن تسألي عن السبب. إن هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تجعل الكِذبات قابلة للتصديق، وتُزيل الرغبة في التحقّق منها.

بعد أن تقرئي هذه الرسالة، أرجو أن تُعيدي قراءتها مرة ثانية، لا بل أن تهتمّي بما فيها: أولاً، يجب أن تعلمي أن الغاية شريفة.

ثانياً، لكي تتأكّدي من أنني لم أغفل شيئاً. أنا غير معتاد كثيراً استخدام الدقة في ما يتعلّق بشؤوني الخاصة، ولكن في سبيل صداقتي الحارّة لدانسيني، وفي سبيل الاهتمام الذي توحينه إليه، كان لا بد لي من استخدام هذه الوسائل وإن كانت بريئة، لأنني أكره كل ما يبدو خداعاً، وهذا طبعي، لكن عذابك أثّر فيّ كثيراً إلى درجة أنني سأحاول بذل كل ما بوسعي لتخفيفه.

ستجدين أنه متى تم كل شيء على ما يرام، سيكون من الأسهل عليّ أن أؤمّن لك مع دانسيني الاجتماع الذي يرغب فيه. ومع ذلك، لا تحدّثيه عن كل هذا الآن، لأنك ستزيدين من تعجّله، ولم يحن أوان إرضائه بعد، بل عليك كما أعتقد أن تخفّفي من نفاد صبره بدلاً من أن تضاعفي حدّته، وهنا أعتمد على فطنتك. الوداع يا قرّة عيني الحسناء لأنك أصبحتِ ربيبتي. أحبّي قليلاً الوصي عليكِ، وكوني بصورة خاصة مرنة معه، وستجدين نفسكِ مرتاحة. إنني مهتمّ بسعادتكِ، وكوني متأكّدة أنني سأجد في ذلك سعادتي.

*من... في ٢١ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الخامسة والثمانون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

أخيراً، سوف ترتاح وتحكم عليّ بإنصاف. اسمعني، ولا تخلط بيني وبين النساء الأخريات، فقد قدتُ حتى النهاية مغامرتي مع بريڤان. أقول حتى *النهاية*! هل تفهم جيداً ما يعني ذلك؟ والآن تستطيع أن تحكم من منّا نحن الاثنين يستطيع أن يفتخر بنفسه.

والرواية لن تكون ممتعة كالواقع. وهكذا، في الوقت الذي كنتَ تحتكم فيه إلى العقل، سواء أصبت أم أخطأت، حول هذه القضية، أرى من الإنصاف أن تسرّ بها بقدر ما بذلتُ من وقت وعناء.

في هذه الأثناء، إذا كان لديك عملية كبرى، وإذا كان عليك أن تحاول توجيه ضربة إلى هذا الخصم الخطير الذي تبدو أنك تخشاه، فتعال، لأنه سيخلي الساحة لك لبعض الوقت على الأقلّ، ولعله لن يكتشف أبداً الضربة التي وجّهتها إليه.

ما أسعد حظك لأنني صديقتك! فأنا بالنسبة إليك جنّية طيبة. أنت تعيش الآن متراخياً بعيداً عن الجمال الذي يستخدمك، ويكفي أن أقول كلمة واحدة لتجد نفسك إلى جانب هذا الجمال. تريد أن تثأر من امرأة تؤذيك، سأحدّد لك موضع الضعف فيها، وتجعلها تحت رحمتك. وأخيراً، لكي أُبعد عن طريقك مزاحماً يُخشى جانبه، عليك أن تستدعيني من أجل ذلك، وسوف أُحقّق أمنيتك. وفي الحقيقة، إذا لم تقضِ حياتك في شكري، فأنت جاحد. أعود الآن إلى مغامرتي، وسأرويها لك من البداية:

الموعد الذي حدّدته بصوت عالٍ عند خروجي من دار الأوبرا فهمه بريڤان كما كنت آمل، وذهب إليه. وعندما قالت له الماريشالة بلباقة إنها سعيدة بأن تراه مرتين متتاليتين خلال بضعة أيام، حرص على إجابتها قائلاً: إنه منذ مساء الثلاثاء وهو يتدبّر مئات الوسائل لكي يستطيع الحضور إلى هذه السهرة. *كان التلميح موجّها إليّ!* وكي أتأكد أكثر ما إذا كنت أنا هدف هذا الشوق الذي يبعث على الإطراء، أردت أن أحمل هذا العاشق الجديد على الاختيار بيني وبين شغفه بورق اللعب. أعلنت إذاً أنني لن ألعب، وبالفعل وجد من جهته آلاف الأعذار كي لا يلعب، وكان هذا أول انتصار لي.

ثم تنحّيت جانباً في حديث مع الأسقف دو. . . وقد اخترته بسبب علاقته ببطل اليوم الذي أردت أن أُتيح له جميع التسهيلات لكي يقترب مني. وكنت مرتاحة جداً أيضاً لأن يكون هناك شاهد محترم يستطيع عند الحاجة أن يشهد على سلوكي وأقوالي، وقد نجح هذا التدبير تماماً.

وبعد عبارات المجاملة المعتادة، سيطر بريڤان على دفة الحديث، وتحدّث بمواضيع شتّى للوصول إلى الأمر الذي يمكن أن يُعجبني. رفضت موضوع العواطف على اعتبار أنني لا أُؤمن بها وجعلته بكل رزانة يتوقف عن مرحه الذي بدا لي مبتذلاً جداً كبداية، وانتقل إلى موضوع الصداقة المتحفظة، وبدأنا تحت هذه الراية الزائفة تبادل الهجمات.

وفي وقت العشاء، لم ينزل الأسقف، فقدّم لي بريڤان ذراعه، ووجد نفسه بطبيعة الحال جالساً بالقرب مني إلى المائدة. وهنا، يجب أن أكون منصفة بحقّه، فقد أدار محادثاتنا الخاصة بكثير من البراعة، بحيث بدا أنه كان يهتمّ بالمحادثة العامة التي سيطر عليها وحده. وفي أثناء التحلية، دار الحديث عن مسرحية جديدة ستُعرض على المسرح الفرنسي يوم الإثنين التالي. أبديت أسفي لأنني لم أحصل على مقصورة، فعرض عليّ مقصورته التي رفضتها في البداية كما ينبغي أن أفعل. وهنا، أجاب بلطف زائد أنني لم أفهمه، وأنه من المؤكّد لن يُضحّي بمقصورته إلى شخص لا يعرفه، وأنه كان يُخبرني فقط أن المقصورة تحت تصرف السيدة الماريشالة. تقبّلت منه هذه المزحة، ووافقت على اقتراحه.

وحين عدنا إلى الصالون، طلب كما تستطيع أن تتصوّر مكاناً له في تلك المقصورة. وبما أن الماريشالة تُعامله بكثير من الطيبة، فقد

وعدته بذلك «*إذا كان عاقلاً*»، فاغتنم الفرصة ليتبادل معي هذا النوع من الأحاديث المبطنة التي طالما مدحتها لي. وبالفعل، جثا على ركبتيه مثل طفل مذنب، بحجّة أن أسأله آراءه، وأستمع إلى منطقه، وقال الكثير من الإطراء اللطيف الذي لم يصعب عليّ أن أعرف الصادق فيه. ونظراً إلى عدم رغبة كثير من الضيوف في لعب الورق بعد العشاء، فإن الأحاديث كانت عامّة وأقلّ إمتاعاً، لكن عيوننا تحدّثت طويلاً. أقول عيوننا، وكان يجب بالأحرى، أن أقول: عيناه، لأن عينيّ كانت لغتهما التعجّب. ولعلّه ظنّ أنني دُهشتُ واهتممت كثيراً بتأثيره الخارق في نفسي. وأظن أنني تركته راضياً جداً عن نفسه، ولم أكن أقلّ سروراً أنا أيضاً.

ويوم الإثنين التالي، ذهبت إلى المسرح الفرنسي كما اتفقنا. وعلى الرغم من فضولك الأدبي، فلا أستطيع أن أُخبرك شيئاً عن المسرحية. أقول فقط أن بريڤان يتمتّع بموهبة عجيبة في الممالقة ولم أفهم شيئاً من المسرحية، هذا كل ما علمته هناك. وكنت أشعر بالحزن لسرعة انتهاء هذه السهرة التي أعجبتني حقيقة جداً، وكي أمدّدها، عرضت على الماريشالة أن تأتي لتناول العشاء في بيتي، وهذا ما أتاح لي حجّة توجيه دعوة مماثلة إلى المغازل اللطيف الذي لم يطلب سوى السماح له بالإسراع لرؤية الكونتيسّتَين دو ب... لكي يتخلّص من ارتباطاته، لكن مجرّد ذكر هذا الاسم أثار كل غضبي، ورأيت بوضوح أنه سيبدأ في إشاعة أسراره، وتذكّرت نصائحك الحكيمة، ووعدت نفسي بالاستمرار في المغامرة، وأنا واثقة بأنني سأُشفيه من هذه العادة الخطيرة.

وبما أنه كان غريباً عن مجموعتي التي كانت قليلة العدد ذلك المساء، فقد وجد أن الواجب يُملي عليه توجيه اهتمام خاص

نحوي. وحين توجهنا إلى مائدة العشاء عرض عليّ ذراعه. وقد واتتني الخباثة بقبولي يده، إذ تصنّعت ارتجافاً خفيفاً في يدي، وأخفضت أبصاري ورحت أتنفّس على نحو مسموع، بدوت كما لو كنت أتوقّع انهزامي، وخائفة من المنتصر سلفاً، وقد لاحظ ذلك بشكل رائع. كما أن الخائن غيّر على الفور نبرته وسلوكه. وبعد أن كان مُجاملاً غدا رقيقاً. ليس لأن عباراته تغيّرت، بل لأن المناسبة كانت تفرض ذلك، لكن نظرته أصبحت أقلّ حدّة وأكثر ملاطفة وطبقة صوته أشدّ نعومة، ولم تعد ابتسامته تنمّ عن الرِقّة بل عن السرور. وأخيراً، أخمد في أحاديثه شيئاً فشيئاً نار الحماسة، وحلّت روح النكتة محل الملاطفة. وأنا أسألك، ماذا كنت ستفعل أفضل من ذلك؟

أما من جهتي فقد بدوتُ حالمة، إلى درجة حَمَلته على أن يلاحظ ذلك. وحين أُوخذْتُ على هذا، كنت بارعة في أن أدافع عن نفسي بشكل مُرتبك، وألقيت على بريڤان نظرة خاطفة، لكنها خجولة حائرة، بحيث جعلته يعتقد أنني خائفة من أن يكتشف سبب اضطرابي.

وبعد العشاء، اغتنمتُ فرصة قيام الماريشالة الطيبة برواية إحدى حكاياتها التي ترويها دائماً لكي أستلقي على أريكتي الطويلة بنوع من الاسترخاء الذي يوحي بتخيّلات عاطفية. ولم أنزعج لأن بريڤان رآني على هذا الشكل، بل على العكس، شرّفني حقيقة باهتمام خاص. وبإمكانك أن تتصوّر كيف كانت نظراتي الخجولة لا تجرؤ على النظر في عينيّ منتصري، وحين وجّهتها إليه بشكل أكثر تواضعاً، تأكدت من أنني أحرزت التأثير الذي أريده. وكان لا بد من إقناعه أيضاً بأنني أُشاطره عواطفه. وهكذا، حين أعلنَتْ الماريشالة أنها

ستنصرف، صحتُ بصوتٍ متراخ ناعم: «آه، يا إلهي كم أنا مرتاحة هنا»، ونهضتُ، لكنني قبل أن أفترق عنها سألتها عن مشاريعها لكي تكون عندي حجّة إبلاغها بمشاريعي، وأعلمتها أنني سأبقى في بيتي بعد الغد. وهنا افترق الجميع.

وبدأتُ عندذاك أُفكّر. لم أشكّ في أن بريڤان سيغتنم الموعد الذي حددته بهذه الطريقة، وأنه سيأتي في ساعة مبكرة لكي يجدني وحدي، وأن الهجوم سيكون حاداً. لكنني كنت واثقة أيضاً، بالنظر إلى ما يعرفه عن سمعتي، بأنه لن يعاملني بتلك الخفّة التي يستخدمها عادة مع النساء السهلات، أو عديمات الخبرة. ورأيت أن نجاحي سيكون أكيداً إذا لفظ كلمة الحب، وإذا كان يدّعي خصوصاً الحصول عليها منّي. كم هو سهل أن يتعامل المرء معكم أنتم «*أصحاب المبادئ*»! أحياناً، يثير فيك عاشق ساذج بسبب خجله الارتباك، أو يحيّرك بنزواته الهائجة، إنها حمّى كغيرها، لها حرارتها وارتجافاتها، وتختلف في عوارضها في بعض الأحيان، لكنها سلوك محسوب بدقة ويسهل توقعه! الوصول، السلوك، اللهجة، الأقوال، كنت أعرف كل شيء سلفاً قبل ليلة. لن أروي لك تفاصيل أحاديثنا التي تستطيع أن تتخيّلها بسهولة. لاحِظْ فقط أنني في دفاعي الظاهر، كنت أساعده بكل قوتي: ارتباك لكي أُتيح له الوقت كي يتكلّم، أعذار سيئة لكي أبدوَ مهزومة، خوف وحذر لكي أثير احتجاجاته. وهذه اللازمة الدائمة من جانبه: «*إنني لا أطلب منك سوى كلمة واحدة*»، وهذا الصمت من جانبي الذي يبدو أنه لا يتركه ينتظر إلا لكي يزداد شوقاً. وخلال كل ذلك الوقت، أخذ يدي مئة مرة، لأسحبها دائماً دون أن أرفضها. كان بالإمكان أن نقضي نهارنا كله على هذا المنوال، وهكذا أمضينا ساعة مميتة. وكان يمكن أن نبقى على هذه الحال لو

لم نسمع دخول عربة إلى ساحة منزلي، وقد جعله هذا الانقطاع أكثر إلحاحاً، وهنا، رأيت أن الفرصة قد حانت لأكون بمنأى عن أي مفاجأة. وبعد أن هيأت نفسي بزفرة طويلة، منحته الكلمة الثمينة. وبعد وقت قصير جاءني أصدقاء كثرٌ.

سألني بريڤان أن أسمح له بالحضور في صباح اليوم التالي، فوافقت. وبما أنني كنت حريصة على التحضير للموقف، أمرتُ خادمتي بأن تبقى طوال هذه الزيارة في غرفة نومي التي يمكن أن يُرى منها كل ما يجري في غرفة زينتي، واستقبلته هناك. كنا أحراراً في حديثنا، وبما أنه كانت لدينا نحن الاثنين الرغبة نفسها، سرعان ما اتفقنا، ولكن كان ينبغي التخلّص من هذا المشاهد غير المناسب.

ورحت أصف له حياتي في البيت، وأقنعته بسهولة أننا لن نجد أبداً أية لحظة فراغ، وأن لحظة اجتماعنا التي سررنا بها في الأمس يجب أن يعتبرها نوعاً من المعجزة، وربما ستعرضني لمخاطر كبيرة قد تفضحني، لأنه من الممكن أن يدخل أحدهم إلى صالوني في كل لحظة. ولم أنسَ أن أُضيف أن هذه العادات كلّها سارية حتى اليوم ولم تعاكسني قط. وأصررت في الوقت نفسه على استحالة تغييرها دون أن أورّط نفسي بنظر أقربائي. هنا، حاول أن يحزن ويُظهر الاستياء، وقال لي إني أحبه قليلاً. وتستطيع أن تتصوّر كم كان تأثير ذلك فيّ! لكنني أردتُ أن أضرب هنا الضربة الحاسمة، استنجدت بالدموع لإغاثتي. وقد جعله هذا يظنّ أن له سلطاناً عليّ ويأمل أن يضيّعني، فأبدى نحوي كل الحب.

وبعد انتهاء هذه المسرحية، عدنا إلى البحث عن الوسائل. وبدلاً من النهار، رحنا ندرس إمكانية اجتماعنا في الليل، لكن بوابي أصبح عقبة لا يمكن التغلّب عليها، وأنا لا أسمح بمحاولة التغلب

عليه. فاقترح عليّ الدخول من باب حديقتي، لكنني توقعت ذلك، واخترعتُ وجود كلب هادئ في النهار، ولكنه يتحوّل إلى شيطان حقيقي في الليل. وكانت السهولة التي أبديتها في هذه التفاصيل قد جعلته يتجرأ أكثر، فاقترح عليّ الحل الأكثر سخافة، ووافقت عليه.

أولاً، كان خادمه موثوقاً مثله تماماً، وهو لم يخطئ في ذلك كثيراً. كنت سأقيم حفل عشاء كبير في منزلي يكون مدعواً إليه. سيجد مناسبة لكي يخرج وحده، يقوم خادمه المخلص باستدعاء العربة، ثم يفتح بابها، أما بريفان، فبدلاً من أن يصعد إليها، سيختبئ بمهارة ولن يلاحظ السائق شيئاً. وهكذا، يكون قد خرج بنظر الجميع، ومع ذلك يكون قد ظلّ عندي. بقي أن يعرف ما إذا كان يستطيع الوصول إلى غرفتي. وأعترف أنني احترت في البداية، لكنه كان يقول: ليس هناك أكثر سهولة من هذه الطريقة، هو نفسه قد استخدمها مراراً أكثر من أي كان، باعتبارها الأقل خطورة.

وهكذا، بعد أن أقنعني بهذه الحجج، اعترفتُ بسذاجة بأنه يوجد في بيتي سلّم خفي يفضي إلى مخدعي، وأستطيع ترك مفتاحي مُعلّقاً هناك. بإمكانه الاختباء هناك والانتظار من دون مجازفة، إلى حين انصراف ضيوفي. ثم لكي أُعطي مزيداً من التأكيد لموافقتي، قرّرت بعد لحظة قصيرة أنني لم أعد أريد ذلك مطلقاً. ولم أعد إلى القبول إلا بعد الاشتراط عليه بالخضوع التام والتعقّل. آه يا له من تعقّل! وأخيراً، أردت أن أبرهن له على حبي، ولكن من دون إرضاء حبّه.

أما بالنسبة إلى خروجه الذي نسيت أن أخبرك عنه، كان يجب أن يتم عبر باب الحديقة الصغير، وكل ما كان عليه القيام به، هو انتظار طلوع الفجر حتى لا يوقظ الكلب الشرس. كما أنه لا يمر في

تلك الساعة المُبكرة أي كائن في الشارع، والناس يغطون في نوم عميق. وإذا كنت تُدهش لكل هذه التناقضات، فذلك لأنك تنسى وضعنا المتبادل. إلام نحتاج لنفعل أحسن من ذلك؟ فهو لم يكن يتمنى أفضل من هذه الطريقة لكي تُفضح القصة، وأنا كنت واثقة بأنها لن تُعرف أبداً. ثم حدّدنا الموعد بعد يومين.

لاحظ أن القضية أصبحت منتهية، ولم يرَ أحدٌ بريڤان في شلّتي. فقد اتفقنا على أن أكون قد قابلته على العشاء عند إحدى صديقاتي، وأنه عرض عليها مقصورته في المسرح لحضور مسرحية جديدة. وأنني قبلت بالمناسبة مقعداً في المقصورة. وخلال المسرحية، دعوت هذه المرأة إلى تناول العشاء عندي أمام بريڤان، ولم أستطع إلا أن أوجّه إليه الدعوة، فوافق. ثم قام بعد يومين بزيارتي كما تقتضي العادة. وقد حضر في الحقيقة ليراني في صباح اليوم التالي. ولكن، بما أن زيارات الصباح لا تأثير لها، فقد وجدتها عادية. وهكذا، وضعتهُ في صفّ الأشخاص الذين لا تقوم بيني وبينهم رابطة قوية، فوجّهت إليه دعوة خطّية رسمية لحفل عشاء عندي. وبوسعي القول: هذا كل شيء! وجاء اليوم الحاسم، اليوم الذي كان يجب أن أفقد فيه فضيلتي وسمعتي. أصدرتُ تعليماتي لخادمتي الأمينة ڤيكتوار، وقد نفَّذتها كما سترى الآن.

ففي ذلك المساء، حضر عدد كبير من الناس إلى بيتي، وعندما أُعلن عن وصول بريڤان، استقبلته بتهذيب ملحوظ، يُفهم منه وجود علاقة رسمية معه، وعزوت هذه العلاقة إلى الماريشالة، باعتبار أنني تعرّفت إليه بواسطتها. ولم يحدث شيء في السهرة سوى ورقة صغيرة استطاع العاشق المتحفّظ أن يجد وسيلة لدسّها بين يديّ، لكنني حسب عادتي أحرقتها على الفور، وقد أعلن لي فيها أنني أستطيع أن

أعتمد عليه. وقد أحاط هذه الكلمة الأساسية بجميع الكلمات الطفيلية كالحب والسعادة إلخ. . . التي لا تخلو من رسائل بهذه المناسبة.

وعند منتصف الليل، بعد انتهائنا من لعب الورق، اقترحت لعبة أخرى، وكان لي من وراء ذلك هدفان: تسهيل هروب بريفان، وجعله ملحوظاً في آن واحد. وهذا ما حدث بالفعل نظراً إلى سمعته كمقامر. وكنت مغتبطة أيضاً لأنني بدوت غير مُتسرعة إلى مغامرتي معه.

واستمرّت اللعبة وقتاً أطول مما كنت أظن. وقد أغواني الشيطان، واستسلمت لرغبة الذهاب لمواساة السجين النافد الصبر، وكنت أتجّه بالفعل نحو هلاكي، حين فكّرت أنني بذهابي إليه سأفقد سلطان إبقائه في الوضع الضروري لخططي. وكان أن واتتني القوة على مقاومة هذه الرغبة، فعدتُ على أعقابي على مضض، مستعيدة مكاني في تلك اللعبة المملّة، لكنها انتهت أخيراً. ثم انصرف كل واحد إلى جهة، أما أنا فقد استدعيت خادماتي وخلعت ثيابي بسرعة وصرفتهن بالسرعة نفسها.

ليتك رأيتني أيها الفيكونت وأنا في ثيابي الشفّافة، أمشي بخطى خجولة متردّدة وأفتح بيد غير واثقة باب منتصري. شاهدني بلمح البصر، ماذا سأقول لك؟ شعرت بأنني انهزمت، انهزمتُ كلياً قبل أن أتفوّه بكلمة أوقفه فيها أو أدافع عن نفسي. ثم أراد أن يتّخذ وضعاً أكثر ملاءمة مع الظروف، فراح يلعن ملابسه البرّاقة التي كما قال تُبعدهُ عني. وأراد أن يحاربني بأسلحة متساوية، لكن حيائي المُفرط اعترض على هذا المشروع، ولم تدع له ملاطفاتي الوقت لكي يتخلّص من ثيابه، فانشغل بشيء آخر.

بيد أنه بدأ يطالب بالمزيد من حقوقه. وهنا، قلت له: «اسمع،

ستكون عندك قصة ممتعة ترويها إلى الكونتيسّتين دو ب. . . عنّي، لكنني متشوّقة لأعرف كيف ستروي نهاية هذه المغامرة». بينما أقول له ذلك، كنت أقرع الجرس بكل قواي. وعلى الفور استعدت دوري، وكانت كلماتي وحركاتي أقوى من كلماته. ولم يتسنّ له الوقت سوى للتلعثم حين سمعتُ ڤيكتوار تهرع ومعها بعض الخَدَم الذين احتفَظَتْ بهم في غرفتها كما كنت قد أمرتها. وهنا، استعدتُ لهجتي كملكة ورفعْتُ صوتي قائلة: «اخرج يا سيدي، ولا تعد للظهور أمامي بعد الآن». وهنا، دخلت بقية خدمي.

هكذا، فقد المسكين بريڤان صوابه، وظنّ أنه وقع في كمين، فيما كان في الواقع مزحة، فاستلّ سيفه، لكنه لم يتمكن، إذ إن خادمي الشجاع السريع أمسك به وطرحه أرضاً. وقد أصابني خوف شديد، أعترف بذلك. صحتُ كي يتوقف ويدعه وشأنه، ويتأكد فقط من أنه يغادر بيتي. وأطاعني خدمي، لكنهم كانوا غاضبين جداً، كيف تجرأ أحد على تلويث سمعة سيدتهم الفاضلة. رافق الجميع الفارس التعيس بهرج ومرج وفضيحة كما كنت أتمنّى. وبقيت ڤيكتوار وحدها، وأعدنا خلال هذا الوقت ترتيب سريري.

عاد الخدم وهم يصخبون، وقد كنت في غاية التأثر أيضاً، وقلت لهم: «كم كان حظي جيداً لأنكم كنتم مستيقظين». وهنا، روت لي ڤيكتوار أنها دعَت صديقتين من صديقاتها إلى العشاء معها، وأنهما بقيتا حتى الآن، وأخيراً حدّثتني عن كل ما اتّفقنا عليه. فشكرتهم جميعاً وأمرتهم بالانصراف، على أن يذهب أحدهم في الحال لاستدعاء طبيبي، إذ بدا لي أنه من حقّي أن أخشى تأثير هذه المباغتة الفتاكة. وكانت هذه أيضاً طريقة أخرى أتيح بها لهذا الخبر أن يُذاع على نطاق واسع.

وبالفعل، حضر الطبيب وأشفق على حالي كثيراً وأمرني بالتزام الراحة. وأنا أمرتُ، إضافة إلى ذلك، خادمتي ڤيكتوار بأن تذهب وتُثرثر من الصباح الباكر عن الحادثة مع الجيران.

وقد نجح كل شيء، وقبل أن تحلّ الظهيرة كانت جارتي الورعة قرب سريري تريد أن تعرف حقيقة وتفاصيل هذه المغامرة الفظيعة. وكنت مضطرة إلى التحدّث معها خلال ساعة حول فساد هذا العصر. وبعد لحظة قصيرة، تلقّيت من الماريشالة الرسالة التي أبعث بها إليكَ. وأخيراً، قبل الساعة الخامسة، ولدهشتي الكبيرة، فاجأني وصول الكومندان، وهو قائد الفرقة التي يخدم فيها بريڤان. وقال لي إنه جاء ليقدّم اعتذاره لأن أحد ضباط فرقته استطاع أن يتمادى معي إلى هذا الحَد، وإنه لم يعلم بالأمر إلا أثناء العشاء عند الماريشالة. . . وقد بعث فوراً بأمر سجن بريڤان. وطلبت منه أن يعفو عنه، لكنه رفض طلبي. وعندذاك فكّرت بما أنني متواطئة في القضية، يجدر بي أن أنفّذ بحقي بعض الأحكام القاسية، فأقفلت بابي على نفسي بحجّة أنني لست على ما يرام.

وهكذا، يعود الفضل إلى عزلتي في إرسال هذه الرسالة الطويلة إليك، وسأكتب رسالة أخرى إلى السيدة دوڤولانج التي ستقرأها علناً بالتأكيد، وسترى كيف ينبغي لهذه الحادثة أن تُروى.

نسيت أن أقول لك إن بيلروش جنّ جنونه، وهو يريد مهما كلّف الأمر أن يبارزه. يا له من صبي مسكين! لحسن الحظ سيكون عندي وقت لكي أُخفّف من سورته. وبالانتظار، أريد أن أُريح رأسي الذي تعب من الكتابة. الوداع يا ڤيكونت.

*من قصر. . . في ٢٥ سبتمبر/أيلول **١٧، مساءً.*

الرسالة السادسة والثمانون

من الماريشالة دو... إلى الماركيزة دوميرتويّ

(رسالة صغيرة ضمن ما قبلها)

يا إلهي! ما هذا الذي علمته سيدتي العزيزة؟ هل من المعقول أن يفعل هذا الصغير بريڤان هذه الأشياء المقيتة؟ وفوق ذلك، تجاهك! ما الذي نتعرّض له؟! لم يعد المرء آمناً في بيته! في الحقيقة، إن ما يعزّي في هذه الأحداث هو أنها مرّت بسلام. ولكن، ما لن يعزّيني أبداً هو أنني كنت بطريقة ما السبب في أن تستقبلي في بيتك مثل هذا الوحش. وأعدكِ، إذا كان كل ما قيل لي عنه صحيحاً، بأنني لن أدعه يطأ أرض بيتي بعد الآن. وهذا هو القرار الذي يجب على جميع الشرفاء أن يتّخذوه تجاهه، إذا كان عليهم أن يفعلوا ما يجب.

لقد قيل لي إنكِ أُصبتِ بوعكة صحيّة، وأنا قلقة على صحّتكِ. فأطلعيني رجاء على أخبارك العزيزة، أو اجعليني أطّلع عليها عن طريق إحدى خادماتك إذا لم تتمكّني من ذلك بنفسك. ولا أطلب منكِ سوى كلمة واحدة كي أطمئن عليكِ. كنتُ أود أن أسارع إليك هذا الصباح لولا الحمّامات التي لا أستطيع إيقافها حسب أوامر طبيبي. كما يجب عليّ أن أذهب إلى ڤرساي بعد الظهر من أجل قضيّة ابن أخي دائماً.

الوداع يا سيدتي العزيزة. لك صداقتي المخلصة طول الحياة.

*باريس، في ٢٥ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة السابعة والثمانون

من الماركيزة دوميرتويّ إلى السيّدة دوڤولانج

أكتب إليكِ الآن من سريري، يا صديقتي العزيزة، ذلك أن الحادث الأكثر إزعاجاً، والذي يستحيل توقّعه، قد جعلني مريضة وحزينة من الصدمة، وهذا ما أُلام عليه بالتأكيد. كم يشقّ على امرأة شريفة تحافظ على التواضع اللائق بجنسها أن تصبح حديث المجتمع. كنت أتمنّى أن أبذل ما بوسعي لتلافي هذه المغامرة التعيسة، ولا أعلم حتى الآن ما إذا كنت سأذهب إلى الريف أم لا، بانتظار أن تُنسى. وإليكِ ما حدث:

قابلت عند الماريشالة دو. . . رجلاً يُدعى السيد بريڤان، تعرفينه بالتأكيد بالاسم، كما كنت أعرفه أنا أيضاً. لكنني حين وجدته في ذلك البيت، سمحتُ لنفسي -كما بدا لي- بأن أعتبره من الناس الطيبين. فلقد كان في غاية التهذيب، وبدا لي أنه ممن لا يعوزهم الذكاء. وقد شاءت المصادفة والضجر من اللعب، أن أكون المرأة الوحيدة في جلسة بينه وبين الأسقف دو. . . بينما كان الجميع منهمكين في لعبة ورق. تحدّثنا نحن الثلاثة حتى وقت العشاء. وإلى المائدة، دار الحديث عن عرض مسرحية جديدة، ما أتاح له الفرصة بأن يعرض مقصورته على الماريشالة فقبِلَت، وتم الاتفاق على أن يكون لي مكان فيها. وكانت الحفلة يوم الإثنين الماضي في المسرح الفرنسي. وبما أنني دعوت الماريشالة عند خروجنا من المسرحية إلى العشاء في بيتي، فقد عرضتُ على هذا السيّد أن يرافقها، وقد حضر. وبعد يومين جاء إلى بيتي في زيارة كما تقتضي العادة، تبادلنا خلالها

المجاملات دون أن ألحظ في أثناء ذلك ما يُشين. وفي صباح اليوم التالي، عاد ليراني، الأمر الذي اعتبرته سلوكاً غير لائق، ولكن بدلاً من أن أُشعره بذلك بطريقة استقبالي له، فضّلت أن أُعلمه بأدب أننا لسنا على علاقة وثيقة كما يعتقد. ومن أجل ذلك، بعثتُ إليه في اليوم نفسه بدعوة جافة إلى العشاء الذي احتفلت به أول من أمس. لم أوجّه إليه الكلام أربع مرّات خلال السهرة كلّها، وقد انصرف بعد أن أنهى اللعب. حتى الآن، لم يكن هناك ما يدل على أنه يسعى إلى القيام بأيّ مغامرة. وبعد انصرافه، لعبنا لعبة مشتركة امتدّت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ثم ذهبت أخيراً إلى النوم.

وكان قد مضى على الأقل نصف ساعة على انصراف خادماتي، حين سمعت حركة في جناحي، فتحت ستارتي بخوف شديد، فرأيت رجلاً يدخل من الباب المفضي إلى صالوني الخاص. ندّت عني صرخة حادّة، وتعرّفت في ضوء مصباح النوم على السيد بريڤان هذا، الذي طلب مني بوقاحة غير معقولة ألّا أخاف، وأنه سيوضّح لي سرّ تصرّفه، ورجاني ألا أُحدث أي ضجّة. قال ذلك وهو يضيء شمعة. كنت مصدومة جداً إلى درجة أنني لم أستطع الكلام. كان يبدو هادئاً مطمئناً، وهذا ما زادني رعباً، لكنه لم يقل سوى كلمتين حتى اكتشفت سرّه المزعوم، فسارعت، كما تتصوّرين، إلى قرع جرسي.

لحسن حظي كان جميع خدمي ساهرين عند إحداهن ولم يناموا بعد. وكانت خادمتي الخاصة قد سمعتني أتحدّث بغضب شديد، فخافت هي أيضاً واستدعت بقية الخدم. وبإمكانكِ أن تتصوّري الفضيحة! كان الجميع غاضبين، ورأيت في إحدى اللحظات خادمي يريد قتل بريڤان، وأعترف أنني ما زلت حتى هذه اللحظة أرتجف من الخوف. وحين أفكّر في ما حدث ذلك اليوم، أودّ لو أن ڤيكتوار

كانت قد حضرت وحدها، ربما كنت تفاديت هذه الفضيحة التي تعذّبني.

وعوضاً عن ذلك فقد أيْقَظَت الجلبة الجيران. الناس كلهم يتحدّثون الآن، ولا حديث لباريس كلها منذ أمس سوى ذلك. أما السيد بريڤان فهو في السجن بأمر من قائد فرقته الذي تفضّل وزارني لكي يقدّم اعتذاراته، كما قال. إن هذا السجن سيزيد من الإشاعات، لكنني لم أستطع أن أفعل غير ذلك. وقد وجّه أهل المدينة والبلاط رسائل استفسار تُركت عند بابي الذي أقفلتهُ بوجه كل الناس. وقد أخبرني الأشخاص القليلون الذين رأيتهم بأنهم أنصفوني، وأن الاستنكار العام قد بلغ أوجه ضد السيد بريڤان. من المؤكّد أنه يستحقّه، لكن ذلك لا ينسيني الأثر السيّئ الذي تركته هذه المغامرة في نفسي.

فضلاً عن ذلك، من المؤكّد أن لهذا الرجل أصدقاء، وهم خبثاء لا شك. من يدري ماذا سيختلقون من أقاويل لإيذائي؟ يا إلهي، كم أنا تعيسة! مع أنني لم أفعل شيئاً سوى أنني أردت أن أُبعد عن نفسي أقاويل الناس، ورغم ذلك لا بدّ أن أتعرض للنميمة.

أرجوك قولي لي: ماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ مكاني، وأخيراً ما رأيك في كل ذلك؟ منكِ وحدكِ أتلقّى ألطف العزاء وأحكم الآراء. ومنك وحدك أحب أن أتلقّاها.

الوداع يا صديقتي الطيبة، أنتِ تعرفين المشاعر التي تربطني بكِ إلى الأبد. قبلاتي لابنتك اللطيفة.

*باريس، في ٢٦ سبتمبر/أيلول ١٧***.

القسم الثالث

الرسالة الثامنة والثمانون

من سيسيل دوڤولانج إلى الڤيكونت دوڤالمون

على الرغم من كل السرور الذي أشعر به يا سيدي في تلقّي رسائل الفارس دانسيني، وعلى الرغم من أنني لست أقلّ رغبة منه في أن نتقابل دون أن يمنعنا أحد من ذلك، فإنني لم أجرؤ على القيام بما اقترحته عليّ. أولاً، لأن هذا العمل خطير جداً، فهذا المفتاح الذي تريدني أن أضعه مكان الآخر يشبهه كثيراً في الحقيقة، لكنه مع ذلك يختلف عنه قليلاً بحيث لا بد أن يُلاحظ، ووالدتي تراقب وتلاحظ كل شيء. فضلاً عن ذلك، على الرغم من أن هذا المفتاح لم يُستخدم منذ وجودنا هنا إلى الآن، وإذا حدث فسوف ينتهي أمري إلى الأبد. كما يبدو لي أن صنع نسخة عن مفتاح غرفتي هو عمل جريء جداً! صحيح أنك أنت الذي ستهتم بذلك، ولكن إذا علم أحدهم فأنا وحدي سأتحمّل الوزر واللوم، لأن ذلك يكون قد تم من أجلي. وأخيراً، لقد حاولتُ مرّتين، ومن المؤكّد أن الأمر يسير لو كان يتعلّق بمقصد آخر، لكنني لا أدري لماذا أخذتُ أرتجف، ولم تواتني الشجاعة قط. لذلك، أعتقد أن من الأفضل أن نبقى كما نحن الآن.

إذا كانت لا تزال لديك الرغبة في أن تكون لطيفاً كما كنتَ حتى

الآن، فسوف تعثر دائماً على وسيلة لتسليمي الرسائل. وحتى في المرة الأخيرة، لو لم يحدث لسوء الحظ أنك التفتَ سريعاً ورائك في إحدى اللحظات لكان الأمر قد تم بسلام. أنا أشعر جيداً بأنك مثلي لا تستطيع إلا أن تفكّر في ذلك، لكنني أفضّل أن أكون صبورة أكثر بدلاً من المجازفة. وأنا واثقة أن دانسيني يفكّر مثلي، لأنه في كل مرة أراد مني شيئاً، ورأى أن ذلك سيؤلمني، تراجع عنه فوراً.

إنني أسلّمك في آن واحد مع رسالتك هذه، رسالة دانسيني ومفتاحك. وأنا ممتنة جداً لكل ما تفعله من أجلي، وأرجوك أن تستمر في ذلك. صحيح أنني تعيسة جداً، ولولاك لكنت أشدّ تعاسة، ولكن هناك أمي على كل حال، ولا بد من التجمّل بالصبر. وأرجو أن يحبني السيد دانسيني دائماً، وألا تتخلّى أنتَ عنّي، وقد يأتي وقت نكون فيه أكثر سعادة.

لي الشرف يا سيدي، أن أكون، مع اعترافي بفضلك، خادمتك المطيعة.

من... في ٢٦ *سبتمبر/أيلول* **١٧.

الرسالة التاسعة والثمانون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الفارس دانسيني

إذا كانت أمورك لا تسير بالسرعة التي تريدها يا صديقي، فلست أنا المُلام على ذلك البتة، إذ أجد أمامي هنا أكثر من عقبة لا بد لي من التغلّب عليها. لأن يقظة السيدة دوڤولانج وصرامتها ليستا كل شيء، بل إن صديقتكَ الصغيرة تعترض بعض محاولاتي. سواء عن

برود أو عن خجل، فهي لا تفعل دائماً ما أنصحها به. وأعتقد مع ذلك أنني أعرف أكثر منها ما يجب عمله.

كنت قد اكتشفتُ وسيلة سهلة ملائمة وآمنة أستطيع بواسطتها أن أسلّمها رسائلك، لا بل تسهّل فيما بعد المقابلات التي ترغبان فيها، لكنني لم أستطع أن أجعلها تقرّر استخدامها. وأنا متألّم إلى درجة لا أرى معها أي وسيلة أخرى لكي أُقرّبك منها. وحتى مراسلتك فإنني أخشى باستمرار أن تورّطنا نحن الثلاثة. وأنت تعرف أنني لا أريد أن أقوم بهذه المجازفة ولا أريد أن أفضحكما أنت وهي.

غير أنني حزين حقيقة لأن القليل من الثقة الذي منحتني إياه صديقتك الصغيرة، قد حال بيني وبين أن أكون مفيداً لك. لعلّك تُحسن صُنعاً لو تكتب إليها عن ذلك. وعليك أن تفكّر في ما تريد أن تفعله. وعليك وحدك أن تقرّر، إذ لا يكفي المرء أن يخدم أصدقاءه، بل عليه أن يخدمهم على طريقتهم. وستكون هذه أيضاً طريقة أخرى لكي تتأكّد من عواطفها نحوك، لأن المرأة التي تحتفظ بإرادتها لنفسها لا تحب بقدر ما تقول.

لا أقول ذلك لأنني أشكّ في عدم ثبات حبيبتك، بل لأنها لا تزال صغيرة السن. وهي تخاف والدتها كثيراً، هذه الوالدة التي تحاول إلحاق الأذى بك كما تعلم. ولعله سيكون من الخطر أن تبقى مدة طويلة دون أن تشغلها فيك. ومع ذلك، عليك ألا تقلق كثيراً مما أقوله هنا. وليس لديّ في الأساس أي سبب لفقدان ثقتك، بل هذا فقط من باب الإلحاح في الصداقة.

لا أريد أن أُطيل عليك في هذه الرسالة، لأن لديّ بعض المشاغل لحسابي الخاص، وأنا لم أتقدّم بعد خطوة واحدة أكثر منك. ولكني أحب مثلك، وهذا ما يُعزّيني. وإذا كنت لم أنجح من

أجل نفسي، لكنني أكون مع ذلك قد توصّلت إلى خدمتك كما يجب، فسأجد أنني لم أضيّع وقتي سُدى.

الوداع يا صديقي.

*من قصر. . . في ٢٦ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة التسعون

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

آمل يا سيدي ألا تسبّب لك هذه الرسالة أي إزعاج. وإذا ما سبّبت لك شيئاً من هذا القبيل، أرجو أن يخفّف من وقعها ما أشعر به وأنا أكتبها إليك. لا بدّ أنك بتّ تعرفني بصورة كافية الآن لكي تكون واثقاً برغبتي في عدم إزعاجك، ولكنك أنت أيضاً لا تريدني أن أغرق في يأس دائم. أنا أُناشدك إذاً، باسم المودة الرقيقة التي وعدتك بها، وباسم المشاعر نفسها التي تكنّها لي وقد تكون أكثر حرارة -ولكنها ليست أكثر إخلاصاً بالتأكيد- دعنا نتوقف عن التلاقي بعد الآن. ارحل كي نتفادى من الآن فصاعداً هذه المحادثات الخاصة والخطيرة جداً، وبسبب قوة خفية لا أدركها، أقضي وقتي في الاستماع إلى ما ينبغي ألا أُصغي إليه دون أن يتسنّى لي أن أقول لك ما أريد.

أمس أيضاً، حين جئت تلتقي بي في الحديقة، لم يكن لي من هدف سوى أن أقول لك ما أكتبه إليك اليوم. ومع ذلك، ماذا فعلت سوى أنني شغلتُ بحبّك؟. . . حبّك الذي يجب ألا أردّ عليه أبداً! آه! ارحمني وابتعد عنّي.

لا تخشَ البتة من أن يخفّف البعد من عواطفي نحوك. وكيف لي أن أتغلّب عليها وأنا لا أقوى على مقاومتها؟ ها أنت ترى أنني أُفصح لك عن كل شيء، وأن خوفي من أن أعترف لك بتخاذلي هو أقلّ من أن أقع ضحيّة هذا التخاذل، ولكن هذا السلطان الذي فقدته على عواطفي، سأظلّ محتفظة به على تصرّفاتي. أجل، سأحتفظ به وأنا مصمّمة على ذلك، حتى ولو كان على حساب حياتي.

يا حسرتاه! ليس منذ زمن بعيد، كنت أظن أنني لن أعاني من هذه الصراعات! وكنت أغبط نفسي على ذلك، لا بل كنت فخورة جداً، والسماء عاقبتني بقسوة على هذا الفخر، لكن الرحمة الإلهية شاءت أن تُنذرني قبل سقوطي، وسأكون مذنبة أكثر لو استمررت في تهوّري، بعد أن أُنذرت بفقدان قوتي.

لقد قلتَ لي مئة مرّة إنك لا تريد سعادة ثمنها دموعي. آه، دعنا من السعادة، بل دعني أستعيد بعض الهدوء!

والآن بقبولك طلبي هذا، أية حقوق جديدة تريد نيلها من قلبي؟ وإذا كان أساس هذه الحقوق العفّة، فلن أجد مانعاً من الرضوخ إليها. وكم سأكون راضية عن نفسي! سأكون مدينة لك بحلاوة تذوّق عاطفة لذيذة من دون تبكيت ضمير. أما الآن فعلى العكس، أشعر بأنني خائفة من عواطفي، ومن أفكاري، بل أخشى أيضاً أن أنشغل بك وبنفسي لأن فكرتك نفسها تُفزعني، إذ حين لا أستطيع الإفلات منها أحاربها دون أن أُبعدها، بل أدفعها فقط.

أليس من الأفضل لنا نحن الاثنين أن نوقف هذه الحالة من الاضطراب والقلق؟ أنت يا من ظلّت روحك الحساسة دائماً صديقة للفضيلة، حتى وهي في وسط أخطائها، ستقدّر موقفي المؤلم، ولن ترفض رجائي! ثمّة عاطفة أكثر رقّة ستحلّ محل هذه الانفعالات

العنيفة، عندئذٍ وحين سأشعر بفضلك، سأحبّ حياتي وأقول في بهجة قلبي: أدين بهذا الهدوء الذي أشعر به إلى صديقي.

حين أخضعك لبعض الحرمان الذي لا أفرضه عليك البتة، بل أطلبه فقط، هل تعتقد أنك تدفع غالياً ثمن نهاية عذابي؟ آه، إذا كان لا بد من أن أكون تعيسة لكي أجعلك سعيداً، فصدّقني، لن أتردد لحظة واحدة... ولكن أن أغدو خاطئة!... لا، لا يا صديقي، فأنا أفضّل الموت ألف مرّة على ذلك.

أما وقد جلّلني الخجل عشيّة تبكيت الضمير، فإنني أخاف الآخرين ونفسي، وأحمرّ خجلاً في المجتمع، وأرتجف في العزلة، ولم يعد لدي سوى حياة من الآلام. لن أحصل على حياة الدِعة والهدوء إلا بموافقتك، وأكثر قراراتي تعقلاً لا تكفي لتطميني. لقد اتخذت هذا القرار بالأمس، ومع ذلك قضيتُ هذه الليلة وأنا غارقة في الدموع.

انظر إلى صديقتك التي تُحبّها، مُشوّشة ومُتوسّلة، تطلب منك الراحة والبرء. آه يا إلهي! هل كنت سأصل لولاك إلى هذا الطلب المُهين؟ أنا لا ألومك على شيء، بل أشعر كثيراً بصعوبة مقاومة شعور طاغٍ. وإن شكوى واحدة تكفي، فافعل عن شهامة ما أفعله أنا عن واجب. إنني أضمّ إلى جميع المشاعر التي أوحيتَ إليّ بها شعور الامتنان الدائم، الوداع، الوداع يا سيدي.

*من... في ٢٧ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الحادية والتسعون

من الفيكونت دوفالمون إلى الرئيسة دوتورفيل

بعد أن صُعقتُ برسالتك، ما زلت أجهل كيف أجيبكِ عنها. وإذا كان لا بد من الاختيار بين شقائكِ وشقائي، فإنني أُضحّي بنفسي من دون شك، ولن أتردّد. ولكن، يبدو لي أن قضايا كبرى كهذه تستحق المناقشة والتوضيح قبل كل شيء، وكيف نتوصّل إلى ذلك إذا كان علينا الانقطاع عن تبادل الحديث ورؤية أحدنا الآخر؟

ماذا! بينما تجمعنا العواطف الأشد رقّة، هل يكون خوف لا قيمة له كافياً ليفرّق بيننا، ربما من دون عودة؟ عبثاً ستطالب الصداقة الرقيقة والحب المُندفع بحقوقهما، ولن يُسمع صوتاهما، لماذا؟ وما هو هذا الخطر العاجل الذي يهدّدكِ؟ آه، صدّقيني إن مخاوف كهذه بالكاد محسوسة، هي وحدها أسباب قوية للأمان!

اسمحي لي أن أقول لكِ إنني أجد هنا آثار الانطباعات السيئة التي قيلت لك عنّي، ولا يمكن لأحد أن يرتجف أبداً أمام رجل يقدّره ويحترمه. ولا يمكن لأحد أن يُبعدَ بصورة خاصة ذلك الذي حكم عليه بأنه جدير ببعض الصداقة، الرجل الخطير فقط هو الذي يُخشى منه.

ومع ذلك، من كان أكثر احتراماً وخضوعاً مني؟ لقد تحقّقتِ من ذلك في السابق، فأنا أراقب نفسي في حديثي، ولا أسمح لنفسي بهذه الكلمات الرقيقة العزيزة على قلبي الذي لا يكفّ عن بثّك إياها في السر. لست العاشق المخلص التعيس الذي يتلقّى المؤاساة والنصائح من صديقة حنونة حساسة، بل المتّهم أمام قاضيه، والعبد

أمام سيده. هذه الألقاب الجديدة تفرض عليّ من دون شك واجبات جديدة، وأتعهّد بتنفيذها كلها. أصغي إليّ، فإذا أدنتني سأمتثل لمشيئتك وأذهب، لا بل أعدك أكثر من ذلك، أم إنك تفضّلين هذا الاستبداد الذي يحكم دون أن يصغي؟ هل تشعرين بالشجاعة على أن تكوني ظالمة؟ أنت مُري وأنا أطيع.

ولكن، دعيني أسمع هذا الحكم من فمك. ستقولين لي بدورك: لماذا؟ آه، لأنك إذا وجّهتِ هذا السؤال، فذلك يدلّ على أنكِ لا تعرفين الحب ولا قلبي إلا قليلاً! هل تعتبرين رؤيتي لك أمراً لا أهمّية له؟ ولكن، حين تحملين اليأس إلى روحي، فلعلّ نظرة معزية تمنعها من أن تتداعى. وأخيراً، إذا كان ينبغي عليّ أن أُقلع عن الحب والصداقة اللذين أعيش من أجلهما، فسترين على الأقلّ ما صنعته يداكِ، وستبقى لي شفقتكِ: على الرغم من أنني لا أستحقّ هذا الامتياز البسيط، لكنني أقبل به بعد أن فُرض عليّ أن أدفع ثمنه غالياً لكي أناله.

ماذا! هل ستُبعدينني عنكِ، وتوافقين على أن يصبح واحدنا غريباً عن الآخر؟ ماذا أقول؟ أنت تودّين ذلك، بينما تؤكّدين لي أن إبعادي لن يؤثّر أبداً في عواطفك. أراكِ لا تُعجّلين سفري إلا لكي تحطميها بسهولة. تقولين إنك ستستبدلين العواطف بالامتنان، وهو ما يحصل عليه أي غريب مقابل خدمة بسيطة، عدوّك نفسه حين يكفّ عن إيذائك. هذا ما تعرضينه عليّ! وتريدين إذاً أن يكتفي قلبي بذلك! اسألي قلبكِ: إذا ما جاء عاشقكِ وصديقكِ يحدّثانكِ يوماً عن امتنانهما، ألن تقولي لهما باستنكار: «انصرفا! أنتما جاحدان؟».

أتوقّف عن الكتابة، وأُطالب بسعة صدرك. اعذريني على صيغة الألم التي تبعثينها فيّ، فهي لن تؤثر البتة في خضوعي التام لكِ.

أستحلفكِ باسم هذه العواطف الرقيقة التي أنتِ نفسك تُطالبين بها، ألا ترفضي الإصغاء إليّ، من قبيل الشفقة على هذا الاضطراب المميت الذي أغرقتني فيه، ولا تدعيني أنتظر طويلاً. الوداع يا سيدتي.

*من... في ٢٧ سبتمبر/أيلول ١٧**، مساءً.*

الرسالة الثانية والتسعون

من الفارس دانسيني إلى الڤيكونت دوڤالمون

آه، يا صديقي، لقد جمّدتني رسالتك من الفزع. سيسيل... يا إلهي! هل هذا ممكن؟! سيسيل لم تعد تحبني. أجل إنني أرى هذه الحقيقة البشعة عبر الستار الذي تحيطها به صداقتك. لقد أردتَ إعدادي لكي أتلقّى هذه الضربة القاضية. أشكرك على عنايتك، ولكن هل يمكن فرض شيء على الحب؟ إنه يركض لملاقاة كل ما يهمّه، ولا يتلقّى نبأ مصيره، بل يكتشفه، وأنا لا أشكّ في مصير حبي. حدّثني من دون لفّ أو دوران، وأنت قادر على ذلك أرجوك، أخبرني عن كل شيء، ما الذي أثار شكوكك، وما الذي يُؤكّدها. إن أقلّ التفاصيل ثمينة عندي. حاول بصورة خاصة أن تتذكّر أقوالها. إن كلمة مكان أخرى يُمكن أن تُغيّر معنى جملة بكاملها، كما أن للكلمة الواحدة معنيين... قد تكون انخدعتَ. يا أسفي! أُحاول أن أزهو قليلاً. ماذا قالت لك؟ هل تُوجّه إليّ بعض اللوم؟ أم إنها لا تدافع عن أخطائها؟ كان عليّ أن أتوقّع هذا الانقلاب بسبب الصعوبات التي تلقاها منذ بعض الوقت في كل شيء. مع أن الحب لا يعرف هذا القدر من العقبات.

ماذا عليّ أن أُقرّر؟ بماذا تنصحني؟ ماذا لو حاولت أن أراها؟ هل ذلك مستحيل؟ إن البعاد قاس جداً ومشؤوم!... ثم إنها رفضت وسيلة لكي تراني!... لكنك لا تقول لي ما هي هذه الوسيلة، وإذا كانت فيها حقيقة الكثير من المخاطرة، فهي تعلم جيداً أنني لا أريدها أن تجازف كثيراً. ولكنني أعرف حذرَكَ أيضاً، ولا أستطيع لشدّة تعاستي إلا أن أؤمن به.

ماذا يجب عليّ أن أفعل الآن؟ كيف أكتب لها؟ فإذا تركتها تشعر بارتيابي فسوف تحزن أكثر، وإذا كانت شكوكي في غير محلّها فهل تغفر لي لأني عذّبتها؟ وإذا أخفيتها عنها أكون قد خدعتها، ولا أستطيع أن أخفي عنها شيئاً.

آه، لو كان بوسعها أن تعلم كم أتعذّب! لأثّر فيها عذابي. وأنا أعرفها حساسة طاهرة القلب، ولديّ ألف دليل على حبها. وهي صغيرة السن، كثيرة الحياء مع بعض الارتباك وتعاملها أمها بقسوة بالغة! سأكتب إليها متمالكاً نفسي، وأطلب إليها فقط أن تثق فيك كلياً، وإذا رفَضَت ذلك ثانية فإنها لا تستطيع على الأقل أن تغضب من رجائي، وربما ستوافق.

وأنت يا صديقي أقدّم إليك ألف اعتذار منها ومني، وأؤكّد لك أنها تُقدّر عنايتك وتعترف بفضلها. وإن ما بدر منها ليس عن قلّة ثقة بل عن خجل، فكن واسع الصدر، وهذا من أجمل طباع الصداقة. إن صداقتك ثمينة جداً لديّ، ولا أدري كيف أعترف بفضل كل ما تقوم به من أجلي، الوداع، سأكتب إليها فوراً.

أشعر بجميع مخاوفي تعود إليّ. من كان يظن أن الكتابة إليها ستكلّفني هذا القدر من الصعوبة؟! يا للأسف! أمس فقط، كان ذلك مسرّتي الأعذب.

الوداع يا صديقي، تابع عنايتك من أجلي، وارثِ لحالي كثيراً.
*باريس، في ٢٧ سبتمبر/أيلول **١٧* .

الرسالة الثالثة والتسعون

من الفارس دانسيني إلى سيسيل ڤولانج

(مرفقة بالرسالة السابقة)

لا أستطيع أن أُخفي عليكِ كم حزنتُ حين عرفتُ من ڤالمون أنكِ تمنحينه القليل من الثقة. أنتِ لا تجهلين أنه صديقي، وهو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقرّبنا الواحد إلى الآخر. كنت أظن أن ألقابه وحدها ستكون كافية لديكِ، وها أنا أرى متألماً أنني قد أخطأت. فهل أستطيع أن آمل على الأقل أن تُعلميني ما هي مبرّراتك؟ أم إنك تجدين أيضاً الصعوبات تمنعكِ من ذلك؟ لكنني على كل حال، لن أستطيع أن أحزر سرّ هذا التصرّف دون مساعدتكِ، ولا أجرؤ على الشك في حبك، ولا ريب أيضاً في أنك لن تجرئي على خيانة حبي. آه! يا سيسيل!... صحيح إذاً أنكِ رفضتِ قبول وسيلة لكي تريني؟ «وسيلة بسيطة ملائمة وآمنة». أهكذا تحبينني؟ هل تغيّرت عواطفك بسبب غياب قصير كهذا؟ ولكن، لماذا تخدعينني؟ ولماذا تقولين لي إنك تحبينني دائماً وإنك تحبينني أكثر؟ هل قضت والدتك على براءتك بالقضاء على حبك؟ وإذا كانت على الأقل قد تركت لك بعض الشفقة، فإنك ستعلمين أي عذابات قاسية قد سببتها لي. آه! لن أتعذب عند الموت مثل عذابي اليوم.

ردّي عليّ إذاً، هل أوصدتِ قلبكِ بوجهي من دون عودة؟ هل

نسيتني كليّاً؟ وأنا بسبب رفضك، لا أدري متى تصغين إلى شكواي. صداقة ڤالمون ضمِنَتْ لنا مراسلتنا، ولكنك لا ترغبين فيها، إذ تجدينها متعبة، ففضّلتِ أن تكون أكثر ندرة. كلا، لن أؤمن بالحب بعد الآن ولا بالأمانة! كيف يمكن أن أؤمن إذا كانت سيسيل قد خدعتني؟

ردّي عليّ إذاً؟ هل صحيح أنك توقفت عن حبي؟ كلا، هذا غير ممكن! أنت تخدعين نفسك وتكذبين على قلبك. مجرّد خوف عابر، لحظة يأس، ولكن الحب سيزيلها عاجلاً، أليس كذلك يا سيسيلتي؟ آه، لا شك في أنني مخطئ في اتّهامك. كم سأكون سعيداً لو كنت على خطأ! كم أودّ أن أقدّم إليكِ اعتذاراتي الرقيقة، وأُصلح هذه اللحظة من الظلم بحب أبدي.

سيسيل، يا سيسيل، اشفقي عليّ! ووافقي على رؤيتي. واسلكي جميع السبل! وانظري ماذا نتج عن هذا البعاد! مخاوف، وساوس، وربما فتور! نظرة واحدة، كلمة واحدة، وسنصبح سعيدين. ولكن ماذا؟ هل أستطيع أن أتحدّث عن السعادة بعد الآن؟ لعلها أفلتت من يدي وضاعت إلى الأبد. أما وقد أقضّ الخوف مضجعي، وانحصرتُ بوحشية بين الريبة المؤلمة والحقيقة القاسية، فلم أعد أقف عند أية فكرة، ولم أعد أحافظ على وجودي إلا لكي أتعذّب وأحبك. آه! يا سيسيل! أنت وحدكِ لك الحق في جعل حياتي غالية عليّ. وأنتظر من الكلمة الأولى التي تلفظينها عودة السعادة أو تأكيد يأسي إلى الأبد.

*باريس، في ٢٧ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الرابعة والتسعون

من سيسيل ڤولانج إلى الفارس دانسيني

لم أفهم شيئاً من رسالتك، اللهم إلا العذاب الذي سبّبته لي. ماذا أخبرك السيد دوڤالمون إذاً؟ وما الذي جعلك تعتقد أنني لم أعد أحبك؟ لعل ذلك سيسعدني أكثر، لأنني سأكون أقل همّاً بالتأكيد. كم هو قاسٍ أن أحبك كما أفعل، وأراك تعتقد دائماً أنني على خطأ، وعوضاً عن أن تواسيني، أجد جميع الآلام التي تُعذبني صادرة عنك. أنت تظن أنني أخدعك، وأقول لك ما لا أشعر به! أية فكرة غريبة هذه! ولكن، حين أكون كاذبة كما تتهمني، فأية مصلحة لي في ذلك؟ من المؤكّد أنني لو لم أكن أحبك، لما قلت لك، وكان سيمدحني الجميع، غير أن حبك مع الأسف أقوى مني. ولا بد أن يكون كذلك من أجل شخص لست مُلزمة نحوه بشيء.

ماذا فعلتُ إذاً كي تغضب مني إلى هذا الحد؟ لم أجرؤ على أخذ مفتاح لأنني خشيت أن تلاحظ أمي، وأن يسبب ذلك المزيد من المتاعب، لي ولك أيضاً. كما بدا لي الأمر سيئاً. ولكن السيد دوڤالمون هو الذي طلب مني ذلك، ولم أكن أعلم أنك تريده، لأنك لا تدري شيئاً. أما الآن، وقد علمتُ أنك ترغب فيه، فهل سأرفض أخذ ذاك المفتاح؟ سوف آخذه غداً، ثم نرى ماذا يمكن أن تقول أيضاً.

صحيح أن السيد دوڤالمون صديقك، إلا أنني أعتقد أنني أحبك بقدر ما يحبك على الأقل، مع ذلك، تراه وحده على صواب، وأنا على خطأ. أؤكد لك أنني مُستاءة جداً وهذا لا يهمّك، لأنك تعرف

أنني سأهدأ على الفور. أما الآن، وقد أصبح المفتاح في حوزتي، سوف أراك متى أشاء، لكنني أؤكّد لك أنني لا أريد ذلك حين تتصرّف بهذه الطريقة. أفضّل أن أحزن مما يصدر عني، بدلاً من أن أحزن مما يصدر عنك. وعليك أن ترى ماذا تريد أن تفعل.

فإذا شئت، سيحب أحدنا الآخر حباً جمّاً! لن نتحمّل على الأقل سوى العذاب الذي يسبّبه لنا الآخرون! أؤكّد لك أنني لو كنت سيدة نفسي لما كان عندك ما تشتكي منه بسببي، ولكن إذا كنت لا تصدّقني، فستكون دائماً تعيسين، وليس الذنب ذنبي. آمل أن نتمكّن قريباً من اللقاء، وعندئذٍ لن تكون عندنا فرصة لكي نحزن كما هي الحال الآن.

آه، لو كنت أعرف ذلك، لكنت أخذت هذا المفتاح فوراً! ولكن، في الحقيقة، أظنّ أنني أحسنت صنعاً. فلا تحقد عليّ إذاً أرجوك. لا تكن كئيباً وأحبّني دائماً بقدر ما أحبك، وسأكون مسرورة جداً. الوداع يا صديقي العزيز.

*من قصر... في ٢٨ سبتمبر/أيلول ١٧**.*

الرسالة الخامسة والتسعون

من سيسيل ڤولانج إلى الڤيكونت دوڤالمون

أرجوك، يا سيدي، أن تتفضّل وتُعيد إليّ هذا المفتاح الذي كنتَ قد أعطيتني إياه لكي أضعه مكان الآخر. وما دام الكلّ يريد ذلك، فلا بد من أن أوافق أنا أيضاً.

لستُ أدري لماذا أخبرتَ دانسيني بأنني لم أعد أُحبّه، إذ لا أظن

أنني جعلتك تخمّن ذلك. وقد سبّب هذا الظَنّ الكثير من الشجن له ولي أيضاً. أعلم جيداً أنك صديقه، لكن هذا ليس سبباً لكي تسبّب الحزن له ولي أيضاً. سأكون مسرورة جداً لو أعلمته العكس عند أول فرصة تكتب إليه فيها، وأنك متأكد من ذلك، لأنه يثق بك أكثر مني، وأنا حين أقول شيئاً ولا يصدّقه، لا أعود أعرف ماذا أفعل.

فيما يتعلّق بالمفتاح، تستطيع أن تكون مطمئناً، لقد حفظتُ كل ما أوصيتني به في رسالتك. ومع ذلك، إذا كنتَ لا تزال تحتفظ به وتريد أن تُعطيني إياه في الوقت نفسه، أعدكَ بأنني سأهتم كل الاهتمام. إذا كان بالإمكان تنفيذ ذلك غداً عند توجّهنا إلى العشاء. سأعطيك المفتاح الآخر بعد غد في ساعة الغداء، ثم تُعيده إليّ بالطريقة ذاتها. آمل ألّا يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، لأنه سيكون هناك وقت أقلّ كي لا تلاحظ أمي.

وحين ستحصل على هذا المفتاح، تفضّل باستخدامه أيضاً لأخذ رسائلي، وهكذا سيحصل السيد دانسيني على المزيد من أخباري. صحيح أن الحال ستكون أكثر سهولة مما هي عليه الآن، ولكنني خائفة جداً. أرجوك إذاً أن تعذرني. وآمل أن تستمر لطيفاً معي كما عهدتك، وسأكون دوماً شاكرة فضلك.

لي الشرف سيدي بأن أكون خادمتك المطيعة جداً.

من... في ٢٨ سبتمبر/*أيلول* ١٧**.

الرسالة السادسة والتسعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

أراهن على أنكِ، منذ مغامرتك الأخيرة، تنتظرين كل يوم تهانيّ وثنائي. ولا شكّ أنك مستاءة بعض الشيء من صمتي الطويل، ولكن ماذا تريدين؟ لقد فكّرتُ دائماً أنه حين لا يكون هناك سوى المديح لتقديمه إلى امرأة، فبالإمكان الاعتماد عليها والاهتمام بشيء آخر. ومع ذلك، أشكرك على ما فعلته من أجلي، وأهنّئك على ما فعلتُه من أجلك. ولكي أسعدكِ أكثر، أودّ الاعتراف بأنك في هذه المرّة تجاوزتِ توقعاتي. وبعد، لنرَ ما إذا كنتُ قد حقّقتُ على الأقلّ جزءاً من توقعاتك.

لا أريد أن أحدّثك اليوم عن السيدة دوتورڤيل، إذ إن سيرها البطيء لا يعجبك، وأنت لا تحبّين سوى القضايا الجاهزة، لأن المشاهد المتسلسلة تُضجركِ، أما أنا فعلى العكس، لم أذق في حياتي مثل هذه المتعة التي أشعر بها في هذا البطء المزعوم.

أجل، أحب أن أرى وأتأمّل هذه المرأة الحذرة مُنساقة، دون أن تلاحظ ذلك، في طريق لا عودة منه، انحدارها السريع الخطر يقودها رغماً عنها، ويحملها على اللحاق بي. أما وقد أفزعها هذا الطريق الخطر الذي تسير فيه، فهي تريد أن تتوقّف، ولا تستطيع إلى ذلك سبيلاً. قد يجعل احتراسها وبراعتها خطواتها أبطأ، ولكنها ستتوالى عاجلاً أم آجلاً. في بعض الأحيان، لا تريد أن تحدّق في الخطر، تُغمض عينيها مستسلمة منساقة وراءه، تاركة نفسها تحت رحمتي. وفي أغلب الأحيان، يشلّ قواها خوف جديد، وتحاول في فزعها

المميت أن تتراجع على أعقابها، فتُنهك قواها لتصعد مسافة قصيرة، ولكن قوّة سحرية لا تلبث أن تعيدها نحو هذا الخطر نفسه الذي كانت قد هربت منه بجهود شاقّة. حينذاك، لا يبقى لديها سواي دليلاً وسنداً، تتوسّل إليّ كي أؤخّر سقوطها دون أن تفكّر في ملامتي على هذا السقوط المُحتّم. هذه التوسّلات الحارّة، والإلحاحات الخاشعة، وكل ما يشعر به البشر في خوفهم، فيقدّموه للقدرة الإلهية، هذا ما أتلقّاه منها. وتريدين مني، أنا الذي صُمَّت أذنايّ عن سماع أمنياتها، وحطّمتُ بنفسي العبادة التي تكرّسها إليّ، أن أعمل على استعجال هذه القوّة التي تتوسّل إليها لكي أعينها! آه، دعي لي على الأقلّ الوقت الكافي لكي أراقب هذه المعارك المؤثّرة بين الحب والفضيلة!

ثم ماذا؟! هذا المشهد نفسه الذي يجعلكِ تركضين إلى المسرح بلهفة لكي تُصفّقي له بحرارة، هل تظنّين أنه أقلّ إمتاعاً في عالم الواقع؟ وهذه المشاعر الصادرة عن روح صافية رقيقة تخشى السعادة التي ترغبها، ولا تكفّ عن ممانعتها، حتى وإن كفّت عن مقاومتها، أراكِ تُصغين إليها بحماسة: فهل تكون من دون ثمن بالنسبة إلى مَن خلقها؟ وهذه على كل حال هي المتع اللذيذة التي تُقدّمها إليّ تلك المرأة السماوية كل يوم! وأنت تلومينني على الاستمتاع بحلاوتها! آه، إن الوقت لن يطول كثيراً حتى تخفّ قيمتها بسبب سقوطها، فلا تعود بالنسبة إليّ سوى امرأة عادية.

ولكنني أنسى وأنا أُحدّثك عنها أنني لم أكن أريد ذلك. لا أعرف أي قوّة تجعلني أتعلّق بها وتقودني باستمرار إليها، حتى حين أُهينها. فلنستبعد إذاً فكرتها الخطيرة، ودعيني أستعيد نفسي كي أعالج موضوعاً آخر أكثر مرحاً. أقصد موضوع ربيبتك التي أصبحت الآن حضيتني. وآمل هنا أن تجديني كما عهدتني.

منذ بضعة أيام، بعد أن أخذت ورعتي تُحسن معاملتي، لاحظتُ أن الصغيرة ڤولانج على جانب كبير من الحُسن. وإذا كان من الحماقة أن يعشقها دانسيني، فربما لن تكون حماقتي أقل إذا لم أبحث عندها عن تسلية جعلتها عزلتي ضرورية. وبدا لي من الإنصاف أن أكافئ نفسي على الجهود التي أبذلها من أجلها، كما تذكّرتُ أيضاً أنك كنت قد عرضْتِها عليّ قبل أن يتقدّم إليها دانسيني، ورأيت أن من حقي أن أطالب ببعض الحقوق على ملكية لم يملكها دانسيني إلا بفضل رفضي وتخليّ له عنها. إن مظهر هذه الفتاة الصغيرة وسذاجتها الجميلة وفمها المُنعش ومظهرها الطفولي، قد عزّز هذه الأفكار الحكيمة في نفسي، فقرّرت أن أعمل على نيلها، وتكلّلت مساعيّ بالنجاح.

أراكِ تفكّرين بأي طريقة استطعتُ أن أحلّ سريعاً محلّ العاشق العزيز، وأيّ إغواء يناسب هذا العمر مع هذه الفتاة العديمة الخبرة. وفّري على نفسكِ العناء، فأنا لم أستخدم أي وسيلة. بينما كنت تستخدمين ببراعة أسلحة جنسك، وتنتصرين بالنعومة، كنتُ أنا أُعيد إلى الرجل حقوقه الخفية أروّض فريستي عن طريق السيطرة، واثقاً من التقاطها متى اجتمعت بها. لم أكن بحاجة إلى الحيلة إلا لكي أقترب إليها، حتى تلك التي استخدمتها من أجل ذلك لا تستحقّ هذا الاسم.

لقد اغتنمت فرصة أول رسالة وصلتني من دانسيني إلى حسنائه، وبعد أن أنذرتها بالإشارة المُتّفق عليها بيننا، استخدمتُ براعتي ليس لتسليمها إياها كالمعتاد، بل لعدم إيجاد أي وسيلة لتحقيق ذلك. نفاد الصبر الذي خلقته في نفسها، كدت أشاطرها إياه. وهكذا، بعد أن سبّبت الداء وصفتُ الدواء.

تشغل الفتاة الصغيرة غرفة يُفضي بابها إلى الرواق، ويبقى المفتاح مع الوالدة كما ينبغي. لم يكن أمامي سوى أن أستولي عليه، وكان التنفيذ في غاية السهولة. فأنا لم أطلب منها سوى الحصول عليه لمدة ساعتين فقط، وسوف تكون لديّ نسخة منه. وبعد مراسلات ومقابلات ومواعيد ليلية، أصبح كل شيء ملائماً وآمناً. ومع ذلك، هل تُصدّقين؟ اعترى الفتاة الخجول الخوف ورفضت إعطائي هذا المفتاح، ولو أن أحداً غيري تعرّض لهذا الموقف، ليئِس، أما أنا فلم أرَ في ذلك إلا فرصة للحصول على متعة أقوى. فكتبت إلى دانسيني أشكو إليه هذا الرفض، كتبت ببراعة بحيث لم يتوقف هذا الطائش حتى سلمتني المفتاح، وطلب إليها أن تمتثل لكل ما أطلبه منها وتعتمد على تكتّمي.

أعترف بأنني كنت مسروراً جداً من تبديل دوري، وقد فعل الشاب من أجلي ما كنت أنوي أن أفعله من أجله، وضاعفت هذه الفكرة بنظري قيمة المغامرة. وهكذا، ما إن حصلتُ على المفتاح الثمين حتى سارعتُ إلى استخدامه. وحدث ما حدث في الليلة الماضية.

بعد أن تأكّدتُ أن كل شيء هادئ في القصر، تسلّحتُ بمصباحي الصامت، وبلباس خفيف يلائم الوقت والمناسبة، وقمتُ بزيارتي الأولى إلى ربيبتكِ. كنت قد أعددت كل شيء بواسطتها لتسهيل دخولي من دون ضجّة. كانت في نومها الأول، نوم من هم في سنّها، حتى إنني وصلتُ إلى سريرها دون أن تستيقظ. حاولتُ أولاً أن أتمادى بحيث أجعلها تعتقد أنها في حلم، لكنني خشيت تأثير المفاجأة والضجّة التي تنتج عنها، وفضّلتُ أن أوقظ الحسناء النائمة بحذر، وقد توصّلتُ بالفعل إلى تفادي صيحة كنت أخشاها.

هدّأتُ من مخاوفها الأولى، وبما أنني لم أحضر إلى غرفتها لكي أتحدّث فقط، فقد سمحت لنفسي ببعض المخاطرة. لم يعلّموها من دون شك في مدرسة الدير كم من المخاطر تتعرّض لها براءتها الخجول، وكل ما يجب أن تفعله حتى لا تقع في فخ المفاجأة، لأنها وجّهتْ كل انتباهها وكل قواها لكي تُدافع عن نفسها ضد قبلة واحدة لم تكن سوى هجوم زائف، بينما تَرَكتْ كل الباقي من دون دفاع، وغيّرتُ خطّتي بحيث لا تستغل شيئاً، واتخذتُ موقفاً على الفور. وهنا، فكّرت أننا قد انفضحنا نحن الاثنين عندما أرادت الفتاة المذعورة أن تصيح بكل نيّة حسنة، ولحسن الحظ اختنق صوتها في البكاء. ثم ارتمت على حبل الجرس، لكن براعتي حالت دون وصول ذراعها إليه في الوقت المناسب.

وقلت لها عندذاك «ماذا تريدين أن تفعلي؟ هل تريدين أن تضيّعي نفسكِ إلى الأبد؟ فليحضروا! أنا لا يهمّني شيء. من تستطيعين أن تُقنعي أنني لم آتِ إلى هنا بموافقتكِ؟ ومن غيركِ زوّدني بوسيلة دخولي إلى غرفتكِ؟ وهذا المفتاح الذي أحتفظ به منكِ، ولم أحصل عليه إلا بواسطتك، هل تتكفّلين بإيضاح الغاية من استخدامه؟» لكن هذا الخطاب القصير لم يخفّف من عذابها ولا من غضبها، بل أدّى إلى إذعانها. ولا أدري ما إذا كنت أمتلك موهبة البلاغة، لكنني في الحقيقة كانت حركتي أقوى حينذاك، يد خصصتها للقوة والأخرى للحب، وأيّ خطيب يمكن أن يزعم مثل هذه البلاغة في مثل هذا الموقف؟ لو أنني أصفها لكِ، فسوف تقرّين معي أنها كانت بالأحرى مشجّعة على الهجوم، لكنني لا أجازف بشيء مقابل لا شيء. وكما تقولين فإن المرأة الأكثر بساطة، حتى التلميذة الداخلية، تجرّني كالطفل.

ثم شَعرتْ وهي تتحسّر أنه لا بد من اتخاذ قرار وتتصالح معي. لكن توسّلاتها جعلتني عديم الشفقة، فانتقلَتْ إلى العروض. تتصورين أنني بعتُ غالياً جداً موقفي المهم هذا؟ كلا، بل وعدتُ بكل شيء مقابل قبلة واحدة. صحيح أنني بعد أن أخذتُ القبلة لم أفِ بوعدي، ولكن كانت عندي أسباب وجيهة. هل اتفقنا على أن تؤخذ أو تُعطى؟ ولفرط ما ساومنا، اتفقنا على قبلة ثانية. وهذه المرّة كنت أنا من سيتلقاها. عندئذٍ أخذتُ ذراعيها الخجولين حول جسدي، وضغطتها بأحد ذراعيّ بهيام شديد. وتلقّيتُ القبلة الناعمة بالفعل، ولكن بصورة تامة إلى درجة أن الحب ما كان ليفعل أفضل منها.

كانت هذه النيّة الحسنة تستحقّ المكافأة. وهكذا، لبّيت الطلب على الفور، وسحبتُ يدي، لكنني لا أدري كيف وجدتُ نفسي مكانها. قد تظنينني مُتعجّلاً جداً، ونشيطاً جداً. أليس كذلك؟ أبداً. أخذتُ أتذوّق التباطؤ. ما دمت قد أيقنتُ من الوصول، فلمَ العجلة؟

في الحقيقة، كنت مسروراً جداً من قوّة هذه المناسبة، لقد كانت عاجزة عن تلقّي أي نجدة خارجية، ومع ذلك، كان عليها أن تكافح الحب، الحب المرتكز على العفّة أو الخجل، وما قوّاه بشكل خاص الحنق الذي أظهرته لها. كانت المناسبة وحيدة، لكنها هناك حاضرة، والحب كان غائباً.

ولكي أضمن ملاحظاتي، تخابثتُ بحيث لم أستخدم القوة إلا ضد ما يقاوم. لو أرادت عدوّتي الفاتنة أن تستغل سهولتي للإفلات مني، لكنت جعلتها توافق بالتخويف نفسه الذي سبق أن شعرت به. وهكذا، من دون أي عناء، تناست العاشقة الرقيقة أقسامها وأذعنت أولاً، ووافقت أخيراً. ليس لأن الملامات والدموع لم تأتِ بعد هذه الفترة الأولى، وأنا أجهل ما إذا كانت صحيحة أو زائفة كما يحدث

دائماً، لكنها توقّفت عن الكلام ما إن بدأت هجوماً جديدًا. وأخيراً، من تخاذل إلى ملامة، ومن ملامة إلى تخاذل، لم ننفصل إلا ونحن راضيَين أحدنا عن الآخر، وبعد أن اتفقنا أيضاً على موعد آخر هذا المساء.

لم أنصرف إلا عند مطلع الفجر، بعد أن أخذ التعب والنعاس مني كل مأخذ، وفي هذه الأثناء ضحّيت بهذا وذاك في سبيل الرغبة في أن أكون هذا الصباح على الإفطار. كم أهوى سحنات النساء في اليوم التالي! ليس لديكِ فكرة عن وجه صاحبتنا هذه، فقد كانت مرتبكة في تصرّفاتها، تمشي بصعوبة، وعيناها الذابلتان دائماً منخفضتان! وكان وجهها المستدير قد استطال وليس فيه ما يسرّ. ولأول مرة خافت أمها من هذا التبدّل المُفرط الذي طرأ عليها، فأظهرت نحوها عناية بالغة الحنان! وسارعت الرئيسة أيضاً تحوطها بعنايتها! آه من هذه العناية، إنها دائماً جاهزة. وسيأتي يوم نستطيع أن نتبادلها، ولن يكون هذا اليوم بعيداً. الوداع يا صديقتي الحسناء.

*من قصر... في الأول من أكتوبر/تشرين الأول **١٧.*

الرسالة السابعة والتسعون

من سيسيل ڤولانج إلى الماركيزة دوميرتويَ

آه! يا إلهي! يا لشقائي يا سيدتي! كم أنا تعيسة! من يستطيع أن يواسيني في عذابي؟ ومن ينصحني في هذا الارتباك الذي ألمّ بي؟ إنه السيد دوڤالمون!... ودانسيني! لا، إن التفكير في دانسيني يوقعني في اليأس... كيف أروي لك ما حدث؟ كيف أخبرك؟... لا أدري

ماذا أفعل. ومع ذلك فإن قلبي ممتلئ... ويجب أن أتكلم إلى أحد، وأنت الوحيدة التي أستطيع أن أتكلم معها وأجسر على أن أُفضي إليها بأسراري. أنت تشعرين بكثير من الطيبة تجاهي! ولكن لا أريدك أن تشعري بذلك بعد الآن. فأنا لم أعد جديرة بها، ماذا سأقول لك؟ إنني لا أرغب البتة في ذلك. الجميع أولاني اليوم رعاية خاصة لا أستحقّها! أما أنت فوبخيني، نعم وبخيني كثيراً، لأنني مُذنبة، ولكن أنقذيني فيما بعد، وإذا لم تتكرّمي عليّ بالنصيحة، فسأموت من الغمّ.

اعلمي إذاً... أن يدي ترتجف كما ترين، بالكاد أستطيع أن أكتب، وأشعر بوجهي يشتعل. آه! إنها حمرة العار بالتأكيد! نعم، سأكابدها، وستكون أول عقوبة على خطيئتي. أجل سأقول لك كل شيء.

إن السيد دوڤالمون الذي كان يسلّمني حتى الآن رسائل دانسيني، وجد فجأة أن هذه الطريقة صعبة جداً. لذلك، أراد أن يحصل على مفتاح لغرفتي، وأستطيع أن أؤكّد لك أنني لم أكن أرغب في ذلك مطلقاً، لكنه كتب لدانسيني، وطلب مني دانسيني ذلك أيضاً. وأنا عادة أشعر بكثير من الألم حين أرفض له طلباً، لا سيما منذ أن جعله غيابي تعيساً جداً، وهكذا وافقت. ولم أكن أتوقّع الكارثة التي وقعت نتيجة ذلك.

أمس، استخدم السيد دوڤالمون هذا المفتاح وجاء إلى غرفتي وأنا نائمة. وبما أنني لم أكن أنتظر حضوره، فقد أثار لديّ خوفاً كبيراً وهو يوقظني. ولكن بما أنه تكلّم معي حالاً، فقد عرفته ولم أصرخ، وأول ما ظننت أنه جاء يحمل إليّ رسالة جديدة من دانسيني، لكن الأمر كان غير ذلك على الإطلاق، إذ إنه وبعد مضي لحظة أراد أن يُقبّلني، وأخذتُ أدافع عن نفسي كما هو طبيعي، لكنه تصرّف

بشكل جعلني لا أريد أبداً أن يبقى على هذه الحال. كان يريد قبلة واحدة. وكان لا بد من ذلك، وكيف العمل؟ حاولتُ كثيراً استدعاء أحد، لكنني لم أستطع، فقد قال إنه إذا جاء أحدهم، فسيعرف كيف يرمي المسؤولية كلها على عاتقي. وبالفعل، لقد كان ذلك سهلاً جداً بسبب هذا المفتاح. ولم ينسحب، بل طلب قبلة ثانية. ولم أعرف كيف حدثت هذه القبلة، ولكنها بلبلتني، وبعد ذلك حدث ما هو أسوأ. أوه! ما حدث سيّئ جداً! وأخيراً، بعد أن... أرجو أن تعفيني من أن أروي لك التتمّة، آه، لا يمكن أن أكون أكثر تعاسة مما أنا عليه الآن!

ما ألوم نفسي عليه أشدّ اللوم -ومع ذلك يجب أن أقوله لك- هو أنني أخشى ألا أكون قد دافعت عن نفسي بقدر ما أستطيع. ولا أعرف كيف يكون ذلك. أنا لا أحب السيد دوڤالمون بالتأكيد، بل على العكس. وقد مرّت بي لحظات أحسست كما لو كنت أحبّه. تستطيعين أن تتصوّري أن ذلك لم يمنعني من أن أقول له دائماً كلمة «لا»، لكنني شعرت جيداً بأنني لم أكن أفعل كما أقول. وقد حدث ذلك كما لو كان رغماً عني. ثم إنني كنت أيضاً مضطربة. وإذا كان الدفاع عن النفس صعباً إلى هذا الحد، فلا بد من أن يكون المرء معتاداً عليه. صحيح أن لدى السيد دوڤالمون أساليب في الكلام لا أعرف كيف أُجيب عنها. وأخيراً، صدّقيني أنه حين انصرف كنت غاضبة، وأُصبتُ بوهن جعلني أوافق على أن يعود هذا المساء. وهذا ما يحزنني أكثر من كل شيء.

آه، على الرغم من ذلك، أعدكِ بأنني سأمنعه من الحضور! إذ ما كاد يخرج حتى شعرت بأنني كنت على خطأ في وعدي، وهكذا رحت أبكي كل الوقت. كما أن دانسيني هو خصوصاً من يعذبني! إذ

إنني في كل مرة أفكر فيه، تتضاعف دموعي حتى أصاب بالذهول. وأنا أفكّر فيه دائماً. . . وفي الوقت الحاضر أيضاً، وأنت ترين تأثير ذلك، رسالتي بللتها الدموع. كلا، لا شيء يعزّيني أبداً، كل ذلك بسببه. . . وأخيراً، لم أعد أحتمل، ولم أستطع النوم دقيقة واحدة. وهذا الصباح، حين نهضت ونظرت في المرآة، وجدتُ نفسي مُخيفة لشدة ما تغيّرت.

لقد لاحظت أمي سحنتي ما إن شاهدتني، وسألتني عما بي، فأخذتُ أبكي على الفور. واعتقدتُ أنها ستؤنّبني، لربما كان ذلك قلّل من عذابي، ولكنها على العكس أخذت تتكلّم معي بعذوبة لا أستحقّها أبداً. وطلبت إليّ ألا أغتمّ على هذا الشكل! فهي لا تعرف سبب عذابي. سأغدو مريضة، وكم تمنّيت في لحظات أن أموت ولم أعد أحتمل، فارتميت بين ذراعيها وأنا أُجهش بالبكاء وأقول لها: «آه يا ماما، ابنتك تعيسة جداً!» ولم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء قليلاً، لكن كل ذلك لم يؤدّ إلّا إلى مضاعفة تعاستي. لحسن الحظ لم تسألني لماذا أنا تعيسة، لأنني ما كنت لأعرف ماذا أقول.

أرجوكِ يا سيدتي، أن تكتبي إليّ في أقرب فرصة، وقولي لي ماذا يجب أن أفعل، لأنني لا أملك الشجاعة الكافية على التفكير في شيء، ولا عمل لي سوى التحسّر. هل تتفضّلين بتوجيه رسالتك إليّ بواسطة السيد دوڤالمون، ولكنني أرجوكِ إذا كتبْتِ إليه في الوقت نفسه، لا تُخبريه بأنني قلت شيئاً.

لي الشرف، يا سيدتي، أن أكون خادمتكِ المتواضعة المطيعة مع كل صداقتي.

لا أجرؤ على توقيع هذه الرسالة.

*من قصر. . . في الأول من أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الثامنة والتسعون

من السيّدة دوڤولانج إلى الماركيزة دوميرتويّ

منذ أيام قليلة يا صديقتي الفاتنة، أنتِ من كنتِ تطلبين مني المواساة والنصيحة، أما اليوم فقد جاء دوري، وأتقدّم إليك بالطلب ذاتِه، فأنا يائسة حقيقة وأخشى ألا أكون قد اتبعتُ أفضل الوسائل لتجنّب الأحزان التي أشعر بها.

إنها ابنتي، هي سبب قلقي، فمنذ رحيلي أراها دوماً حزينة وكئيبة، لكنني كنت أتوقّع ذلك. لقد سلّحتُ قلبي بصرامة وجدْتُها ضرورية، على أمل أن يحطّم البعاد واللهو حبّها الذي كنت أعتبره مُجرّد نزوة طفولية أكثر مما أراه هوى حقيقياً. وعلى الرغم من أنني لم أفلح في شيء منذ وصولي إلى هنا، فقد لاحظْتُ أن هذه الطفلة أخذت تستسلم شيئاً فشيئاً إلى كآبة خطيرة، وأخشى حقيقة أن تتأثّر صحّتها. لقد تغيّرت منذ بضعة أيام بشكل ظاهر. والبارحة أدهشتني، وخاف عليها الجميع هنا.

ما أثبت لي أكثر كم هي متأثّرة، أنني رأيتها مستعدّة للتغلّب على خجلها الذي كانت تقابلني به. وصباح أمس، حين سألتها ما إذا كانت مريضة، سارَعَتْ وارتمت بين ذراعيّ وهي تقول لي إنها تعيسة جداً، ثم أجهشت بالبكاء! لا أستطيع أن أصف لك الألم الذي أحدثتهُ في نفسي، إذ اغرورقت عيناي بالدموع حالاً، واضطررت لأن أشيح بوجهي عنها كي لا تراني. لحسن الحظ، كنت حذرة ولم أطرح عليها أي سؤال، وهي لم تجرؤ على قول المزيد، ولكن يبدو من الواضح أن هذا الحب التعيس هو سبب اضطرابها.

أي قرار أتخذّ إذا استمرّت الحال هكذا؟ هل أكون السبب في شقاء ابنتي؟ هل أحوّل عنها أثمن صفات الروح، الحساسية والاستقرار من أجل أن أقوم بدوري كأم؟ وإذا ما خنقت في داخلي هذه العاطفة الطبيعية لجعل أبنائنا سعداء، واعتبرت ضعفاً ما هو على العكس أقدس واجباتنا، وإذا أجبرتها على الاختيار، ألن أكون مسؤولة عن النتائج المشؤومة التي يمكن أن تحدث؟ وأي قيمة تبقى لسلطة الأم إذا وضعت ابنتها بين الجريمة والشقاء؟

لن أفعل أبداً ما استنكرته دائماً. كان بوسعي من دون شك أن أختار عريساً لابنتي، وأكون قد ساعدتها بخبرتي وحسب. وهذا ليس حقاً أُمارسه، بل واجباً أؤديه فقط. وعلى العكس، قد أخون هذا الواجب حين أحتقر ميلها الذي لم أستطع منعها منه، والذي لا تستطيع، لا هي ولا أنا، أن نعرف كم يدوم. كلا، لن أحتمل أبداً أن تتزوّج هذا لكي تُحبّ ذاك، بل أفضّل أن أورّط سلطتي بدلاً من فضيلتها.

أعتقد إذاً أنني سأتّخذ القرار الأكثر حكمة، سوف أسحب الوعد الذي قطعته للسيد دوجيركور. وقد رأيتِ بنفسكِ الأسباب، وهي تبدو لي أقوى من وعدي. وأقول أكثر من ذلك، ففي الحالة التي تسير فيها الأمور على هذا النحو، أكون خائنة للعهد بدلاً من الوفاء له. لأنني إذا كنت مدينة لابنتي بألا أفضح سرّها للسيد دوجيركور، فإنني مدينة له بألّا أستغلّ الجهل الذي أتركه فيه، وأن أفعل من أجله كل ما أعتقد أنه سيفعله هو نفسه لو علم بالأمر. فهل أعمد على العكس إلى خيانته من دون احترام، حين يستسلم لنيّتي الحسنة؟ وبينما يشرّفني باختياري أماً ثانية له، فهل أخدعه باختياره أمّ أولاده؟

إن هذا التفكير المنطقي الذي لا أستطيع نكرانه يؤلمني أكثر مما أستطيع أن أقول لك.

مقابل الآلام التي أخشاها، أقارن سعادة ابنتي مع زوجها الذي اختاره قلبها، حين سترى المتعة في واجباتها، وأرى صهري كل يوم راضياً سعيداً عن اختياره، ولا يجد أحدهما سعادته إلا في الآخر، وأكون أكثرهم سعادة. فهل يجب أن يُضحّى بالمستقبل السعيد في سبيل اعتبارات باطلة؟ وما هي الاعتبارات التي تمنعني؟ إنها قائمة على المصلحة. وما هي ميزة ابنتي إذا كانت قد ولدت ثريّة؟ لتكون عبدة لثروتها؟

أقرّ بأن السيد دوجيركور هو عريس أفضل، وربما لم يكن يجدر بي أن أتمناه لابنتي. وأعترف أنني فخورة جداً حين وقع اختياره عليها، ولكن دانسيني، هو أيضاً ابن أسرة محترمة ولا يقلّ عنه بخصاله الشخصية، ويفوق السيد جيركور بأنه محبّ ومحبوب. هو ليس غنياً في الحقيقة، ولكن ألا تكفي ثروة ابنتي لهما هما الاثنين؟ آه! لماذا أحرمها السعادة العذبة بأن تُغني من تُحب؟!

إن هذه الزواجات المدبّرة على أساس الحسابات بدلاً من التوافق والانسجام، والتي نسمّيها «بالاتفاق»، يتم الاتفاق فيها على كل شيء في الحقيقة، من دون الأخذ في الاعتبار الأذواق والأطباع، أليست هي المصدر الأول للفضائح التي أصبحت متواترة كل يوم؟ إنني أُفضّل أن أكون مختلفة، ويكون لديّ متّسع من الوقت على الأقلّ لدراسة ابنتي التي لا أعرفها جيداً. لديّ الشجاعة لأسبّب لها حزناً طارئاً إذا كانت ستنال من بعده سعادة راسخة، أما أن أخاطر بتسليمها إلى يأس أبدي، فهذا ليس من شيم قلبي.

هذه الأفكار تقلقني كثيراً يا صديقتي العزيزة، وأطلب نصائحك

بشأنها. إن هذه المواضيع الجديّة تتعارض جداً مع مرحكِ اللطيف، ولا تنسجم أبداً مع عمرك، لكن عقلك يفوق هذا العمر بكثير! وستساعد صداقتكِ مع ذلك عنايتك، ولا أخشى مطلقاً أن ترفض هذه وتلك الإلحاح الذي تتوسّل به أُمّ.

الوداع يا صديقتي الرائعة، لا تشكّي أبداً في صدق عواطفي.

*من قصر... في ٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة التاسعة والتسعون

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

هذه بعض الحوادث الصغيرة أيضاً يا صديقتي الحسناء، وهي مجرّد مشاهد وليست أعمالًا. تجمّلي بالصبر، لا بل تسلّحي منه بالكثير، لأنه بينما تسير رئيستي بخطوات صغيرة، فإن حضينتكِ تتراجع، لا بل أسوأ من ذلك أيضاً. نعم، لكن مزاجي رائق لأنني أتسلّى بهاتين البائستين. في الحقيقة، بدأتُ أعتاد إقامتي هنا، وبوسعي القول إنني لم أشعر قط بأي ضجر في قصر عمّتي الكئيب. أليس عندي المتعة والحرمان والأمل والقلق؟ وماذا يوجد أكثر من ذلك فوق المسرح؟ مشاهدون؟ دعي ذلك، فإنهم لن يُعدَموا. وإذا كانوا لا يرونني أثناء العمل، فسوف أبرز حين ينتهي، وليس عليهم سوى أن يُدهشوا ويُصفّقوا. أجل سيصفّقون، لأنني أستطيع أخيراً أن أتنبأ بالتأكيد بموعد سقوط ورعتي المحتشمة. لقد شهدتُ هذا المساء احتضار الفضيلة التي سيحلّ محلّها الوهن العذب. لا أحدّد الموعد بأبعد من مقابلتنا التالية، ولكن ها إنني أسمعكِ تصرخين يا له من

متبجح! ولكنني إذا أعلنتُ انتصاري عليها فمعناه أنني سأفتخر سلفاً. لا، لا، هدّئي من روعكِ، ولكي أُثبت لك تواضعي سأبدأ بقصّة هزيمتي.

في الحقيقة، إن حضينتك هي شخص تافه وسخيف! بل هي طفلة تجب معاملتها كما هي. وخير ما تستحقّه هو وضعها في الإصلاحية! هل تصدّقين أنه -بعد كل ما حدث أمس الأول بينها وبيني، وبعد الطريقة الودّية التي افترقنا بها- حين أردتُ أن أعود في المساء إلى غرفتها كما اتفقنا عليه، وجدتُ بابها موصداً من الداخل؟ فما رأيكِ؟ إننا قد نصادف مثل هذه الولدنات أحياناً عشيّة الحادث، أما غداته؟ أليس هذا مضحكاً؟

لم أضحك في البداية، ولم أشعر قط كما شعرت عندذاك بسلطاني. بالطبع، ذهبت إلى هذا الموعد من دون متعة، بل من قبيل المبدأ فقط. وقد بدا لي في ذلك الوقت سريري الذي كنت بحاجة ماسّة إليه أفضل من أي سرير آخر، ولم أبتعد عنه إلا نادماً. ومع ذلك، ما إن صادفتُ هذه العقبة حتى تحرّقت للتغلّب عليها. فقد كنتُ مُهاناً، لا سيما أن طفلة هي التي خدعتني. فانصرفتُ وأنا غاضب جداً. وقرّرت ألا أهتمّ أبداً بهذه الطفلة الحمقاء ولا بشؤونها. كتبتُ إليها على الفور كلمة صغيرة كنت أنوي تسليمها اليوم لكي أُفهمها قيمتها الحقيقية، ولكن كما يقال، الليل يحمل معه النصيحة. وبالفعل، وجدتُ في الصباح من الأفضل الاحتفاظ بتلك الفتاة، نظراً إلى عدم وجود أي تسليات أخرى هنا، فمزّقت الرسالة الصارمة. ولمت نفسي على فكرة رغبتي في إنهاء هذه المغامرة قبل أن أحصل على ما يُثبت تحطيم البطلة. وأخيراً، أجّلتُ ثأري إكراماً لك ولثأركِ من جيركور.

أما الآن وقد زال عني كل غضب، فلم أعد أرى سوى السخافة في سلوك حضينتك. في الحقيقة، أودّ أن أعرف ماذا تأمل أن تنال من وراء ذلك! فأنا لم أعد أفهم شيئاً. أما إذا كانت تريد أن تدافع عن نفسها فقد فات الأوان قليلاً. ولا بد من أن تقول لي يوماً ما كلمة عن هذا اللغز! أريد فعلاً أن أعرفه. هل وجدت نفسها متعبة؟ صراحة قد يكون ذلك صحيحاً، لأنها في الحقيقة تجهل أن سهام الحب كرمح أشيل، تحمل معها الدواء للجراح التي تُحدثها. ولكن لا، بعد أن رأيت وجهها العابس طوال النهار، أراهن أن لديها شيئًا من الندم... شيئاً من الفضيلة... من الفضيلة! هذا ما لا يناسبها... فلتدعها إلى المرأة التي وُلدت حقيقة من أجلها، الوحيدة التي تستطيع أن تزيّنها، وتجعل الناس يحبونها... المعذرة يا صديقتي الحسناء، مساء أمس حدث المشهد الذي أودّ أن أحدّثك عنه بيني وبين السيدة دوتورڤيل، وما زلت منفعلاً من جرّائه. أشعر بأنني بحاجة إلى العنف لكي أنسى الانطباع الذي تركته في نفسي. وبدأتُ الكتابة إليكِ الآن لكي أسلو قليلاً. يجب أن تغفري لي في هذه اللحظة الأولى.

كانت قد مضت بضعة أيام على اتفاقنا، السيدة دوتورڤيل وأنا، حول عواطفنا. ولم نكن نختلف إلا على الكلمات. وحقيقة، كانت «*صداقتها*» تردّ دائماً على «حبّي»، ولكن هذه اللغة المتفق عليها لا تغيّر شيئاً من جوهر الأمور. بقينا على هذه الحال شرط استبعاد فكرة الابتعاد عنها كما كانت تريد في البداية، وبالنسبة إلى محادثاتنا التي نتبادلها يومياً، وإن كنت أنا من يبذل ما بوسعه لتأمين الفرص، إلا أنها تضع كل جهدها لاغتنامها.

وبما أن مواعيدنا الصغيرة تكون عادة خلال النزهات، فبسبب

الطقس الرديء اليوم، لم آمل شيئاً، لا بل كنت مغتاظاً حقاً، إذ لم أكن أتوقع حدوث شيء في هذا الظرف المعاكس.

بسبب عدم إمكانية النزهة، أخذنا نلعب الورق بعد الطعام، وبما أنني لا ألعب إلا نادراً، ولم أكن ضرورياً في اللعب، فقد اغتنمت الفرصة لأصعد إلى غرفتي وأنتظر نهاية اللعبة.

عندما كنت عائداً للانضمام إلى المجموعة، وجدتُ المرأة الفاتنة وهي تدخل إلى غرفتها، وقالت بصوتها العذب، إما عن عدم احتراس أو عن ضعف: «إلى أين أنت ذاهب إذاً؟ ليس هناك أحد في الصالون». كما تتصورين، لم أكن بحاجة إلى أكثر من هذا كي أحاول الدخول إلى غرفتها. وقد وجدْتُ مقاومة أقل مما كنت أتوقع. صحيح أنني حاذرت وبدأتُ المحادثة على الباب بشكل مختلف، ولكن ما إن دخلنا الغرفة حتى غيّرتُ الحديث وأخذتُ أتحدّث الحديث الحقيقي، عن «حبي لصديقتي». وكان جوابها الأول، على الرغم من بساطته معبراً جداً: «اسمع، دعنا من التحدّث عن ذلك هنا» وكانت ترتجف. يا للمرأة المسكينة! كانت ترى نفسها تكاد تموت.

ومع ذلك، لم تكن على حق بأن تخاف، إذ إنني منذ فترة من الوقت، بعد أن تأكدت من النجاح بين يوم وآخر، وبعد أن رأيتها تستهلك الكثير من قواها في معارك غير مُجدية، قرّرتُ أن أحتفظ بقواي، وانتظرت أن تستسلم بسبب التعب. أنتِ ترين أنه لا بد هنا من انتصار كامل، وأنا لا أريد أن أترك شيئاً للمصادفة. وحسب هذه الخطّة المحكمة، لكي أستطيع أن أكون مُستعجلاً دون أن أتعهّد بشيء، عدت إلى كلمة «الحب» التي رفضتْها بإصرار، ولأنني واثق بأنها تراني مفعماً بالحماس، فقد حاولتُ بلهجة أكثر نعومة. ولم

أغضب من رفضها هذا، حزنت فقط. ألا تدين لي صديقتي الحسناء ببعض العزاء؟

وبينما كانت تواسيني، احتفظْتُ بيديها في يدي. وكان جسمها الجميل مستنداً إلى ذراعي، ونحن متقاربان جداً. ولعلّك لاحظْتِ بالطبع كم يتراخى الدفاع في هذا الموقف، وتتوالى المطالبة والرفض، وكيف يلتفت الرأس وتنخفض الأبصار، بينما تصبح الأقوال بالصوت الواهن نادرة ومُتقطّعة. هذه العوارض الثمينة تُنبئ، بطريقة لا تقبل الجدل، موافقة الروح، لكنها من النادر أن تصل إلى موافقة الحواس. كما أعتقد أنه من التهوّر محاولة القيام بأي مغامرة ملحوظة، لأن حالة التراخي هذه لا تخلو من متعة تستعذبها، ولا ينبغي إخراجها منها دون أن نسبب غضباً قد ينقلب لمصلحة الدفاع من دون أدنى شك.

ولكن، بدا لي الاحتراس في مثل هذه الظروف ضرورياً جداً إلى درجة أنني خشيت مما قد يسبّبه تناسيها لنفسها من خوف لها فيما بعد. لذلك، لم أطلب منها هذا الاعتراف حتى حين أعلنته، لأن نظرة واحدة كانت كافية، نظرة واحدة، وكنت سعيداً.

ذلك أن صديقتي الحسناء رفعت عينيها الجميلتين نحوي، ولفظ فمها السماوي هذه العبارة: «حسناً، أجل إنني أ. . .»، لكن نظرتها انطفأت فجأة وخانها صوتها، ووقعت هذه المرأة الرائعة بين ذراعيّ. وبالكاد تسنّى لي الوقت لأتلقّاها حتى انفلتت بقوة خارقة، وتاهت نظراتها، ورفعت يداها نحو السماء: «يا إلهي. . . إلهي، أنقذني»، وفي أقلّ من لمح البصر، ركَعَتْ على بُعد عشر خطوات مني. ورأيتها تكاد تُصاب بالإغماء، فتقدّمتُ لمساعدتها، ولكنها تناولَت يديّ فبللتهما بالدموع، وأخذَت في بعض الأحيان تُقبّل ركبتيّ

وتقول: «أجل... ستكون أنت... أنت من سينقذني، أنت لا تريد موتي... دعني، أنقذني، اتركني وشأني، أستحلفك بالله أن تتركني وشأني». وكانت هذه الأقوال المتقطّعة بالكاد تندّ عنها بينما تزداد بكاء. كانت أثناء ذلك تُمسكني بقوّة لم تسمح لي بالابتعاد، حينذاك، جمعتُ قواي وأنهضتها بين ذراعيّ. وفي اللحظة نفسها، توقّف بكاؤها، ولم تعد تتكلّم، بل تصلبت جميع أعضائها واعترتها على أثر هذه العاصفة اختلاجات عنيفة.

وهنا، أعترف لك بأنني كنت مُتأثراً بشدة. وظننت أنني وافقتُ على طلبها، حتى ولو لم تكن الظروف قد أجبرتني على ذلك. وفي الحقيقة، بعد أن قدّمت لها بعض المساعدة تركتها وشأنها كما رجتني، وكنت راضياً عن نفسي لأنني كنت قد تلقّيت الثمن سلفاً.

وتوقّعت -كما حدث يوم صارحتها بحبي لأول مرة- أنها لن تظهر في السهرة، ولكنها نزلت نحو الساعة الثامنة إلى الصالون، وأعلنت فقط أمام الجمع أنها متوعكة قليلاً. كان وجهها ذابلاً، وصوتها واهناً، وتصرّفها جامداً، ولكن نظراتها كانت رقيقة، وغالباً ما كانت تصوّبها نحوي. وقد اضطرّني رفضها لعب الورق إلى الحلول مكانها، وجلَسَت إلى جانبي. أثناء العشاء، بقيت وحدها في الصالون. وحين عُدنا خُيّل إليّ أنها بَكَت، فقلت لها كي أستوضح الأمر: «يبدو لي أنك ما زلت تشعرين بتوعّك». فأجابتني على الفور: «إن هذا المرض لا يزول بالسرعة نفسها التي يأتي بها!» وأخيراً عندما انسحبنا صافحتُها، وعند باب غرفتها ضغطتْ على يدي، ثم افترقنا. صحيح أن هذه الحركة بدَتْ لي أنها صدرت بصورة عفوية، ولكن هذا أفضل، لأن ذلك دليل آخر على سلطاني عليها.

أنا أراهن الآن على أنها مسرورة لأنها وصَلَت إلى هذا الحد:

لقد بذلتُ ما بوسعي، ولم يبقَ أمامي سوى المتعة. ولعلها فيما أكتب إليكِ الآن، تنشغل بهذه الفكرة العذبة! حتى ولو اهتمّت بمشروع دفاع آخر، ألا نعرف إلى ماذا ستؤول كل هذه المشاريع! وأنا أسألك الآن، هل يمكن أن يصل الأمر إلى أبعد مما خططنا له؟ أتوقّع مثلاً أن تكون هناك بعض الأساليب في منحها نفسها. ولكن حسناً، لقد تجاوزنا الخطوة الأولى. هل تعرف هؤلاء المحتشمات الصارمات متى اجتزن الخطوة الأولى أن يتوقفن؟ إن حبهن هو انفجار حقيقي، والمقاومة تمنحهن مزيداً من القوة! وستركض ورعتي الصارمة ورائي إذا توقفت عن الركض وراءها.

وأخيراً، يا صديقتي الحسناء، سأصل إليكِ في القريب العاجل لكي أُطالبكِ بتنفيذ وعدكِ. هل نسيتِ أنكِ وعدتني، إذا نجحتُ، بخيانة فارسكِ معي؟ هل أنتِ مستعدّة؟ بالنسبة إليّ، إنني راغب جداً كما لو كنا لم يعرف أحدنا الآخر قط. وفي الحقيقة إن معرفتكِ تجعل رغبتي فيكِ تزداد أكثر.

وهكذا، ستكون هذه أول خيانة لمعشوقتي الخطيرة، وأعدكِ بأنني سأغتنم أول فرصة كي أغيب أربعاً وعشرين ساعة عنها. ستكون هذه عقوبة لها لأنها حجزتني طويلاً بعيداً عنكِ. هل تعلمين أنه مضى أكثر من شهرين وأنا مشغول بهذه المغامرة؟ أجل شهران وثلاثة أيام. صحيح أني أعدّ غداً، لأنه سيذهب سُدى. وهذا ما يذكّرني بأن الآنسة دو ب... قاومتْ ثلاثة أشهر بكاملها. أنا سعيد لأن الدلال الصريح قد قاوم مدة أطول من الفضيلة الصارمة!

الوداع يا صديقتي الحسناء، يجب أن أتركك، لأن الوقت قد تأخّر كثيراً. وقد أردت أن أجعلكِ تشاطرينني بهجتي في أقرب وقت.

*من قصر... في ٢ أكتوبر/تشرين الأول **١٧، مساء.*

الرسالة المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

لقد خُدعتُ يا صديقتي وغُدر بي، لا بل خسرت. . . وأنا واقع فريسة اليأس. رحلت السيدة دوتورڤيل. رحلت، ولم أعلم بالأمر! ولم أكن حاضراً كي أحول دون سفرها وألومها على خيانتها المهينة! آه! لا تظنّي أنني كنت تركتها تذهب. كانت ستبقى. نعم، كانت ستبقى، حتى وإن كان عليّ استخدام العنف. ولكن ماذا حدث؟ كنت أنام مطمئناً غافلاً، أنام فيما كانت الصاعقة تنقضّ عليّ. كلا، لا أفهم شيئاً من هذا الرحيل. يجب أن أُقلع عن معرفة النساء.

حين أتذكّر يوم أمس! ماذا أقول؟ السهرة نفسها! هذه النظرة العذبة، وهذا الصوت الرقيق الناعم! وهذه اليد الضاغطة! وأثناء هذا الوقت، كانت تدبّر أمر الهروب مني. آه من النساء!. . . ارثينَ لأنفسكن إذاً حين تُخدعن. لأن كل خداع نستخدمه هو بمثابة سرقة ترتكب نحوكن.

آه. . أية لذّة ستكون لديّ حين أنتقم! سأعثر عليها وأستعيد سلطاني عليها. وإذا كان الحب كافياً لكي أبتكر الوسائل، فماذا سيفعل الحب إذا سانده الانتقام؟ سأراها جاثية عند ركبتيّ، مرتجفة ومبلّلة بالدموع، تصيح بي شكراً بصوتها الخائن، وسأكون من دون رحمة.

ماذا تفعل الآن؟ فيمَ تفكّر؟ لعلّها سعيدة لأنها خدعتْني. هي المخلصة لأهواء جنسها، لا شك أن شعورها الآن سيبدو لها ألذ شعور. ما عجزت الفضيلة عن إحداثه، استطاعت الحيلة أن تفعله

من دون جهد. وأنا المغفّل، كنت أخشى تعقّلها، بينما كان عليّ بالأحرى أن أخشى نيّتها الخبيثة.

أنا مضطر إلى ابتلاع نقمتي، لا أجرؤ إلا على إظهار ألم عذب، بينما قلبي طافح بالنقمة، وأرى نفسي مُجبراً على استعطاف امرأة ثائرة استطاعت أن تفلت من سيطرتي! هل يجب أن أُهان إلى هذا الحد؟ ومِن قبل مَن؟ من قبل امرأة خجول لم تتمرّن أبداً على الصراع. ماذا يفيدني إن سكنتُ في قلبها وأشعلت فيه كل نيران الحب، وأثرتُ حتى الجنون اضطراب حواسها الهادئة في عزلتها؟ هل يمكنها أن تفخر اليوم بهربها أكثر مما أفتخر بانتصاراتي؟ وهل سأتعذّب من أجل ذلك؟ لا يمكنك أن تتصوري ذلك يا صديقتي، فأنت لا تعرفينني مهاناً.

ولكن أي قدر جعلني أتعلّق بهذه المرأة؟ أليس هناك مئات غيرها يرغبن في اهتمامي؟ ألا يُسارعن في تلبيته؟ ومع ذلك، فليس بينهن من تساوي هذه. جاذبية التنوع، إغراء المغامرات الجديدة، صدى تعدادها، ألا تمنحنا متعة في غاية العذوبة؟ لماذا نسعى إذاً وراء من يهرب منّا ونتجاهل من يعرض نفسه علينا؟ آه لماذا؟! أنا أجهل ذلك، ولكنني أشعر به بقوّة.

لم يبقَ لي من سعادة وراحة بال إلا بامتلاك هذه المرأة التي أكرهها وأحبها بالقدر نفسه من الغضب. ولن أتحمّل مصيري إلا حين أسيطر على مصيرها، وعندئذٍ أصبح مرتاحاً راضياً. سأتركها للأعاصير التي أشعر بها الآن، لا بل سأُثير ألف عاصفة أخرى: الأمل والخوف، الحذر والأمان، جميع الآلام التي تُثيرها الكراهية، وجميع المحاسن التي يمنحها الحب. أود أن أملأ بها قلبها على التعاقب، بحسب مشيئتي. وسيحين هذا الوقت... ولكن، ماذا

أفعل أيضاً! كنت قريباً جداً بالأمس، واليوم أصبحت بعيداً جداً. كيف أستطيع أن أقترب منها؟ إنني لا أجرؤ على القيام بأي مسعى، إذ أشعر أن عليّ -من أجل اتخاذ قرار ما- أن أكون أكثر هدوءاً، لكن دمي يغلي في عروقي.

إن ما يُضاعف اضطرابي، هذا البرود الذي يقابلني به الجميع هنا في الإجابة عن أسئلتي بشأن رحيلها، أو سببه، أو بشأن غرابته. لا أحد يعلم شيئاً، ولا يريد أن يعرف شيئاً ونكون بالكاد تحدثنا. وقد قالت لي السيدة دوروزموند التي هرعتُ إليها هذا الصباح حين علمتُ بالأمر، وقد أجابتني بالبرود الذي يفرضه عليها سنّها: إن هذا شيء طبيعي بسبب انحراف صحتها بالأمس، وقد خافتْ أن تمرض، ففضّلَتْ أن تكون في بيتها. وهي ترى الأمر بسيطاً للغاية، وإنها لو كانت مكانها لفعلت الشيء نفسه، وكأن ثمة شيئاً مشتركاً بينهما هما الاثنتين، هي التي ليس أمامها سوى الموت، والأخرى التي تجعل حياتي رائعة وتملأها اضطراباً.

أما السيدة دوفولانج التي ظننتها في البداية شريكتها، فقد بدت متأثّرة لأن السيدة دوتورفيل لم تخبرها برحيلها. أنا مسرور حقاً لأنها لم تضرّ بي. وهذا ما يُثبت لي أيضاً أنها لم تنل ثقة هذه المرأة كما كنت أخشى، لهذا لا أعتبرها من الأعداء. كم ستسرّ لو علمتْ أنها هربت مني، كم ستزهو مغترّة، لأن نصائحها هي السبب في ذلك! آه كم أكرهها! سأعيد علاقتي مع ابنتها، وسوف أُقولبها على هواي. أظن أنني سأبقى هنا لبعض الوقت. وقد حملني القليل من التفكير على اتخاذ هذا القرار.

ألا تعتقدين أن خائنتي ستخاف من حضوري بعد هذا الهرب الملحوظ؟ ولو ساورَتْها فكرة أنني أستطيع أن ألحق بها، فإنها ستُقفل

بابها في وجهي. وأنا لم أعد أريد أن أعوّدها هذه الطريقة التي تزيد من إهانتي، وأفضّل أن أعلن لها على العكس أنني سأبقى هنا. لا بل سألحّ عليها كي تعود، وحين ستكون مقتنعة بغيابي سأحضر إلى بيتها، وسنرى كيف ستتحمّل هذه المقابلة. ولكن، يجب أن أؤجّلها لكي أزيد من وقعها عليها. ولا أدري ما إذا كان لديّ ما يكفي من الصبر، فأنا أبادر عشرين مرة في النهار إلى طلب جيادي، لكنني أتمالك نفسي... أتعهّد بأن أتلقّى جوابك هنا، وأطلب إليك فقط ألا تجعليني أنتظر طويلاً.

إن ما يزيد من غيظي هو عدم معرفتي بما يجري هناك. بيد أن خادمي الموجود في باريس له صلاحيات في الوصول إلى خادمتها ويستطيع أن يخبرني. سأبعث إليه بتعليمات مع المال. وأناشدك أن تقبلي إرسال هذه وتلك ضمن الرسالة، وأرجو الاهتمام بإرسالها إليه بواسطة أحد خدمكِ على أن يسلّمه إياها شخصياً، لأن هذا الأحمق اعتاد ألا يتلقّى الرسائل التي أكتبها إليه حين تأمره بشيء يضايقه، ويبدو لي في الوقت الحاضر أنه ليس متعلّقاً كل التعلّق بخادمتها كما كنت أتمنّى.

الوداع يا صديقتي الحسناء. إذا خطرت في بالك فكرة سعيدة، أو وسيلة للتعجيل في مسعاي، أخبريني. لقد شعرتُ أكثر من مرّة fأن صداقتكِ ثمينة بالنسبة إليّ وما زلت أشعر بذلك أيضاً، لأنني أحسّ بنفسي أكثر هدوءاً ما إن أكتب إليكِ. أستطيع على الأقل أن أتحدّث إلى من يفهمني، وليس إلى آلات أعيش بخمول إلى جانبها منذ الصباح. في الحقيقة كلما عرفتُ الناس أكثر، تبيّن لي أنه لا يوجد في العالم غيري وغيرك ممن يساوون شيئاً.

*من قصر... في ٣ أكتوبر/تشرين الأول **١٧ .*

الرسالة الأولى بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى خادمه أزولان

(مُرفقة بالرسالة السابقة)

لا شك أنك غبي جداً! كيف سافرتَ هذا الصباح ولم تعرف أن السيدة دوتورڤيل قد سافرت هي أيضاً؟ أم إنك علمت بالأمر ولم تأتِ لتخبرني؟ ما نفع مالي الذي تنفقه على السُّكر مع خدم القصر إذا كنتُ لا أعرف شيئاً عمّا يجري؟ وعوضاً عن أن تستخدم هذا الوقت لكي تخدمني، أراك تقضيه في ملذّاتك مع الخادمات. هذه هي نتيجة إهمالك، ولكنني أنذرك إذا تهاملت مرة أخرى، فسوف أصرفك من العمل في خدمتي.

يجب أن تُطلعني على كل ما يجري في بيت السيدة دوتورڤيل: صحّتها، إذا كانت تنام، هل هي حزينة أو مرحة، إذا كانت تخرج غالباً، وإلى أين تذهب، إذا كانت تستقبل أناساً في بيتها، ومن هم، وكيف تمضي وقتها، إذا كانت تُسيء معاملة خادماتها، وخصوصاً تلك التي أخذتها معها؟ ماذا تفعل حين تكون وحيدة؟ وعمّا إذا كانت تقرأ، هل تقرأ بسرعة، أم إنها تقطع قراءتها لكي تحلم؟ وكذلك حين تكتب. فكّر أيضاً في أن تصبح صديق من يحمل رسائلها إلى البريد، واعرض خدماتك عليه لكي تؤدّي هذه الخدمة عنه، وحين يوافق، لا ترسل إلا الرسائل التي تبدو لك غير مهمة، وابعث إليّ بالبقية، لا سيما رسائل السيدة دوڤولانج إذا صادفت إحداها.

اسعَ أيضاً إلى أن تكون عشيق جولي السعيد، وإذا كان لديها عشيق آخر كما اعتقدت، أقنعها بأن تتشاركوا الحب، ولا تغضب من

شيء سخيف كهذا، لأنك ستكون مثل الكثيرين ممن هم أفضل منك. أما إذا كان غريمك مزعجاً جداً ويشغل أكثر أوقات جولي في النهار، وتتغيّب غالباً عن سيّدتها، فأبعده عن طريقك بإحدى الوسائل، واخلق له مشكلة لكي تتشاجر معه، ولا تخشَ النتائج فأنا سأدعمك. احرص بصورة خاصة على ألا تغادر هذا البيت. تستطيع أن تعرف كل شيء عن طريق المثابرة وحدها. وإذا صادف وطردتْ أحد خدمها، فاعرض نفسك مكانه كما لو كنت تركتَ خدمتي، وقل في هذه الحالة إنك تبحث عن بيت أكثر هدوءاً وانتظاماً. وحاول أخيراً أن تكون مقبولاً. ستظل في خدمتي خلال هذا الوقت بالتأكيد، وسيكون كما حدث عند الدوقة دو... وتكافئك السيدة دوتورڤيل مثلها.

إذا كنت تملك النشاط والدهاء الكافيين فستكفيك هذه التعليمات، ولكن كي تقوم بالعملين معاً، أُرسل إليك بعض المال. تسمح لك الرسالة المرفقة بأن تقبض خمساً وعشرين ليرة ذهبية من وكيلي، إذ لا شك أنك مفلّس. استخدم هذا المال في ما هو ضروري لإقناع جولي بأن تراسلني، أما البقية فهي كافية لرشوة الآخرين، وخصوصاً رئيس الخدم، بحيث يسعد في كل مرة يراك فيها. ولا تنسَ أنني لا أدفع هذا المال لمتعك، بل مقابل خدماتك.

علّم جولي أن تلاحظ كل شيء، وأن تنقل كل شيء، حتى ما يبدو لها تافهاً. ومن الأفضل أن تكتب عشر جمل لا فائدة منها من أن تغفل جملة ذات أهمّية، ففي أغلب الأحيان ما يبدو سخيفاً هو في الواقع عكس ذلك. وبما أنه ينبغي أن أحصل على هذه المعلومات بصورة عاجلة، في حال استرعى انتباهك شيء مهم، فور استلام هذه الرسالة، أرسلْ فيليب بمهمّة إلى قرية «...»، حيث

يبقى هناك حتى إشعار آخر. سوف يستطيع بوجوده في منتصف الطريق بيننا وبين باريس أن يساعد على نقل الرسائل إذا دعت الحاجة. أما المراسلات العادية فاتركها في البريد.

إياك أن تضيّع هذه الرسالة. أعد قراءتها كل يوم لكي تتأكد أنك لم تُغفل شيئاً، وافعل أخيراً ما يجب عمله، وأنت تعرف أنني إذا كنت مسروراً منك، فستكون مسروراً مني.

*من قصر... في ٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الثانية بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

سوف تدهشين يا سيدتي، حين تعلمين أنني رحلت من قصركِ بهذه السرعة. قد يبدو لكِ هذا التصرّف غريباً جداً، ولكن كم ستتضاعف دهشتك حين تعرفين الأسباب! ربما حين أسرّ لكِ بها، ستجدين أنني لم أحترم هدوء سنّكِ، وأنني ابتعدتُ عن مشاعر الاحترام التي تستحقّينها. آه يا سيدتي، اعذريني! لكن قلبي مُثقل، وهو بحاجة إلى أن ينفس عن كربه في قلب صديقة رقيقة وحذرة أيضاً. فمن غيرك يستطيع أن يختار؟ اعتبريني ابنتك، واشعري نحوي بعاطفة الأم. إنني أتوسّل إليكِ. ربما كان لي بعض الحق في ذلك بالنظر إلى عواطفي نحوكِ.

أين هو الوقت الذي كنت أُكرّس فيه نفسي بكليتي لهذه العواطف النبيلة، حيث لم أكن أعرف البتة العواطف الأخرى التي تحمل إلى النفس الاضطراب المميت الذي أعانيه، وتنتزع القوة على مكافحتها

بينما هي تفرض الواجب؟ آه! تباً لهذه الرحلة القاضية التي أدّت إلى ضلالي.

ماذا سأقول لك أخيراً؟ أنا أحب... أجل أحب بجنون. يا حسرتاه! إن هذه الكلمة التي أكتبها لأول مرة -والتي طالما طُلبت مني دون أن أقولها- أدفع حياتي كلها لكي أقولها إلى من أوحى إليّ بها، ومع ذلك ينبغي أن أرفضها باستمرار! سوف يشكّ أيضاً في عواطفي وسيظن أنه يستحقّ الرثاء. أنا تعيسة جداً! أليس من الأسهل عليه أن يقرأ في قلبي أنه يسيطر عليه؟ أجل إن عذابي سيهون إذا عرف كم أتعذّب، ولكنك أنت نفسكِ التي أُطلعكِ على حالي، لا تستطيعين أن تكوّني إلا فكرة ضئيلة عمّا بي.

بعد قليل من الوقت، سأهرب منه وأعذّبه. وبينما سيعتقد أنه ما زال قريباً مني سأكون بعيدة عنه. وفي الساعة التي اعتدتُ أن أراه فيها كل يوم، سأكون في مكان لم يأتِ إليه قط، حيث ينبغي ألا أسمح له بأن يحضر. لقد أعددت جميع ترتيباتي وأصبح كل شيء جاهزاً: كل شيء جاهز تحت أنظاري التي لا أقوى على وضعها على شيء إلا وتذكرني برحيلي القاسي. كل شيء جاهز إلا أنا!... وكلما رأيت قلبي يأبى ذلك، أثبتَ لي هذا القلب ضرورة الإذعان.

سأُذعن من دون ريب. ومن الأفضل أن أموت بدلاً من أن أعيش مُذنبة. لقد أصبحتُ أشعر بذلك كثيراً، فأنا لم أنقذ سوى تعقّلي، بينما تلاشت فضيلتي. هل ينبغي أن أعترف لكِ: إنني مدينة في ما بقي لي منها إلى كرمه. أنا التي أسكرتني لذّة رؤيته وسماعه، وعذوبة الشعور به بالقرب مني، وسعادة التمكّن من إسعاده، تلاشت وخارت عزيمتي. بالكاد بقيت لي القوة كي أُكافح، فكيف يتسنّى لي أن أقاوم. لقد كنت أرتجف من الخطر دون أن أتمكّن من الهرب

منه. حسناً! لقد رأى عذابي وأشفق عليّ. كيف لا أحبه؟ أنا مدينة له بأكثر من الحياة؟

آه! لو أتيح لي أن أبقى إلى قربه دون أن أرتجف، لما وافقتُ على الابتعاد. وما قيمة حياتي من دونه! ألن أكون سعيدة جداً حين أفقدها؟ (أما وقد حُكم عليّ بأن أُسبب تعاسته وتعاستي، دون أن أجرؤ على الشكوى أو على مواساته، وأن أدافع عن نفسي كل يوم ضده وضد نفسي، وأن أبذل اهتمامي لأسبب عذابه بينما أودّ أن أكرّس كل شيء في سبيل سعادته، فإنني أرى الموت أفضل ألف مرة. أجل) هذا ما سيكون عليه مصيري، وسأتحمّله الآن، وسأتسلح بالشجاعة، آه أنتِ التي اخترتك كأمي، إليكِ قَسَمي!

واقبلي أيضاً القَسَم بأنني لن أُخفي عنكِ أي عمل من أعمالي. اقبليه، أستحلفك بالله، وأطلبه منك بمثابة إغاثة أشعر أني بحاجة إليها. وهكذا، بعد أن تعهدتُ بأن أقول لك كل شيء، سأعتاد على الاعتقاد بأنني دوماً في حضوركِ وستحلّ فضيلتكِ مكان فضيلتي. ولن أرضى أبداً بعد الآن أن أحمرّ خجلاً بنظرك. وبعد أن يشدّني هذا الكابح القوي، فيما أعتز بك صديقة واسعة الصدر تحفظ سرّي في ضعفي، سوف أتشرّف بك ملاكاً حارساً ينقذني من عاري.

كم يشقّ عليّ طلبي هذا. لماذا لم أخفِ في وقت أبكر هذا الميل الذي شعرت به ينمو في قلبي؟ لماذا خيّل إليّ أنني أستطيع التحكم به أو التغلب عليه؟ بغفلة مني، لم أكن أعرف الحب إلا قليلاً! آه، ليتني قاومته أكثر، لعله ما ساد قلبي! ولعل هذا الرحيل ما كان ضرورياً، أو ليتني لم أتّخذ هذا القرار المؤلم، ولم أقطع العلاقة، بل جعلت لقاءاتنا أقل تواتراً! ولكن، أن نخسر كل شيء في

الوقت ذاته! للأبد؟ آه يا صديقتي! حتى وأنا أكتب إليك، ما زلت تائهة في أمنياتي الآثمة. آه، لأرحل، لأرحل، علني أكفّر على الأقل عن هذه الأخطاء اللاإرادية بتضحياتي.

الوداع يا سيدتي المحترمة، أحبّيني كما لو كنتُ ابنتكِ، وتبنّيني كما أنا. وكوني واثقة بأنني رغم ضعفي سأفضّل الموت على ألا أكون جديرة باختيارك.

*في ٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**، الساعة الواحدة صباحاً.*

الرسالة الثالثة بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى الرئيسة دوتورڤيل

لقد كان حزني على سفركِ يا سيدتي العزيزة أشدّ من عجبي لسببه. إن خبرتي الطويلة والاهتمام الذي توحينه إليّ كافيان لكي أدرك حالة قلبكِ. وإذا كان لا بد من القول: فإنكِ لم تخبريني تقريباً شيئاً في رسالتك. وإن كان عليّ أن أعرف عن طريق رسالتك، لكنت ما زلت أجهل مَن الذي تحبينه، إذ إنك تتحدثين «عنه»، ولم تكتبي اسمه مرة واحدة. ولكنني لاحظت ذلك، لأنني تذكّرت أن هذا هو دائماً أسلوب الحب الذي لم يتغيّر عمّا كان عليه في الماضي.

كنتُ أظنّ نفسي أنني لن أستعيد ذكرياتي البعيدة والغريبة جداً عن عمري. مع ذلك فقد حاولت استرجاعها أمس، رغبة مني في أن أجد فيها شيئاً قد يفيدكِ. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل سوى أن أُعجب بكِ وأشكو إليكِ؟ أُهنئك على القرار الحكيم الذي اتخذته مع أنه يُخيفني، لأنني استنتجت أنكِ رأيته ضرورياً. وحين تكون المرأة

في مثل هذه المواقف، من الصعب جداً أن تبقى دائماً بعيدة عمّن يقرّبه قلبها إليه باستمرار.

وعلى كل حال لا تيأسي. لا شيء يمكن أن يكون مستحيلاً على روحكِ الجميلة. ولكن إذا ما حدث يوماً واستسلمت (لا سمح الله!)، صدقيني يا سيدتي الجميلة، عليك أن تحتفظي على الأقلّ بالعزاء أنك كافحتِ بكل قواك. ثم إن ما لا تقدر عليه الحكمة الإنسانية، تقوم به الرحمة الإلهية حين تشاء. ولعلك الآن، قبل أن ترسلي استغاثتك، ستخرج فضيلتك المُعذّبة من هذه المعارك القاسية أكثر نقاء وبريقاً. والقوة التي لا تملكينها اليوم، لربما تتلقّينها غداً، ولا تُفكّري أن تعتمدي عليها، بل تشجّعي على استخدام قواكِ كلّها.

أتركك للعناية الإلهية تساعدك في مواجهة خطر لا أستطيع أن أفعل شيئاً حياله، وأكتفي بمساندتك وتعزيتك قدر استطاعتي. لن أُخفّف من آلامك، لكنني سأُشاطرك إياها. وإنني بهذه الصفة سأتقبّل بطيبة خاطر جميع أسرارك. أشعر بأن قلبك بحاجة إلى التنفيس عن كربه، لذلك أفتح لك قلبي، وإن تقدّم العمر بي، فهذا القلب لم يبرد إلى درجة تجعله غير متأثّر بالصداقة. ستجدينه مستعداً دائماً لاستقبالك. وسيكون عزاء ضئيلاً لآلامك، ولكن على الأقل لن تبكي وحدك. وحين ستغدو سيطرة هذا الحب التعيس قوية عليك وتجبرك على الحديث عنه، فمن الأفضل أن يكون ذلك معي بدلاً من أن يكون «معه». ها أنذا أتحدّث الآن مثلك. أعتقد أننا، نحن الاثنتين، لن نتوصّل إلى تسميته. باختصار، إن إحدانا تفهم الأخرى.

لا أدري ما إذا كنت أُحسن صنعاً إذا قلت لك إنه بدا لي متأثراً جداً بسفرك. وربما سيكون من الحكمة ألا أحدثك عن ذلك. ولكنني لا أحب هذه الحكمة التي تُحزن أصدقاءه. وأنا مع ذلك

مضطرة ألا أتحدّث عن ذلك أكثر، لأن نظري الضعيف ويدي المهتزّة لا تسمحان لي بكتابة الرسائل الطويلة حين يجب أن أكتبها بنفسي.

الوداع يا حسنائي العزيزة، الوداع يا ابنتي اللطيفة، أجل إنني أتبنّاكِ بطيبة خاطر كابنتي، ولديكِ كل ما يلزم لتكوني فخر أمّ وسرورها.

*من قصر... في ٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الرابعة بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى السيّدة دوڤولانج

في الحقيقة يا صديقتي العزيزة الطيبة، وجدتُ صعوبة في منع نفسي من الشعور بالفخر وأنا أقرأ رسالتك. ماذا! أنتِ تُشرّفينني بثقتك التامة! لا بل تطلبين مني النصائح! آه... كم أنا سعيدة، إذا كنتُ أستحقّ هذا الرأي العطوف من جانبك، حتى وإن لم أكن مدينة به إلى صداقتنا. الخلاصة، مهما يكن السبب، فإنه لا يقلّ معزّة على قلبي. وبعد أن نلته، فذلك يجعلني أسعى إلى أن أكون جديرة به. أودّ إذاً (من دون الادّعاء بإعطائك رأياً ما) أن أقول لك بحرّية طريقة تفكيري، وأنا أحترس منها لأنها تختلف عن طريقة تفكيرك. وحين سأعرض عليك حججي ستحكمين عليها، وإذا ما استنكرتِها فإنني أقبل بحكمك سلفاً وستكون عندي الحكمة بألا أظن نفسي أكثر تعقّلاً منكِ.

أما إذا فضّلتِ رأيي هذه المرة فقط، فيجب أن تبحثي عن السبب في أوهام الحب الأمومي. لأن هذا الشعور جدير بالثناء، ولا بد أن

يكون موجوداً في قلبك، وهو الذي يملي عليكِ حقيقة القرار الذي تحاولين اتّخاذه! وإن حدث وأخطأتِ مرة، فليس ذلك إلا في اختيار الفضائل.

يبدو لي أن الاحتراس هو ما ينبغي تفضيله حين يكون مصير الآخرين بين أيدينا، لا سيما حين يتعلّق برباط مُقدّس لا يمكن حلّه كرباط الزواج. عندئذٍ يجدر بالأم الحكيمة والحنون كما تقولين «*أن تساعد ابنتها بخبرتها*». وهنا أسألك: ماذا عليها أن تفعل للوصول إلى ذلك؟ اللهم إلا أن تميّز بين ما يُعجب وبين ما يُلائم.

ثم ألا يُعتبر ذلك انتقاصاً من سلطة الأمومة، لا بل من حقها، وجعلها خاضعة لنزوة طائشة لا يشعر بقوتها الوهمية إلا أولئك الذين يخشونها؟ بالنسبة إليّ، أعترف بأنني لم أؤمن قط بهذه الأهواء الجامحة التي لا تُقاوم والتي اتفق الجميع على أن يجعلوا منها أعذاراً عامة لانحرافاتنا. كما أنني لا أدرك أبداً كيف أن ميلاً، يولد في لحظة من اللحظات ليحلّ محلّ ميل آخر يزول، يستطيع أن تكون له سلطة أقوى من مبادئ العفّة والشرف والتواضع التي لا تتزعزع. ولا أفهم كذلك كيف يبرّر لامرأة تخون هذه المبادئ، بحجّة هواها المزعوم ونزوتها الطارئة، كما يبرّر السارق نفسه بحجّة شغفه بالمال، أو القاتل بحجّة الانتقام.

ثم من يستطيع أن يقول إنه لم يقوَ على النضال؟ لقد حاولت دوماً أن أُقنع نفسي بأننا لكي نقاوم يكفي أن نرغب في ذلك. وعلى الأقل، فقد برهَنَتْ لي خبرتي حتى الآن صواب هذا الرأي. ما قيمة الفضيلة إذاً لولا الواجبات التي تفرضها؟ إن التعلّق بها هو في التضحيات، ومكافأتها في قلوبنا. إن هذه الحقائق لا يمكن أن تُنكر إلا من قِبل أولئك الذين لهم مصلحة في تجاهلها، والذين بعد أن

حُرموا منها يأملون أن يعيشوا الأوهام محاولين تبرير سلوكهم السيّئ بمبررات سيئة.

ولكن، هل يمكن أن نخشى ذلك من طفلة بسيطة وخجول، من طفلة وُلدت منكِ، ولم تستطع تربيتها المتواضعة الطاهرة إلا أن تقوّي روح الفضائل الطبيعية فيها؟ ومع ذلك، أجرؤ على القول إنك في سبيل هذا الخوف المهين على ابنتك، تريدين أن تُضحّي بالزواج المُفضّل الذي شاءت عنايتك أن تدبّريه لها! أنا أحب كثيراً دانسيني منذ وقت طويل كما تعلمين، ولا أرى السيد دوجيركور إلا قليلاً، لكن صداقتي لهذا ولا مبالاتي تجاه الآخر، لا يمنعاني أبداً من رؤية الفرق الهائل بين هذين العريسَين.

إن عائلتيهما متساويتان، وأنا أتفق معك على ذلك، ولكن الأول من دون ثروة، بينما ثروة الآخر -حتى ولو كان من دون نَسَب- كافية لكي تعوّض له كل شيء. أعترف بأن المال لا يخلق السعادة، ولكن يجب الاعتراف أيضاً بأنه يسهّلها كثيراً. إن الآنسة دوفولانج ثرية جداً بحيث تكفي ثروتها لاثنين كما تقولين، ولكن ستين ألف ليرة من الدخل الذي ستتمتع به ليس كثيراً حين ستحمل اسم دانسيني، وحين يجب أن تؤسّس بيتاً بشكل محترم. لم نعد كما كنا في زمان مدام دوسيفينيه. ذلك أن الترف أصبح يستهلك كل شيء. نستنكره ولكن يجب أن نقلّده. ولا بد من أن يؤدي الإسراف في النهاية إلى الحرمان مما هو ضروري.

أما من حيث المزايا الشخصية التي لها بنظرك أهمية كبرى، أنت على حقّ. من المؤكد أن السيد دوجيركور ليس عليه أي مأخذ من هذه الناحية، وقد أثبت ذلك، أما السيد دانسيني فأودّ الاعتقاد أن مزاياه لا تقلّ عن الآخر، ولكن، هل نحن متأكدون بما يكفي؟

صحيح أنه بدا حتى الآن خالياً من مساوئ من هم في سنّه، وأنه رغم الشائع اليوم، يظهر ميلاً نحو المعشر الحسن الذي يزيد من قيمته، ولكن من يعلم ما إذا كان مديناً في هذا التعقّل الظاهر إلى تواضع ثروته فقط؟ وأنه متى صار يملك ثروة لن ينطلق مع شهواته ونزواته؟ لأن من يريد أن يكون مقامراً أو إباحياً يجب أن يملك المال الكافي لذلك، وإذا كان يميل إلى حسن المعشر فذلك لأنه لا يستطيع أن يفعل أفضل من ذلك.

لست أقول (لا سمح الله) أنني أعتقد كل ذلك فيه، ولكن قد يكون اختياره مجازفة، فأي لوم سيقع عليكِ إذا لم يكن الزواج سعيداً! وبِمَ ستجيبين ابنتك حين ستقول لك: «لقد كنت يا أمي صغيرة السن من دون خبرة، لا بل كنت مضلّلة بغلطة يغفر لها لمن كان في مثل سنّي، ولكن السماء التي عرفت ضعفي منحتني أمّاً عاقلة لكي تعيدني إلى الصواب وتضمنه لي. لماذا تناسيتِ احتراسكِ إذاً، ووافقْتِ على تعاستي؟ فهل كان من واجبي اختيار زوج في حين لا أعرف شيئاً عن حال الزواج؟ وحين أردتُ ذلك، ألم يكن ذلك واجبك وكان عليكِ أن تمنعيني؟ ولكن، لم تكن لديّ هذه الإرادة المتمرّدة، لأنني قرّرتُ أن أطيعكِ وانتظرت اختيارك بخضوع واحترام. لم أكن لأخالف أوامركِ وآراءك قط بواجب الخضوع نحوك. ومع ذلك، أتحمّل اليوم الشقاء الذي لا يستحقه إلا الأبناء المتمردون. آه، لقد أضاعني ضعفك. . .!» وقد يخنق احترامها لك هذه الشكوى، ولكن حب الأمّ سيكتشفها، لأن دموع ابنتك مهما أخفتها لن تفيض أقل في قلبك. أين ستعثرين على المواساة عندئذ؟ هل ستجدينها في هذا الحب الأرعن الذي كان يجب أن تتسلّحي ضدّه، فكيف استسلمت لإغوائه؟

إنني أجهل يا صديقتي الطيبة ما إذا كانت لديّ ضد هذا الحب تبريرات قوية، ولكنني أظنه مخيفاً، حتى في الزواج. ولا أعني هنا أنني لا أقرّ بأن العاطفة الشريفة والرقيقة لا تزيّن العلاقة الزوجية وتُخفّف نوعاً ما الواجبات التي تفرضها، ولكن ليس بالعاطفة وحدها ينجح الزواج، ولا يعود أمر تقرير اختيار رفيق الحياة إلى أوهام لحظة عابرة. في الواقع، لا بد من المقارنة عند الاختيار. كيف السبيل لفعل ذلك حين تستولي على أذهاننا فكرة واحدة ونحن لا نعلم شيئاً عن صاحبها وقد غرقنا فيها حتى الثمالة؟

لقد التقيت كما تتصورين نساء كثيرات مصابات بهذا الداء الخطير، وأصغيت إلى اعترافات بعضهن. كنّ يتحدّثن عن عاشق مثالي، لكن هذه الخصال المثالية ليست قائمة إلا في خيالهن. تحلم عقولهن المتأجج حماسةً بالمباهج والفضائل وتضفي على المحبوب مزايا مما يرغبن في رؤيتها فيه. هو بنظرهن بدعة من بدع الخالق خلقه لأجلهن، غير أن داخله خسيس رذيل. وما إن يعاشرنه، هن المخدوعات بما صنعته أياديهن، حتى يركعن خاشعات لعبادته.

إما أن ابنتك لا تحب دانسيني، وإما أنها تشعر بهذا الوهم نفسه. وهو وهم مشترك بين الاثنين إذا كان حبّهما مُتبادلاً. وهكذا، فإن مسعاك في سبيل جمعهما إلى الأبد يقتصر على حقيقة أنهما لا يعرف بعضهما بعضاً ولا يستطيعان أن يتعارفا. ولكن ستقولين لي: هل السيد دوجيركور وابنتي يعرف بعضهما بعضاً أكثر؟ كلا، من دون شك، لكنهما على الأقل لا يستغلّان ذلك بل يجهل بعضهما بعضاً فقط. ماذا سيحدث في هذه الحالة بين زوجين أفترضُ أنهما شريفان؟ سوف يدرس كل منهما الآخر، ويراقب نفسه تجاه الآخر. ثم يسعى ويبحث عمّا يجب أن يتخلّى عنه من ميوله وإرادته في سبيل

الهناء المشترك. إن هذه التضحيات الصغيرة تتم عادة من دون عناء، لأنها مُتبادلة ومُتوقّعة، ولا يلبث أن يخلق بينهما التعاطف المتبادل. ثم إن العادة تقوّي جميع الميول دون أن تدمّرها، تؤدّي شيئاً فشيئاً إلى هذه الصداقة الرقيقة، والثقة الحنونة، إضافة إلى الاحترام، فتنشأ، وفق ما يبدو لي، السعادة الحقيقية الراسخة.

إن أوهام الحب قد تكون أكثر حلاوة، ولكن من لا يعرف أيضاً أن عمرها قصير؟ وأي أخطار تنجم عنها لحظة تتحطّم فيها هذه الأوهام! ستظهر عندئذٍ أقل الهفوات صادمة لا تُحتمل، بسبب التناقض الكبير مع فكرة الكمال التي ضلّلتنا. وسيعتقد كل من الزوجين أن الآخر وحده قد تغيّر. والروعة التي لم يعد يشعر بها، يعجب لأنه لم يعد يولّدها، فيشعر بالإهانة: إن الكبرياء المجروحة تُعكّر الأذهان وتزيد من الأخطاء وتُثير الاستياء وتُولّد الكراهية، لذلك أرى أن هذه المتع الصبيانية لن تؤدي إلا إلى تعاسات طويلة.

هذه هي يا صديقتي طريقة تفكيري بشأن هذا الأمر الذي يشغل اهتمامنا. ولستُ أُدافع عنها، بل أعرضها فقط. وعليكِ وحدكِ أن تُقرّري، ولكن إذا تمسّكتِ برأيكِ، فأرجوك أن تُطلعيني على الأسباب التي هزمت أسبابي. وسأكون سعيدة لأن أستنير برأيك، لا سيما أن أطمئن على مصير ابنتكِ المحبوبة التي أتمنّى لها السعادة من كل قلبي بسبب صداقتي لها والصداقة التي تربطني بك طوال الحياة.

*باريس، في ٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الخامسة بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى سيسيل دوڤولانج

إذاً يا صغيرتي، أنت حانقة وتشعرين بالخجل! إن السيد دوڤالمون هذا رجل خبيث، أليس كذلك؟ كيف! إنه يجرؤ على معاملتك كأنك أحبّ امرأة لديه! ويعلّمك ما تتحرقين شوقاً إلى معرفته! في الحقيقة، إن هذه الطرق لا تُغتفر. وأنت من جهتك، تريدين أن تحتفظي بتعقلك لحبيبك (الذي لا يستغله). تستطيبين من الحب لواعجه لا مُتعه! ليس هناك أفضل من ذلك لكي تكوني بطلة رواية: عشق، تعاسة، وفوق كل ذلك: فضيلة، يا لها من أشياء رائعة! في الحقيقة، وسط هذا الموكب الباهر يضيق المرء ذرعاً.

فتاتي المسكينة تستحق الرثاء! كانت عيناها ذابلتين في اليوم التالي! ماذا ستقولين لو كانتا عيني حبيبك؟ هيا يا ملاكي الجميل، لن تكونا هكذا دائماً، وليس جميع الرجال مثل ڤالمون. لم تعد لديك الجرأة على رفع هاتين العينين! آه، أنت على حق، كان سيحزر جميع الناس مغامرتك. صدّقيني، لو أن الأمر صحيح، لرأيتِ نظرات سيداتنا وحتى آنساتنا أكثر تواضعاً!

على الرغم من مديحي الذي قدّمته إليك مضطرة، يجب أن أقول لك إنك كنت ستضيعين أحسن عمل في حياتك حين كنت على وشك إعلام والدتك بكل شيء. لقد بدأتِ بصورة جيدة! ارتميت بين ذراعيها، وأجهشتِ في البكاء، وهي أيضاً بكت، يا له من منظر مؤثّر! وكم هو مؤسف أنكِ لم تُكمليه! إذ إن والدتكِ الحنون كانت ستسجنك طوال حياتك وهي في أشدّ السرور كي تساعدك على

الحفاظ على فضيلتكِ، سيكون بوسعك عندئذ أن تحبي دانسيني قدر ما ترغبين، من دون مزاحمين ومن دون إثم، وستكونين حزينة على هواكِ، ولن يأتي ڤالمون بالتأكيد ليعكّر عذابك بملذّات معاكسة.

لنتكلّم بجدّية، هل يمكن لفتاة تجاوزت الخامسة عشرة أن تكون أكثر طفولة منكِ؟ أنتِ على حق حين تقولين إنكِ لا تستحقّين عاطفتي. مع ذلك، كنت أريد أن أكون صديقتكِ، ربما أنت بحاجة إلى صداقتي مقابل أمّ مثل أمّك والزوج الذي تريد أن تمنحكِ إياه! ولكن، إذا كنت لا تتعلّمين جيداً، ماذا تريدين أن يفعلوا بك؟ وماذا يمكن أن نأمل منكِ إذا كان ما يخطر على بال الفتيات، يبدو على العكس، بعيداً عنك؟

لو أنك تستطيعين أن تُمعني التفكير لحظة واحدة، فستجدين فوراً أنك يجب أن تُهنّئي نفسكِ بدلاً من أن ترثي لحالك. لكنك خجلة، وهذا ما يضايقك! حسناً، اطمئني، فالخجل الذي يسبّبه الحب هو كعذابه، لا نشعر به إلا مرة واحدة. من الممكن أن نتظاهر به فيما بعد، ولكننا لا نشعر به البتة. وخلال ذلك الوقت، تبقى المتعة، وهذا ما له قيمة. أعتقد أنني فهمت من خلال ثرثرتك القليلة أنكِ تُقدّرين جداً هذه المتعة، هيا، تحليّ بشيء من النيّة الحسنة، هل هذا «*الاضطراب*» هو الذي منعك من «*أن تفعلي كما قلْتِ*»، وجعلك تجدين «*من الصعب أن تدافعي عن نفسك*»، وحَمَلك أيضاً على أن «*تظهري كغاضبة حين انصرف ڤالمون*»، أهو الخجل أم اللذّة؟ ثم إن «*أساليبه في الكلام*» التي لا تعرفين «*كيف تردّين عليها*» أليست نابعة من أساليبه في الفعل؟ آه... أيتها الفتاة الصغيرة، أنتِ تكذبين، وتكذبين على صديقتكِ! وهذا ليس حسناً، ولكن لننسَ ذلك.

إن ما يُعتبر بنظر الناس لذّة، ولا يمكن أن يكون خلاف ذلك،

يصبح في حالتكِ سعادة حقيقية. وبالفعل فمن كان واقعاً بين أمّ تريدين أن تظلّي محبوبتها، وحبيب ترغبين في حبه دائماً، كيف لا ترين أن الطريقة الوحيدة لنيل هذه الغايات المتعارضة هي في أن تُشغلي نفسك بشخص ثالث؟ وفيما تلهين نفسك بمغامرة جديدة، تظهرين أمام أمكِ أنك تُضحّين بحب لا يعجبها بخضوعك لها، وتحصلين تجاه عاشقك على شرف دفاعك الرائع. لأنك حين تؤكدين حبك له باستمرار، لا تمنحينه سوى الأدلة الأخيرة. إن هذا الرفض الذي لا يستهان بعذابه في حالتك، لن يعزوه إلا إلى فضيلتك. وقد يشتكي من ذلك، لكنه سيزداد حباً لك. وللحصول على احترام الاثنين، بنظر الأول في تضحيتك بالحب، وبنظر الآخر في مقاومتك له، فلن يكلفك شيئًا تذوّقكِ لذائذ الحب. آه! كم من النساء أضعن سمعتهن، وكان بإمكانهن أن يحتفظن بها بعناية، لو استطعن أن يحافظن عليها بمثل هذه الوسائل!

ألا يبدو لك هذا الرأي الذي أقترحه ألطف وأكثر تعقّلاً؟ هل تعلمين ماذا ربحتِ نتيجة ما نلته؟ لقد عَزَتْ والدتك مضاعفة كآبتك إلى مضاعفة حبك بحيث ثار غضبها أكثر، ولم تعد تنتظر سوى أن تتأكّد أكثر لكي تُعاقبك. وقد كَتَبَت إليّ تخبرني بأنها ستحاول بشتى الطرق أن تحصل منك على هذا الاعتراف. سوف تقترح عليكِ، كما قالت، الزواج بدانسيني، وذلك لكي تورطك بالكلام. وإذا خدعتك بهذا الحنان، وأجبْتِ بما يُمليه عليكِ قلبك، فسوف تسجنكِ مدة طويلة، وربما إلى الأبد، وستبكين هناك على سذاجتك العمياء.

هذه الحيلة التي تريد استخدامها معك، يجب أن تُقابليها بأخرى. ابدئي إذاً بأن تظهري أقلّ كآبة، واجعليها تعتقد أنكِ لا تفكّرين كثيراً في دانسيني. ستقتنع بسهولة بأن هذا نتيجة البعاد

الطبيعية وسترضى كثيراً عنكِ بحيث تُهنّئ نفسها على احتراسها الذي جعلها تتبع هذه الطريقة. ولكن، إذا ظلّت تحتفظ ببعض الشك، واستمرّت مع ذلك في امتحانك، وجاءت تُحدّثكِ عن الزواج، فامتثلي لإرادتها تماماً كأي ابنة فاضلة. في الواقع بماذا ستجازفين؟ ما هو مزعج في الزوج أقل بكثير مما يصدر عن أمّ.

ومتى رضيتْ عنكِ ستزوّجكِ أخيراً. عندئذٍ، ستصبحين حرّة أكثر في تصرّفاتك، إذ تستطيعين حسب مشيئتك أن تتركي ڤالمون لتتّخذي دانسيني، أو تحتفظي بالاثنين معاً. يجب أن تعلمي أن دانسيني لطيف، لكنه واحد من أولئك الرجال الذين نصل إليهم متى أردنا وبقدر ما نشاء. يمكنك إذاً أن تكوني مرتاحة معه. ولكن الأمر ليس كذلك مع ڤالمون، إذ يصعب الاحتفاظ به، ومن الخطر تركه، ويلزم الكثير من البراعة معه حين لا تكون هناك طواعية كبيرة. ولكن، إذا توصّلتِ إلى جعله يتعلّق بكِ كصديق، ستنالين عندئذٍ السعادة! لأنه سيضعك حالاً في المرتبة الأولى من نسائنا البارزات. وهكذا ستحصلين على مركز في المجتمع، وليس على التورّد خجلاً والبكاء كما لو أن معلّماتك الراهبات يجعلنكِ تتناولين عشاءك ركوعاً.

ستحاولين إذاً، إذا كنتِ عاقلة، أن تتصالحي مع ڤالمون الذي لا بد أن يكون غاضباً جداً عليكِ، وبما أنك يجب أن تتعلّمي تدارك حماقاتك، فلا تخشي من أن تتقدّمي إليه ببعض العروض. تعلّمي أيضاً أنه إذا كان الرجال هم الأولون في تقديم العروض، فنحن دائماً مضطرّات لأن نكون في المرتبة الثانية. ولديك حجّة على ذلك، إذ يجب ألا تحتفظي بهذه الرسالة، لذا أطالبك بأن تُسلميها إلى ڤالمون بعد قراءتها فوراً. ولا تنسي أن تُعيدي لصقها كالسابق. أولاً سيتيح

لكِ ذلك نيل تقديره على المسعى الذي تقومين به تجاهه، بحيث يبدو صادراً عنك دون أن ينصحك به أحد. ثم ليس هناك أحد غيرك في العالم صديقة أُحدّثها كما أفعل الآن.

الوداع أيها الملاك الجميل، اتبعي نصائحي، وأعلميني ما إذا كنتِ في حالة جيدة.

ملاحظة: للمناسبة كدت أنسى... كلمة واحدة أيضاً. حاولي أن تعتني بأسلوبك أيضاً، ما زلت تكتبين مثل تلميذة. وأرى أن السبب في ذلك يعود إلى أنك تقولين كل ما تُفكّرين فيه وليس ما لا تفكّرين فيه. وهذا لا ضَير فيه إذا كان الأمر بيني وبينك، إذ لا شيء يجب أن يُخفى بيننا. ولكن مع الجميع! مع عشيقك خصوصاً! سوف تبدين دوماً كحمقاء صغيرة. فكّري أنك حين تكتبين إلى أحدهم فذلك من أجله وليس من أجلكِ. يجب أن تحاولي إذاً ألا تقولي له كل ما تفكّرين فيه، بل كل ما يعجبه.

الوداع يا حبيبة قلبي، إنني أُقبّلك بدلاً من أن أؤنّبك، على أمل أن تُصبحي أكثر تعقّلاً.

*باريس، في ٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٧***.

الرسالة السادسة بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

رائع أيها الڤيكونت! أحبّك الآن بجنون بعد رسالتك الأولى! كنت على كل حال أنتظر الثانية، لذلك فإنها لم تُدهشني مطلقاً. وفيما أنت فخور بنجاحك المقبل، تطلب المكافأة عليه وتسألني ما

إذا كنتُ «مستعدّة»، أرى أنني يجب ألا أتعجّل. نعم، بعد الشعور المشرّف لدى قراءتي وصفك الجميل لذلك المشهد العاطفي الذي «أثّر فيك كثيراً»، ورأيت تحفّظك الذي يليق بعهود الفروسيّة الجميلة، قلتُ عشرين مرة: «هذه قضيّة خاسرة!».

لكن ذلك لا يمكن أن يكون خلاف ما حصل. ماذا تريد أن تفعل امرأة مسكينة تستسلم ولا تُؤخذ؟ ينبغي على الأقلّ في مثل هذه الحالة أن تُنقذ الشرف، وهذا ما فعلته رئيستك. بالنسبة إليّ، لقد شعرت بأن الموقف الذي اتخذته لم يكن حقيقة من دون تأثير، وسوف أستغله في أول فرصة مهما كانت تافهة. ولكنني أعد بأنه إذا كان ذلك الذي أتكبّد من أجله كل هذه المشاق لا يغتنم الفرصة أحسن منك، فإنه يستطيع أن يتخلّى عني إلى الأبد.

ها قد فشلتَ فشلاً ذريعاً بين امرأتين، إحداهما عشية المغامرة، والأخرى هذا جلّ ما تتمنّاه. حسناً! قد تظن أنني أتباهى وتقول إن من السهل التنبؤ بعد الحادث، ولكن أُقسم لك أنني كنت أتوقّع ذلك. لأنك لا تملك عبقرية من هم في حالتك، ولا تعرف إلا ما تعلّمته، ولا تبتكر شيئاً. ما إن بدأت الظروف معاكسة طرائقك المعتادة وكان عليك الخروج عنها، حتى وقفتَ عاجزاً كتلميذ مدرسة. وأخيراً، هناك طيش من ناحية، ورجوع إلى الفضيلة من ناحية ثانية لم نألفهما لديك، وهما كافيان لإيقاعك في الحيرة، ولا تعرف أن تتفاداهما أو كيف تعالجهما. آه أيها الفيكونت! قد علّمتني ألا أحكم على الرجال بسبب نجاحاتهم فقط، وقريباً سيقال عنك: «لقد كان شهماً ذات يوم». وبعد أن ارتكبت حماقة فوق حماقة، أراك تلجأ إليّ! ويبدو لي أن ليس أمامي سوى إصلاحها، مع أنها ستتطلب الكثير من الجهد.

ومهما يكن من شأن هاتين المغامرتين، فإن إحداها قد جرت من دون موافقتي، لذلك لن أتدخّل فيها مطلقاً، والأخرى أتبنّاها نظراً إلى أنك بذلت في سبيلها بعض الجهد من أجلي. والرسالة المرفقة هنا، التي تستطيع أن تقرأها أولاً ثم تسلّمها إلى الصغيرة ڤولانج، هي أكثر من كافية لإعادتها إليك. ولكنني أناشدك أن تمنح هذه الطفلة بعض الاهتمام، ولنجعل منها في الوقت ذاته موضع يأس أمها وجيركور. لا تخشَ شيئاً إذا أثقلت العيار، فأنا أرى بوضوح أن الصغيرة لن تخاف من ذلك. وما إن نحقّق غايتنا منها، حتى يمكنها أن تصبح كما تشاء.

لم أعد أبالي مطلقاً بشأن هذه الفتاة، كان بودّي أن أجعل منها على الأقل جاسوسة تابعة لي وأدعها تقوم بالأدوار الثانوية عني، ولكنني لا أجد لديها المؤهلات. إنها ذات تفكير أحمق، فهي لم تستطع أن تفهم الطرائق التي استخدمتها لإيقاعها مع أنها لا تشوبها شائبة، وهذا بنظري أخطر مرض يمكن أن تُصاب به امرأة. فهي تتصف بضعف في الشخصية لا يمكن الشفاء منه ويتعارض مع كل شيء، بحيث إننا فيما نحاول تأهيل هذه الفتاة للمكائد، إذا بنا نجعل منها امرأة سهلة. وأنا لا أجد أحطّ من هذه السهولة الغبية التي تستسلم لأنها لا تعرف كيف، ولا لماذا، بل تعرف فقط أنها تُهاجم ولا تعرف المقاومة.

هذا النوع من النساء ليس سوى آلات للمتعة فقط.

ستقول لي إنه ليس علينا سوى أن نجعلها كذلك، وهذا كافٍ لمشاريعنا، (أي سعادة هذه!) فليكن! ولكن يجب ألا ننسى أن الجميع سيتوصّلون عاجلاً أم آجلاً إلى معرفة دوافع ومحرّكات هذه الآلات. لذلك، من أجل استخدام صغيرتنا هذه من دون خطر،

يجب الإسراع، والتوقّف في وقت مُبكر، ثم تحطيمها. لن تعوزنا الوسائل حتى لا نُهزم، وسوف يعمل جيركور على سجنها حين نريد. في الواقع، عندما يكفّ عن الشك في سلوكها، وحين ستصبح للعموم وذائعة الصيت، فماذا يهمّنا إذا انتقم، شرط ألا يتعزّى؟ إن ما أقوله بشأن الزوج، لا شك أنك تفكّر فيه بشأن الأم. وهذا ما ينبغي عليك أن تفعله.

لقد حملني هذا القرار الذي أراه الأفضل، وقد توقّفت عنده، على أن أُوجّه الصغيرة بصورة سريعة كما سترى في رسالتي. وهذا ما يجعل من المهم جداً ألا ندع بين يديها شيئاً مما قد يورّطني، فأرجوك انتبه جيداً. لمجرد اتخاذ هذا الاحتراس سأتكفّل بالمعنويات، أما البقية فهي شأنك. مع ذلك، إذا رأينا فيما بعد أن غباوتها قد اصطلحت، فسنكون مستعدّين دوماً لتبديل مشروعنا، ولن يطول بنا الأمر حتى ننشغل بما سنفعله، وفي كل الأحوال لن تضيع جهودنا سُدى.

هل تعلم أن جهودي أوشكت أن تضيع، وأن حظ جيركور كاد يفوز على احتراسي؟ ألم تتخاذل السيدة ڤولانج للحظة أمام ابنتها؟ كانت تريد أن تُزوّج ابنتها بدانسيني! هذا ما أظهرته عنايتها الحنون نحو ابنتها في «اليوم التالي». وقد كنتَ أنتَ السبب في هذا «العمل العظيم»! لحسن الحظ كتبَتْ الأم الحزينة إليّ تسألني، آمل ألا يعجبها جوابي. فقد تحدّثت فيه كثيراً عن الفضيلة، ومالقتها كثيراً، وأظن أنها ستراني على صواب.

إنني مستاءة لأن الوقت لم يسمح لي بنقل نسخة عن رسالتي إليها كي أُطلعك على صرامة أخلاقي. كنت ستجد كم أحتقر النساء الخليعات اللواتي يتّخذن عاشقينً! من المناسب جداً أن أكون متزمّتة

في مثل هذه الخطابات! لكن هذا لا يؤذي سوى الآخرين، ولا يضايقنا مطلقاً... ثم إنني لا أجهل أنه كانت للسيدة الطيبة بعض العلاقات العابرة كأي امرأة أخرى في صباها، ولم آسف على إهانتها، على الأقل في ضميرها. ذلك يعزّيني عن المدائح التي كنت أقدّمها لها ضد ضميري. ذلك أنني في الرسالة نفسها، جعلتني فكرة إيذاء جيركور أتحدّث عنه بالإطراء.

الوداع أيها الڤيكونت، أوافقك على قرارك البقاء بعض الوقت حيث أنت الآن. ليس لدي وسائل للتعجيل بمسعاك، ولكنني أدعوك للتخلّص من سأمك عن طريق صغيرتنا ڤولانج. أما فيما يتعلّق بي، فعلى الرغم من عباراتك المهذّبة، سترى أنه لا بد من الانتظار. وستقرّ من دون شك أن الذنب ليس ذنبي.

*باريس، في ٤ أكتوبر/تشرين الأول **١٧.*

الرسالة السابعة بعد المئة

من أزولان إلى الڤيكونت دوڤالمون

سيدي،

تبعاً لأوامرك، توجّهت فور استلام رسالتك إلى السيد بيرتران الذي سلّمني الخمس والعشرين ليرة ذهبية كما أوصيته. وقد طلبتُ منه ليرتين زيادة من أجل فيليب الذي أمرتُه كما أعلمتني بأن يذهب حالاً ولم يكن معه مال. لكن وكيل أعمالك لم يرضَ، إذ قال إنه لم يتلقّ أمراً منك. وهكذا اضطررت إلى إعطائه المبلغ مني، وسيحاسبني سيدي به إذا تكرّم.

سافر فيليب مساء أمس. وقد أوصيته بألا يفارق الحانة مطلقاً، لكي نكون متأكدين من العثور عليه حين نحتاج إليه.

ثم توجّهت حالاً إلى منزل السيدة الرئيسة لكي أقابل الآنسة جولي، لكنها كانت قد خرجت، ولم أتحدّث إلا مع لافلير الذي لم أعرف منه شيئاً، لأنه منذ وصوله إلى الفندق لم يكن في الخدمة إلا أثناء ساعات الطعام. زميله الثاني هو الذي تولّى الخدمة، وسيدي يعلم أنني لا أعرف هذا الرجل، لكنني بدأت اليوم بالتعرّف إليه.

عدتُ هذا الصباح لأرى الآنسة جولي، وقد بدَتْ مسرورة لرؤيتي. سألتها عن سبب عودة سيدتها، فأجابتني أنها لا تعلم شيئاً. أعتقد أنها قالت الحقيقة. وقد لمتها لأنها لم تُنذرني بسفرها، فأكّدتْ لي أنها لم تعلم بذلك إلا في المساء نفسه حين ذهَبَتْ لتساعد سيدتها على النوم. حتى إن المسكينة بقيت طوال الليل توضّب الأمتعة ولم تنم ساعتين. ولم تخرج ذلك المساء من غرفة سيدتها إلا بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة، وقد تركت سيدتها لتكتب رسالة.

وفي الصباح، سَلَّمَت السيدة دوتورفيل وهي راحلة رسالة إلى بواب القصر، والآنسة جولي لا تعلم لمن كانت موجّهة: تقول إنها قد تكون مُوجّهة إليك يا سيدي، لكنك لم تحدّثني عنها.

وكانت السيدة طوال الرحلة تُغطّي وجهها بوشاحها الواسع بحيث لا تمكن رؤيتها. ولكن الآنسة جولي تظنّ وهي متيقنة أنها كانت تبكي طوال الوقت، ولم تنبس ببنت شفة خلال الطريق، ولم تشأ أن تتوقّف في بلدة «. . . . .» كما فعلتْ عند مجيئها، الأمر الذي أحزن جولي التي لم تكن قدَ أفطرَتْ. ولكن كما أقول لها دائماً: السادة هم السادة.

وعند وصولهن، نامَتْ السيدة، ولكنها لم تبقَ في سريرها سوى

ساعتين. وحين نَهضتْ، استدعت بوّابها وأمرتهُ بألا يدع أحداً يدخل. ولم تتزيّن مُطلقاً. ثم جَلَسَتْ إلى مائدة الغداء، لكنها لم تتناول سوى بعض الحساء، وخرجتْ على الفور. حملوا لها قهوتها إلى غرفتها الخاصة ودخلَتْ الآنسة جولي في الوقت نفسه، فوَجَدَتْ سيدتها ترتّب أوراقاً في مكتبها، وقد لاحظت أنها رسائل. أراهن على أنها كانت رسائل سيدي. ومن بين الرسائل الثلاث التي وصلتْها بعد الظهر، تحتفظ بين يديها بواحدة كل المساء. أنا متأكد أنها رسالة أخرى من سيدي. ولكن، لماذا سافرتْ على هذا الشكل؟ هذا ما يُدهشني، ومهما يكن، فإن سيدي لا بد أنه يعرف الآن السبب وهذا ليس من شأني.

وبعد الظهر، قصدَت السيدة الرئيسة المكتبة وأخذتْ كتابين حملتهما معها إلى صالونها الخاص، لكن الآنسة جولي أكّدت لي أنها لم تقرأ فيهما أكثر من ربع ساعة طوال النهار، ولم تفعل شيئاً سوى قراءة تلك الرسالة، وكانت تسند رأسها إلى يدها وتحلم. وبما أنني تصوّرت أن سيدي سيسرّ لو عرف ما هما هذان الكتابان، والآنسة جولي لا تعرفهما، فقد قصدْتُ المكتبة بحجّة التفرّج عليها. لم يكن ينقص سوى كتابين: الأول: الجزء الثاني من كتاب «أفكار دينية»، والآخر: الجزء الأول من كتاب اسمه «كلاريس». ولعل سيدي يعرف شيئاً عنهما.

مساء أمس، لم تتناول السيدة عشاءها، لم تشرب سوى الشاي.

وهذا الصباح، نهضتْ باكراً، وطلبتْ خيولها حالاً، ثم ذهبت إلى كنيسة فويّان قبل التاسعة تنتظر القدّاس. أرادت الاعتراف، لكن الكاهن المعرّف كان غائباً ولن يعود قبل ثمانية أو عشرة أيام. ظننت من المستحسن إخبار سيدي بذلك. ثم عادت حالاً وتناولت غداءها،

ثم جلست تكتب لأكثر من ساعة تقريباً. وقد انتهزتُ الفرصة لأفعل أكثر ما يريده سيدي، فأنا الذي حملتُ الرسائل إلى البريد، ولم يكن بينها رسالة إلى السيدة دوفولانج، لكنني أرسل إليك واحدة موجّهة إلى السيد الرئيس. وقد بدا لي أنها الأكثر أهمّية، وكانت هناك رسالة إلى السيدة دوروزموند، ولكنني أعتقد أن سيدي يستطيع أن يطّلع عليها دائماً حين يريد، لهذا تركتها تذهب بالبريد. الخلاصة: سيعلم سيدي كل شيء، لأن السيدة الرئيسة كتبتْ إليه أيضاً. وسأحصل في ما بعد على الرسائل التي أريدها، لأن الآنسة جولي هي التي تُعطيها دائماً للخدم لإيصالها إلى البريد، وقد أكّدتْ لي أنها ستفعل كل ما أريد إكراماً لصداقتها نحوي ونحو سيدي.

كما أنها لم ترغب في أخذ المال الذي عرضته عليها، لكنني أعتقد أن سيدي يُحسن صُنعاً لو قدّم لها هديّة ما. وإذا شاءت رغبته أن يُكلّفني بذلك فسأعرف جيداً أية هديّة تسرّها.

آمل ألا يجد سيدي أنني أهملتُ خدمته، وبودّي لو أبرّر نفسي أمام الملامات التي وجّهها إليّ. وإذا كنتُ لم أعلم بسفر السيدة الرئيسة فذلك بسبب حماستي لخدمة سيدي، لأنه هو الذي أمرني بأن أسافر في الساعة الثالثة صباحاً، ما جعلني لا أرى الآنسة جولي عشية سفري كالعادة، ونمت في تورنبريد.

أما ما يأخذه عليّ سيدي بأنني دائماً خالي الوفاض، فذلك لأنني أحب أن أكون حسن الهندام كما يلاحظ سيدي، ولا بد من أن أظهر بمظهر مشرّف. أعلم أنه يجب أن أدّخر لأيامي القادمة، لكنني أثق كلياً بسخاء سيدي الطيب. فيما يخصّ دخولي في خدمة السيدة دوتورفيل وأنا لا أزال في خدمتك، أعتقد أن سيدي لن يفرض عليّ ذلك، لأن الأمر كان مختلفاً عند الدوقة. لكنني بالتأكيد لن أرتدي

ملابس الخدم، وفوق ذلك المئزر، بعد أن كان لي شرف خدمة سيدي بشكل خاص. في كل ما تبقّى لي الشرف في خدمته، بكل المودة والاحترام.

خادمك أزولان

*باريس، في ٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**،*

الساعة الحادية عشرة مساء.

الرسالة الثامنة بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

آه يا أمي الرؤوف! كم أنا ممتنة لك، وكم كنت بحاجة إلى رسالتك! لقد قرأتها وأعدتُ قراءتها مراراً، ولم أستطع الابتعاد عنها. أنا مدينة لها باللحظات الأقل تعاسة التي أمضيتها منذ سفري. كم أنتِ طيّبة! الحكمة والفضيلة تعرفان إذاً كيف ترأفان بالتخاذل، أنت تُشفقين على آلامي! آه، لو كنت تعرفين هذه الآلام! إنها فظيعة. كنت أظنّ أنني أُعاني عذاب الحب، لكن العذاب الذي لا يمكن التعبير عنه، ذلك الذي يجب أن يشعر به المرء لكي يكوّن فكرة عنه، هو البعاد عمّن يحب... البعاد إلى الأبد!... أجل، إن العذاب الذي يُضنيني اليوم سيُعاودني غداً، وبعد غد، وكل حياتي! يا إلهي! أنا ما زلت صغيرة السن، كم سيبقى لديّ من العذاب!

حين يكون الإنسان صانع شقائه، يمزّق قلبه بيديه، وفيما يُعاني هذه الآلام التي لا تُحتمل، يشعر بأنه يستطيع أن يوقفها بكلمة واحدة، وإن هذه الكلمة جريمة! آه يا صديقتي...

حين اتخذتُ هذا القرار المؤلم بالابتعاد عنه، كنت آمل أن يزيد البعاد شجاعتي وقواي. كم كنت مخطئة! يبدو لي على العكس أن هذا البعاد قد أكمل تحطيمها، لم أعد أقوى على النضال. نعم، حين كنت أقاوم، لم أكن أشعر بالحرمان، كنت أراه على الأقل في بعض الأحيان، لا بل غالباً، دون أن أجرؤ على رفع نظري إليه، بينما كنت أشعر بأنظاره تحدّق فيّ. أجل يا صديقتي، كنت أشعر بها، وكانت تُدفئ روحي، وحتى دون أن تعبر بصري، كانت تصل إلى قلبي مباشرة. أما الآن، في وحدتي القاسية، فأنا معزولة عن كل ما هو عزيز عليّ، وجهاً لوجه أمام حظّي التعيس. إن جميع لحظات حياتي حزينة تغسلها الدموع ولا شيء يُخفّف مرارتها، وما من عزاء. وتضحياتي التي بذلتها حتى الآن لم تنفع إلا في جعلي أكثر تعاسة.

أمس أيضاً، شعرت بذلك. من بين الرسائل التي تسلّمتها كانت هناك رسالة منه. كانت على بعد خطوتين مني حين عرفت رسالته بين الأخريات. نهضتُ لاإرادياً أرتجف، وصعب عليّ إخفاء انفعالي، لكن ذلك لم يخلُ من المتعة. توقفت وحدي للحظة قصيرة فإذا بهذه العذوبة الخادعة تتلاشى ولم تترك لي إلا تضحية جديدة. هل يمكنني أن أفتح هذه الرسالة التي كنت أتحرّق شوقاً لقراءتها؟ ولكن سوء الحظ يلاحقني، وكل ما يمكن أن يواسيني يفرض عليّ على العكس حرماناً جديداً، ويغدو هذا الحرمان أشد قساوة حين أفكر أن السيد دوڤالمون يشاطرني إياه.

هذا هو أخيراً الاسم الذي يشغلني باستمرار وقد تعذبت كثيراً كي أكتبه. أي ملامة توجّهينها إليّ ترعبني حقيقة. وأرجوكِ أن تصدّقي أن أي خجل زائف لن يؤثّر في ثقتي بكِ البتة. ثم لماذا أخاف ذكر اسمه؟ إنني أخجل من عواطفي، وليس من الشخص الذي

يُسبّبها. أي إنسان غيره جدير بأن يوحيها! مع ذلك، لا أعرف لماذا لا يحضر اسمه بصورة طبيعية تحت قلمي. وهذه المرّة أيضاً، كنت بحاجة إلى التفكير لكي أكتبه.

لقد أخبرْتِني أنه بدا متأثّرا جداً بسفري. ماذا فعل إذاً؟ ماذا قال؟ هل تحدّث عن عودته إلى باريس؟ أرجوك أن تحوّليه عن هذه الفكرة بقدر ما تستطيعين! وإذا كان قد حكم على موقفي حكماً حسناً، فعليه ألا يحقد عليّ لهذا التصرف، ولكن عليه أن يشعر أن قراري هذا قد اتخذته من دون تراجع. وأن أكبر همومي هو ألا أعرف رأيه. إن رسالته ما زالت أمامي... ولكن أنت بالتأكيد من رأيي، ينبغي ألا أفتحها.

بواسطتك فقط، يا سيدتي الكريمة، أستطيع ألا أكون بعيدة عنه تماماً. لا أريد أن أستغلّ طيبتك، إذ أشعر بأن رسائلك لا يمكن أن تكون طويلة، ولكنك لن ترفضي كتابة كلمتين إلى ابنتك، كلمة تدعمين بها شجاعتها، وأخرى لمواساتها. الوداع يا صديقتي المحترمة.

*باريس، في ٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة التاسعة بعد المئة

من سيسيل دوڤولانج إلى الماركيزة دوميرتويّ

سيدتي، اليوم فقط استطعت تسليم السيد دوڤالمون رسالتك التي شرّفتني بكتابتها إليّ. وقد احتفظت بها أربعة أيام، رغم الفزع الذي شعرت به غالباً من أن يُعثرَ عليها، لكنني كنت أُخفيها بعناية

فائقة... وحين كان الحزن يستولي عليّ، كنت أقفل على نفسي وأعيد قراءتها.

أرى جيداً أن ما كنت أظنه مصيبة كبرى ليس فيه شيء من ذلك تقريباً. ويجب الاعتراف بأنه لا يخلو من متعة، بحيث أنني لم أعد أُعذّب نفسي تقريباً. ليس هناك سوى فكرة دانسيني، وحدها تقلقني في بعض الأحيان. ولكن ثمة أوقات طويلة لا أشغل تفكيري بها على الإطلاق! كما أن السيد دوڤالمون لطيف للغاية!

تصالحتُ معه منذ يومين وكان ذلك سهلاً جداً، لأنني ما إن قلتُ له كلمتين فقط حتى قال لي: إذا كان لديكِ ما تقولينه سأحضر هذا المساء إلى غرفتكِ. فقلت له: إنني أرغب في ذلك، وحين جاء بدا أنه لم يكن غاضباً، كما لو كنت لم أفعل شيئاً معه. ولم يؤنّبني إلا فيما بعد، وأكثر من ذلك، بنعومة، وبطريقة...! كما لو كنتِ أنتِ بالذات، وهذا ما يبرهن لي على أنه يكنّ لي هو الآخر صداقة طيّبة.

لا أعرف كيف أخبرك كم روى لي من القصص الظريفة والتي لم أكن أتصوّرها أبداً، وخصوصاً عن أمي. وسأكون مسرورة جداً لو أخبرتني ما إذا كان كل ذلك صحيحاً. ولكن ما هو مؤكّد أنني لم أستطع أن أتمالك نفسي إلى درجة أنني في إحدى المرات انفجرت ضاحكة ما جعلنا نرتعب خشية أن تكون والدتي قد سمعتنا لو جاءت لترى كيف أصبحت؟ لعلها كانت ستضعني في الدير على الفور!

وبما أنه يجب الاحتراس، وكما قال لي السيد دوڤالمون إنه لا يريد أن يضعني في مأزق مهما كلّف الأمر، فقد اتفقنا من الآن فصاعداً على أن يأتي فقط ويفتح الباب، ثم نذهب إلى غرفته وليس

ما نخشاه هناك. وقد ذهبت إليه أمس. وبينما أكتب إليكِ الآن، أنتظر مجيئه. وآمل ألا تؤنّبيني بعد الآن.

غير أن هناك شيئاً أدهشني في رسالتك يا سيدتي، وهو ما أخبرتني إياه بشأن دانسيني والسيد دوڤالمون حين سأتزوّج. ولكن، يبدو أنك قلت لي عكس ذلك ذات يوم في دار الأوبرا، إنني متى تزوجت لا أستطيع أن أحب إلا زوجي، لا بل عليّ أن أنسى دانسيني. مهما يكن، ربما فهمت خطأ. وأنا أفضّل أن يكون الأمر خلاف ذلك لأنني في الوقت الحاضر لم أعد أخشى كالسابق لحظة زواجي، بل أتمنّاها أكثر لأنني سأتمتّع بمزيد من الحرية، وآمل عندئذٍ أن أتدبّر الأمر بطريقة لا أفكّر معها إلا في دانسيني. أشعر بأنني لن أكون سعيدة بالفعل إلا معه. إن التفكير فيه يقلقني دائماً ولا أشعر بالسعادة إلا حين لا أفكّر فيه، وهذا صعب جداً، بمجرد التفكير به أغتمّ على الفور.

إن ما يُعزّيني قليلاً هو تأكيدكِ لي بأن دانسيني سيحبّني أكثر، ولكن هل أنت واثقة من ذلك؟ آه... أجل أنت لا تريدين خداعي! مع ذلك، ما يسعدني هو حب دانسيني، أما أن يكون دوڤالمون... ولكن كما تقولين لعلّ ذلك هو سعادة، وأخيراً... سنرى.

لم أفهم جيداً إلى ماذا تلمّحين بخصوص طريقتي في الكتابة. يبدو لي أن دانسيني يجد رسائلي ممتازة كما هي، مع ذلك، أحسّ تماماً أنه يجب ألا أقول له شيئاً عمّا يجري مع السيد دوڤالمون، وهكذا لا تخشي شيئاً.

لم تحدّثني والدتي حتى الآن عن زواجي، ولكن ليتها تفعل، إذ حين ستحدّثني بالأمر لكي توقعني، فسأعرف كيف أكذب.

الوداع يا صديقتي الطيبة، أشكرك كثيراً. وأعدك بأنني لن أنسى

أبداً جميع أفضالك عليّ. يجب أن أختم هذه الرسالة لأن الساعة الآن تقارب الواحدة. كما أن السيد دوڤالمون لن يتأخّر عن المجيء.

*من قصر. . . في ١٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة العاشرة بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

«*يا قوى السماء، لقد كان عندي روح لتحمّل العذاب، فامنحيني روحاً لتحمّل الغبطة!*. [بيت من رواية إيلوييز الجديدة لجان جاك روسّو]. أعتقد أن القديس برو الحنون هو الذي قال هذه العبارة، لكنني أكثر حيرة منه، لأنني أملك في آن واحد الروحين معاً. أجل يا صديقتي، فأنا سعيد جداً، وتعيس جداً في الوقت نفسه. وبما أنني أثقّ بك ثقة تامة، فأنا أدين لك بقصتي المزدوجة عن عذابي ومسرّتي.

اعلمي إذاً أن ورِعتي الجاحدة ما زالت تعاملني بصرامة. وأحمل بين يديّ رابع رسالة مرفوضة. قد أكون مخطئاً إذ أقول الرابعة، لأنني بعد أن عرفت منذ الرفض الأول أن الأمر سيتوالى، دون أن أُضيّع وقتي، قررت أن أكتب لواعجي عموماً ودون أن أؤرّخ رسائلي. ومنذ المرة الثانية، الرسالة نفسها تذهب وتجيء، أبدّل المغلّف فحسب. إذا ما انتهى المطاف بجميلتي، كما ينتهي عادة بالجميلات، ورقّ قلبها يوماً، من التعب على الأقل، ستحتفظ بالرسالة، وسيحين الوقت لكي أعلم بذلك. وهكذا، تجدين أنني بهذا النوع من المراسلة لا أستطيع أبداً أن أعرف أكثر من ذلك.

اكتشفتُ مع ذلك أن المرأة الخفيفة قد استبدلت أمينة سرّها. فأنا شبه متأكّد أنها لم تبعث بأي رسالة إلى السيدة دوڤولانج منذ سفرها من القصر، بينما وصلتْ منها اثنتان إلى العجوز دوروزموند. وبما أن هذه لم تذكرهما ولم تنبس ببنت شفة عن *حسنائها* العزيزة التي كانت تتحدّث عنها في السابق باستمرار، فقد استنتجْتُ أنها أصبحَتْ موضع أسرارها. وأفترض أن حاجة الرئيسة للتحدّث عني من جهة، والحياء من أن تتراجع تجاه السيدة دوڤولانج عن عواطفها التي استنكرتها طويلاً من جهة أخرى، كانا السبب في هذا الانقلاب الكبير. أخشى أن أكون قد خسرت بالمقابل، لأن النساء كلما تقدّمن في السن أصبحن شرسات وصارمات. لا بد أن الأولى قد حدثتها كثيراً بالسوء عني، بينما ستحدثها الأخرى بكثير من الحب، وعندئذ ستخاف الورعة الحساسة من العاطفة أكثر مما تخاف من الشخص.

والطريقة الوحيدة للانتقال إلى العمل هي كما ترين أن أقطع الطريق على هذه التجارة السرّية. لذلك بعثتُ أوامري إلى خادمي وأنتظر تنفيذها من يوم إلى آخر. وحتى الآن لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى بالمصادفة. وهكذا، منذ ثمانية أيام وأنا أراجع عبثاً الوسائل المعروفة، وسائل الروايات وذكرياتي السرية، ولم أجد بينها واحدة مناسبة لظروف هذه المغامرة، أو لشخصية هذه البطلة. ليست الصعوبة في أن أدخل عليها، حتى في الليل، أو أن أعمل على تنويمها، وأجعل منها «كلاريس»، ولكن بعد مضي شهرين من الاهتمام والجهد، هل ألجأ إلى هذه الوسائل الغريبة عنّي! وأحذو بدناءة حذو الآخرين وأنتصر دون مجد!... كلا لن تحصل على «*متع الرذيلة وعلى شرف الفضيلة*» [عبارة من مسرحية إيلوييز الجديدة]. لن أكتفي بأن أمتلكها، أريدها أن تستسلم. ومن أجل

ذلك، ليس الدخول إلى بيتها ما يجب فعله، بل التوصّل إلى هذه الغاية بموافقتها، وأجدها وحيدة وكلها رغبة في أن تُصغي إليّ، وبصورة خاصة أن أُغمض عينيها عن الخطر، لأنها إذا رأته، فستعرف كيف تتغلّب عليه أو تموت. ولكنني كلما عرفت ما يجب أن أعمل شعرت بالصعوبة أكثر، ولا شك أنكِ ستسخرين مني أيضاً، ولكنني أعترف لك أن حيرتي تتضاعف مع اهتمامي الزائد بالأمر.

أعتقد أنني كنت سأجنّ لولا ساعات المرح التي تمنحها لي «حضينتنا المشتركة»، وأنا مدين لها لأنني ما زلت قادراً على فعل شيء آخر غير الحسرات.

هل تُصدّقين أن هذه الفتاة الصغيرة كانت مُرتعبة جداً إلى درجة أنها ظلّت ثلاثة أيام قبل أن تُؤثّر رسالتك فيها؟ ها أنت ترين يا صديقتي كيف يمكن لفكرة مزيفة واحدة أن تُفسد أكثر الناس طيبة!

وأخيراً، جاءت إليّ نهار السبت تحوم حولي وتغمغم بضع كلمات، لفظتْها بصوت منخفض خنقه الحياء، وكان من المستحيل سماعها، ولكن التورّد الذي اعتراها بسبب هذه الكلمات جعلني أفهم ما تريد قوله. وكنت حتى ذلك الحين قد احتفظتُ بمظهر العجرفة، ولكنني انثنيت إزاء ندمها ووعدت بأن أذهب في المساء لرؤية المذنبة الحسناء. وقد قُوبل هذا العفو من جانبي، بكثير من الامتنان العائد إلى إحسانها الكبير.

وبما أن مشاريعك ومشاريعي لا تغيب عن بالي أبداً، فقد قررت أن أنتهز الفرصة لكي أعرف تماماً قيمة هذه الطفلة وأُسرع في تربيتها. ولكي أتابع هذا العمل بحريّة أكثر، كنت بحاجة إلى تغيير مكان لقائنا، لأن ما يفصل غرفة حضينتك عن غرفة أمها حيّز صغير لا يمكن أن يوحي إليها بالاطمئنان الكافي لكي تنطلق على سجيّتها.

وكان أن صمّمتُ على أن أُثير بصورة بريئة بعض الضجّة التي يمكن أن تُسبّب لها الخوف، لحملها على أن تتخّذ في المستقبل ملجأ أكثر أماناً، وقد وفّرت عليّ أيضاً هذا المجهود.

ذلك أن هذه الطفلة ضحوك للغاية، ولكي أُشجّع مرحها رأيتُ أن أروي لها خلال فترات استراحتنا جميع المغامرات الفاضحة التي مرّت برأسي، ولكي أجعلها أشدّ وقعاً وأثير انتباهها أكثر، كنت أنسبها جميعها إلى والدتها التي كنت أتفنّن بإلصاق جميع الرذائل والقصص المضحكة بها.

ولم ألجأ إلى هذا الخيار من دون غاية، فهو يشجّع تلميذتي الخجول أفضل من أي وسيلة أخرى، ويوحي إليها في الوقت نفسه بالاحتقار الأشدّ نحو أمها. وقد لاحظتُ منذ مدّة طويلة أنه إذا لم تكن هذه الوسيلة ضرورية لإغواء فتاة، فلا بد منها وهي الأكثر فاعلية لإفسادها. ذلك لأن من لا تحترم أمها لن تحترم نفسها: وهذه حقيقة أخلاقية أعتقد أنني سعيد بتقديم نموذج عنها.

وفي الأثناء كانت حضينتك التي لا تفكّر في الأخلاق، تختنق من الضحك عند كل لحظة. وأخيراً، انفجرت في إحدى المرّات ضاحكة بقوّة. ولم أحتج إلى كبير عناء لكي أجعلها تعتقد أنها قامت بضجّة رهيبة وأظهرتُ خوفاً كبيراً ما لبثْ أن شاطرتني إياه بسهولة. ولكي تتذكّر هذه الحادثة جيداً، لم أسمح لها باستئناف المتعة بل تركتها ثلاث ساعات تنتظر أكثر من المعتاد. ولذلك، اتفقنا قبل أن نفترق على أن تكون اجتماعاتنا ابتداء من اليوم التالي في غرفتي.

وقد استقبلتها هناك حتى الآن مرتين، وخلال هذه الفترة القصيرة أصبحتْ التلميذة عالمة مثل معلّم. أجل، لقد علّمتها كل شيء في الحقيقة حتى فن الملاطفات، ولم أستثنِ سوى الاحتياطات.

وهكذا، بسبب انشغالي طوال الليل، أستعيد نشاطي بالنوم قسماً كبيراً من النهار. وبما أن مجتمع القصر حالياً ليس فيه ما يجذبني، فأنا بالكاد أظهر ساعة واحدة في الصالون خلال النهار. لا بل قرّرت منذ اليوم أن آكل في غرفتي، ولا أنوي مغادرتها إلا للقيام بنزهات قصيرة. هذه الأمور الغريبة تجري على حساب صحّتي، ولذلك أعلنْتُ أنني أشعر برشح قوي وحرارة خفيفة، وليس عليّ سوى التكلّم بصوت خفيض ومخنوق.

أما في أوقات فراغي فأنا منشغل في التفكير في الوسائل التي أستعيد بها موقعي أمام جاحدتي، وبتأليف نوع من التعليم المختص بالفسق من أجل تلميذتي، إذ أتسلّى بتسمية الأشياء أمامها بأسمائها الفنيّة. إني أضحك منذ الآن من الحديث الممتع الذي سيدور بينها وبين جيركور في ليلة زواجهما الأولى. وليس هناك أمتع من سذاجتها حين تستخدم القليل الذي تعرفه من هذه اللغة! وهي لا تتصوّر أن من الممكن التحدّث خلاف ذلك! إن هذه الطفلة جذّابة حقّاً، وهذا التناقض بين سذاجتها البريئة وبين اللغة الجريئة التي تستخدمها لا يخلو من أثر ظاهر، لا أعرف ماذا حلّ بي! لم تعد تُبهجني سوى الأشياء الغريبة.

ربما أعكف كثيراً على الاهتمام بالصغيرة، لأنني أجازف معها بصحّتي ووقتي، ولكن آمل أن ينقذني مرضي الزائف من ضجر الصالون، وأستفيد منه تجاه الورعة المتزمّتة التي تنسجم فضيلتها مع حساسيتها الرقيقة! لا شك أنها علمت شيئاً عن هذا الحدَثْ الكبير، وكم أنا بشوق لأعرف في ماذا تفكّر، وكذلك أراهن بأنها ستنسب إلى نفسها شرف هذا المرض. وهكذا، سأغيّر حالتي الصحيّة وفق الانطباع الذي ستتركه عندها.

ها أنتِ يا صديقتي الحسناء قد اطّلعت على شؤوني مثلي. وآمل أن تكون لدي أخبار أهم أطلعك عليها. وأرجوكِ أن تُصدّقي، أنني - للحصول على المتعة التي أعد نفسي بها- أعتمد كثيراً على المكافأة التي أنتظرها منكِ.

*من قصر... في ١١ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الحادية عشرة بعد المئة

من الكونت دوجيركور إلى السيّدة دوفُولانج

سيدتي، كل شيء هنا يبدو هادئاً، ونحن ننتظر من يوم لآخر الإذن بالعودة إلى فرنسا، وآمل ألا يراودك شك في أنني ما زلت أستعجل العودة لكي أوثّق الروابط التي ستجمعني بكِ وبالآنسة دوفُولانج. وفي الأثناء، فإن ابن عمّي الدوق دو... الذي تعرفين كم أنا مدين له بالاحترام، قد استدعاني لزيارته في نابولي ويُعلمني أنه ينوي المرور بروما، ويشاهد في طريقه الجزء الذي لا يعرفه بعد من إيطاليا. وهو يدعوني لمرافقته في هذه الرحلة التي ستستغرق حوالى ستة أسابيع أو شهرين. ولا أُخفي عليكِ أنني مسرور جداً لانتهاز هذه الفرصة، لشعوري بأنني متى تزوّجت لن أستطيع التغيب عن وظيفتي إلا بصعوبة. ولعله أيضاً سيكون من الأنسب أن ننتظر الشتاء للاحتفال بهذا الزواج لأن أقربائي لن يستطيعوا الاجتماع في باريس إلا في هذه الفترة، وبصورة خاصة الماركيز دو... الذي آمل أن أُعرّفك إليه. على الرغم من هذه الاعتبارات، إلا أن مشاريعي تتوقّف على مشاريعك بالتأكيد من هذه الناحية. ومتى وضعتِ

ترتيباتك فإنني مستعدّ للتخلّي عن مشاريعي، ولكن أرجوكِ فقط أن تُطلعيني في أقرب فرصة ممكنة على نواياكِ في هذا الأمر. سأنتظر جوابك هنا، وعليه فقط يتوقّف قراري.

سيدتي، بكل احترام، والعواطف التي تليق بابن... إلخ.

الكونت دوجيركور

*باستيا، في ١٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الثانية عشرة بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى الرئيسة توروڤيل

عزيزتي الحسناء، تلقيت للتوّ رسالتك المؤرّخة في ١١ من الشهر الجاري (لم يُعثر على هذه الرسالة)، وما تضمّنته من معاتبات رقيقة. اعترفي بأنك كنت ترغبين في تقديم المزيد، وأنك لو لم تتذكّري أنك «ابنتي» لكنت أنّبتني بشكل فعلي. ومع ذلك ستكونين ظالمة حقاً! إن رغبَتي في أن أتمكّن من الكتابة إليك بنفسي هي التي جعلتني أؤجّل الكتابة يوماً بعد آخر. وترين أنني حتى اليوم مضطرّة إلى الاستعانة بيد خادمتي. ذلك أن داء المفاصل اللعين قد عاودني، وعشّش هذه المرة في ذراعي اليمنى، وأنا الآن مشلولة اليد تقريباً. هذه هي نتيجة اتخاذك صديقة عجوزاً، أنت الفتية النضرة! تعانين بسبب عوارضها الصحية.

حالما تتخلّى عني آلامي قليلاً، أعدك بأن أتحدث طويلاً إليك. وبالانتظار، اعلمي فقط أنني تلقّيت رسالتيك اللتين ضاعفتا من صداقتي المخلصة نحوك. ولن أكفّ عن متابعة كل ما يخصّك بحماسة.

ابن أخي متوعّك الصحة أيضاً، ولكن لا خطر على صحته ولا شيء يدعو إلى القلق، بل هو عارض خفيف أصاب مزاجه وليس صحّته. ونحن لم نعد نراه إلا قليلاً.

إن رحيلك واعتكافه أزالا جو المرح الذي كان مسيطراً على شلتنا الصغيرة. والصغيرة ڤولانج بصورة خاصة تفتقدك، وتتثاءب طول النهار حتى تكاد تبتلع قبضتها، وخصوصاً منذ بضعة أيام، فهي تنام بعد ظهر كل يوم.

الوداع يا حسنائي العزيزة، سأظلّ دوماً صديقتك المخلصة وأمك وشقيقتك، إذا سمح لي عمري الكبير بهذه الصفة. وأخيراً سأظل متعلّقة بك بأرقّ المشاعر.

*من قصر... في ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الثالثة عشرة بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

أعتقد أن من الواجب أن أُنذرك، أيها الڤيكونت بأن الناس أخذوا يتساءلون عنك في باريس، ولاحظوا غيابك وبدأوا يحزرون السبب. كنت في الأمس مدعوة إلى عشاء حضره الكثيرون، وقد تحدثوا عنك بشكل إيجابي وقالوا إن ما يشدّك إلى القرية حب عاطفي تعيس. وقد بان الابتهاج على الفور على وجوه الحاسدين لنجاحاتك، وجميع النساء اللواتي أهملتهن. وإذا أردت نصيحتي: لا تترك هذه الإشاعات الخطيرة تكبر، وتعال حالاً لكي تحطّمها بحضورك.

فكّر في أنك لو تركت الناس ينسون أنك لا تُقاوم، فستشعر

قريباً بأن الكثيرات سيقاومنك فعلاً بكل سهولة، وأن خصومك سيفقدون احترامهم لك، ويجرؤون على منافستك. ألا يظن كل واحد منهم أنه أقوى من الفضيلة؟ فكّر بشكل خاص أنه من بين جميع النساء اللواتي أعلنت انتصارك عليهن، ستحاول أولئك اللواتي لم تحصل عليهن أن يخدعن الناس، بينما ستحاول الأخريات أن يستغللنه. وأخيراً، يجب أن تتوقّع أن يُقدّرك الناس ربما أقل من قيمتك، في حين كنت لا مُنافس لك حتى الآن.

عُد أيها الڤيكونت إذاً، ولا تُضحّي بسمعتك في سبيل نزوة عابرة. لقد فعلتَ كل ما نريده من الصغيرة ڤولانج. وبالنسبة إلى رئيستك، حين تبعد عنها عشرة فراسخ، لن تتخلّى عن موقفها الخيالي. هل تظنّ أنها ستذهب للبحث عنك؟ لعلها لا تُفكّر فيك أبداً، وإذا فعلت فذلك كي تُهنئ نفسها على إذلالك. ستستطيع هنا، على الأقل، أن تجد مناسبة ما كي تتألق بين الناس، وأعتقد أنك بحاجة إلى ذلك. أما إذا كنت تتمسّك بمغامرتك السخيفة فإنني لا أرى في عودتك ما يضرّ. . . بل على العكس.

وإذا كانت رئيستك «تعبدك» بالفعل كما أكّدت لي مراراً، ولم تبرهن على ذلك إلا قليلاً، فإن تعزيتها وسرورها الوحيدين، هما التحدّث عنك، وتعلم ماذا تفعل، وماذا تقول، وفي ماذا تفكّر، وحتى أقلّ الأشياء التي تهمّك. إن هذه الأشياء التافهة لها قيمة كبرى، بالنظر إلى الحرمان الذي تشعر به. إنها فُتات الخبز الذي يسقط من مائدة الغني الذي يهمله، بينما الفقير يجمعه بنهم ويتغذّى به. لكن رئيستك الفقيرة تتلقّى الآن هذا الفُتات، وكلما زاد لديها، خفّ تعجّلها وشهيتها للبقية.

وفضلاً عن ذلك، بما أنك تعرف موضع أسرارها، أفلا تشكّ

في أن كل رسالة منها تتضمّن على الأقل عِظة صغيرة وكل ما تظنه ضرورياً *لتعزيز تعقّلها وتدعيم فضيلتها*؟ فلماذا إذاً تدع ذرائع، للأولى كي تدافع عن نفسها، وللأخرى كي تؤذيك؟

هذا لا يعني أنني لست من رأيك بخصوص الخسارة التي تعتقد أنك تكبّدتها عندما غيّرت ورعتك أمينة سرّها. أولاً، إن السيدة ڤولانج تكرهك، والكراهية أكثر حذاقة وبراعة من الحب. ثم إن فضيلة عمتك العجوز كلّها لن تحملها على النمّ بكلمة واحدة عن ابن أخيها الغالي، ذلك لأن للفضيلة نقاط ضعف أيضاً. ثانياً، لأن مخاوفك تستند إلى ملاحظة خاطئة حتماً.

ليس صحيحاً أن النساء متى يتقدمن في السن يصبحن خشنات صارمات. إنما، ما بين الأربعين والخمسين، يصيبهنّ اليأس من رؤية وجوههن تذبل، والغضب من الشعور بأنهن مجبرات على التخلي عن طموحات ومُتع ما زلن متعلقات بها، ما يجعل كل النساء تقريباً متزمّتات، مشاكسات بطباعهنّ. لذلك، يلزمهن كل هذه الفترة الطويلة لتقديم هذه التضحية الكبرى بكاملها، ولكن ما إن تمضي حتى يصبحن جميعاً في فئتَين:

الفئة الأولى، وتضمّ الغالبية، ليس لديهن سوى وجوههن وشبابهن، يقعن في خمول حسّ غبيّ ولا يخرجن منه إلا في سبيل بعض المرح أو لممارسة بعض التعبّد. هذه الفئة مُضجرة دائماً، وتؤنّب غالباً، وفي بعض الأحيان ينكّدن العيش، ولكن نادراً ما يكنّ خبيثات. ليس بوسعي القول إنهن صارمات أو لا، فهنّ يردّدن من دون وعي أو فهم ما يسمعنه بلامبالاة ويبقين نكرات.

الفئة الثانية، نادرة جداً لكنها ثمينة فعلاً، وهي أولئك النساء اللواتي لديهن شخصية ولم يهملن تغذية عقولهن، يعرفن كيف يبتدعن

لأنفسهن حياة حين تعوزهن الحياة الطبيعية، ويقررن أن يضعن في أذهانهن الزينة اللازمة قبل أن يضعنها على وجوهن. أولئك النساء يتمتعن عادة بالحسّ السليم والذهن الواثق والمرح الظريف. يستبدلن الفتنة المغرية بالطيبة الجذابة وكذلك بالمرح الذي يزداد سحره مع التقدّم في العمر، هكذا ينجحن في التقرّب من الشباب بجعلهم يحبونهنّ. ولكن بعيداً عن أن يكنّ خشنات صارمات، كما تقول، فإن اعتيادهن التسامح، وتفكيرهن الطويل في الضعف البشري، ولا سيما ذكريات شبابهن التي بسببها فقط يتعلقن بالحياة، كل ذلك يجعلهن قريبات جداً من البساطة واليُسر.

أستطيع أن أقول لك أخيراً: بما أنني كنت أبحث عن النساء المتقدمات في السن، فقد عرفت من بعضهن التأييد بقدر ما عرفت من الفائدة. وبما أنك في هذه الأيام تشتعل بسرعة ولا سيما أخلاقياً، فأنا أخشى أن تغدو فجأة عاشقاً لعمتك العجوز، وتُدفن معها في القبر نفسه حيث تعيش منذ فترة طويلة.

على الرغم من الجذَل الذي تبديه نحو تلميذتك الصغيرة، لا أستطيع أن أُصدّق أنها يمكن أن تدخل ضمن مشاريعك. لقد وجدتَها بمتناول يدك فأخذتها: فليكن! ولكن لا يمكن لذلك أن يكون ميلك. كما أنها ليست متعة كاملة، فأنت في الحقيقة لا تملك سوى جسدها! ولا أريد أن أتحدّث عن قلبها الذي لا أشك أنك لم تهتم به البتة، ولكنك لا تشغل تفكيرها أيضاً. ولا أدري ما إذا كنت قد لاحظت ذلك، ولكن لديّ الدليل في رسالتها الأخيرة التي كتبَتْها إليّ، وها أنا أُرسلها إليك لكي تحكم بنفسك. لاحظ أنها حين تتحدّث عنك تقول: السيد دوفالمون، بينما تتجّه أفكارها، حتى التي تبعثها أنت في رأسها، نحو دانسيني الذي لا تدعوه السيد، دائماً دانسيني فحسب.

ومن هنا، أرى أنها تميّزه عن سائر الخلْق. حتى حين تستسلم إليك، فإنها لا ترفع الكلفة إلا معه. وإذا بدت لك مثل هذه الغزوة جذّابة، وجعلتْكَ المتع التي تمنحك إياها تتعلّق بها، فإنك حقيقة متواضع جداً ولست صعباً! أما أن تحتفظ بها فأنا موافقة، لا بل يدخل ذلك ضمن خططي، ولكن يبدو لي أن ذلك لا يستحق أن تزعج نفسك به لأكثر من ربع ساعة، ويجب أن تفرض شيئاً من سلطانك عليها، ولا تسمح لها مثلاً بأن تقترب من دانسيني إلا بعد أن تجعلها تنساه قليلاً.

وقبل أن أتوقّف عن الاهتمام بأمورك كي أتحدّث عن نفسي، أودّ أن أقول إن حجّة المرض التي أعلنت عنها ليست جديدة، بل هي معروفة جيداً وقد استخدمها الكثيرون قبلك. وفي الحقيقة يا ڤيكونت، أنت لست مبتكراً! أنا أكرّر نفسي أحياناً، لكنني أحاول تفادي ذلك بالتفاصيل، لا سيما أن النجاح يبرّر سلوكي. وهكذا، سأحاول تحقيق نجاح آخر وأجازف بمغامرة جديدة. وأعترف بأنها لن تتميّز بالصعوبة، بل ستكون على الأقل تسلية جديدة، لأنني أموت من الضجر.

لا أدري لماذا أصبح بيلروش منذ مغامرة بريڤان لا يُطاق. فلقد زاد اهتمامه وحنانه وتبجيله نحوي إلى درجة لم أعد أحتملها. وقد بدا لي غضبه في البداية ممتعاً، إذ كان لا بد من تهدئته وإلا كان ورّطني لو تركته على سجيته، ولم تكن هناك وسيلة لإعادته إلى صوابه. فقرّرت أن أُظهر له المزيد من الحب، لكي أصل إلى الهدف بسهولة، لكنه أخذ الأمر على محمل الجدّ، ومنذ ذلك الحين وهو يُزعجني بجذله الدائم. وألاحظ بصورة خاصة الثقة المهينة التي يأخذها عني، والاطمئنان الذي ينظر به إليّ كما لو كنت ملكه إلى الأبد. كم أشعر بالإهانة! لا شك أنه يستخفّ بي حين يظن أنني ثابتة

على حبه! ألم يقل لي مؤخراً إنني لن أحب أحداً مثله؟ آه! من أجل ذلك، كنت بحاجة إلى كل حيطتي كي لا أخدعه على الفور وأقول له ما قيمته بالنسبة إليّ. إنه رجل ظريف كي يكون له امتياز خاص! وأعترف أنه حسن التكوين وذو وجه جميل، ولكن إذا حكمت عليه كلياً، فهو ليس سوى مناورة حب. لقد آن الأوان لكي نفترق.

وهكذا، بدأتُ منذ خمسة عشر يوماً، مستخدمة على التوالي: البرودة والنزق والغضب والمشاجرات، ولكن الرجل العنيد لا يريد أن يرخي قبضته عنّي، وكان لا بد من اتخاذ قرار أشد عنفاً. بالنتيجة، سأصحبه معي إلى الريف. سنذهب بعد غد ولن يكون معنا سوى بضعة أشخاص غير مهمّين ولا مهتمين، وستكون لدينا هناك حرية كما لو كنا وحدنا. وهناك سأثقل عليه بالحب والمداعبات، ويعيش واحدنا للآخر، بحيث أراهن أنه سيرغب أكثر مني في إنهاء هذه الرحلة التي يبدو الآن سعيداً جداً بها. وإذا لم يعد منها أشد سأماً مني فسأعترف عندئذٍ بأنني لست أبرع منك.

إن حجّتي في هذا النوع من الاعتكاف هي رغبتي في الاهتمام بصورة جدية بالدعوى في قضيتي الكبرى التي سيصدر الحكم فيها أخيراً في بداية الشتاء. إنني مسرورة جداً، تصوّر كم هو مزعج أن تضيع كل ثروتي هباء. وليس لأنني قلقة من هذا الحدث: فأنا أولاً على حق، ويؤكّد لي ذلك جميع محاميّ. وإذا لم أكسبها! فمعنى ذلك أنني خرقاء تماماً، لأن خصومي قاصرون بعمر صغير، ووصيّهم عجوز! وبما أنه يجب عدم إهمال أي شيء في دعوى بمثل هذه الأهمية، فسيكون معي محاميّان. ألا تبدو لك هذه الرحلة ممتعة؟ مع ذلك، لو جعلتْني هذه الرحلة أكسب دعواي وأخسر بيلروش، فلن أتحسّر على وقتي سُدى.

والآن أيها الڤيكونت، احزر في الوقت الحاضر من التالي، أراهن عليه بمئة... ولكن حسناً! بما أنك لن تحزر أبداً، إليك اسمه: إنه دانسيني! أنت مُندهش أليس كذلك؟ لم تصل بي الحال إلى درجة تربية الأولاد! ولكن هذا يستحق بأن يكون استثناء، فهو لا يملك سوى نِعم الشباب وليس طيشه. كما أن تحفّظه الكبير في المجتمع ملائم جداً لإبعاد جميع الشبهات، ويجده الجميع لطيفاً عندما ينفرد في حديث خاص مع أحدهم. ولا يعني ذلك أنني حصلتُ منه على شيء، إذ ما زلت موضع أسراره. ولكن تحت ستار هذه الصداقة، أعتقد أنني أرى أنه يميل جداً إليّ، وأنا كذلك. وسيكون من المؤسف حقاً أن يُضحّي بجميع مواهبه وذكائه من أجل هذه الغبية الصغيرة ڤولانج! وآمل أن ينخدع باعتقاده أنه يحبها، فهي أبعد ما تكون عن استحقاق حبه! ليس لأنني أغار منها، بل سيكون الأمر انتحاراً، وأريد أن أُنقذ دانسيني. أرجوك إذاً أيها الڤيكونت، أن تبذل جهودك كيلا يتمكن من مقاربة «سيسيلتي» كما يُحبّ أن يدعوها. ذلك أن للحب الأول دائماً سلطاناً أقوى مما يُظَن، ولن أكون واثقة الآن من شيء إذا رآها مجدداً، لا سيما أثناء غيابي. ولدى عودتي، سأتولّى الأمر بنفسي، أؤكد لك ذلك.

فكّرت في اصطحاب هذا الفتى معي، ولكنني وجدت أنني سأضحّي من أجله باحتراسي العادي. ثم إنني أخشى أن يلاحظ شيئاً بيني وبين بيلروش، سأقع في اليأس إذا ما ساورته أقل فكرة عما يجري. أود فقط أن أكون في ذهنه طاهرة لا عيب فيها كما يجب، كي أكون جديرة به.

*باريس، في ١٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الرابعة عشرة بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

صديقتي العزيزة، أنا مستسلمة للقلق والحيرة، ولم أتمكّن من منع نفسي من سؤالك حتى دون أن أعلم ما إذا كنتِ في حالة تسمح لكِ بالردّ. تقولين إن صحة السيد دوڤالمون: «ليست خطيرة»، وهذا لا يطمئنني البتة. ليس من النادر أن تكون الكآبة والاشمئزاز من الناس عوارض تسبق بعض الأمراض الخطيرة، لأن آلام الجسم كآلام الروح تحمل المرء على الرغبة في العزلة، وغالباً ما يُلام الشخص على مزاجه بدلاً من أن يُرثى لحاله.

أرى أن عليه الخضوع لاستشارة طبية على الأقل. كيف لا يوجد إلى جانبك طبيب وأنتِ نفسكِ مريضة؟ من رأي طبيبي الذي رأيته هذا الصباح واستشرته بصورة غير مباشرة كما لا أُخفي عليكِ، أن هذا الخمول المفاجئ بالنسبة إلى الأشخاص الذين هم عادة نشيطون لا يجوز إهماله، وقال لي أيضاً إن العلاج لن ينفع إذا لم يؤخذ في الوقت المناسب. لماذا إذاً تجازفين بشخص عزيز جداً عليكِ؟

إن ما يُزيد قلقي هو أنني منذ أربعة أيام لم أتلقَّ منه أية أخبار. يا إلهي! هل تخدعينني بشأن حالته؟ لماذا توقّف عن الكتابة إليّ فجأة؟ وإذا كان السبب في ذلك ناتجاً عن إصراري على إعادة رسائله، فأعتقد أنه كان بإمكانه أن يتّخذ هذا القرار من قبل. وأخيراً، مع أنني لا أُؤمن بالتطيّر فإنني أشعر منذ بضعة أيام بكآبة تُخيفني. آه! لعلي أصبحت على عتبة أعظم مصائبي!

لا يمكنك أن تتصوّري، وأخجل أن أقول لكِ ذلك، كم آلمني

عدم وصول رسائله التي كنت أرفض قراءتها. كنتُ على الأقل متأكّدة من أنه مُهتمّ بي! وأرى وصول شيء منه. لم أكن أفتح هذه الرسائل، لكنني كنت أبكي وأنا أنظر إليها. كانت دموعي أرقّ وأسهل، وهذه وحدها كانت تُبدد عني شيئاً من العذاب الذي أُعانيه منذ عودتي. أستحلفكِ يا صديقتي السموحة أن تكتبي إليّ بنفسكِ حالما تستطيعين. وبالانتظار تكرّمي بإطلاعي كل يوم على أخبارك وأخباره.

ألاحظ أنني لم أقل سوى كلمة واحدة تخصّكِ، ولكنك تعرفين عواطفي وتعلّقي بكِ من دون تحفّظ، واعترافي بجميل صداقتكِ الحساسة، وسوف تسامحينني على هذا القلق الفظيع الذي أعيش فيه، وعلى آلامي المميتة. هل أكون أنا السبب في آلامه كلّها؟ يا إلهي! إن هذه الفكرة اليائسة تلاحقني وتمزّق قلبي. تنقصني هذه المصيبة، وأشعر بأنني وُلدتُ للعذاب فقط.

الوداع يا صديقتي العزيزة، أحبّيني، وارثي لحالي، هل ستصلني رسالة منكِ اليوم؟

*باريس، في ١٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٧***.*

الرسالة الخامسة عشرة بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

إنه حقاً أمر غير مفهوم يا صديقتي الحسناء، كلما زاد البعاد بيننا، صعب علينا أن نتفاهم. حين كنت بقربك كان شعورنا واحداً، وطريقة تفكيرنا واحدة، وبعد مضيّ ثلاثة أشهر دون أن أراكِ فيها، لم نعد نتّفق على رأي واحد. من منّا على خطأ؟ بالطبع، أنتِ لا تتردّدين

في الجواب، أما أنا الأكثر تعقّلاً، والأكثر تهذيباً، لن أقول. سوف أردّ على رسالتك فحسب، وأتابع شرح موقفي.

أشكرك أولاً على الرأي الذي قدّمته المتعلّق بالإشاعات حولي، ولكنني لا أقلق بشأنها، لأنني أظن نفسي واثقاً بقدرتي على كل ما يوقف هذه الإشاعات قريباً. اطمئنّي، لن أظهر في المجتمع من جديد إلا وأنا أكثر شهرة مما كنت عليه حتى الآن، وأكثر جدارة بكِ.

أرجو أن يحسب الناس حساباً ولو ضئيلاً لمغامرتي مع الصغيرة دوڤولانج التي تبدين كأنك تقلّلين جداً من شأنها، كما لو كانت لا شيء بنظرك. وكأن لا أهمية لاختطاف فتاة في ليلة واحدة من عشيقها المحبوب، واستخدامها على الأثر كما أشاء، وبصورة مطلقة كما لو كانت ملكي من دون أي حرج، وأن أحصل منها على ما لا يجرؤ أحد على طلبه من جميع الفتيات اللواتي يمتهنّ هذه المهنة، ودون أن أحوّلها أبداً عن حبها الرقيق أو أزعزع عهدها، ولا أجعل منها خائنة، لأنني بالفعل لا أشغل عقلها! بحيث إنني متى انتهيت من نزوتي، سأعيدها إلى أحضان عشيقها، إذا صحّ القول، دون أن تلاحظ شيئاً. أجل، هل يمكن اعتبار ذلك سلوكاً عادياً؟ ثم، صدّقيني، متى خرَجَتْ من بين يديّ، فإن المبادئ التي لقّنتُها إياها لن تتوقف عن النمو، وأتكهّن بأن التلميذة الخجول ستنطلق على نحو يُشرّف مُعلّمها.

أما إذا كان الناس يُفضّلون النوع البطولي من المغامرات، فسأدلّهم على الرئيسة، هذا النموذج الذي يجمع الفضائل كلّها، ويحترمها حتى أكثر الناس فسقاً إلى درجة أنهم تخلّوا عن فكرة مهاجمتها! أقول سأدلّ عليها، بعد أن نسيتْ واجباتها وفضيلتها، وضحّت بسمعتها وبعامَين من التعقّل، لتركض وراء سعادة إرضائي،

وتنتشي بسعادة أن تحبّني، وترى نفسها قد عوّضت جميع تضحياتها بكلمة واحدة ونظرة واحدة مني، ولن تنالها دائماً. وسأفعل أكثر من ذلك، سأتركها بعد أن أتأكّد من أن لا أحد سيأتي من بعدي. ستقاوم المواساة عند الحاجة، والتعوّد على المتعة، وحتى الرغبة في الانتقام. وأخيراً، لن تعيش إلا من أجلي، وإن طال حبها أو قصر، فأنا من سيفتح بابه أو يقفله. ما إن أحقق هذا الانتصار، حتى أقول لخصومي: «انظروا ما صنعته يداي، وابحثوا في طول القرن وعرضه على أمثولة ثانية!».

ستسألينني من أين أتاني كل هذا الإفراط في الثقة؟ ذلك لأنني منذ ثمانية أيام اطّلعت على أسرار حسنائي. وهي لا تقول لي أسرارها، لكنها تصلني. رسالتان فقط منها إلى السيدة دوروزموند كانتا كافيتين لأطّلع على كل شيء، ولم أقرأ بعدها الرسائل الباقية إلا من قبيل الفضول. لم أعد بحاجة إلا إلى الاقتراب منها لكي أنجح. فقد عثرت على وسائلي، وسوف أضعها قريباً موضع التنفيذ.

هل أعتقد أنكِ فضولية؟... لكن لا، كي أعاقبك على عدم الإيمان بابتكاراتي، سأحرمك من معرفتها. أنتِ تستحقّين أن أسحب ثقتي منكِ جدّياً، على الأقل في ما يتعلّق بهذه المغامرة. وبالفعل، لولا الثمن العذب الذي علّقتِهِ على نجاحها، لما كنت حدّثتكِ عنها مطلقاً. أنتِ ترين أنني غاضب، ومع ذلك، بما أنني آمل أن تتداركي موقفك فإنني أتمسّك بهذه العقوبة الخفيفة، وأعود إلى تسامحي، فأنسى مشاريعي الكُبرى، لكي أُفكّر في مشاريعك.

ها أنتِ إذاً في الريف ضجرة مثل الحب وكئيبة مثل الوفاء! وبيلروش المسكين هذا، لا تكتفين بتجريعه ماء النسيان بل تُغرقينه بالحيرة. كيف يجد نفسه؟ هل يتحمّل غثيان الحب؟ كم أتمنّى أن

يتعلّق بك أكثر، ويقتلني الفضول لأعرف أي دواء فعّال ستستخدمينه عندئذ. في الحقيقة إنني أرثي لحالك بسبب اضطرارك إلى اللجوء إلى هذه الطريقة، وأنا في حياتي كلها لم أمارس الحب بصورة قهرية إلا مرّة واحدة. وكان لديّ دافع قوي بالتأكيد، مع الكونتيسة دو. . . فقد حاولتُ عشرين مرّة وأنا بين ذراعيها أن أقول لها: «سيدتي، إنني أتخلّى عن المكان الذي أطلبه، واسمحي لي أن أُغادر ذاك الذي أحتلّه». وهي الوحيدة من بين جميع النساء اللواتي حصلت عليهن التي يسرّني حقيقة أن أذكرها بالسوء.

أما دافعك فإنني أجده في الحقيقة سخيفاً جداً، ولديكِ الحق بالاعتقاد أنني لن أحزر الخَلَف. ماذا! من أجل دانسيني تبذلين كل هذا العناء؟ آه يا صديقتي العزيزة، دعيه يعبد سيسيلته *الفاضلة*، ولا تورّطي نفسك في لعب الأطفال هذه، دعي التلاميذ يتمرّنون أولاً مع «الخادمات»، أو يلعبون مع التلميذات الداخليات *«اللعب الصغيرة البريئة»*. بِمَ يُفيدك أن تهتمي بفتى مبتدئ لا يعرف كيف ينالك ولا كيف يتركك، ولا بد لك أن تفعلي معه كل شيء؟! أقول لك بجدّ، أنا لا أوافق على هذا الاختيار، ومهما حافظ على كتمان السر، فإنه سيذلّك على الأقل بنظري وفي ضميرك.

تقولين إنك تشعرين بميل قوي نحوه. أنتِ تخدعين نفسكِ بالتأكيد، وأعتقد أنني اكتشفتُ سبب خطئكِ. فقد اعتراكِ هذا الاشمئزاز القوي من بيلروش في فترة قحط، ولم تُقدّم لك باريس الخيارات، وهكذا وقَعَتْ أفكارك الحماسية دوماً على أول شخص صادفْتِهِ. ولكن فكّري في أنك لدى عودتك تستطيعين أن تختاري من بين ألف شاب. وأخيراً، إذا كنتِ تخشين الملل، فإنني أعرض نفسي كي أُسلّي أوقات فراغك.

من الآن وحتى عودتك، ستكون مشاغلي قد انتهت بطريقة أو بأخرى، ومن المؤكّد عندئذٍ أن لا الصغيرة ڤولانج، ولا الرئيسة ستشغلانني عنكِ كي أكون لك بقدر ما ترغبين. وحتى ذلك الحين، أكون قد سلّمت الصغيرة إلى يديّ عشيقها الرصين. وأنا لا أتّفق معكِ حين تقولين إنها ليست متعة جذّابة، ولكن بما أنني نويت أن أجعلها تحتفظ مني بذكرى تفوّقي على الرجال الآخرين طوال حياتها، فقد اتّبعت معها وسيلة لا أستطيع أن أحتملها طويلاً دون أن أؤذي صحّتي. ولم أعد مرتبطاً معها منذ الآن إلا بما يفرضه الاهتمام بالشؤون العائلية.

ألا تفهمينني؟ إنني أنتظر فترة أخرى لكي أتأكّد وأطمئن إلى نجاح خططي. أجل يا صديقتي الحسناء، لديّ الآن أول دليل على أن عريس تلميذتي لن يجازف بالموت من دون سلالة، وإن كبير أسرة دوجيركور لن يكون في المستقبل سوى رجل ثانويّ بالنسبة إلى أسرة دوڤالمون. ولكن، دعيني أختم على طريقتي هذه المغامرة التي لم أقدم عليها إلا بناء على رجائك. وفكّري في أنكِ إذا جعلت دانسيني مُتقلّباً في هواه، فإنكِ تنزعين بذلك كل المتعة في هذه القصة. وأخيراً، أعتقد أن لي الأفضلية في بعض الحقوق.

إنني أعوّل على ذلك، ولا أخشى معارضة آرائك حين أساهم بنفسي في زيادة حدّة غرام العاشق الخجول نحو الشخص الأول الجدير باختياره. لهذا، حين رأيتُ حضيتتك أمس مُنهمكة في الكتابة إليه، وصرفتها عن هذا الانهماك العذب بآخر أكثر عذوبة، طلبت إليها أن أطّلع على رسالتها، وبما أنني وجدتها باردة ومتكلّفة، جعلتها تشعر بأنها تخطئ بمواساة الحبيب، وأقنعتها بكتابة رسالة أخرى من إملائي. حاولتُ قدر استطاعتي أن أُقلّد أسلوبها الغثّ،

وغذّيت غرام الشاب بأمل كبير. كانت الصغيرة جذلى جداً، كما قالت لي، لأنها تقول له ذلك. وستكون المراسلات من الآن فصاعداً بينهما مهمّتي. وأي شيء لم أفعله من أجل دانسيني هذا؟ لقد كنت في آن واحد صديقه، وموضع أسراره، وغريمه، ومع عشيقته! والآن أيضاً، أخدمه بإنقاذه من قيودك الخطرة. أجل الخطرة، لأن امتلاكك ثم فقدانك معناه شراء السعادة لفترة مقابل حسرات أبدية.

الوداع يا صديقتي الحسناء، تشجّعي على التخلّص من بيلروش في أقرب وقت ممكن، ودعي دانسيني. واستعدّي لاسترجاع ألذّ مِتَع علاقتنا الأولى.

ملاحظة: أُهنئك سلفاً بالحكم المُقبل على دعواكِ الكبرى. سأكون مسروراً إذا جاء هذا الحدث السعيد على عهدي.

*من قصر... في ١٩ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة السادسة عشرة بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى سيسيل دوڤولانج

لقد سافرَتْ السيدة دوميرتويّ هذا الصباح إلى الريف. وهكذا يا سيسيلتي الفاتنة أجد نفسي محروماً من المتعة الوحيدة التي بقيت لي في غيابك، وهي متعة التحدّث عنك مع صديقتك وصديقتي في آن واحد، إذ سمَحَتْ لي منذ فترة قصيرة بأن أمنحها هذه الصفة، وقد اغتنمت هذه الفرصة بكثير من الحماسة لكي أزداد قُرباً منكِ كما بدا لي. يا إلهي! هذه المرأة لطيفة جداً! وأي روعة تضفيها على

الصداقة! يبدو أن هذه العاطفة العذبة لديها تقوى وتزداد جمالاً مكان الحب الذي ترفضه. لو تعلمين كم تحبك، وكم تسعد لسماعي أحدّثها عنكِ!.. وهذا من دون شك ما يجعلني أتعلّق بها. يا لها من سعادة أن يتسنّى لي العيش من أجلكما فحسب، وأن أنتقل باستمرار من عذوبة الحب إلى متعة الصداقة، وأُكرّس كل حياتي في سبيل ذلك، وأن أكون نوعاً ما نقطة التقاء لتعلّقكما المتبادل، وأن أشعر دائماً أنني باهتمامي بسعادة إحداكما أعمل أيضاً على إرضاء الأخرى! أحبّي، أحبّي كثيراً يا صديقتي الفاتنة هذه المرأة الرائعة، وامنحي هذا التعلّق بها قيمة أكبر وشاطريني إياه. منذ أن تذوّقتُ روعة الصداقة، تمنّيت أن تشعري بها أنت بدورك. إن المباهج التي لا أتمتّع بها معكِ تبدو لي كأني أتمتّع بنصفها فقط. أجل يا سيسيلتي، أودّ لو أُحيط قلبك بجميع المشاعر الأكثر عذوبة، وأن تجعلك كل نبضة من نبضاته تشعرين بإحساس من السعادة. وأعتقد أنني لن أستطيع أبداً أن أردّ إليك سوى جزء من الغبطة التي أنالها منك.

لماذا يجب أن تكون هذه المشاريع الرائعة وهماً في خيالي، ولا يقدّم لي الواقع على العكس سوى حرمان مؤلم لا ينتهي؟ الأمل الذي بعثْتِهِ في نفسي في أن أُقابلك في الريف، أرى أنه يجدر بي التخلّي عنه! ولا تعزية لي سوى إقناع نفسي بأن ذلك مستحيل عليك. أنت تهملين أن تقولي لي ولا تُشاركينني العذاب! وقد مضت مرّتان دون أن أتلقى رداً منك. آه سيسيل! يا سيسيل! أؤمن بأنكِ تُحبّينني بكل طاقات روحك، لكنها ليست مُشتاقة كروحي! هل ينبغي عليّ وحدي أن أُزيل العقبات؟ ولماذا لا تكون مصالحي هي التي يجب أن أُداريها بدلاً من مصالحك؟ سأعرف قريباً كيف أُثبت لكِ أنه لا شيء مستحيل على الحب.

أنت لا تُخبرينني أيضاً متى ينتهي هذا الغياب القاسي. على الأقل، هنا، يمكن أن أراكِ. وستُحيي نظراتك الفاتنة روحي الذابلة، وتعابيرها المؤثّرة ستطمْئِن فؤادي الذي يحتاج إليها أحياناً. عفواً يا سيسيل، إن هذا الخوف ليس تشكّكاً، وأنا أُؤمن بحبك وبثباتك على العهد. آه! سأكون تعيساً جداً لو ساورني الشك، ولكن هناك عقبات كثيرة، وهي تتجدّد باستمرار! آه يا صديقتي، أنا حزين، حزين جداً. ويبدو أن سفر السيدة دوميرتويّ قد جدّد في نفسي الشعور بجميع أحزاني.

الوداع، يا سيسيلتي، الوداع يا حبيبتي، فكّري في أن حبيبك يتعذّب، وأنتِ وحدكِ تستطيعين أن تُعيدي إليه السعادة.

*باريس، في ١٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة السابعة عشرة بعد المئة

من سيسيل دوڤولانج إلى الفارس دانسيني

(بإملاء من ڤالمون)

هل تعتقد يا صديقي الحبيب أنني بحاجة إلى التأنيب لأكون حزينة حين أعلم أنك تتعذّب؟ وهل تشكّ في أنني لا أعاني مثلك جميع آلامك؟ لا أُقاسمك تلك التي أسبّبها لك عمداً فحسب، بل لديّ ما يزيد حين أراك لا تُنصفني. آه! هذا ليس حسناً. أرى تماماً ما الذي يُثير استياءك. فأنا لم أجبكَ في المرّتين الأخيرتين اللتين طلبتَ إليّ فيهما أن تحضر إلى هنا. ولكن، هل من السهل إرسال هذه الرسالة؟ هل تظن أنني لا أعلم بأن ما تُريده هو إثم؟ ومع ذلك،

إذا كنت أعاني الكثير في أن أرفضك عن بُعد، فكيف ستكون الحال لو كنتَ هنا؟ ثم لو شئتُ أن أرضيك لحظة ما، فسأظل معذّبة طول حياتي.

اسمع، أنا لا أُخفي عنك شيئاً، وإليك أعذاري، تستطيع أن تحكم عليها بنفسك. ربما كنت لأفعل ما تريده، لو لم أُخبرك بأن هذا السيد دوجيركور الذي يُسبّب لنا كل حزننا لن يحضر قريباً. وأمي أيضاً تُعاملني منذ فترة بعطف كبير، وأنا بدوري أداريها قدر الإمكان، إذ من يعلم ماذا يمكن أن أنال منها؟ وإذا استطعنا أن نكون سعيدين دون أن يكون هناك ما ألوم نفسي عليه، أفلا يكون ذلك أفضل؟ وإذا صدّقتُ ما يقال لي غالباً: إن الرجال أنفسهم يحبون نساءهم أقل بعد الزواج وبعد حب كبير قبله. إن هذا الهاجس يخيفني غالباً أكثر من أي شيء آخر. ألست واثقاً يا صديقي بقلبي؟ ألن يكون لدينا دائماً وقت للحب؟

اسمع، أعدكِ بأنني إذا لم أتمكّن من تجنّب مصيبة الزواج من السيد دوجيركور الذي أكرهه سلفاً قبل أن أعرفه، لا شيء سيمنعني من أن أكون لك بقدر ما أستطيع، لا بل وقبل كل شيء. وبما إنني لا أقلق من أن أكون حبيبتك، فإذا ما ارتكبت خطأً، فالذنب ليس ذنبي، والبقية لا تهمني، أرجو أن تعدني بأنك ستحبّني دوماً كما تحبني الآن. ولكن، حتى ذلك الحين، دعني يا صديقي أستمرّ في ما أفعله، ولا تطلب مني شيئاً لدي أسباب وجيهة لكي لا أفعله، ومع ذلك يُحزنني أن أرفضه لك.

كما أودّ ألّا يكون السيد دوڤالمون أكثر تعجّلاً من أجلك، لأن ذلك سيزيد في تعاستي وحسب. آه، إنه صديق وفيّ للغاية، أؤكّد لك ذلك! وهو يفعل كل شيء كما لو كنت تفعله بنفسك! ولكن

الوداع يا صديقي العزيز، لقد بدأت الكتابة إليك في ساعة متأخّرة، وأمضيت في كتابتها جزءاً من الليل، وأريد أن أنام لأعوّض الوقت المهدور. أُقبّلك، ولكن إياك أن تؤنّبني بعد الآن.

*من قصر. . . في ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الثامنة عشرة بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى الماركيزة دوميرتويّ

إذا صدّقتُ الأيام، فإنه لم يمضِ، يا صديقتي المعبودة، سوى يومين فقط على غيابك، ولكن إذا صدّقتُ قلبي، فقد مضى على غيابك قرنان. وهذا ما تعلمته منك: على المرء أن يصدّق قلبه. لقد آن الأوان إذاً كي تعودي، لا بدّ أن جميع أعمالك قد انتهت. كيف تريدين مني أن أهتم بدعواك، سواء خسرتِ أم ربحتِ إذا كان عليّ أن أدفع الثمن من مشقّات السأم في غيابك؟ آه، كم أرغب في الشجار! وكم هو محزن أن يغضب المرء في سبيل أمر كهذا ولا يكون له الحق في إظهار غضبه!

أليست هذه خيانة حقيقية، لا بل خيانة بغيضة، أن تتركي صديقك بعيداً عنكِ، بعد أن عوّدْتِهِ على عدم الاستغناء عن وجودك؟ بإمكانك أن تستشيري محاميك، ولن يجدوا أي مبرر لهذه الخيانة الظالمة. ثم إن هؤلاء القوم لا يتكلمون إلا بالعقل. والعقل وحده لا يكفي للحكم على المشاعر.

لقد قلتِ لي مراراً إنك تقومين بهذه الرحلة بدافع العقل، هذا العقل الذي تخاصمت معه ولم أعد أريد البتة الإصغاء إليه حتى ولو

أملى عليّ وجوب نسيانك. مع ذلك إن هذا التفكير متعقّل، ولن يكون في الحقيقة من الصعب عليك تصديقه. يكفي فقط أن أُقلع عن عادة التفكير فيك دائماً حتى أنسى كل ما يذكّرني بك هنا.

إن أجمل النساء، حتى أولئك اللواتي يُقال عنهن رائعات الحسن، ما زلن بعيدات جداً عن مضاهاتك، ولا يمثّلن سوى نموذج تافه عنك. وأعتقد أيضاً، حسب خبرتي في النظر، أنه كلما خيّل لنا أنهن يشبهنك، زاد اختلافهن عنك كلّ الاختلاف. ومهما يبذلن من الجهد والمعرفة، فإن شيئاً ما ينقصهن دائماً ليُصبحن مثلك، وهنا تكمن الروعة. لسوء الحظ حين يصيبني السأم في نهاراتي الطويلة، أبدأ أحلم وأبني قصوراً من الرمال، وأخلق أوهامي، ولا يلبث الخيال أن ينشط ويصنع نموذجاً يجمع كل ما هو حَسَن، حتى يتوصّل أخيراً إلى درجة الكمال. وعندئذ، تنطبق الصورة على النموذج، فأقف مشدوهاً، لأنني لم أكن أفكّر في الواقع إلا فيكِ.

ما زلت حتى الآن ضحية خطأ مماثل. لعلّك تظنّين أنني أخذت أكتب إليك لكي أهتمّ بك؟ كلا على الإطلاق، بل لكي أروّح عن نفسي. كان لديّ أشياء كثيرة لأقولها لك لم تكوني أنتِ موضوعها، وهي مهمّة جداً كما تعلمين وكانت تُلهيني. ومنذ متى تلهينا روعة الصداقة إذاً عن روعة الحب؟ آه! لو أنني أنظر إلى الأمر عن كثب، لعلّني ألوم نفسي قليلاً. ولكن كفى! ولننسَ هذه الهفوة الصغيرة التي تجهلها صديقتي نفسها، خشية أن أقع بها من جديد.

ألستِ هنا لكي تُجيبيني وتُعيديني إذا ضللتُ إلى سواء السبيل، ولكي تُحدّثيني عن سيسيلتي فتزيدي، إذا أمكن، السعادة التي أتذوّقها في حبها، عن طريق الفكرة العذبة على قلبي بأن صديقتك هي التي أحبها؟ أجل، أنا أعترف بأن الحب الذي توحينه إليّ أصبح

ثميناً جداً أيضاً، منذ أن تفضّلتِ وأصبحتِ موضع أسراري. كم أحب أن أفتح لك قلبي وأشغل قلبك بعواطفي، وأضعها فيه بلا قيد أو شرط! ويبدو لي أنني أقدّرها أكثر كلما تنازلتِ وتلقيتها، ثم أنظر إليكِ وأقول: إن كل سعادتي تسكن فيها.

ليس عندي ما أخبركِ به عن وضعي. الرسالة الأخيرة التي تلقّيتها منها تزيد وتؤكّد أملي، ولكنها تؤخّره أيضاً. ومع ذلك، فإن حججها رقيقة جداً وشريفة بحيث لا أستطيع إيلامها والشكوى منها. ربما لن تفهمي تماماً ما سأقوله لك هنا: ولكن، لماذا لستِ هنا؟ على الرغم من أن المرء يقول كل شيء لصديقته، إلا أنه لا يجرؤ على أن يكتب ما يقول. إن أسرار الحب بصورة خاصة دقيقة جداً ولا يمكن تركها تنطلق على هواها، وإذا سمحنا لأنفسنا أحياناً بإخراجها، فيجب ألا نُبعدها عن أنظارنا، ولا بد من رؤيتها تدخل إلى ملجئها الجديد. آه. عودي، عودي إذاً يا صديقتي الرائعة. ها أنت ترين كم هي عودتكِ ضرورية. أخيراً، انسي الدوافع الكثيرة التي تُبقيك حيث أنتِ، أو علّميني أن أعيش حيث لستِ موجودة.

لي الشرف إلخ. . . .

*باريس، في ١٩ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة التاسعة عشرة بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى الرئيسة دوتورفيل

على الرغم من أنني ما زلتُ أتألّم جداً يا حسنائي العزيزة، إلا أنني أُحاول أن أكتب إليك بنفسي، لكي أستطيع أن أتحدّث إليك

عما يهمّك. لا يزال ابن أخي مُعتكفاً كارهاً الاختلاط، ولا يستطلع أخباري كل يوم. ولم يأتِ مرة واحدة للاستطلاع بنفسه، مع أنني رجوته ذلك. لا أراه الآن أكثر مما لو كان في باريس. غير أنني قابلته هذا الصباح في مكان لم أتوقعه أبداً. كان ذلك في كنيستي التي نزلت إليها لأول مرة بعد هذا العارض المؤلم. وقد علمتُ اليوم أنه ينزل إليها منذ أربعة أيام لحضور القدّاس، إن شاء الله يستمر في ذلك!

وحين دخلْتُ تقدّم نحوي وهنّأني بعطف على تحسّن حالتي الصحّية، وبما أن القدّاس كان قد بدأ، فقد اختصرتُ حديثي معه على نية استئنافه فيما بعد، ولكنه اختفى قبل أن أتمكّن من موافاته. لا أُخفي عليكِ أنني وجدْتهُ قد تغيّر قليلاً، ولكن يا حسنائي العزيزة، لا تجعليني أندم على ثقتي بتعقّلكِ إزاء هموم شديدة، وكوني واثقة بصورة خاصة أنني أفضّل أن أُحزنكِ على أن أخدعكِ.

إذا استمرّ ابن أخي في تحاشي رؤيتي، فسأتّخذ قراراً حالما تتحسّن صحّتي وأذهب لرؤيته في غرفته. سأحاول أن أستطلع سبب هذا التصرف الغريب الذي أظنّ أنكِ سببه نوعاً ما. وسأخبرك بما أكون قد علمته. أتركك الآن، وأنا لا أقوى على تحريك أصابعي. ثم إذا عَرفت أدِلايد أنني كتبْتُ إليك، فسوف تؤنبني طوال السهرة، الوداع يا حسنائي العزيزة.

*من قصر... في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة العشرون بعد المئة

من الفيكونت دوفالمون إلى الأب أنسيلم

لم يحصل لي الشرف يا سيدي بأن أكون معروفاً لديك: ولكنني أعرف أنك موضع ثقة السيدة الرئيسة دوتورفيل التامة، كما أعرف كم أنت جدير بالثقة. ولهذا، أظن أنني أستطيع من دون تطفّل أن أتوجّه إليك للحصول على خدمة في غاية الأهمية، وهي جديرة حقيقة بمهمّتك المقدّسة، حيث إن مصلحة السيدة دوتورفيل مرتبطة بمصلحتي.

بين يديّ أوراق مهمّة تتعلّق بها، ولا يمكن تسليمها إلى أحد، وأنا لا أريد ولا ينبغي عليّ أن أُسلّمها إلا إليها. كما أنني لا أملك أي وسيلة لإبلاغها ذلك، لأن أسباباً لعلّك عرفتها منها -ولا أظن أنه يحقّ لي أن أعلمك بها- جعلتها تقرّر رفض أي مراسلة معي. وهو قرار أعترف طوعاً اليوم أنني لا ألومها عليه، لأنها لم تكن تستطيع أن تتنبأ بالأحداث التي كنت أنا نفسي لا أتوقّعها، والتي لم يكن ليقوى عليها إلا من هو أقوى من البشر، ونحن مضطرّون للتسليم بها.

أرجوك إذاً، يا سيدي، أن تتفضّل بإبلاغها مقرّراتي الجديدة، وبأن تطلب إليها تحديد موعد لمقابلتي بصورة خاصة، حيث أستطيع على الأقل أن أُصلح جزءاً من أخطائي بتقديم الاعتذار، وكتضحية أخيرة، أتلف أمام عينيها الآثار الوحيدة الباقية عن خطأ جعلني مذنباً تجاهها.

إنني لا أجرؤ، إلا بعد هذا التكفير التمهيدي، على أن أقدّم عند

أقدامك اعترافي الذليل عن ضلالي الطويل، وأتوسّل إلى وساطتك من أجل مصالحة أكثر أهمية أيضاً، لكنها أشدّ صعوبة. هل بوسعي أن آمل يا سيدي في ألا ترفض لي هذه الجهود الضرورية والثمينة جداً؟ وفي أن تتنازل لدعم تخاذلي وتوجيه خطاي نحو سبيل جديد، أرغب في المضيّ فيه بكل بحماسة، وأعترف بخجل أنني لا أعرفه بعد؟

أنتظر جوابك بنفاد صبر التائب الراغب في تدارك أخطائه، وأرجو أن تصدّقني بكل العرفان والتقدير.

خادمك المتواضع إلخ. . .

ملاحظة: إنني أسمح لك يا سيدي -لو رأيت من المناسب- بإطلاع هذه الرسالة بكاملها على السيدة دوتورڤيل التي سأقدم لها واجب الاحترام كل الحياة. ولن أكفّ أبداً عن تشريف تلك التي شاءت السماء أن تجعلها تقود روحي إلى الفضيلة، برؤية فضيلتها المؤثّرة.

*من قصر. . . في ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الحادية والعشرون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الفارس دانسيني

تلقّيت رسالتك يا صديقي الصغير. ولكن قبل أن أشكرك، لا بد من أن أؤنّبك وأُنذرك أنك إذا لم تُصلح نفسك، فإنك لن تحصل مني على جواب أبداً. دعكَ إذاً من لهجة الملاطفة هذه التي لا تعدو أن تكون أكثر من هراء، ما لم تكن لها علاقة بالحب. فهل هذا إذاً هو

أسلوب الصداقة؟ كلا، يا صديقي، إن لكل عاطفة لغتها التي تناسبها، واستخدام لغة محل أخرى يخفي الفكرة التي نريد التعبير عنها. أنا أعرف جيداً أن نساءنا الصغيرات لا يفهمن شيئاً مما يقال لهنّ إذا لم يُترجم نوعاً ما إلى هذا الهراء المألوف، ولكن كنت أظنّ -وأعترف بذلك- أنني أستحق أن تُميّزني عنهن. أنا حقيقة غاضبة، ربما أكثر مما ينبغي لأنك أسأت الحكم عليّ.

لن تجد إذاً في رسالتي إلا ما كان ينقص رسالتك: الصراحة والبساطة. سأقول لك مثلاً: سأكون مسرورة جداً برؤيتك، ومستاءة لأني لا أرى بجواري سوى أناس يضجرونني بدلاً من أناس يعجبونني. ولكنك ترجمت هذه العبارة على هذا الشكل: «*علّمني أن أعيش حيث لستِ موجودة*». كأنك تقول إنك لن تعرف كيف تعيش حين تكون قرب عشيقتك إلا إذا كنت أنا ثالثكما. كم هذا مُثير للشفقة! وهؤلاء النساء اللواتي «*يعوزهن دائماً شيء ليصبحن مثلي*»، لعلك تجد أن هذا الشيء يعوز سيسيلتك أيضاً! هذا ما توصلك إليه إذاً لغة أصبحت اليوم لكثرة الإفراط في استخدامها أحطّ من هراء المجاملات، ولم تعد سوى رسميات بسيطة لا نؤمن بها كما لا نؤمن بعبارة خادمك المُطيع!

حين تكتب إليّ يا صديقي، سواء لكي تعبّر عن طريقتك في التفكير والشعور، أو لكي تُرسل جملاً، سأجدها معك أو من دونك، موجودة في أول رواية حب كُتبت في التاريخ. أرجو ألا تغضب مما أقوله لك هنا لأنك ستشعر بشيء من الاستياء، لأنني لا أنكر أنني امتعضت بعض الشيء. ولكن، كي تتجنّب مظهر المخطئ الذي ألومك عليه، لن أقول لك إن هذا الاستياء ازداد قليلاً بسبب بعدي عنك. ويبدو لي، إذا أخذت حالتك بعين الاعتبار، فأنت

تساوي بنظري أكثر من دعواي ومحاميّ، وربما أفضل من بيلروش الحنون أيضاً.

ها أنت ترى أنه بدلاً من أن تحزن في غيابي، ينبغي أن تغتبط لذلك، لأنني لم أوجّه إليك إطراء جميلاً كهذا قط. وأظن أنني انسقت إلى هذا الأسلوب وأريد أن أقول لك بعض الملاطفات: ولكن كلا، أفضّل التمسّك بصراحتي، وهي وحدها التي تضمن لك صداقتي الحنونة، والاهتمام الذي توحيه إليّ. شيء لطيف جداً أن يكون لي صديق شاب قلبه مشغول بأخرى. وليست هذه طريقة جميع النساء، ولكنها طريقتي. ويبدو لي أن المرء ينساق بمتعة أكبر مع عاطفة لا يمكن أن يخشى منها شيئاً. ولعلي كنت كاتمة أسرارك منذ مدة قصيرة، ولكنك تختار عشيقاتك صغيرات السن جداً بحيث جعلتني ألاحظ لأول مرة أنني بدأت أكبر في السنّ! وهذا لمصلحتك حين تعدّ نفسك لحياة طويلة من الاستقرار. أتمنى لك من كل قلبي أن تكون هذه الحياة متبادلة.

أنت على صواب حين تستسلم *للدوافع الرقيقة والشريفة* التي *تُؤخّر سعادتك* كما أخبرتني. إن الدفاع الطويل هو الاستحقاق الوحيد الذي يبقى للنساء اللواتي لا يُحسنّ المقاومة. ما لا أستطيع أن أغفره لأي امرأة، باستثناء طفلة كالصغيرة دوفولانج، هو عدم معرفتها التهرّب من خطر كانت قد أُنذِرَتْ به كثيراً حين اعترفت بحبها. أما أنتم معشر الرجال فليس لديكم فكرة عن الفضيلة، وعما تكلّف التضحية بها! ولكن، ما إن تُفكّر المرأة قليلاً بتعقّل، حتى ينبغي لها أن تعلم -بغض النظر عن الغلطة التي ترتكبها- أن أي تخاذل منها يشكّل أكبر المصائب بالنسبة إليها. ولا أفهم أي امرأة لا تهرب حين يتسنّى لها لحظة التفكير بذلك.

إياك أن تعارض هذه الفكرة، لأنها هي التي تُعلّقني بك أساساً. سوف تُنقذني من أخطار الحب، مع أنني عرفت من دونك أن أدافع عن نفسي من أخطاره حتى الآن، فأنا أقرّ بفضلك، وسأحبك أكثر وأحسن.

وعليه، يا فارسي العزيز، أرجو أن يحفظك الله.

*من قصر... في ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الثانية والعشرون بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى الرئيسة دوتورڤيل

كنت آمل يا ابنتي الحبيبة أن أتمكّن من تهدئة قلقك، لكنني على العكس، أرى وبكل حزن أنني سوف أزيده. ومع ذلك هدّئي من روعك. إن ابن أخي ليس في خطر، ويمكن القول إنه حقيقة ليس مريضاً. إنما يحدث لديه شيء غريب بالتأكيد. لا أفهم من ذلك شيئاً، بيد أنني خرجتُ من غرفته بشعور من الكآبة، لا بل بشيء من الفزع الذي ألوم نفسي على جعلكِ تشاطرينني إياه، ومع ذلك، لا أستطيع منع نفسي من التحدّث إليك. وإليك رواية ما حدث، وبإمكانك أن تكوني واثقة من وفائه. لأنني، لثمانين عاماً أخرى، لن أنسى الانطباع الذي تركه في نفسي هذا المشهد الحزين.

ذهبت هذا الصباح إلى غرفة ابن أخي، فوجدته يكتب. كانت تحيط به أكوام عديدة من الورق تبدو كأنها من صنع يديه. وقد كان مُنهمكاً إلى درجة أنني أصبحت في وسط الغرفة ولم يلتفت ليعرف مَن القادم. وحين شاهدني، لاحظْتُ جيداً أنه كان يحاول وهو

ينهض جاهداً أن يُبدّل سحنته، وربما ليس هذا فقط ما لفتَ انتباهي. لم يكن في الحقيقة قد اغتسل أو رتب نفسه، وجدْتهُ شاحباً واهناً، يبدو عليه التعب الشديد. كانت نظرته التي عرفناها حادة ومرحة قد غدت كئيبة ذابلة. وأخيراً -وهذا بيننا- لا أتمنّى أن تريه على هذه الحال، لأنه يبدو مؤثّراً جداً، ويثير هذه الشفقة الحنونة التي هي من أخطر كمائن الحب.

وعلى الرغم من دهشتي مما لاحظت، فقد بدأتُ معه الحديث كما لو أنني لم ألاحظ شيئاً. سألته أولاً عن صحّته، فلم يقل إنها سيئة مع أنها تبدو العكس. عندئذٍ، أنّبته على اعتكافه الذي يبدو كأنه عادة غريبة، وحاولْتُ أن أمزج شيئاً من المرح إلى توبيخي اللطيف، لكنه أجابني بلهجة مؤثّرة: «إن هذا خطأ آخر أعترف به، ولكنه سيصطلح مع البقية». وقد بلبل مظهره مرحي أكثر من كلامه، وسارعْتُ إلى القول له إنه يعلّق أهمّية كبيرة على ملامة صداقة بسيطة.

ثم أخذنا نتحدّث بهدوء، وقال لي بعد فترة وجيزة إنه قد يعود قريباً إلى باريس بسبب قضيّة مهمة، أعظم قضية في حياته. كنت خائفة من أن يفتح لي قلبه ويسرّ إليّ بما لم أكن أريده، لذلك لم أطرح عليه أي سؤال، واكتفيت بإجابته بأن المزيد من التسلية سيكون مفيداً لصحّته. وأضفْتُ بعد ذلك إنني في هذه المرة لن ألحّ عليه بالبقاء، وذلك حباً بأصدقائي ومن أجلهم فقط. وعند هذه العبارة البسيطة، شدّ على يديّ، وكلّمني بحرارة لا أستطيع أن أصفها لك وقال: «أجل يا عمتي، أحبّي، أحبّي ابن أخيكِ الذي يحترمك ويعزّك. وكما قلتِ أحبيه من أجله، ولا تحزني لسعادته، ولا تُعكّري بأي ندم الهدوء الأبدي الذي يأمل أن ينعم به قريباً. كرّري معي بأنكِ

تُحبّينني، وأنك تسامحينني، وأنا أعرف مدى طيبتك، ولكنني كيف آمل بمثل هذا التسامح من أولئك الذين أهنتهم؟» وعندئذٍ، انحنى عليّ لكي يخفي عني آثار الألم التي كَشفتْها لي نبرة صوته رغماً عنه.

تأثّرتُ أكثر مما أقول لك، ونهضْتُ مسرعة، وقد لاحظ من دون شك فزعي، فحاول على الفور أن يُبدّل سحنته واستأنف قائلاً: «سامحيني، سامحيني يا سيدتي، أشعر بأنني أشرد رغماً عني. أرجوكِ أن تنسي كلامي، وأن تتذكّري فقط احترامي العميق. ولن أتخلّف عن أن أجدّده لكِ قبل رحيلي». وبدت لي هذه العبارة الأخيرة أنها تلزمني بإنهاء زيارتي. وانصرفْتُ بالفعل.

ولكنني كلما فكّرت أكثر، عجزتُ عن أن أتكهّن بما عناه. ما هي إذاً هذه القضية التي هي *أهم قضية في حياته*؟ وحول أي أمر يطلب عفوي؟ ومن أين جاءه هذا الحنان العفوي وهو يحدثني؟ لقد طرحت على نفسي هذه الأسئلة ألف مرة دون أن أعرف جواباً لها، ولا أرى هنا شيئاً له علاقة بكِ. ومع ذلك، وبما أن عيون الحب هي أكثر تبصّراً من عيون الصداقة، لم أتركك في جهل عمّا جرى بيني وبين ابن أخي.

لقد توقّفتُ أربع مرّات كي أكتب هذه الرسالة الطويلة التي كنت سأجعلها أطول أيضاً، لولا التعب الذي أشعر به. الوداع يا حسنائي العزيزة.

*من قصر. . . في ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الثالثة والعشرون بعد المئة

من الأب أنسيلم إلى الڤيكونت دوڤالمون

تلقّيت يا سيدي الڤيكونت الرسالة التي شرّفتني بها. توجّهتُ أمسِ وفق رغباتك إلى الرئيسة دوتورڤيل وشَرحْتُ لها غاية ودوافع هذا التصرف الذي كلّفتني بالقيام به. على الرغم من أنني وجدتها متمسّكة بالقرار الحكيم الذي اتخذته في البداية، فقد أظهرتُ لها أنها تجازف بسبب رفضها بوضع عقبة في وجه ارتدادك المشكور، وتعارض بطريقة ما النظرات الرحيمة للعناية الإلهية. وقد وافَقَتْ على زيارتك شرط أن تكون هذه المرة هي الأخيرة، وكلّفتني بأن أُعلمك أنها ستكون في بيتها يوم الخميس المقبل في ٢٨ الجاري. وإذا كان هذا اليوم لا يناسبك، هل لك أن تُبلغها ذلك وتعيّن لها يوماً آخر. وسوف تستلم رسالتك.

مع ذلك، يا سيدي الڤيكونت، اسمح لي أن أدعوك إلى عدم تأجيل هذا الموعد إلا لأسباب قاهرة، لكي يتسنّى لي توجيهك في أقرب وقت وبصورة تامة نحو الاستعدادات الحميدة التي أعرَبْتَ لي عنها. فكّر في أن مَن يتأخّر عن الإفادة من لحظة النعمة يتعرّض إلى سحبها منه. وإن كانت الرحمة الإلهية غير محدودة إلا أن استخدامها تنظّمه العدالة، وقد يأتي وقت يتحوّل الله فيه من غفور رحيم إلى منتقم جبّار.

إذا تابعْتَ تشريفي بثقتك، فأرجوك أن تصدّق أنِ جميع جهودي ستكون تحت تصرّفك وقت ما تشاء. ومهما كانت مشاغلي كبيرة، فإن قضيّتي الأهم ستكون دائماً القيام بالواجب المقدّس الذي كرّستُ

له نفسي بشكل خاص. وإن أجمل لحظة في حياتي هي تلك التي أرى فيها جهودي تُكلّل ببركة الله، المجد لاسمه. إذ إننا نحن الضعفاء الخَطَأة، لا نستطيع أن نفعل شيئاً لأنفسنا! لكن الله الذي يدعونا يستطيع كل شيء. ونحن مدينون أيضاً لكرمه، أنت بالرغبة الدائمة في ضمّك إليه، وأنا بالوسائل التي أقودك بها إليه. إنني بمعونته الكريمة، آمل أن أُقنعكَ قريباً بأن الدين المقدّس يمكن أن يمنح وحده، حتى في هذا العالم، السعادة الراسخة والدائمة التي نسعى إليها عبثاً في عمى الأهواء الإنسانية.

لي الشرف، يا سيدي، مع احترامي وتقديري... إلخ...

*باريس، في ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.*

الرسالة الرابعة والعشرون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

وسط الدهشة التي أوقعني بها النبأ أمس، لم أنسَ كم سيبعث في نفسكِ الرضا. وها أنا أسارع إلى إخبارك: لم يعد السيد دوڤالمون مشغولاً بي ولا بحبّه، بل يريد أن يُعوّض عن أخطائه، أو بالأحرى عن آثام شبابه بحياة أكثر مثالية. وقد أبلغني الخبر الأب أنسيلم الذي اختاره لكي يقود خطاه نحو المستقبل، وكذلك كي يهيئ له مقابلة معي، أعتقد أن هدفها الرئيسي هو إعادة رسائلي التي احتفظ بها حتى الآن رغم مطالبتي بعكس ذلك.

لا أستطيع من دون شك إلا أن أغتبط لهذا الانقلاب السعيد، وأهنئ نفسي به، إذ إنني كما قال، تمكّنتُ من المساهمة به بعض

الشيء. ولكن، لماذا كان ينبغي أن أكون أنا الأداة، ويكلّفني هناء حياتي؟ ألا يمكن لسعادة السيد دوڤالمون أن تأتي إلا على حساب شقائي؟ آه، يا صديقتي المتسامحة! اغفري لي هذه الشكوى. أنا أعلم أنه لا يحقّ لي أن أعترض على مشيئة الله، ولكن بينما أتوسّل إليه باستمرار، ودائماً من دون جدوى، أن يمنحني القوة للتغلّب على حبي التعيس، إذا به يمنح القوة إلى من لم يكن يطلبها، ويتركني من دون عون، مستسلمة بكليّتي لتخاذلي.

ولكن، دعينا نكبت هذا التذمّر المذنب. ألا أعلم أن الابن الضال نال لدى عودته من والده نعماً أكثر مما ناله الابن الآخر الذي لم يغب عنه قط؟ وأي حساب يمكن أن نطلب ممن ليس مديناً لنا بشيء؟ وحين يصبح ممكناً أن تكون لنا بعض الحقوق عليه، ماذا يمكن أن تكون حقوقي؟ هل أفتخر بتعقّل مدينة به إلى ڤالمون؟ لقد أنقذني، وأجرؤ على الشكوى لأني أتعذّب من أجله! كلا، إن عذاباتي ستكون غالية عليّ، إذا كانت سعادته هي الثمن. وينبغي عليه أن يعود بدوره إلى أب البشر. لا شك أن الله الذي كوّنه يعتزّ بما صنعت يداه، فهو لم يخلق هذا الكائن الرائع كي يجعل منه منبوذاً، وعليّ وحدي أن أتحمّل عاقبة عدم احتراسي الجريء. ألم يكن من واجبي عدم رؤيته، مادام حبه محظوراً؟

إن خطئي وتعاستي يكمنان في رفضي طويلاً لهذه الحقيقة. وأنتِ شاهدة يا صديقتي العزيزة المحترمة، بأنني خضعت لهذه التضحية ما إن أدركت ضرورتها، ولكن كي تكون كاملة، كان ينقصها عدم مشاطرة السيد دوڤالمون إياها. هل أعترف لك بأن هذه الفكرة وحدها في الوقت الحاضر هي كل ما يعذبني؟ إنه كبرياء لا

يطاق، يخفّف من الآلام التي نعانيها ونجعل الغير يتعذّب بها! آه! سأنتصر على هذا القلب الثائر، وسأعوّده الذلّ.

كي أتوصلّ إلى ذلك، وافقْتُ أخيراً على زيارة السيد دوڤالمون المريرة يوم الخميس المقبل. سأسمعه عندئذٍ يقول لي بنفسه: إنني لم أعد أشكّل بالنسبة إليه أي أهمّية، وإن الانطباع الضعيف والعابر الذي أثّرتُ به عليه قد امّحى كليّاً! سأرى نظراته تحطّ عليّ من دون انفعال بينما سيحملني الخوف من أن أفضح نظراتي على خفض نظري. وتلك الرسائل التي رفض أن يعيدها إليّ رغم طلباتي المتكرّرة سأتلقاها وهو غير مبال، سيسلمني إياها كأشياء تافهة ولم تعد تهمّه. وستشعر يداي المرتجفتان وهما تتلقّيان هذه الوديعة المخزية بأنها تُسلّم إليهما من يد ثابتة هادئة! وأخيراً سأراه يبتعد... يبتعد إلى الأبد ونظراتي التي ستتبعه لن ترى نظراته تلتفت نحوي!

لقد حملت الخزي! آه! فلأجعل هذا الخزي مفيداً لي على الأقلّ حين يخترقني ويهزّ تخاذلي. أجل، هذه الرسائل التي لم تعد تهمّه، سأحتفظ بها كشيء ثمين، وسأفرض على نفسي خجل قراءتها كل يوم إلى أن تمحو دموعي آثارها الأخيرة، وسأحرقها كما لو كانت مُلوّثة بسمّ خطير أفسد روحي. آه! أي شيء إذاً غير الحب يمكن أن يجعلنا نندم حتى على الأخطار التي يُعرّضنا لها. وإذا كنا سنظل خائفين من الشعور به، حتى لو لم نعد نوحيه! فلنهرب من هذا الهوى المشؤوم الذي لا يترك مجالاً للاختيار إلا بين العار والشقاء، والذي غالباً ما يجمعهما معاً، وليحلّ الاحتراس على الأقل مكان الفضيلة.

يوم الخميس هذا مازال بعيداً! ولم يعد بوسعي الآن أن أتجرّع هذه التضحية المؤلمة، وأنسى في الوقت نفسه سببها وغايتها! إن هذه

الزيارة تثقل عليّ، وأنا نادمة بعد أن وعدت بها. آه، ما حاجته لكي يراني أيضاً؟ وهل مازال أحدنا للآخر في الوقت الحاضر؟ وإذا كان قد أهانني فإنني أسامحه، لا بل أُهنئه لرغبته في تدارك أخطائه وأُثني عليه. وسأفعل أكثر من ذلك، سأحذو حذوه، بعد أن أُغويت بالأخطاء نفسها لأن أمثولته ستُعيدني إلى الصواب. أما إذا كانت غايته التهرّب مني، فلماذا يبدأ في البحث عني؟ أليس الأكثر إلحاحاً الآن أن ينسى أحدنا الآخر؟ آه من دون شك، وسيكون من الآن فصاعداً موضع اهتمامي الوحيد.

إذا سمحْتِ يا سيدتي المحترمة، سأكون بجوارك كي أنكبّ على هذا العمل الصعب، وإذا كنت بحاجة إلى العون وربما أيضاً إلى العزاء، فلا أريد أن أتلقاه إلا منكِ. أنت وحدك تعرفين كيف تصغين إلى قلبي وتتحدثين إليه. إن صداقتك الثمينة ستملأ وجودي. لا شيء سيبدو لي صعباً كي أدعم الجهود التي ستتفضّلين ببذلها، وسأكون مدينة لك بطمأنينتي وسعادتي وفضيلتي، كما أن ثمرة طيبتكِ ستكون بأنك جعلتني محترمة.

أعتقد أنني شططتُ كثيراً في هذه الرسالة، وأعزو ذلك على الأقل إلى الاضطراب الذي لم أكفّ عن معاناته حين أكتب إليكِ. وإذا رأيت فيها ما يشعرني بالخجل، فخبئيه في سعة صدر صداقتك التي أرضخ لها كل الرضوخ. لستِ من أُخفي عنها أي خفقة من خفقات قلبي.

الوداع يا صديقتي المحترمة. آمل أن أُنبئكِ قريباً بموعد وصولي.

*باريس، في ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ‎**‎١٧ .*

القسم الرابع

الرسالة الخامسة والعشرون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

ها هي مهزومة أخيراً، تلك المرأة الرائعة التي تجرّأتْ على الاعتقاد بأنها تستطيع مقاومتي! أجل يا صديقتي، إنها لي، لي كليّاً، ومنذ أمس لم يعد لديها شيء لتمنحني إياه.

ما زلت مُفعماً بالسرور بحيث لا أستطيع تقديره، ولكنني مدهوش بهذا الشعور الرائع. صحيح إذاً أن الفضيلة تزيد من قيمة المرأة حتى في لحظة تخاذلها؟ ولكن لا: لنطرح جانباً هذه الفكرة الصبيانية مع حكايات النساء الفاضلات. ألا نصادف في كل مكان تقريباً مقاومة ظاهرية عند أول انتصار؟ وهل وجدْتُ السحر الذي أحدّثك عنه في مكان آخر؟ مع ذلك، إنه ليس سحر الحب، لأنني في النهاية وإن شعرتُ أمام هذه المرأة المدهشة ببعض لحظات التخاذل التي تُشبه ذلك الهوى الجبان، فقد عرفْتُ دوماً أن أقهرها وأعود إلى مبادئي. كدت أن أنساق في مشهد الأمس إلى أبعد مما كنت أريد، وذلك حين شاطرتها في إحدى اللحظات ما أوحيته إليها من اضطراب ونشوة. وقد تبدّد هذا الوهم العابر الآن، لكن السحر نفسه ما زال باقياً. لا بل أعترف لك أنني كنت سأستسلم لهذه المتعة

العذبة بكل سرور لولا خوفي من القلق الذي يمكن أن تسبّبهُ لي. فهل أكون، وأنا في هذه السنّ، تحت تأثير شعور لا أملك السيطرة عليه مثل تلميذ مدرسة؟ كلا، يجب قبل كل شيء محاربته واستئصاله. ربما كان عليّ معرفة السبب قبل الأوان! لكنني سعيد جداً بهذه الفكرة، ويا ليتها تكون صحيحة!

بين حشد النساء اللواتي أدّيت أمامهن حتى اليوم دور العاشق، لم ألتقِ حتى الآن بأية واحدة لديها رغبة في الاستسلام مثل رغبتي في حملها على ذلك. لا بل اعتدتُ أن أسمّي أولئك اللواتي لا يقطعن سوى نصف الطريق بالـ «متصنعات الحياء»، مقارنة باللواتي قدّمن دفاعاً استفزازياً لم يخفِ مبادراتهن الأولى البتة.

بينما معها على العكس، فقد وجدتُ تحفظاً غير لائق، أساسه نصائح وعلاقات امرأة حقود ولكنها بعيدة النظر. ووجدْتُ خفراً طبيعياً مفرطاً يعزّزه التعفّف، وتعلّقاً بالفضيلة يوجّهه الدين ويعتمد على سنتين من الانتصار، وأخيراً تصرّفات رائعة مستوحاة من هذه الدوافع المختلفة التي لم يكن لها هدف سوى قطع الطريق على ملاحقاتي.

كان الأمر مختلفاً عمّا حدث في مغامراتي السابقة، مُجرّد استسلام مُشجّع أو غير مُشجّع، كان من السهل استغلاله أكثر من التفاخر به. نصر كامل لقاء حملة مضنية ومناورات بارعة. ليس من المدهش إذاً أن يكون هذا النجاح الذي يعود فضله إليّ وحدي، أكثر قيمة من أي نجاح آخر. والمتعة الزائدة التي شعرتُ بها في انتصاري -وما زلت أشعر بها الآن- ليست سوى الشعور العذب الذي يخلقه المجد. أحب هذه الطريقة في النظر إلى الأمور، فهي تنقذني من عار التفكير بأنني جعلت نفسي عبداً لمن أردت استعباده، وبأنني الوحيد المغتبط من السعادة.

هذا التفكير الرشيد سوف ينظّم سلوكي في هذه المناسبة المهمة، وبإمكانك التأكد من أنني لن أدع نفسي مقيّداً بحيث لا أستطيع تحطيم هذه القيود الجديدة وفق إرادتي وأنا ألهو. ولكن هاأنذا أحدّثكِ عن انفصالي، بينما ما زلت تجهلين الوسائل التي حصلْتُ بواسطتها على حق هذا الانفصال. اقرئي إذاً، وانظري إلى ما يتعرّض له التعقّل، حين يحاول نجدة الجنون. فلقد كنت أدرس بعناية كلامي والأجوبة التي أتلقّاها وهو ما آمل أن أُطلعكِ عليه بكل التفاصيل لكي تسرّي به.

وسترين في نسختي الرسالتين اللتين أرفقهما أي وسيط استخدمتُ للتُقرّب من حسنائي، وأي حماسة بذل قداسته كي يجمع بيننا. وما ينبغي أن أقوله لك أيضاً، وقد علمته بواسطة رسالة قطعْتُ عليها الطريق حسب العادة، إن الخوف والعار من أن أتخلّى عن العاشقة الورعة قد هزّا حياءها، وملآ قلبها ورأسها بأفكار متناقضة، ولكنها في غاية الأهمية. وهكذا، بعد هذه الترتيبات الضرورية، وصلْتُ أمس الخميس في ٢٨ الجاري، وهو اليوم الذي حدّدته الجاحدة. وقد تقدّمت كعبد خجول وتائب، وخرجْتُ كملك ظافر متوّج.

حين دخلْتُ على الحسناء المعتزلة كانت الساعة قد بلغت السادسة مساء، لأنها منذ عودتها أقفلت بابها بوجه كل الناس. حين أُبلِغَتْ بنبأ وصولي حاولتْ أن تنهض، لكن ركبتيها المرتجفتين لم تسمحا لها بذلك فجلستْ على الفور. وبما أن الخادم الذي أدخلني كان عليه أن يقوم ببعض المهمات في غرفتها، فقد بدَتْ نافدة الصبر، لذلك شغلنا هذه الفترة بالمجاملات المعتادة. ولكنني حتى لا أُضيّع شيئاً من وقتٍ كانت كل لحظاته ثمينة رحتُ أتفحّص المكان

بدقّة، وما لبثت عيناي أن وقعتا على مسرح انتصاري. كان بإمكاني أن أختار مسرحاً آخر أكثر ملاءمة، إذ كان هناك في الغرفة نفسها ديوان عثماني عريض، ولكنني لاحظْتُ أن صورة الزوج كانت معلّقة أمامه، وأعترف أنني خشيت مع امرأة غريبة الطباع مثلها، أن تقع نظراتها مصادفة على هذه الناحية فتُحطّم في لحظة واحدة عمل جهود طويلة. أخيراً، أصبحنا بمفردنا، وبدأ العمل على أرض الواقع.

وبعد أن أُوضَحْتُ لها بكلمات قليلة أن الأب أنسيلم لا بدّ أن يكون قد أطلعها على دوافع زيارتي، شكوت لها المعاملة القاسية التي عانيتها، وشدّدتُ بصورة خاصة على «الازدراء» الذي قوبلتُ به. وقد دافعَتْ عن نفسها كما كنت أتوقّع وتتوقّعين أيضاً. وكان الدليل على ذلك الحذر والخوف اللذين أوحيتُهما لها، والفرار الفاضح الذي أعقب ذلك، ورفض الردّ على رسائلي، لا بل رفض تسلّمها إلخ... إلخ... وبما أنها بدأت تُبرّر نفسها بسهولة، فقد وجدْتُ من المناسب أن أُقاطعها. ولكي أجعلها تعتذر لي على سلوكها الفجّ، فقد غطيت على كلامي بالملاطفات واستأنفت قائلاً: «إذا كان كل هذا السحر قد ترك في قلبي أثراً عميقاً، وجميع هذه الفضائل البارزة لم تترك أقل من ذلك في نفسي. أغوتني من دون ريب فكرة التقرّب منك، وتجرأت على الاعتقاد بأنني جدير بك. وأنا لا ألومك أبداً لأنك حكمت على الأمور خلاف ذلك، ولكنني أعاقب نفسي على خطئي». وبما أنها التزمتْ الصمت بسبب الارتباك، استأنفتُ قائلاً: «لقد رغبتُ يا سيدتي إما أن أُبرّر نفسي بنظرك أو أن أنال منك الصفح على الأخطاء التي تفترضينها، وذلك كي أتمكن على الأقل من إتمام أيام لم أعُد أُعلّق عليها أي قيمة منذ أن رفضْتِ أن تُزيّنيها».

وهنا، حاولتْ مع ذلك أن تُجيب قائلة: «إن واجبي لم يكن يسمح لي. . .»، لكن صعوبة إكمال أكذوبة يتطلّبها الواجب لم تُتح لها إتمام الجملة. فتابعتُ عندذاك بلهجة أكثر رقّة: «صحيح إذاً أنك كنتِ تهربين منّي؟»

- لقد كان هذا السفر ضرورياً.

- وتُبعدينني عنكِ؟

- لا بد من ذلك.

- إلى الأبد؟

- يجب عليّ أن أفعل ذلك.

لستُ بحاجة إلى أن أقول لك أن صوت الورعة الرقيقة خلال هذه المحادثة القصيرة كان مضطرباً، ولم ترفع نظرها نحوي.

ورأيت من الواجب أن أبعثَ القليل من الحيوية في هذا المشهد المُتراخي، وهكذا نهضتُ وأنا بادي الغضب، وقلت: «إن قسوتك أعادت إليّ صرامتي كلها. حسناً يا سيدتي، سنفترق، سنفترق أكثر مما تظنّين، وستُهنّئين نفسك بما فعلت». وهنا، ذُهِلَتْ قليلاً لهذه اللهجة من العتاب، فأرادتْ أن تردّ قائلة: «إن القرار الذي اتخذته. . .»، فقاطعْتها بحدّة: «لم يكن إلا نتيجة يأسي. لقد شئتِ أن أكون تعيساً، وسأبرهن لك أنك نجحت في ذلك إلى ما يفوق أمنياتك». وأجابت: «ولكنني أريد سعادتك». وهنا، أخذت نبرة صوتها تميل نحو الانفعال القوي. فسارعتُ وارتميت عند قدميها وصرختُ بلهجة تمثيلية درامية تعرفينها: «آه أيتها القاسية القلب. . . هل يمكن أن تكون لي سعادة دون أن تشاطريني إياها؟ أين يمكن أن أجدها بعيداً عنكِ؟. آه. . . أبداً، أبداً!» وأعترف أنني حين وصلت إلى هذه النقطة، كنت أعتمد كثيراً على مساعدة دموعي: ولكنني إما

بسبب وضعي السيّئ، أو بسبب الاهتمام الشديد والمستمر الذي وضعته في كل شيء، كان يستحيل عليّ أن أبكي.

لحسن الحظ، عدت وتذكّرتُ أن أي وسيلة يمكن أن تكون ناجعة في سبيل الاستيلاء على امرأة، ويكفي أن أقوم بحركة واحدة لمفاجأتها وتُحدث في نفسها تأثيراً عميقاً مشجّعاً. فاستبدلتُ عندذاك الحساسية بالتخويف. لذلك، غيّرت نبرة صوتي فقط محتفظاً بوضعي نفسه، وتابعت قائلاً: «أجل، إنني أُقسم عند قدميك إما أن أنالك أو أموت». وعندما نطقتُ هذه الكلمات الأخيرة، التقت نظراتنا. ولا أدري ماذا شاهدت المرأة الخجول أو اعتقدت أنها شاهدت في نظراتي، ولكنها نهضت فزعة، وأفلتت من بين ذراعيّ اللتين كنت قد أحطتها بهما. لكنني لم أفعل شيئاً في الحقيقة لكي أحتفظ بها، لأنني لاحظتُ عدة مرات أن مشاهد اليأس التي تقاد بحماسة زائدة، قد تفقد فاعليتها لو طالت ولم تتضمّن سوى وسائل محزنة، وكنت أبعد ما يكون عن رغبتي في ذلك. وفي الأثناء، بينما كانت تتملّص مني، أضفتُ بلهجة خافتة ومحزنة ولكن بطريقة جعلتها تسمعني: «الموت إذاً!».

نهضتُ على الأثر، ولزمت الصمت لبرهة. رحت أرمقها، كما لو كان الأمر من قبيل المصادفة، بنظرات شرسة، لكنها لا تخلو من الترقب والتبصّر. ومن وقفتها غير الثابتة، وتنفّسها المسموع، وتوتر عضلاتها وذراعيها المرتجفتين نصف المرتفعتين، أدركت التأثير القوي فيها كما أردْتُ إحداثه. ولكن بما أنه في الحب لا يتم شيء إلا عن قُرب، وقد كان واحدنا بعيداً عن الآخر، فكان لا بد قبل كل شيء من أن نقترب. للوصول إلى ذلك، انتقلْتُ على الفور إلى هدوء ظاهر يناسب تهدئة آثار هذه الحالة العنيفة، دون أن يخفّف من وقعها.

وكان انتقالي على الشكل الآتي، إذ قلت: «أنا تعيس شقيّ، لقد أردت أن أعيش من أجل سعادتك، ولكنني كدّرْتها. كرّست نفسي من أجل هنائك لكنني أفسدته أيضاً». ثم قلبتُ سحنتي، وبدوت مستاء: «عفوك يا سيدتي، فأنا غير معتاد على عواطف الحب إلا قليلاً، ولم أعرف كيف أكبت تقلباتها. وإذا كنت قد أخطأت في استسلامي إليها، ففكّري في أن هذه هي المرة الأخيرة. آه! أرجوك، أرجوك أن تهدئي». وكنت أثناء هذا الخطاب أقترب نحوها دون أن تشعر، وقالت لي حسنائي المستنفرة: «إذا كنت تريد أن أكون أكثر هدوءاً... فكن أنت نفسك إذاً أكثر هدوءاً» وقلت: « حسناً، أجل أعدك بذلك». ثم أضفتُ بصوت أكثر خفوتاً: «إذا كان الجهد كبيراً، فعلى الأقل يجب ألا يطول». ولكنني استأنفتُ على الفور بهيئة شاردة: «لقد أتيتُ إليك أعيد رسائلك، أليس كذلك؟ فرحمة بي، تنازلي وخذيها. وهذه أيضاً تضحية أخرى يجب أن أقوم بها، فلا تتركي لي شيئاً قد يُضعف شجاعتي». ثم سحَبْتُ من جيبي المجموعة الثمينة وقلت: «إليكِ إذاً هذا المستودع الزائف لتأكيدات صداقتكِ! فقد كان يربطني بالحياة... استعيديه، واعطِ بنفسك الإشارة التي ستفصلني عنك إلى الأبد».

وهنا استسلمت العاشقة الخائفة تماماً إلى قلقها الرقيق وقالت:

- ولكن يا سيد ڤالمون ما بك؟ وماذا تقصد؟ ألم يكن تصرفك اليوم طوعاً؟ ألم يكن ثمرة تفكيرك؟ أليس هذا التفكير هو الذي جعلك توافق على القرار الضروري الذي اتخذتَه بدافع الواجب؟

- حسناً، إن قرارك هذا هو الذي أملى عليّ قراري.

- وما هو؟

- الوحيد الذي يستطيع، بافتراقي عنك، أن يضع حدّاً لآلامي.

- ولكن أجبني ما هو؟

وهنا عصرتها بذراعي دون أن تُبدي أي دفاع عن نفسها البتة، ولاحظتُ أنها تناست آداب السلوك، إذ كان انفعالها قوياً وجامحاً، فقلتُ لها مجازفاً بحماسة: «أيتها المرأة المعبودة، ليست لديك فكرة عن الحب الذي توحينه، ولن تعرفي أبداً إلى أي حدّ كنت معبودة، وكم كان هذا الشعور عزيزاً عليّ أكثر من حياتي! فلتكن جميع أيامك سعيدة وهانئة! ولتكن مُزيّنة بكل السعادة التي حرمتِني منها! ادفعي على الأقل ثمن هذه الأمنية الصادقة بحسرة، بدمعة، واعلمي أن آخر تضحياتي لن تكون أقساها على قلبي! الوداع».

وبينما كنت أتكلم على هذه الصورة، شعرت بقلبها يخفق بشدّة، ولاحظت امتقاع وجهها، خصوصاً دموعها التي تخنقها، ولا تسيل إلا نادراً وبصعوبة. وعندذاك، قرّرتُ أن أتظاهر بالابتعاد، فأمسكتْ بي بقوة، وقالت لي بحرارة: «كلا... اصغِ إليّ». «دعيني». «ستُصغي إليّ، أريد ذلك». «يجب أن أهرب منكِ. لا بد من ذلك». وصاحَتْ عند هذه الكلمة الأخيرة: لا! وسارَعَتْ، أو بالأحرى سقطت مغمية عليها وهي بين ذراعيّ.

ولأنني كنت لا أزال غير مصدّق هذا النجاح السعيد، فقد أظهرْتُ فزعاً كبيراً. ولكنني قُدتها وأنا خائف أو بالأحرى، حملتها نحو المكان الذي أشرتُ إليه كمسرح لمعركة انتصاري. وبالفعل، فإنها لم تستعد وعيها إلا وهي خاضعة مستسلمة للمنتصر السعيد.

حتى هنا تجدين لديّ كما أعتقد يا صديقتي الحسناء طريقة رائعة تسعدكِ. وترين أنني لم أحِد بشيء عن المبادئ الصحيحة لهذه الحرب التي لاحظنا مراراً أنها شبيهة بالحروب الأخرى. احكمي عليّ إذاً مثل «تورين» و«فريدريك». لقد تجرأتُ على هزم عدو لا

يريد إلا التهدئة، واخترت بنفسي بمناورات بارعة ميدان المعركة واستعداداتها، وعرفت كيف أوحي بالأمان للعدو لكي ألاقيه بسهولة عند تراجعه. وعرفت كيف أجعل التخويف يتلاحق، قبل أن أصل إلى المعركة، ولم أدع شيئاً للمصادفة، إلا من حيث استغلالها لمصلحتي في حالة الظفر والتأكد من المصادر في حالة الهزيمة. وأخيراً، لم أبدأ العمل إلا بعد أن أمّنت تراجعي، من حيث أستطيع أن أعطي وأحتفظ بكل ما حققته سابقاً. وهذا كل ما يمكن القيام به على ما أعتقد، ولكنني أخشى الآن من أن أكون قد تراخيت كما تراخى هنيبعل أمام لذائذ كابو. وإليك ما حدث فيما بعد:

لقد كنت أتوقّع أن حدثاً كبيراً كهذا لا بد أن يخلّف الدموع واليأس المألوف. ومع أني لاحظت أولاً حالة من الارتباك ونوعًا من الخشوع، إلّا أنني عزوتُ هذا وذاك إلى تصنّع الحياء. وهكذا، لم أعبأ بذلك وأخذت أواسيها وأنا على قناعة بأن المشاعر ستساعد العاطفة، وأن عملاً واحداً سيكون أشدّ أثراً من جميع الخطب والأقوال التي لم أُغفلها. لكنني قوبلت في الحقيقة بمقاومة مخيفة، لا من حيث المبالغة فيها، بل من حيث الشكل.

تصوّري امرأة تجلس جامدة من دون حراك، تعابير وجهها لا تتغيّر، تبدو كأنها لا تُفكّر ولا تُصغي ولا تسمع، بل تُحدّق فقط بعينين ثابتتين والدموع تسيل منهما بصورة مستمرّة ومن دون جهد. هكذا كانت حالة السيدة دوتورفيل فيما كنت أتكلم. وكلما حاولت أن أُعيد انتباهها نحوي بمداعبة، أو بحركة، حتى وإن كانت بريئة، إلى كل هذا التودّد، كان يعتريها على الفور الرعب والاختناق والتشنّج، تتخلّلها بعض الشهقات، ولكن دون أن تتلفّظ بكلمة واحدة.

عاودتها هذه الأزمات عدّة مرّات وبشكل أقوى في كل مرّة، وكانت الأخيرة من العنف بحيث إنها أرخت عزيمتي وخشيت في لحظة من اللحظات أن أكون قد أحرزت انتصاراً لا قيمة له. فانتقلتُ في حديثي إلى عبارات مبتذلة، ومن بينها تلك: «أنت يائسة لأنك وهبتني السعادة». وعند هذه العبارة، التفتت المرأة المعبودة نحوي، واستعاد وجهها تعبيره السماوي رغم أنه ظلّ شارداً قليلاً، وقالت لي: «سعادتك؟». وأنت تحزرين هنا ما كان جوابي. وقالت: «أنت سعيد إذاً؟» فضاعفتُ احتجاجاتي. لكنها قالت: «وأنا سبب سعادتك!» فأضفتُ لها المديح والعبارات الحنونة. وبينما كنت أتكلم، بدأت جميع أعضائها تلين، وانهارت بارتخاء واستندت فوق مقعدها. وتركت لي إحدى يديها التي تجرأتُ على أخذها، وقالت: «أشعر بأن هذه الفكرة تُعزّيني وتُريحني».

بإمكانك أن تتصوّري أنني، وقد وقعتُ هنا على الطريق الصحيح، لم أتخلّ عنه أبداً. وكان حقيقة الطريق الصحيح وربما الوحيد. وهكذا، حين أردتُ المحاولة ثانية، شعرتُ أولاً ببعض المقاومة. لكن ما حدث من قبل جعلني متأنياً، وكان أن استنجدت بفكرة سعادتي وشعرتُ بنتيجتها المشجّعة، وقالت لي المرأة الرقيقة: «أنت على حق، لم أعد أستطيع أن أتحمّل حياتي إلا لجعلك سعيداً، وأنا أُكرّسها لك بكليّتها. ومنذ هذه اللحظة سأمنحك نفسي، ولن تُعاني من جانبي رفضاً ولا تأسّفاً». بهذه السذاجة البريئة والرائعة، سلّمتني نفسها ومفاتنها، وزادت من سعادتي بمشاطرتها هذه السعادة. لقد كانت النشوة كاملة ومتبادلة، ولأول مرة تجاوزت نشوتي حدود اللذّة. ولم أفلت من ذراعيها إلا لأجثو عند ركبتيها، وأقسم لها على حبّ أبدي. وينبغي أن أعترف لك بأنني كنت أقول

كل ما أُفكّر فيه. وأخيراً، حتى بعد افتراقنا، لم يفارقني التفكير بها قط، واحتجت إلى إلهاء نفسي كثيراً كي أنساها.

آه! ليتكِ كنتِ هنا لكي تعدّلي على الأقل كفّة متعة العمل بالمكافأة! ولكنني لن أضيع وقتي في الانتظار. أليس كذلك؟ وآمل أن أراك كما اتفقنا على الترتيبات السعيدة التي اقترحتها عليك في رسالتي الأخيرة. وها أنت ترين أنني نفذّتُ المطلوب، وكما وعدتك فإن أعمالي ستكون قد تقدّمت بما يكفي لأستطيع أن أمنحك جزءاً من وقتي. سارعي إذاً إلى التخلص من بيلروش الثقيل، ودعي دانسيني المائع حتى لا تنشغلي إلا بي. ولكن، ماذا تفعلين طوال هذه المدة في الريف حتى لا تردّي عليّ؟ هل تعلمين أنني سأقاصصك بكل طيبة خاطر؟ ولكن السعادة تبعث على التسامح. ولا أنسى أنك حين تستبدلين عشاقك بي، يجب أن أخضع من جديد لنزواتك الصغيرة. وتذكّري أن العاشق الجديد لا يريد أن يفقد شيئاً من حقوق الصديق القديمة.

الوداع كالماضي... *أجل الوداع يا ملاكي! أبعث إليك بجميع قبلات الحب*.

ملاحظة: هل تعلمين أن بريڤان قد اضطر في نهاية الشهر الذي أمضاه في السجن إلى الاستقالة من فرقته العسكرية؟ وهو اليوم شغل باريس الشاغل. وها هو معاقب ظلماً على خطأ لم يرتكبه، وكان انتصارك عليه كاملاً.

باريس، في ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول **١٧.

الرسالة السادسة والعشرون بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى الرئيسة دوتورڤيل

كنت أودّ أن أردّ على رسالتك يا ابنتي الحبيبة في وقت أبكر لولا الآلام التي سببتها لي رسالتي الأخيرة أثناء الكتابة إليك، وحرمتني مرة أخرى من استخدام ذراعي طول الأيام الماضية. وكنت أتوق لأن أشكرك على الأنباء السارة التي أطلعتني عليها بخصوص ابن أخي: أهنئك أصدق التهاني. نحن مجبرون هنا على الاعتراف حقيقة بأن مردّ ذلك إلى العناية الإلهية التي أصابت شخصاً وأنقذت آخر. أجل، يا حسنائي العزيزة، إن الرب الذي شاء ألا تتعذبي قد أغاثك في لحظة ضعفك، وعلى الرغم من تذمرك البسيط، عليك كما أعتقد أن تقدّمي بعض الأعمال الخيّرة مقابل عنايته بك. ولا يعني ذلك أنني لا أشعر بأنه كان من الأفضل أن يصدر هذا القرار عنك أولاً، ولم يأتِ قرار السيد دوڤالمون ثانياً، ويبدو لي من الناحية الإنسانية أن حقوق جنسنا نحن النساء يجب أن تبقى محفوظة بشكل أفضل ولا نريد أن نفقد منها شيئاً! ولكن ما قيمة هذه الاعتبارات البسيطة أمام النتائج المهمة التي تحققت؟ وهل يمكن أن نرى ذاك الذي ينجو من الغرق يشكو لأنه لم يختر وسائل إنقاذه؟

قريباً، يا ابنتي العزيزة، سوف تشعرين بأن الآلام التي تخشينها ستخفّ من تلقاء نفسها. وإذا كان لا بد لها من أن تستمر، فستشعرين أكثر أن تحمّلها سيكون أهون من تحمّل تبكيت الضمير بسبب الخطيئة واحتقار الذات. لقد كان من غير المجدي لو حدّثتك قبل اليوم بمثل هذه الصراحة الظاهرة، فالحب شعور مستقل، وحده

الاحتراس يستطيع أن يتجنبه، ولكنه لا يستطيع أن يتغلب عليه، والحب متى وُلد لا يمكن أن يموت إلا من تلقاء نفسه أو نتيجة يأس تام. إن الحالة الأخيرة التي أنت فيها الآن هي التي تمنحني الشجاعة والحق كي أقول لك رأيي بحرية. من القسوة إخافة مريض يائس غير قادر سوى على تقبّل المواساة، ولكن من الحكمة تنوير مريض في طور النقاهة حول الأخطار التي مرّ بها، لكي نوحي إليه بالاحتراس الذي هو بحاجة اليه، وإخضاعه للنصائح التي يمكن أن تكون ضرورية له.

وبما أنك اخترتني طبيباً لك، لهذا ترينني أتحدّث مثله، وأقول لك أولاً: إن حالات الوعكة الصغيرة التي تشعرين بها في الوقت الحاضر، والتي تستلزم ربما بعض العلاجات، ليست بذات أهمية إذا قيست بالمرض المفزع الذي تأكد شفاؤك منه الآن. ثانياً: بما أنني صديقتك، صديقة امرأة متعقلة وفاضلة، أسمح لنفسي بأن أضيف: إن هذا الحب الذي سيطر عليك، كان تعيساً وصار أشد تعاسة بسبب الشخص المحبوب. وإذا صدّقتُ ما يقال، فإن ابن أخي الذي أعترف بضعفي تجاهه وأحبه جداً، تجتمع فيه الكثير من الخصال الحميدة والكياسة حقيقة، لكنني لا أنكر خطره على النساء وأخطاءه تجاههن، وهو يبذل جهداً مساوياً لإغرائهن وتضليلهن، وأغلب الظن أنك حوّلته عن هذه الطريق. لا أحد كان أكثر جدارة منه بذلك. كثيرون غيره كان يمكنهم أن يتباهوا مثله وخاب الأمل بهم. آمل ألا يصل بك الأمر إلى هذه الحال.

فكّري الآن، يا عزيزتي الجميلة، أنه عوضاً عن الأخطار الكثيرة التي كنتِ ستجازفين بها، ستنعمين بالرضا، فضلاً عن راحة الضمير والطمأنينة، لأنك كنت السبب الرئيسي في هداية السيد دوڤالمون

السعيدة. ومن جهتي، فأنا لا أشك في أن هذا الصنيع هو في جزء كبير منه نتيجة مقاومتك الشجاعة، وأن لحظة تخاذل واحدة من جانبك كانت لتترك ابن أخي في ضلال دائم. أحب أن أفكر بهذه الطريقة وأودّ أن أراك تفكرين مثلي، وهكذا ستجدين أول المواساة، وأنا سأجد المزيد من الأسباب كي يزداد حبي لك.

أنتظر وصولك الى هنا في غضون أيام يا ابنتي الحبيبة، كما أنبأتني. تعالي وستجدين الهدوء والسعادة في الأماكن نفسها التي فقدتها، تعالي لكي تتمتعي خصوصاً بعطف والدتك الحنون، بعد أن وفيت بوعدك لها، وهو ألا تفعلي شيئاً لا يكون جديراً بها وبك!

من قصر... في ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٧**.

الرسالة السابعة والعشرون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

إذا لم أردّ على رسالتك المؤرخة في ١٩ الجاري أيها الڤيكونت، فليس لأنني لم أجد الوقت، بل فقط لأنها أثارت استيائي، ولم أجد فيها شيئاً من التعقّل. ورأيت عندذاك أنه من الأفضل تناسيها، ولكن بما أنك عدتَ إليها، وبدوتَ متمسكاً بالأفكار التي تحتويها، وظننت صمتي رضاً، يجب أن أقول لك رأيي بوضوح.

لقد تسنّى لي في بعض الأحيان الادّعاء بأنني أستطيع أن أحلّ وحدي محل حريم كامل، ولكن لم يناسبني قط أن أكون جزءاً منه، وكنت أظنك تعرف. وبعد أن أصبحتَ لا تجهل ذلك على الأقل

الآن، تستطيع أن تلاحظ بسهولة كم بدا لي اقتراحك سخيفاً. من، أنا؟ أضحي بحب، بحب جديد من أجل الاهتمام بك؟ ولكي أهتم بك بأي طريقة؟ أنتظر دوري كجارية خانعة تنتظر الحظوة الرفيعة من *معاليك*. ومتى؟ مثلاً: حين تريد أن تسلو لحظة عن «*هذا السحر الغريب*» الذي جعلتك «*المعبودة السماوية*» السيدة دوتورڤيل وحدها تشعر به، أو حين تخشى أن تجازف بالفكرة الرائعة لدى «*المغرية سيسيل*» التي يسرّك أن تحفظها عنك. عندئذ، تتنازل وتأتي للبحث عن متع، أقل حدّة في الحقيقة ولكن لا خشية من نتائجها، وستكفي مكارمك الثمينة رغم ندرتها لسعادتي!

من المؤكد أن لديك الكثير من الآراء السديدة التي تصلح لك وحدك، لكنني ظاهرياً لست متواضعة إلى هذا الحد، لأنني مهما نظرت إلى نفسي، لا أستطيع أن أجد نفسي قد وصلت إلى هذه الدرجة من الانحطاط، ولعل هذا أحد أخطائي، لكنني أنذرك أن لديّ أخطاء كثيرة غيرها.

ومن بين هذه الأخطاء: أعتقد أن *التلميذ المائع* دانسيني، المشغول بي فقط، يكرّس لي هواه الأول، دون أن يتباهى به، حتى قبل أن يشبع رغباته منه، فهو يحبني كأي شخص في مثل سنّه، ورغم سنواته العشرين، يستطيع أن يعمل من أجل سعادتي وملذاتي بفاعلية أشد منك. وأسمح لنفسي أيضاً بأن أضيف أنه لو خطر ببالي أن أمنحه مساعداً فلن يكون هذا المساعد أنت، في الوقت الحاضر على الأقل.

وما الأسباب التي تحدوك لتطلب مني ذلك؟ ولكن، من الممكن جداً ألا يكون لديك أي سبب، لأن النزوة التي تجعلك المفضّل، يمكنها أيضاً أن تستبعدك. ومع ذلك، أودّ من قبيل اللياقة أن أبرّر لك رأيي، إذ يبدو لي أن عليك بذل تضحيات كثيرة من أجلي، وأنا

بدلاً من أن أكون ممتنة كما تتوقع، سأكون قادرة على الاعتقاد بأنك مدين لي بالامتنان أيضاً! ها أنت ترى، كم يختلف تفكير أحدنا عن الآخر، ولا نستطيع أن نتقارب بأي طريقة من الطرائق، وأخشى أن أحتاج إلى وقت طويل لكي أغيّر هذا الشعور. وحين سأتراجع عن هذا، أعدك بأن أخبرك. حتى ذلك الحين، صدّقني، قم بترتيبات أخرى، واحتفظ بقبلاتك، يلزمك الكثير لتتعلم أين تطبعها!

الوداع، كعهدنا السابق، كما تقول؟ ولكنك في الماضي كنت تقيم لي وزناً أكثر من الآن، ولم تكن تحفظني للأدوار الثانوية كليّاً، بل كان عليك الانتظار كي أقول كلمة «نعم» قبل أن تتأكّد من موافقتي. ارضَ إذاً بأن أقول لك الوداع كما نحن الآن، بدلاً من *الوداع كعهدنا السابق*.

خادمتك، أيها الڤيكونت!

*من قصر . . . في ٣١ أكتوبر/تشرين الأول ١٧***.

الرسالة الثامنة والعشرون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

أمس فقط، تلقيت جوابك المتأخر يا سيدتي. كان سيقتلني على الفور لو كانت حياتي لا تزال ملكي، لكن شخصاً آخر صار يمتلكها، وهذا الشخص هو السيد دوڤالمون. وها أنت ترين أنني لا أخفي عنكِ شيئاً. وإذا كنتِ ستجدينني غير جديرة بصداقتك بعد الآن، فأنا أخشى من إدهاشها أكثر من فقدانها. كل ما أستطيع أن أقوله لك أن السيد دوڤالمون وضعني بين خيارَين: موته أو سعادته، فقررت أن

أختار الثاني. وأنا هنا لا أفتخر بذلك، ولا ألوم نفسي، بل أروي ببساطة ما حدث.

ستشعرين بسهولة أي أثر تركت رسالتك والحقائق الصارمة التي تضمنتها، مع ذلك لا يخامرنّك الشك في أنه كان يمكن أن تبعث الندم في نفسي أو أن تغيّر شيئاً من العاطفة والسلوك. ليس لأنني لا أعاني من لحظات قاسية، إنما حين يكون قلبي ممزقاً، وأخشى عدم تحمل العذاب، أقول لنفسي: «ڤالمون سعيد»، فيزول عني كل ألم أمام هذه الفكرة، أو بالأحرى يتحوّل كل شيء إلى سرور.

وهكذا، أكون قد كرّست نفسي لابن شقيقك، ومن أجله ضللت. لقد أصبح محور تفكيري ومشاعري وأفعالي. وما دامت حياتي ضرورية لسعادته، فستكون ثمينة لديّ، وسأجدها سعيدة الحظ، أما إذا غيّر رأيه يوماً ما... فلن يسمع مني شكوى ولا ملامة. وقد سبق لي أن فكرت في هذه اللحظة المشؤومة، واتخذت قراري.

سوف ترين أن مخاوفك في الوقت الحاضر لم تعد تؤثر فيَّ كثيراً، في حال فقدني السيد دوڤالمون يوماً ما. لأنه قبل أن يرغب في ذلك سيكون قد كفّ عن حبي، وماذا يمكن أن تؤثر فيَّ مآخذ لا نفع لها ولن أصغي إليها؟ هو وحده سيكون الحكم. وبما أنني لن أعيش إلا من أجله، فعليه ستعتمد ذاكرتي، وإذا أُجبر على الاعتراف بأنني أحببته، سأكون معذورة ما يكفي.

ها قد قرأتِ كل ما في قلبي يا سيدتي. لقد فضّلتُ تعاسة فقدان احترامك بصراحتي، على جعل نفسي غير جديرة به بدناءة الكذب. وأنا على يقين بأنني مدينة بهذه الثقة التامة إلى مكارمك القديمة، ولو أضفتُ كلمة واحدة، لكنت جعلتك ترتابين في أن كبريائي يعتمد

عليها أيضاً. بينما على العكس، أنا أنصف نفسي وأكفّ عن الطمع فيها.

بكل احترام خادمتك المتواضعة المطيعة.

*باريس، في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة التاسعة والعشرون بعد المئة

من الفيكونت دوفالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

أخبريني إذاً يا صديقتي الحسناء، من أين يمكن أن تأتي لهجة الفظاظة والاستهزاء هذه التي تسود رسالتك الاخيرة؟ وما هي هذه الجريمة التي ارتكبتُها، ظاهرياً دون أن أشكّ فيها، والتي تثير فيك كل هذا الاستياء؟ تلومينني لأنني بدوت كأنني اعتمدت على موافقتك قبل نيلها، لكنني كنت أظن أن ما يمكن أن يبدو تخميناً بالنسبة إلى جميع الناس لا يمكن أن يؤخذ بينك وبيني إلا من قبيل الثقة. ومنذ متى كان شعور الثقة يضرّ بالصداقة أو بالحب؟ وحين أضفتُ الأمل إلى الرغبة، رضخت فقط للدافع الطبيعي الذي يعمل على وضعنا في أقرب ما يمكن من السعادة التي نبحث عنها. وقد اعتبرتِ ما صدر مني بسبب الشوق عجرفة وتكبّرًا. أعرف تمام المعرفة أن رفع الكلفة بيننا في هذه الحالة قد أثار في نفسك الشك، وأنا أحترمه، لكنك تعلمين أيضاً أن هذه الأمور ليست سوى شكليات، رسميات فحسب، وقد هُيّئ لي أنه مسموح لي بأن أعتقد أن هذه الاحتياطات الدقيقة لم تعد ضرورية بيننا.

ويبدو لي أيضاً أن هذا السلوك الصريح الحر، حين يكون قائماً

على أساس علاقة قديمة، هو أفضل من الممالقة التافهة التي تضعف الحب. فضلاً عن ذلك، لعل القيمة التي أجدها في هذه الطريقة لم تأتِ إلا من القيمة التي أعلقها على السعادة التي تذكّرني بها. ولكن حتى بهذا التعليل نفسه سيكون من الصعب جداً عليّ أيضاً أن أراك تحكمين على الأمر خلاف ذلك.

مع ذلك، هذا هو الخطأ الوحيد الذي أعرفه في نفسي: لأنني لا أتصور أنك استطعت التفكير جدّياً أن هناك امرأة واحدة في العالم يمكن أن أفضّلها عليك. وأكثر من ذلك، أنني استطعت إساءة تقديرك كما ظننتِ. قلت لي إنك نظرت الى نفسك ووجدت أنك لن تصلي الى هذا الدرك. وهذا ما أظنه تماماً، وهو يدلّ على أن مرآتك أمينة. ولكن، ألم يتسنّ لك أن تستنتجي، بسهولة وعدالة أكثر، أنني لم أحكم عليك أبداً بهذه الصورة بالتأكيد؟

عبثاً أحاول العثور على سبب لهذه الفكرة الغريبة، ويبدو لي أن سببها الثناء الذي سمحتُ لنفسي بتقديمه لنساء أخريات. وقد استنتجته على الأقل من تظاهرك بالاستشهاد بنعوت: «*المعبودة والسماوية والمغرية*» التي استخدمتها وأنا أحدثك عن السيدة دوتورڤيل أو عن الصغيرة ڤولانج. ولكن، ألا تعلمين أن هذه الكلمات التي تستخدم مصادفة ومن دون تفكير، قلّما تعبّر عن حقيقة الأشخاص الذين تُطلق عليهم بقدر ما تعبّر عن موقف القائل حين يتحدث عن هؤلاء الأشخاص؟ حتى عندما كنت متأثراً بقوة بهذه أو بتلك، لم أكن أقلّ رغبة فيك عمّا قبل. وإذا كنتُ قد أعطيتك أفضلية واضحة عليهما، فذلك لأنني لا أستطيع أن أجدّد علاقتنا الأولى إلا على حساب الاثنتين، ولا أرى هنا مكاناً للعتب. لن يكون من الصعب عليّ أن أبرّر نفسي بخصوص «*السحر الغريب*» الذي صُدمتِ به

قليلاً، لكن الشيء الغريب لا يعني أنه الأقوى. نعم! من يستطيع أن يتفوّق على الملذّات العذبة التي تعرفين أنت وحدك أن تجعليها جديدة دائماً، وأكثر حيوية من السابق؟ لقد أردت القول فقط إن هذا السحر كان من النوع الذي لم أختبره بعد، ولكن دون أن أزعم تصنيفه. وقد أضفتُ - ما أكرّره اليوم- أنه مهما كان هذا السحر، سأعرف كيف أحاربه وأهزمه. وسأبذل المزيد من الحماسة أيضاً إذا رأيت في هذا العمل البسيط تكريماً لك.

أما بالنسبة إلى الصغيرة سيسيل فأعتقد أنه من غير المجدي أن أحدثك عنها. لا تنسي أنني اهتممت بهذه الطفلة بناء على طلبك، ولا أنتظر إلا الإذن منك كي أتخلص منها. وقد استطعتُ أن ألاحظ براءتها ونضارتها، لا بل ظننت في إحدى اللحظات أنها مغرية، لأنه مهما يكن، فإن المرء يسرّ بصنع يديه، ولكنها بالتأكيد لا تملك شيئاً يلفت الانتباه.

والآن، يا صديقتي الحسناء، أحتكم إلى عدالتك وإلى أول مشاعر الطيبة نحوي، إلى الصداقة الطويلة الكاملة، والثقة التامة التي شدّت الروابط بيننا منذ ذلك الحين. هل أستحق منك هذه اللهجة العنيفة التي تستخدمينها معي؟ ولكن سيكون من السهل عليك أن تعوضيني عن ذلك متى تشائين! قولي فقط كلمة واحدة، وسترين ما إذا كانت جميع المفاتن وجميع الإغراءات ستمسك بي هنا. ولا حتى يوماً واحداً، أو دقيقة واحدة. سأطير حتى أصل عند قدميك وفي حضنك، وسأبرهن لك ألف مرة، وبألف طريقة أنك، الآن وإلى الأبد، سيدة قلبي الحقيقية.

الوداع يا صديقتي الحسناء، أنتظر جوابك بشوق كبير.

*باريس، في ٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الثلاثون بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى الرئيسة دوتورڤيل

ولماذا يا عزيزتي الحسناء ما عدتِ تريدين أن تكوني ابنتي؟ ولماذا تظهرين كأنك تعلنين أن المراسلة ستتوقف بيننا؟ هل هذا عقاب لي لأنني لم أحزر ما كان بعيد الاحتمال؟ أم إنك بدأت ترتابين بي لأنني أحزنتك عن غير إرادتي؟ لا، فأنا أعرف قلبك جيداً، بحيث لا أصدّق أنه يفكر هكذا عن قلبي. كما أن الألم الذي سبّبتهُ رسالتك لي لم يكن أقل مما سبّبته لك!

آه يا صديقتي الشابة! أقول لك بكل ألم: ولكنك جديرة جداً بأن تكوني محبوبة، وبأن يجعلك الحب سعيدة إلى الأبد. نعم! ألم تجد كل امرأة رقيقة وحساسة في حياتها الشقاء في هذه العاطفة نفسها التي كانت تَعِدُها بكثير من السعادة؟ وهل يعرف الرجال أن يقدّروا قيمة المرأة التي يمتلكونها؟

هذا لا يعني أن ثمة كثيرين منهم غير شرفاء في أساليبهم وغير ثابتين في عواطفهم. ولكن حتى بين هؤلاء كم يقلّ عدد أولئك الذين يعرفون أن يتّحدوا مع قلوبنا! فلا تظني يا ابنتي العزيزة أن حبهم مماثل لحبنا. إنهم يشعرون فعلاً بالنشوة ذاتها، ويضيفون عليها غالباً هياماً أشد، ولكنهم لا يعرفون هذا الشوق القَلِق وهذه العاطفة الرقيقة اللذين يحدثان فينا تلك الملاطفات الحنونة المستمرة، وهدفها الوحيد هو الشخص المحبوب. إن الرجل يتمتع بالسعادة التي يشعر بها، والمرأة بالسعادة التي تُحدِثها. إن الفرق، المهم جداً، والملحوظ قليلاً، يؤثر مع ذلك بطريقة محسوسة في سلوك كل واحد من الطرفين، إذ إن متعة

هؤلاء هي في إرضاء شهواتهم، أما متعة النساء فهي في إثارة هذه الشهوات. ونيل الإعجاب عند الرجل ليس سوى طريقة للنجاح لديه، بينما يُعتبر نيل الإعجاب لدى المرأة هو النجاح بعينه. وهكذا فإن الدلال الذي غالباً ما تؤاخذ عليه المرأة، ليس إلا مغالاة في هذا الشعور. ومن هنا تتضح الحقيقة. وأخيراً فإن هذه الشهوة الخاصة بالحب التي يتميز بها وهي الأقوى من الطبيعة، ليست سوى أفضلية لدى الرجل يستخدمها على الأغلب لزيادة متعته التي قد يضعفها هدف آخر دون أن يقضي عليها. أما لدى المرأة فهي شعور عميق، لا تمحق كل رغبة غريبة فحسب، بل تخضع لسلطانها، ولا تترك لها سوى شعور التقزز والقرف، حين يجدر بها أن تشعر بأوج اللذة.

ثم لا تظني أن هناك استثناءات، سواء كانت كثيرة أو قليلة، يمكن أن نذكرها على أنها تخالف بنجاح هذه الحقائق العامة! إذ إن الرأي العام مع الرجال أقوى ضمانة حين يميّز خيانتهم وعدم ثباتهم، تمييز يتفوقون به علينا، عوضاً عن أن يشعروا بالعار، هذا التمييز الذي تبّنته بعض نساء جنسنا الفاسدات الأخلاق، فتسربلن بالعار، وبدت لهنّ كل وسيلة مبررة لإنقاذهن من شعور الانحطاط الخسيس.

وجدتُ، يا حسنائي العزيزة، أنه قد يكون من المفيد أن أعرض عليك هذه الأفكار الوهمية عن السعادة الكاملة التي يبعثها الحب فينا مستغلاً مخيلتنا. إنها أمل خادع ما زلنا نتمسك به، حتى ولو وجدنا أنفسنا مضطرين إلى التخلي عنه، لأن فقدانه يثير أشجاننا الحقيقية التي لا تنفصل عن الهوى الشديد ويضاعفها! إن هذه الطريقة لتخفيف آلامك أو التقليل منها هي الوحيدة التي أريدها وأستطيع القيام بها في الوقت الحاضر. أمام الأمراض المستعصية، لا يمكن تقديم النصائح إلا بخصوص طعام المريض. ما أطلبه إليك فقط، هو أن تتذكّري أن

الإشفاق على المريض لا يعني إيلامه. ثم من نحن لكي يلوم بعضنا بعضاً؟ ولندع حق الحكم علينا إذاً إلى من هو وحده عالم بما في القلوب. وأجرؤ على الاعتقاد أيضاً أن كمّ الفضائل بنظرته الأبوية يمكن أن تكفّر عن تخاذلنا وضعفنا.

ولكنني أناشدك يا صديقتي العزيزة، ابتعدي عن هذه القرارات العنيفة التي تدل على الضعف واليأس، ولا تنسي أنك حين تجعلين شخصاً آخر يملك حياتك، وأنا هنا أستعمل عبارتك، لا يمكن أن تحرمي أصدقاءك مما كانوا يملكونه من قبل، ولن يكفّوا عن المطالبة به.

الوداع يا ابنتي العزيزة، فكري أحياناً في أمك الحنون، وثقي بأنك ستكونين دوماً، ومهما حدث، موضع أغلى أفكارها.

*من قصر... في ٤ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الحادية والثلاثون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

لحسن الحظ أيها الڤيكونت أنني مسرورة منك هذه المرة أكثر من المرة السابقة. ولكن، لنتحدث الآن كأصدقاء أوفياء، وآمل ان أقنعك بأن الإجراء الذي تبدو أنك ترغب فيه سيكون، بالنسبة إليك كما هو بالنسبة لي، جنوناً حقيقياً.

ألم تلاحظ حتى الآن إذاً أن اللذة، التي هي بالفعل الدافع الوحيد لاتحاد جنسين، لا تكفي لقيام علاقة بينهما؟ وإذا سبقتها الشهوة التي تقرّب، فسوف يتبعها التقزّز الذي يباعد غالباً. إنه قانون

الطبيعة، والحب وحده قادر على تغييره. ولكن، هل ننال الحب متى نشاء؟ ومع ذلك فلا بدّ منه دوماً. كان الأمر سيبدو محيراً جداً لو لم نلاحظ لحسن الحظ أنه يكفي لذلك أن يكون الحب موجوداً لدى طرف واحد. وعندئذٍ، تصبح الصعوبة أقلّ إلى النصف، لا بل دون أن تكون هناك خسائر. وبالفعل، سيتمتع أحدهما بسعادة أن يحب، والآخر بلذة أن ينال الإعجاب، بشكل أقل من دون شك، لكنه يضيف متعة الخداع مما يوازن الكفّة، ويسير كل شيء على ما يرام.

ولكن، قل لي أيها الڤيكونت، من منا سيتكفل بخداع الآخر؟ أنت تعرف قصة ذينك المخادعين اللذين اكتشف أحدهما الآخر وهما يقامران، ففكرا: لن نفعل شيئاً، بل سنتقاسم الأرباح والخسائر. وغادرا طاولة اللعب. فلنقتدِ بأمثولتهما الرائعة ولا نضيعنّ معاً وقتاً يمكن أن نستخدمه أفضل في مكان آخر.

ولكي أثبت لك هنا أن مصلحتك هي التي تجعلني أتخذ هذا القرار بقدر مصلحتي، وأنني لا أتصرف بدافع الاستياء ولا بدافع النزق، فإنني لا أرفض أن أدفع الثمن المتفق عليه بيننا، وأشعر على نحو رائع أن سهرة واحدة يمكن أن تكفينا عن بقية السهرات. ولا أشك أبداً في أننا نعرف كيف نجعلها رائعة بحيث نندم على انتهائها. ولكن، دعنا لا ننسى أن هذا الندم ضروري للسعادة، ومهما كان وهمنا عذباً، يجب ألا نعتقد أنه دائم.

ها أنت ترى أنني أنفّذ وعدي حتى دون أن تفعل ما طلبته منك، لأنني أخيراً أريد أن أحصل على أول رسالة من الورعة السماوية. مع ذلك، يبدو أنك ما زلت تحتفظ بها، أو نسيتَ شروط المساومة التي لم تعد تهمّك أقل مما تجعلني أظن. فأنا لم أتلقَّ شيئاً، لا شيء على الإطلاق. فإما أن أكون مخطئة وإما أن الورعة تحب أن تكتب كثيراً،

وإلا ماذا تفعل حين تكون وحدها؟ وهي لا تملك بالتأكيد ذهناً صافياً لتعرف كيف تلهي نفسها. وهكذا كان ينبغي عليّ أن أوجه إليك بعض المآخذ الصغيرة، ولكنني أفضّل السكوت، تعويضاً عن الاستياء الذي أبديته لك في رسالتي الأخيرة.

والآن، أيها الڤيكونت، لم يبقَ لي إلا أن أتقدّم إليك بطلب بسيط يهمّك بقدر ما يهمّني: وهو أن تؤجّل ما أرغب فيه، ربما مثلما ترغب أنت، إلى حين عودتي إلى المدينة. فمن ناحية، لن تكون لدينا هنا الحرية الكافية، ومن ناحية أخرى، أخشى المجازفة، لأنه لا يلزم إلا بعض الغيرة لكي يزداد هذا التعيس بيلروش تعلقاً بي أكثر فأكثر، بينما لم يعد ما يربطنا سوى خيط واهٍ. وأنا أبذل الجهد سدى كي يحبني إلى درجة أضع فيها من الخبث بقدر ما أبذل من الاحتراس في المداعبات التي أشحنه بها. ولكنك ترى في الوقت نفسه أنني لا أقدّم هنا أي تضحية من أجلك! إن خيانة متبادلة تجعل السحر أكثر متعة.

هل تعلم أنني أتأسف في بعض الأحيان لأننا اضطررنا إلى هذه الحيَل؟ ففي الزمن الذي كنا يحب فيه أحدنا الآخر، وأظن أن ذلك كان حباً، كنت سعيدة، وأنت أيها الڤيكونت؟... ولكن، لماذا أشغل بالي أيضاً بسعادة لا يمكن أن تعود؟ لا، مهما تقُلْ، فإن عودتها مستحيلة. لأنني أولاً سأطالب بتضحيات لا تستطيع أو لا تريد أن تقوم بها بالتأكيد، وقد أكون لا أستحقها. ثم كيف السبيل لجعلك تثبت على حبي؟ آه! لا. لا أريد الانشغال بهذه الفكرة البتة. ورغم السرور الذي أشعر به الآن وأنا أكتب إليك، لكنني أفضّل أن أتركك فجأة.

الوداع أيها الڤيكونت.

*من قصر... في ٦ نوڤمبر/ تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الثانية والثلاثون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

لقد غمرتني بلطفك يا سيدتي، وأنا أستسلم إليه بكليتي لو لم يردعني خوفي من أن أدنسّه بقبوله. ولماذا يجب أن أشعر بأنني غير جديرة به مع أنه غالٍ جداً على قلبي؟ آه! أجرؤ على الأقل على تقديم امتناني لك، ويدهشني خصوصاً هذا التسامح الصادر عن الفضيلة الذي لا يعرف ضعفنا إلا ليشفق عليه، وله على قلوبنا بسحره القوي سلطان عذب وقوي، إلى جانب سحر الحب.

ولكن، هل ما زلت أستحق صداقة لم تعد كافية لسعادتي؟ وأقول الشيء نفسه عن نصائحك التي أشعر بقيمتها ولا أستطيع اتباعها. وكيف يمكن ألا أؤمن بسعادة كاملة وأنا أشعر بها الآن؟ نعم، إذا كان الرجال هم كما تصفينهم، فلا بد من أن نهرب منهم، إنهم بغيضون، ولكن ڤالمون بعيد عنهم أي بعد! وإذا كان لديه مثلهم هذا العنف في الهوى الذي تسمّينه هياماً، فهو يعرف كيف يتجاوزه بالإفراط في رقّته! آه يا صديقتي! تقولين إنك تشاطرينني عذابي، فتمتعي إذاً بسعادتي، وأنا مدينة بها إلى الحب، وكم يزيدُ المحبوب من قيمتها! أنت تحبين ابن أخيك كما تقولين، وربما بضعف. آه، ليتكِ عرفته كما أعرفه! أحبه عبادة، لا بل أقلّ مما يستحق أيضاً. لقد انقاد وراء بعض الأخطاء من دون شك، وهو يعترف بذلك، ولكن من عرف مثله الحب الحقيقي؟ ماذا أقول لك أكثر؟ إنه يشعر به كما يوحيه.

سوف تظنين أن هذه الفكرة هي «*إحدى الأفكار الوهمية التي يبعثها الحب فينا مستغلاً مخيلتنا*». ولكن في هذه الحالة، لماذا

أصبح أكثر رقّة وأكثر حميّة منذ أن حصل على كل شيء؟ أعترف بأنني كنت أجده من قبل متفكّراً متحفظاً، وهذا مظهرٌ لم يكن يتخلى عنه إلا نادراً، مما كان يقودني رغماً عني إلى تلك الانطباعات الزائفة القاسية التي نقلوها إليّ عنه. ولكنه ما إن تمكن من الاستسلام طوعاً إلى اختلاجات قلبه حتى بدا كأنه يعرف جميع رغبات قلبي. من يعلم إذا لم نكن قد خلق أحدنا للآخر، وإذا لم تكن سعادتي هذه ضرورية لسعادته؟ آه، لو كان هذا وهماً ليتني أموت إذاً قبل أن ينتهي. ولكن لا. أريد أن أحيا لكي أحبّه وأعبده. ولماذا سيكفّ عن حبي؟ وأي امرأة أخرى يمكن أن تسعده أكثر مني؟ أشعر بنفسي أن هذه السعادة التي أبعثها فيه هي أقوى رابطة، لا بل الوحيدة. نعم، إن هذا الشعور العذب هو الذي يجعل الحب نبيلاً، ويطهّره بشكل من الأشكال، ويجعله جديراً بروح رقيقة وكريمة كروح ڤالمون.

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة، صديقتي المتسامحة، عبثاً أودّ أن أكتب إليك رسالة أطول، ولكن ها هي الساعة تشير إلى موعد وصوله فتغادرني جميع الأفكار. عفواً!... ولكن هل تريدين سعادتي؟ إنها كبيرة جداً الآن حتى إنني بالكاد أستوعبها.

*باريس، في ٧ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الثالثة والثلاثون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

صديقتي الحسناء، ما هي هذه التضحيات التي ترين أنني لن أقدمها لك إذاً، والتي سيكون ثمنها نيل إعجابك؟ آه! دعيني أعرفها

فقط، وسترين أنني إذا ما تردّدت في تقديمها إليك فسأسمح لك أن ترفضي ولائي. وكيف تحكمين عليّ للتوّ إذا كنتِ حتى في تسامحك ترتابين بعاطفتي وطاقتي؟ تضحيات لا أستطيع أو لا أريد القيام بها! هكذا إذاً، تظنين أنني عاشق ذليل؟ وثمن النجاح، هل تشتبهين بأنه متعلّق بشخص؟ آه، حباً بالله! لم أصل إلى هذا الحد بعد، وها أنا أعرض نفسي لكي أثبت لك ذلك. نعم، سأثبت لك ما يجب أن يكون تجاه السيدة دوتورڤيل. وسوف يزول عندك أي شك بالتأكيد.

لقد تمكنت، كما أعتقد، أن أمنح بعض الوقت- دون أن أتورط- إلى امرأة تتميز على الأقل بأنها من النوع الذي لا نصادفه إلا نادراً. ولعل الموسم الكاسد الذي جاءت فيه هذه المغامرة جعلني أنساق فيها أكثر، وحتى الوقت الحاضر الذي بالكاد بدأت فيه الأمور تعود إلى سابق عهدها. فليس من المدهش أن تشغلني كليّاً إذاً. ولكن فكّري أيضاً أنه لم تمضِ عليّ سوى ثمانية أيام فقط وأنا أتمتع بثمرة ثلاثة أشهر من الجهد. ولطالما كنت أحتاج إلى وقت أطول مع من هنّ أقل قيمة منها، ولم أبذل الكثير!... ومع ذلك، لم يسبق لك أن حكمتِ ضدي.

هل تريدين أن تعلمي السبب الحقيقي لهذه الحماسة اليي أبديتها؟ إن هذه المرأة خجول بطبيعتها، وفي الأيام الأولى كانت تشكّ باستمرار في سعادتها، وكان هذا الشكّ كافياً لأن يكدّرها، وبالكاد كنتُ ألاحظ إلى أين تذهب مساعيّ مع هذا النوع. وكنت أتوق لمعرفة ذلك، ولكن الفرصة لا تتاح لنا دائماً كما نريد.

أولاً إن اللذة بالنسبة إلى نساء كثيرات هي لذة بحت، لا أكثر ولا أقل، ونحن الرجال، بنظر هؤلاء، مهما كانت الألقاب التي

يزينننا بها، لسنا سوى عوامل لبعث اللذة، مجرد وسطاء، كل قيمتهم في نشاطهم، ومن ينشط أكثر هو الأفضل.

وعند فئة أخرى من النساء، لعلّها الأكثر عدداً اليوم، فإن شهرة العاشق، ومتعة انتزاعه من إحدى المزاحمات، والخوف من رؤيته يُنتزع بدوره، يشغل بال غالبية النساء تقريباً. وهكذا ندخل نوعاً ما ضمن النمط من السعادة التي يتمتعن بها، بيد أن ذلك يتوقف على الظروف أكثر مما يتوقف على الشخص. وهذه السعادة تأتيهن بواسطتنا وليس من قبلنا.

وكان لا بدّ من أن أعثر -من أجل ملاحظاتي- على امرأة رقيقة حساسة، تجعل من الحب همّها الوحيد، وفي الحب نفسه لا ترى سوى حبيبها، ويكون انفعالها -بعيداً عن الطريقة العادية- صادراً عن القلب دائماً كي يصل إلى الحواس، ورأيتها مثلاً (ولا أتحدث هنا عن اليوم الأول) تخرج من اللذة باكية، وتستعيدها بعد لحظة بكلمة واحدة تستجيب لها روحها. وأخيراً، كان لا بد من أن تلتقي فيها هذه السذاجة الطبيعية التي أصبحت بحكم الاستسلام لها لا تُقهر، ولا تسمح لها بأن تُخفي أياً من أحاسيس قلبها. غير أنك تقرّين معي أن مثل هؤلاء النساء نادر، وبوسعي الظن أنني لولا معبودتي لما التقيت بواحدة منهن قط.

ليس من المدهش إذاً أن تكون قد جعلتني أثبت عليها مدة أطول من غيرها، وكان العمل الذي بذلته إزاءها يقتضي بأن أجعلها سعيدة، سعيدة تماماً! فلماذا أرفض مغامرة كهذه، خصوصاً إذا كانت تخدمني بدلاً من أن تعاكسني؟ ولكن هل ما يشغل التفكير يحتّم أن يجعل القلب عبداً له؟ كلا، من دون شك. كما أن ما أبذله من ثمن في

سبيل هذه المغامرة لا يحول دون الانسياق وراء مغامرات أخرى، أو التضحية بها في سبيل مغامرات أكثر متعة.

وهكذا فأنا حرّ طليق إلى درجة أنني لم أهمل الصغيرة ڤولانج التي لا أتمسك بها كثيراً. وستعيدها أمها إلى المدينة بعد ثلاثة أيام. وقد استطعت منذ أمس أن أؤمن اتصالاتي: بعض المال إلى البواب، وبعض الزهور إلى زوجته، وتمت تسوية القضية. هل تدرين أن دانسيني لم يعرف حتى الآن كيف يعثر على هذه الوسيلة البسيطة جداً؟ ومن قال إن الحب يجعل المرء عبقرياً! إنه على العكس يخبل أولئك الذين يسيطر عليهم. وكيف لا أعرف أن أدافع عن نفسي! آه! اطمئني. سأعمد في أيام قليلة إلى تخفيف هذا الشعور القوي ربما الذي شعرت به، وذلك باتخاذ عشيقة أخرى، وإذا لم تكفِ واحدة فسأضاعف عددهن.

كما أنني لن أكون أقلّ استعداداً لتسليم التلميذة الصغيرة إلى عشيقها الخجول متى وجدتِ الأمر مناسباً. ويبدو لي أنه لم تبقَ لديك أسباب لمنعه من ذلك، وأنا مستعد بكل طيبة خاطر لتأدية هذه الخدمة لدانسيني المسكين. وهي في الحقيقة أقل ما ينبغي مقابل جميع الخدمات التي قدمها لي. إنه الآن في غاية القلق لمعرفة ما إذا كانت السيدة دوڤولانج ستستقبله في بيتها أم لا. أعمل على تهدئته قدر استطاعتي، مؤكداً له بطريقة أو بأخرى، بأنني سأصنع سعادته في أقرب يوم. وبالانتظار سأتابع تعهد المراسلة التي يريد استئنافها مع «سيسيلته» لدى وصولها. وعندي الآن ستّ رسائل منه، وقد يسلّمني واحدة أو اثنتين غيرها قبل اليوم السعيد. لا شك أن هذا الصبيّ عاطل بطّال!

ولكن، دعينا من هذا الثنائي الصبياني ولنعد إلى شؤوننا، كي

أستطيع أن أهتم فقط بالأمل العذب الذي بعثته فيّ رسالتك. أجل، ستجعلينني أثبت على حبك من دون شك، ولن أغفر لك الشكّ في ذلك. هل كففتُ يوماً عن الثبات على عهدك؟ لقد انحلّت روابطنا ولكنها لم تنقطع، وانفصالنا المزعوم لم يكن سوى غلطة من بنات خيالنا. ألم تبقَ عواطفنا ومصالحنا موحدة؟ أنا أشبه ما يكون بذلك المسافر العائد مخدوعاً. وسأعترف مثله بأنني تركت السعادة لكي أجري وراء المرتجى، وسأقول كما قال داركور:

«كلما رأيت أناساً أغراباً، أحببت وطني أكثر».

لا تقاومي بعد الآن الفكرة، أو بالأحرى العاطفة التي تعيدك إليّ. وبعد أن جرّبنا جميع المتع في طريقينا المختلفين، فلنتمتع بسعادة أنه لا يوجد واحدة من بين هذه المتع ما هو مماثل لما شعرنا به ولما سنجده أكثر عذوبة أيضاً!

الوداع يا صديقتي الفاتنة، أوافق على انتظار عودتك، ولكن عجّلي بها، ولا تنسي كم أرغب فيها.

*باريس، في ٨ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الرابعة والثلاثون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

في الحقيقة، أيها الڤيكونت، أنت كالأطفال تماماً، الذين يجب ألا يُقال أمامهم شيء، ولا يمكن إظهار أي شيء حتى لا يسارعوا إلى الاستيلاء عليه! وهكذا خطرت لي فكرة بسيطة كنت قد نبّهتك

إليها ولا أريد أن أتوقف عندها حتى لا تسارع إلى استغلالها لكي تعيد انتباهي إليها وتقيّدني بها فيما أحاول أن أصرف اهتمامي عنها، وأنت تجعلني بشكل من الأشكال أشاطرك رغماً عني رغباتك الطائشة! هل من اللائق منك أن تتركني أتحمّل وحدي عبء كل هذا الاحتراس؟ أعيد عليك القول، وأكرره لنفسي أيضاً: إن الإجراء الذي تقترحه عليّ هو حقيقة مستحيل. وحين تُظهر كل هذا السخاء في الوقت الحاضر، هل تظن أنني لا أملك أنا أيضاً رهافة الحسّ ويمكن أن أقبل تضحيات قد تؤذي سعادتك؟

ولكن، هل تلمّح أيها الفيكونت إلى عاطفتك تجاه السيدة دوتورفيل؟ إنه الحب، وإلا فإنه لم يوجد مطلقاً. تستطيع أن تنكره بمئة طريقة، ولكنك تبرهنه بألف. ما هذا التبرير الذي تستخدمه تجاه نفسك مثلاً (فأنا أعرفك صادقاً معي) الذي أثار فيك رغبة لا تستطيع أن تخفيها ولا أن تقاومها، في الاحتفاظ بهذه المرأة؟ ألم يُقل إنك لم تجلب السعادة لأي امرأة قط، السعادة الكاملة؟ آه، إذا كنت تشكّ في ذلك، فإن ذاكرتك ضعيفة حقاً! ولكن ليس الأمر هكذا، بكل بساطة، قلبك يستغل عقلك ويجعله يقتنع بدوافع باطلة. ولكن أنا من لي مصلحة في ألا أنخدع، ليس من السهل عليّ أن أرضى.

وهكذا، بعد أن لاحظتُ تهذيبك الذي دفعك إلى أن تحذف بعناية جميع الكلمات التي تخيلت أنها لم تعجبني، مع ذلك، فقد احتفظت دون أن تنتبه بالأفكار نفسها. وبالفعل، لم تعد المعبودة السماوية السيدة دوتورفيل، بل أصبحت *المرأة المدهشة*، *المرأة الرقيقة الحساسة*، وهي، دوناً عن كل النساء، *امرأة نادرة*، *لا يمكن أن نلقى لها* مثيلاً. وقلت الشيء نفسه عن هذا السحر الغامض الذي ليس هو *الأقوى*. حسناً! فليكن، ولكن بما أنك لم تجد لها مثيلاً

حتى الآن، فمن المحتمل ألا تجد في المستقبل أيضاً، والخسارة التي تقترفها لا يمكن أن تعوّض. إما أن هذه، أيها الڤيكونت، عوارض الحب المؤكدة، وإما يجب الإقلاع عن العثور على أي حب.

كن متأكداً أنني أتحدث إليك هذه المرة من دون غضب. وقد وعدت نفسي بألا أشعر بذلك مطلقاً، وتبيّن لي أنه يمكن أن يصبح ذلك كميناً خطيراً. صدّقني، يجب أن نبقى أصدقاء ولنتوقف عند ذلك. وكن ممتناً لي فقط لشجاعتي في الدفاع عن نفسي. أجل شجاعتي، لأنها ضرورية في بعض الأحيان من أجل عدم اتخاذ قرار نشعر بأنه خاطئ.

سألبّي طلبك بشأن التضحيات التي أتطلبها ولا تستطيع تقديمها، من أجل حملك على الاقتناع برأيي فحسب. وهنا أستخدم عمداً كلمة: «أتطلبها»، لأنني على يقين من أنك ستجدني في إحدى اللحظات متطلبة جداً. ولكن هذا أفضل! وأنا أبعد ما يكون عن الاستياء، وأشكرك على ذلك. سأروي لك لأنني بحاجة إلى ذلك فقط، ولا أريد أن أخفي عنك شيئاً.

أنا متطلبة إذاً، لاحظ كم أنت قاسٍ! لقد طلبت منك أن ترى هذه المرأة النادرة، هذه المدهشة السيدة دوتورڤيل كامرأة عادية، امرأة كما هي فقط، لأنه يجب ألا ننخدع، إذ إن السحر الذي نظن أننا نراه لدى الآخرين، هو في الأساس موجود فينا، والحب وحده هو الذي يجمّل الشخص المحبوب. وما أطلبه منك هنا، مهما كان مستحيلاً، وربما عليك أن تبذل جهداً لكي تعدني به، بل تقسم لي، ولكنني أعترف بأنني لا أؤمن بالكلام ولن أقتنع إلا بمجمل تصرفاتك.

وهذا ليس كل شيء، وقد تراني متقلبة الأهواء. إن هذه التضحية بخصوص الصغيرة سيسيل التي تقدّمها لي بكل طيبة خاطر، لم تعد تشغل بالي مطلقاً. على العكس، أطلب منك متابعة هذه الخدمة الشاقّة حتى إشعار آخر من قبلي. وأقول ذلك إما حباً باستغلال سلطاني عليك، وإما عن سعة صدري وإنصافي بحيث أتصرف بعواطفك دون أن أعاكس ملذاتك. ومهما يكن، أريد أن أكون مُطاعة، وأوامري شديدة صارمة!

وعندئذ فقط، سأكون ممتنة وشاكرة. من يدري؟ ربما أكافئك! سأختصر غياباً صار لا يحتمل مثلاً. وسأراك أخيراً، أيها الڤيكونت، وسأراك... كيف؟ ولكن تذكّر أن هذه مجرد محادثة، عرض لمشروع مستحيل، ولا أريد أن أنساه وحدي.

هل تعلم أن دعواي تقلقني بعض الشيء؟ لقد أردتُ أن أعرف أخيراً ما هو دفاعي على وجه التحديد. يذكر لي المحاميان بعض القوانين، وبكثير من السلطة بشكل خاص، كما يزعمان: ولكنني لا أرى في ذلك وجه الحق والعدالة. وأنا الآن شبه نادمة لأنني رفضت التسوية. وفي الأثناء أُطمئِن نفسي حين أفكر في أن النائب العام بارع، والمحامي بليغ، والمدعية جميلة. وإذا لم تعد لهذه العوامل الثلاثة أية قيمة، فيجب تغيير مجرى جميع القضايا، ولكن ماذا سيحلّ باحترام التقاليد القديمة؟

إن هذه الدعوى هي الشيء الوحيد الذي يحتجزني هنا حالياً. قضية بيلروش انتهت: براءة مع إلزام بالمصاريف. وهو الآن نادم على عدم تمكنه من الحضور إلى حفل هذا المساء، نَدَمُ المتبطل الذي لا عمل له! سأعيد إليه حريته بكاملها عند عودتي إلى المدينة. وسأقدّم له هذه التضحية المؤلمة، وأتعزى بكرمي الذي سيجده فيها.

الوداع أيها الڤيكونت، اكتب إليّ دائماً. إن تفاصيل ملذاتك تعوضني على الأقل عن جزء من السأم الذي أشعر به هنا.

*من قصر... في ١١ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الخامسة والثلاثون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

أحاول أن أكتب إليك وأنا لا أعلم ما إذا كنتُ قادرة على ذلك. آه يا إلهي! عندما أفكر أن فرط سعادتي هو الذي حال دون إكمال رسالتي الأخيرة! وها هو اليأس الشديد يضنيني الآن، ولا يدع لي من القوة سوى للشعور بآلامي، ويحرمني من التعبير عنها.

ڤالمون... ڤالمون لم يعد يحبني، لم يحبني قط. هل يزول الحب هكذا؟ إنه يخدعني ويخونني ويهينني. كل قهر الدنيا وذلّها أشعر بهما الآن، وهو السبب في ذلك.

ولا تظنّي أنه مجرد شك، فأنا أبعد ما يكون عن ذلك! ولا أسعد عادة بالشك. لقد رأيته بنفسي: ماذا يستطيع أن يقول لي ليبرّر موقفه؟ ولكن ما همّه؟ فهو لن يحاول... كم أنا تعيسة! وما نفع ملاماتك ودموعك؟ وإن كانت أكثر ما يهمّه؟

صحيح إذاً أنه ضحّى بي، لا بل تخلّى عني... وفي سبيل من؟... مخلوقة حقيرة... ولكن ماذا أقول؟ آه! لقد فقدت حتى حقّ ازدرائها. فهي لم تخن مثلي واجباتها، بل هي أقل ذنباً مني. آه كم هو مؤلم العذاب حين يستند إلى تبكيت الضمير! أحس بعذابي يتضاعف. الوداع يا صديقتي العزيزة، مهما جعلت نفسي غير جديرة

بأي شفقة، فسوف ترثين لحالي إذا استطعتِ أن تكوّني فكرة عما أعانيه.

للتوّ أعدتُ قراءة رسالتي، فلاحظت أنها لا يمكن أن تعلمك بشيء. سأحاول إذاً أن أتسلح بالشجاعة لأروي لك هذا الحادث الفظيع. كان ذلك أمس، وكان عليّ لأول مرة منذ عودتي أن أذهب إلى العشاء خارج منزلي. كان ڤالمون قد جاء لزيارتي في الساعة الخامسة، ولم يظهر بمثل تلك الرقة من قبل، وقال لي إن فكرة خروجي تضايقه. وبإمكانك أن تتصوري أنني قررت البقاء على الفور. ومع ذلك، بعد ساعتين، تغيّر مظهره ولهجته فجأة، وبشكل ملحوظ. لا أدري إذا كان قد صدر عني شيء لم يعجبه. ومهما يكن، فقد ادّعى بعد قليل أنه تذكر قضية هامة تجبره على تركي، ثم انصرف. ولكن ليس دون أن يظهر لي أسفه الشديد، وقد بدا لي رقيقاً وظننته صادقاً حينذاك.

وبعد أن أصبحت وحيدة، رأيت أنه من الأنسب ألا أتخلف عن مواعيدي الأولى لأنني كنت حرة في الالتزام بها. أنهيت زينتي وصعدت إلى العربة. ولسوء الحظ مرّ بي الحوذي أمام دار الأوبرا، ووجدت نفسي في زحمة خروج الجمهور. على بعد أربع خطوات مني وفي الصف المحاذي لعربتي، لمحت عربة ڤالمون. خفق قلبي حالاً، ولكن لم يكن ذلك من الخوف، وكان أن شغلتني فكرة واحدة، وهي الرغبة في أن تتقدم عربتي. وبدلاً من ذلك، أجبرت عربته على التراجع حتى أصبحت إلى جانب عربتي فتقدمتُ على الفور. كم كانت دهشتي كبيرة حين وجدت إلى جانبه فتاة معروفة! فانسحبتُ كما يمكن أن تتصوري. وكان ذلك كافياً ليحزن قلبي. ولكن ما يصعب عليك أن تصدقيه هو أن هذه الفتاة نفسها، التي بدت

ظاهرياً أنها تعرف سرّي من خلال صديقها البغيض، لم تترك باب العربة ولم تتوقف عن التحديق بي وهي تطلق ضحكات قوية تثير الانتباه.

وعلى الرغم من الإعياء الذي شعرت به، تركت العربة تقودني إلى المنزل الذي كنت سأتناول العشاء فيه. ولكن كان يستحيل عليّ البقاء هناك، إذ كنت أشعر في كل لحظة بأنني على وشك الإغماء، لا سيما أنني لم أستطع حبس دموعي.

ولدى عودتي، كتبت رسالة إلى السيد دوڤالمون وبعثت بها في الحال، لكنه لم يكن في منزله. ولأنني أردت مهما كان الثمن أن أخرج من حالة الموت هذه، أو أتأكد منها للأبد، فقد أمرت خادمي أن ينتظره. ولكن، قبل منتصف الليل عاد خادمي بعد أن علم من حوذي عربته أن سيده لن يعود تلك الليلة إلى المنزل. وقد ظننت هذا الصباح أنه لم يبقَ أمامي سوى أن أطلب رسائلي منه مرة أخرى، وأرجوه ألا يأتي إلى بيتي مطلقاً. وبالفعل، أصدرت أوامري بهذا الشأن، ولكنها كانت من دون شك غير مجدية. الساعة الآن تقارب منتصف النهار ولم يظهر، كما لم تصلني منه أية كلمة.

والآن، يا صديقتي العزيزة، لا شيء أضيفه، وها قد اطّلعتِ على حالي وأنت تعرفين قلبي. وأملي الوحيد هو ألا أطيل أكثر تعبك معي.

*باريس، في ١٥ نوڤمبر/تشرين الثاني **١٧.*

الرسالة السادسة والثلاثون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى الڤيكونت دوڤالمون

بعد الذي حدث أمس، لا تتوقع أن أستقبلك في بيتي بعد الآن يا سيدي، وهذا ما لا تريده أيضاً! إن هدف هذه الرسالة الصغيرة لا لكي أرجوك عدم الحضور إلى بيتي وحسب، بل لأطلب منك مرة أخرى إعادة رسائلي التي كان يجب ألا تُكتب أساساً. وإن كانت قد شغلت اهتمامك في وقت من الأوقات كدليل على الغباوة التي خلقتها، فهي لا تهمّك البتة الآن بعد أن استعدت رشدك ولم تعد هذه الرسائل تُعبر عن عاطفة حطمتها أنت بنفسك.

أعترف وأقرّ بأنني أخطأت حين وضعت فيك ثقة كانت ضحيتها كثيرات قبلي. ولهذا، لا أضع اللوم إلا على نفسي، ولكنني أعتقد أنني على الأقل لم أكن أستحق أن تتركني للازدراء والإهانة. وكنت أظن أنني حين ضحّيت من أجلك بكل شيء، وتنازلت عن حقوقي في نيل احترام الآخرين ونفسي، يمكن ألا تحكم عليّ بقساوة أكثر من حكم مجتمع ما زال يجد فرقاً شاسعاً بين المرأة الضعيفة والمرأة الفاسدة. هذه الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الجميع هي الوحيدة التي أحدثك عنها، وأسكت عن أخطاء الحب، لأن قلبك لن يصغي إلى قلبي.

الوداع يا سيدي.

*باريس، في ١٥ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة السابعة والثلاثون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الرئيسة دوتورڤيل

تسلّمتُ رسالتك للتوّ يا سيدتي، ارتجفتُ وأنا أقرأها، ولم تدع لي قوة للردّ عليها. أي فكرة فظيعة لديك عني؟! آه! عندي أخطاء من دون شك، ولا أسامح نفسي عليها طول حياتي، لكنك شملتِها بسعة صدرك. أما تلك الأخطاء التي تلومينني عليها فلقد كانت دوماً بعيدة عن روحي! مَن، أنا؟! أهينك، وأحقّرك، أنا من يحترمك بقدر ما يحبك، ولم أعرف الزهو إلا حين حكمتِ عليّ بأنني جدير بك؟ لقد خيبت أملك المظاهر. وأعترف بأنها يمكن أن تكون ضدي، ولكن ألم يكن في قلبك ما يكفي لمحاربتها؟ ألم يثُر لأنه استطاع أن يشكو من قلبي؟ ومع ذلك فقد صدّقتِه! ولم تحكمي عليّ فقط بأنني قادر على اقتراف هذا الجنون الفظيع، بل خفتِ أن أكون قد أقحمتك فيه بسبب أفضالك نحوي. آه! إذا كنت تجدين نفسك منحطّة إلى هذا الحد من جراء حبك لي، فهل أنا خسيس بنظرك إذاً؟

أما وقد ضاق صدري من هذا الشعور المؤلم الذي سبّبته لي هذه الفكرة، فإنني أضيّع في دفعها الوقت الذي يجب أن أستخدمه للقضاء عليها. سأعترف بكل شيء، لكن اعتباراً آخر ما زال يمنعني. هل عليّ أن أروي الوقائع التي أريد نسيانها، وأحصر انتباهك وانتباهي في لحظة خطأ أريد أن أفتديها ببقية حياتي، وما زلت لا أفهم سببها، وكلما تذكرتها شعرت بالإهانة واليأس؟ آه! إذا كنت أثير غضبك حين تتهمينني، فما عليك أن تبحثي كثيراً لتنتقمي، يكفي أن تسلميني إلى الندم.

ومع ذلك، من يصدّق أن السبب الأول لهذا الحادث هو السحر القوي الذي أشعر به حيالك؟ وهو الذي جعلني أنسى لمدة طويلة قضية هامة لا يمكن تأجيلها. لقد تركتك في ساعة متأخرة ولم أجد الشخص الذي ذهبت أبحث عنه. وأملت أن أراه في دار الأوبرا، لكن مسعاي كان أيضاً من دون جدوى. وصادفت هناك إيميلي التي عرفتها في وقت كنت ما أزال بعيداً عن معرفتك ومعرفة الحب. لم تكن معها عربتها فطلبت إليّ أن أقلّها معي إلى بيتها القريب. لم أرَ في ذلك أي مانع ووافقت. وكان أن صادفتك وشعرت على الفور بأنك ستحكمين عليّ «مذنباً».

أكثر ما يقلقني هو ألا أنال إعجابك، أو أن أحزنك. وأعترف بأن الخوف حملني على محاولة إخفاء هذه الفتاة، لكن هذا الاحتراز النابع من المراعاة انقلب ضد الحب. فهي كجميع الفتيات مثلها ليست معتادة الوثوق بسلطان من يستغلها، فلم تدع مثل هذه المناسبة الباهرة تفوتها. ومع ازدياد ارتباكي، كانت تحاول أن تظهر أكثر. وكان مرحها الجنوني الذي ظننت في وقت من الأوقات أنه موجّه إليك قد أخجلني وسبّب لي ألماً فظيعاً نتج هو نفسه عن احترامي وحبي لك.

حتى الآن، أنا تعيس أكثر من كوني متهمًا من دون شك. وإن «*هذه الأخطاء التي يرتكبها جميع الناس والوحيدة التي تحدثينني عنها*» ليس لها وجود، ولا يمكن أن ألام عليها. لكنك تسكتين عبثاً عن أخطاء الحب: وأنا لن ألتزم بالصمت نفسه حيالها، فهناك أهمية كبرى تجبرني على قطعه.

إن الفوضى التي وقعتُ فيها بسبب هذا الضلال غير المفهوم، لا أستطيع أن أذكرها من دون ألم. أنا الغارق بأخطائي، سأرضى

بتحمل وزرها، أو أنتظر العفو من الزمن ومن حبي الأبدي ومن ندمي. ولكن كيف أسكت، وما بقي لدي لأقوله لك يهمّ عطفك؟

لا تظني أنني أبحث عن حيلة لكي أُعذر أو أخفف غلطتي، بل أعترف بذنبي. ولكنني لا أعترف أبداً ولن أعترف مطلقاً بأن هذه الغلطة المهينة يمكن ان تعتبر خطأ في الحب. وإلا ما الفرق إذاً بين لحظة ينسى فيها المرء نفسه ومن بعدها يعتريه الندم، وبين شعور طاهر لا يمكن أن يولد إلا في نفس حساسة، أساسه الاحترام وثمرته السعادة. آه! لا تدنّسي الحب بهذه الطريقة. وحاذري أيضاً من أن تدنّسي نفسك حين تجمعين ما لا يمكن جمعه أبداً في وجهة نظر واحدة. ودعي النساء الوضيعات الساقطات يخفنَ من مزاحمة يشعرن بها رغماً عنهن بوجودها، ويعانين من وساوس غيرةٍ قبيحة ومهينة. أما أنت، فَأشيحي بصرك عن هذه الحثالات التي تلوّث عينيك الطاهرتين، وعاقبي كالإلهة أيضاً الإهانة دون أن تشعري بها.

ولكن، أي عذاب تفرضين عليّ، وهو أشد مما أعاني الآن؟ وما الذي يمكن مقارنته بالحسرة على فقداني إعجابك، وباليأس من إحزانك، وبالفكرة المعذّبة بأن جعلت نفسي أقل جدارة بك؟ أنتِ تهتمين بالعقاب! وأنا أطلب منك العزاء. كلا، ليس لأنني أستحقه، بل لأنني أحتاجه ولا يمكن أن يأتيني إلا منك.

وإذا شئتِ فجأة أن تنسي حبي وحبك، وما عدت تعطين قيمة لسعادتي، وعلى العكس أردت أن تتركيني فريسة العذاب الأبدي، فلكِ الحق بذلك. اضربي ضربتك، ولكن إذا تذكرت المشاعر الرقيقة التي كانت توحّد قلبينا، ومتعة الروح السامية التي تتجدد على الدوام وتشعرين بها بقوة، وتلك الأيام السعيدة التي قضيناها معاً والتي كان كل منا مدينًا بها للآخر، وتذكرت كل النعم التي يخلقها الحب

وحده، لعلك ستفضّلين تجديد ولادتها بدلاً من تحطيمها. ماذا سأقول أخيراً؟ لقد أضعتُ كل شيء، وكان ذلك بسبب غلطتي. ولكنني أستطيع استعادة كل شيء بفضل إحسانك. لك يعود القرار، ولا أضيف إلا كلمة واحدة: أمس فقط، أقسمتِ أن سعادتي مؤكدة ما دامت تتوقف عليك! آه يا سيدتي! هل تدعينني اليوم في يأس أبدي؟

*باريس، في ١٥ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الثامنة والثلاثون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

ما زلت مصرّاً يا صديقتي الحسناء: لا، أنا لست عاشقاً البتة، وليس الذنب ذنبي إذا أجبرتني الظروف على القيام بدور العاشق. وافقي فقط وعودي، وسترين بنفسك على الفور كم أنا صادق. لقد قدّمت براهيني في الأمس، ولا يمكن أن تُحطّميها بما يجري اليوم.

كنت عند الحسناء الورعة في زيارة ليس لها أي غاية، إذ كان على الصغيرة ڤولانج أن تقضي الليل بطوله في حفلة الرقص التي أقامتها السيدة ف... على الرغم من توعكها. ولأنني كنت سئما متبطلاً، رغبت في البقاء معها لمدة أطول، لا بل طالبتها بتضحية صغيرة، لكنها ما كادت تمنحني إياها حتى شعرتُ بأن المتعة التي وعدتُ نفسي بها قد اضطربت من جراء فكرة هذا الحب الذي تصرين على وجوده، أو على الأقل تأخذينه عليّ، ولم أعد أشعر سوى بالرغبة في أن أطمئن نفسي، وأقنعك في الوقت نفسه بأن اتهامك باطل.

اتخذتُ عندذاك قراراً عنيفاً وتذّرعت بحجة واهية لترك حسنائي. بدت مندهشة جداً ومتألمة أكثر، أما أنا فقد ذهبتُ بهدوء إلى دار الأوبرا لملاقاة إيميلي. وتستطيعين التأكد منها أننا لم نفترق حتى هذا الصباح، ولم يعكّر ملذاتنا أي ندم.

ولكن، كادت الحادثة تسبب لي المتاعب لولا لامبالاتي التامة التي أنقذتني. كنت قريباً من دار الأوبرا، ومعي إيميلي في عربتي، حين مرّت عربة الورعة ووقفت بمحاذاتنا. بقينا هكذا لمدة ربع ساعة بسبب عرقلة في السير. رأى بعضنا بعضاً كما لو كنا في عز النهار، ولم تكن هناك وسيلة للإفلات.

ولكن، لم يكن هذا كل شيء، فقد أسرَرت لإيميلي أن هذه المرأة هي التي كتبتُ إليها الرسالة وأنا معها (ولعلك تتذكرين هذا الجنون حين جعلت من إيميلي منضدة كتبت عليها). لم تنسَ إيميلي ذلك، وهي الساخرة الضحوك، لذلك لم تكفّ عن النظر مبتهجة إلى *«هذه الفضيلة»* كما تسمّيها، وراحت تطلق العنان لضحكاتها الساخرة، بشكل فاضح.

ولم تنتهِ القصة هنا، فقد أرسلت المرأة الغيور خادمها إلى منزلي في المساء نفسه، وحين لم يجدني أرسلته بعناد مرة أخرى وأمرته أن ينتظر. ولأنني كنت أنوي تمضية الليلة مع إيميلي، فقد صرفت حوذي عربتي وطلبت إليه ألا يعود إلا في الصباح. وحين وصل إلى بيتي وجد رسول الحب بانتظاره، وقد رأى من الطبيعي أن يبلغه أنني لن أعود هذه الليلة، وتستطيعين أن تتصوري مبلغ تأثير هذا النبأ. وهكذا، حين عدت هذا الصباح وجدت قرار عزلي مع كل ما تقتضيه عزة النفس في هذه الظروف.

كان بالإمكان أن تنتهي هذه المغامرة الطويلة كما تقولين هذا

الصباح. وإذا كانت لم تنته، فليس لأنني كما ستعتقدين، أبذل جهداً كي تستمر، بل لأنني لم أجد من اللائق أن أترك بهذه الطريقة من جهة، ومن جهة أخرى، أردت أن أحتفظ لك بشرف هذه التضحية.

رددت إذاً على الرسالة القصيرة القاسية برسالة عاطفية طويلة، وقدّمت مبررات أطول معتمداً على الحب لكي تراها صالحة. وقد نجحتُ، إذ تلقيت منها قصاصة أخرى ما زالت قاسية، تؤكد على الانفصال الأبدي، لكن اللهجة تغيّرت. وهي تؤكد على عدم رغبتها في رؤيتي بقرار لا رجوع عنه كرّرته أربع مرات في الرسالة. وقد استنتجت من ذلك أن عليّ ألا أضيّع لحظة واحدة كي أذهب وأراها، لذلك أرسلتُ خادمي لكي يسيطر على بوابها، وبعد قليل سأذهب بنفسي أوقّع قرار العفو عني. لأنه في حالة الذنوب المماثلة، ليس هناك أجدى من الحضور شخصياً للحصول على العفو التام.

الوداع يا صديقتي الفاتنة، سأركض لمحاولة القيام بهذا الحدث العظيم.

*باريس، في ١٥ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة التاسعة والثلاثون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

إني ألوم نفسي أشد اللوم يا صديقتي الرقيقة لأنني حدثتك كثيراً وقبل الأوان عن آلام عابرة! وأنا السبب في تحميلك أعبائي في الوقت الحاضر، إذ إن الأشجان التي تأتيك مني مستمرة، بينما أنا سعيدة. نعم، لقد نسيت كل شيء وسامحت، ولأقلْ بالأحرى إن كل

شيء قد اصطلح. أعقب حال الضيق والألم الهدوء والملذات. آه، يا بهجة قلبي، كيف أعبّر لك! ڤالمون بريء. لا يمكن أن يكون مذنباً ولديه كل هذا الحب. تلك الأخطاء الخطيرة المهينة التي كنت ألومه عليها بكثير من المرارة، لم يكن مسؤولاً عنها، وإذا كنت قد احتجتُ إلى تسامحي من أجل قضية واحدة، ألم يكن عليّ تدارك ظنوني السيئة؟

لن أطلعك على التفاصيل أو الأسباب التي تبرّر موقفه. ربما العقل يسيء تقديرها، لكن القلب وحده قادر على أن يشعر بها. وإذا كان عليك مع ذلك أن تشكّي في تخاذلي، فإنني أناشد حكمتك كي تدعم حكمتي. وأنت نفسك، سبق أن قلتِ لي: إن الخيانة لدى الرجال ليست دليلاً على عدم ثباتهم.

ولا يعني ذلك أن هذا التمييز الذي يبيحه المجتمع لا يجرح شعوري، ولكن ممَّ أشكو إذا كان ڤالمون يتعذب أكثر؟ لا تظنّي أنه غفر لنفسه أو ارتاح خاطره، فقد تدارك هذه الغلطة البسيطة وراح يغدق عليّ بحبه وبعث السعادة في نفسي!

فإما أن تكون غبطتي عظيمة وإما أن أشعر بقيمتها منذ أن خشيت فقدانه. ولكن ما بوسعي قوله إنني إذا كنتُ قد شعرتُ بالقوة على تحمّل الأحزان القاسية كالتي عانيتها مؤخراً، فلا أظن أنني دفعت غالياً ثمن الفيض من السعادة التي أنعم فيها الآن. آه يا صديقتي الحنون! تستطيعين أن توبّخي ابنتك الهوجاء لأنها أرهقتك بتهوّرها. أنّبيها لأنها حكمت بلا تبصّر وافترت على ذاك الذي يجب ألا تكف عن عبادته. ولكنك تعرفين كم هي متسرّعة، انظري إلى سعادتها وزيديها بمشاطرتك إياها.

*باريس، في ١٦ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الأربعون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

ماذا حدث يا صديقتي الحسناء حتى لا أتلقى منك أي جواب؟ مع أن رسالتي الأخيرة تستحق الردّ. كان من المفترض أن يصلني منذ ثلاثة أيام، وما زلت أنتظر! أنا حزين الآن ولن أحدثك بعد الآن عن شؤوني الكبرى.

لقد كانت للمصالحة نتيجة رائعة، وحلّت محل الملامات وانعدام الثقة ملاطفات جديدة، وأصبحت أنا من يتلقى الاعتذارات والتعويضات عن براءتي المشتبه بها. ولولا الحادث غير المنتظر الذي وقع الليلة الماضية لما كتبت إليك قط، ولكن بما أنه يتعلق بحضينتك، ولن تكون في حالة تسمح لها بإخبارك بنفسها، فإنني أتكفل بذلك.

فمنذ أيام قليلة، ولأسباب قد تحزرينها أو لا، لم تعد السيدة دوتورڤيل تشغل وقتي. وبما أن هذه الأسباب غير موجودة لدى الصغيرة ڤولانج، فقد واظبتُ على البقاء بقربها أكثر من ذي قبل. وبفضل البواب الأمين لم أصادف أية عقبة. وأخذنا، حضينتك وأنا، نعيش حياة مريحة ومنتظمة. لكن العادة تقود إلى الإهمال، في الأيام الأولى كنا نتّخذ احتياطات كافية للمحافظة على أماننا، وكنا نرتجف خلف الأبواب المقفلة. وأمس في غفلة لا تصدّق، حدث ما سأطلعك عليه. وإذا كنت من جهتي قد شعرت بخوف شديد، إلا أنه كلّف الصغيرة غالياً.

لم نكن نائمَين، إنما في حالة راحة واسترخاء أعقبت أوج

المتعة، حين سمعنا باب الغرفة يُفتح فجأة. قفزتُ على الفور إلى سيفي للدفاع عن نفسي وعن حضينتنا المشتركة، تقدمتُ ولم أجد أحداً، لكن الباب كان مفتوحاً بالفعل. تسلّحت بضوء كان لدينا وخرجتُ للبحث، لكنني لم أعثر على روح حيّة. وعندذاك تذكرت أننا نسينا احتياطاتنا المعتادة، وأن الباب قد اندفع من دون شك وحده، أو أنه كان غير مقفل بصورة محكمة، فانفتح من تلقاء نفسه.

وحين عدتُ إلى رفيقتي الخجول لكي أطمئنها لم أجدها في السرير، فكّرت إما أنها سقطت، أو هربت إلى غرفتها، لكنني وجدتها هناك مغمى عليها من دون حراك تعتريها تشنجات قوية. وبإمكانك أن تتصوري مبلغ ارتباكي! تمكنت مع ذلك من إعادتها إلى سريرها، وكذلك إلى وعيها، ولكنها كانت قد تأذّت من جراء سقطتها، ولم تلبث أن شعرت بآثارها.

بدأت تحسُّ بآلام في أسفل ظهرها، وبمغص قويّ في بطنها، وبعوارض مريبة، جعلتني أدرك حالتها على الفور. ولكي أطلعها على حالتها هذه، كان لا بدّ من أن أخبرها عن الحالة التي كانت فيها سابقاً، لأنها لم تكن ترتاب بشيء. لقد حافظت هذه الفتاة على براءتها رغم كل محاولاتي لتخليصها منها! آه! إنها لا تضيّع وقتها في التفكير أبداً! لكنها كانت تضيّعه على الحزن. شعرتُ أنه يجب اتخاذ قرار، فاتّفقتُ معها على أن أذهب فوراً إلى طبيب العائلة والجرّاح لكي أُنبئهما ويأتيان لزيارتها، وسأروي لهما كل شيء على أن يحتفظا بالسرّ. وهي من ناحيتها ستستدعي خادمتها حين أخرج من غرفتها، وتخبرها أو لا تخبرها، مثلما تريد، لكنها ستطلب استدعاء المساعدة، وتمنع خصوصاً إيقاظ السيدة دوڤولانج من النوم! وهذا تصرف طبيعي ومهذب يصدر عن فتاة تخشى أن تُقلق والدتها.

وقد زرت الطبيبَين وأدليت إليهما باعترافي بكل ما أوتيت من براعة، وعدت من هناك إلى بيتي ولم أخرج منه حتى الآن. لكن الجرّاح الذي أعرفه من قبل، جاء لزيارتي عند الظهر ليطلعني على حالة المريضة. ولم أكن مخطئاً، لكنه يأمل أنه إذا لم يطرأ أي حادث فلن يلاحظ أحد شيئاً. الخادمة تحفظ السرّ، والطبيب أعطى اسماً للمرض، وسوف تتم تسوية هذه القضية كآلاف غيرها. إلا إذا كان من المفيد لنا أن نتحدث عنها فيما بعد.

ولكن، هل ما تزال هناك بعض المصلحة المشتركة بيني وبينك؟ إن صمتك يجعلني أشكُّ في ذلك، لا بل لن أؤمن بها أبداً بعد الآن، لولا رغبتي التي جعلتني أبحث عن جميع الوسائل للمحافظة على الأمل.

الوداع يا صديقتي الحسناء، قبلاتي.

*باريس، في ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الحادية والأربعون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

يا إلهي، أيها الڤيكونت، كم تضايقني بعنادك! وماذا يهمّك صمتي؟ هل تظن أنني إذا كنت ألتزم الصمت، فلأنني لا أجد الأعذار لكي أدافع عن نفسي؟ آه! الحمد لله. ولكن لا، بل لأن الكلام معك يتعبني.

قل لي حقيقة: هل تخدع نفسك، أم إنك تحاول أن تخدعني؟ لأن الفرق بين أقوالك وأفعالك لا يدع مجالاً للاختيار إلا بين هذين

الإحساسين، فأيهما الصحيح؟ وماذا تريدني أن أقول لك حين لا أعرف أنا نفسي بماذا أفكر؟

تبدو كأنك تعطي مشهدك الأخير مع الرئيسة قيمة كبرى. ولكن، ما القصد منه، مديح طريقتك، أم ذمّ طريقتي؟ بالطبع، أنا لم أقل لك إنك تحب هذه المرأة كثيراً بحيث لا تخدعها، ولا تغتنم جميع الفرص التي قد تبدو لك ممتعة وسهلة، ولم أشك في أنه لا يهمك تقريباً أن ترضي رغباتك التي أثارتها فيك هذه المرأة مع أي امرأة أخرى، أو مع أول امرأة تقع بين يديك. ونظراً إلى ذهنك الفاسق الذي لا ينازعك فيه أحد، فأنا لا أعجب البتة في أن تفعل مرة واحدة عن سابق تصميم ما فعلته ألف مرة مصادفة. من لا يعرف صيتك بين الناس، وسلوكك المعتاد مع الجميع، من البداية وإلى اليوم؟ من يُحجم عن هذا العمل اليوم، يُعتبر خيالياً، وليس هذا ما تؤاخذ عليه كما أظن.

ولكن ما قلته وفكرت فيه وأفكر فيه أيضاً، أنك تحب رئيستك. وفي الحقيقة، إنه ليس حباً رقيقاً، إنما من ذلك الحب الذي يجعلك تمتلكه، ويجعلك تجد في المرأة متعًا ومزايا لا تملكها، وتضعها في مرتبة خاصة بها، وكل النساء الأخريات في مرتبة أخرى. تجعلك تتعلق بها حتى ولو أهنتها، كما يشعر سلطان نحو سلطانته المحبوبة، وهذا لا يمنعه من أن يفضّل عليها جارية بسيطة. إن مقارنتي تبدو لي صحيحة، بحيث إنك مثله، لن تكون أبداً عشيق المرأة أو صديقها. فإما أن تكون الطاغية أو العبد أبداً. وهكذا، فأنا متأكدة أنك ستكون مهاناً بكل بساطة، محقّراً لتنال العفو من هذه المرأة الجميلة! وسعيداً جداً متى توصلت إلى ذلك، ولكنك ما إن تجد الفرصة مواتية للحصول على العفو عنك، حتى تتركني في سبيل هذا *الحدث العظيم*.

وإذا كنتَ لم تُحدّثني في رسالتك الأخيرة عن تلك المرأة وحدها، فلأنك لا تريد أن تقول لي شيئاً عن «شؤونك الكبرى». وهي شؤون تبدو لك مهمّة جداً بحيث إن الصمت الذي تلوذ به، تظنّه عقوبة لي. وبعد كل هذه الدلائل على تفضيلك امرأة أخرى، تسألني بكل بساطة ما إذا كان ثمة *«بعض المصلحة المشتركة بيني وبينك»!* فاحذر أيها الڤيكونت! إذا أجبتُ فسيكون جوابي لا رجوع عنه، وأخشى إعطاء هذا الجواب الآن، ولا أريد أن أتحدّث عنه البتّة.

كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أروي لك حكاية، ربما ليس لديك الوقت لقراءتها أو للالتفات إليها بما يكفي لكي تفهمها جيداً، وأنت حرّ. ولكنها في أسوأ الاحتمالات، لن تكون من دون فائدة:

علق رجل من معارفي مثلك في شباك امرأة لا تُشرّفه كثيراً، وكان بين فترة وأخرى يعود إلى رشده ويُفكّر أنه عاجلاً أم آجلاً ستُسيء هذه المغامرة إليه، ولكنه على الرغم من أنه كان يشعر بالخجل منها، كانت تخونه الشجاعة على الانفصال. وكان لشدّة ارتباكه يتباهى أمام أصدقائه بأنه حرّ طليق، ناسياً أن السخف يزداد دائماً كلما دافعنا عنه أكثر. وهكذا أمضى حياته: يرتكب الحماقات، ولا يكفّ عن ترداد القول: *«الذنب ليس ذنبي»*. وكان لهذا الرجل صديقة راودتها نفسها على فضحه أمام الناس وهو في حالة السُّكر، وجَعله أضحوكة لا تُنسى، ولكنها كانت كريمة أكثر مما هي خبيثة، أو ربما لأسباب أخرى، فجرّبت وسيلة أخيرة بحيث تستطيع أن تقول كصديقها عند كل حادث: *الذنب ليس ذنبي*. فبَعَثَتْ إليه برسالة علّه يستخدمها كعلاج يفيد لحالته:

«إننا نسأم من كل شيء يا ملاكي، وهذا هو قانون الطبيعة: وليس الذنب ذنبي».

«وإذا كنت أسأم اليوم من مغامرة شغَلَتني كليّاً منذ أربعة أشهر طوال، فليس الذنب ذنبي».

«وإذا كان لديّ من الحب بقدر ما لديك من الفضيلة، وهذه مبالغة بالتأكيد، فليس من المُدهش إذاً أن ينتهي الحب في الوقت الذي تنتهي فيه الفضيلة. وليس الذنب ذنبي».

«وكانت نتيجة ذلك أنني خنتك منذ مدة، لكن رقّتك الشديدة قد أجبرتني على ذلك بطريقة ما! وليس الذنب ذنبي».

«واليوم هناك امرأة أحبها بجنون، تُطالب بأن أُضحّي بك. وليس الذنب ذنبي».

«وأشعر بأن الفرصة سانحة لفضح من خان العهد! ولكن إذا كانت الطبيعة قد منحت الرجال الاستقرار، فإنها أعطت النساء العناد، وليس الذنب ذنبي».

«صدّقيني، اختاري عشيقاً آخر، كما اتخذتُ عشيقة أخرى، وهذه النصيحة جيدة، جيدة جداً، حتى ولو وجدتِها رديئة، فالذنب ليس ذنبي».

«الوداع يا ملاكي، لقد نلتكِ بلذّة، وأتركك من دون أسف، وربما سأعود إليكِ. تلك هي سنّة الحياة، وليس الذنب ذنبي».

لم يحن الوقت بعد لكي أقول لك ما تأثير هذه المحاولة الأخيرة وما أعقبها، ولكنني أعدك بأن أُخبرك ذلك في أول رسالة بعد هذه، وستجد فيها أيضاً «إنذاري» بخصوص تجديد المعاهدة التي تقترحها عليّ، وحتى ذلك الحين وداعاً.

للمناسبة، أشكرك على التفاصيل بخصوص الصغيرة ڤولانج، وهو مقال يصلح الاحتفاظ به إلى ما بعد الزواج لنشره في جريدة القيل والقال. وبالانتظار، أقدم لك تعازيّ الحارّة على فقدان نسلك. طاب مساؤك أيها الڤيكونت.

*من قصر... في ٢٤ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧*** .*

الرسالة الثانية والأربعون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

لعمري، يا صديقتي الحسناء، لست أدري ما إذا كنتُ قد أسأت القراءة أو السماع، ورسالتك، والحكاية التي ترويها لي فيها، ونموذج الرسالة الصغير الذي في داخلها. ولكن، ما أستطيع قوله: بدا لي هذا النموذج مبتكراً ويصلح لإحداث التأثير المطلوب. وهكذا، بكل بساطة نسختُهُ، وبكل بساطة أيضاً، أرسلته الى الرئيسة السماوية. لم أضيّع لحظة واحدة، لأن الرسالة الرقيقة كانت قد أُرسلت منذ مساء أمس. فضّلت إرسالها لأنني كنت قد وعدتها بأن أكتب إليها أمس، كما أنني فكرتُ في أنها ستفكر وتتأمل في هذا *«الحدث العظيم»* طوال الليل. هل ستلومينني على هذه العبارة مرة أخرى؟

كنت آمل هذا الصباح أن أرسل إليك جواب محبوبتي، ولكن الوقت يقارب الظهيرة ولم يصلني شيء حتى الآن. سأنتظر حتى الساعة الثالثة، وإذا لم أتلقَ أي خبر، فسأذهب لأتقصّاه بنفسي. لأنه فيما يتعلق بهذه العمليات، تكون الخطوة الأولى هي الأصعب.

أنا الآن، كما تستطيعين أن تتصوّري، بشوق كبير لأعرف نهاية حكاية هذا الرجل من معارفك، إذا كان موضع شك كبير لأنه لا يعرف أن يضحي بامرأة عند الحاجة، ألم يتدارك خطأه؟ وصديقته الكريمة، ألم تمنحه العفو؟

إنني في أشد الرغبة لأن أتلقّى «إنذارك»: كما تقولين بلغة السياسة! وبشكل خاص لأن أعرف ما إذا كنت ستجدين في هذا المسعى الأخير الحب أيضاً! آه، بالتأكيد ستجدين الكثير من الحب، ولكن لمن؟ مع ذلك، أنا لا أطمع في الكشف عن أي شيء، وأنتظر كل شيء من تسامحك.

الوداع يا صديقتي الفاتنة، لن أغلق هذه الرسالة إلا عند الساعة الثانية على أمل أن أتمكن من إرفاق الجواب الممزق.

الساعة الثانية بعد الظهر.

لا شيء جديداً حتى الآن، يضيق الوقت كثيراً، ولم تعد لديّ كلمة واحدة أضيفها. ولكن، هل سترفضين هذه المرة أرقّ قبلات الحب؟

*باريس، في ٢٧ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الثالثة والأربعون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى السيدة دوروزموند

لقد تمزق يا سيدتي الستار الذي ارتسم فوقه وهم سعادتي، وبدأت الحقيقة المشؤومة تتّضح لي ولا تدعني أرى سوى موت مؤكد

وقريب، موت خطّ طريقه ما بين العار وتبكيت الضمير. سأمضي إليه واستعذب آلامي إذا كانت ستختصر حياتي. أرسل إليك الرسالة التي تلقيتها أمس، ولا أضيف إليها أي فكرة، فهي تحمل ما فيه الكفاية. لم تعد تنفع الشكوى، لم يبقَ لي سوى العذاب، ولست بحاجة إلى الشفقة بل إلى القوة.

تقبّلي يا سيدتي الوداع الوحيد الذي أوجّهه، ونفّذي رجائي الأخير، وهو أن تتركيني لمصيري وتنسيني كلياً، ولا تحسبيني مع الأحياء على هذه الأرض. هناك حد للشقاء، حيث الصداقة نفسها تزيد آلامنا ولا تستطيع أن تشفيها، وعندما تكون الجراح مميتة فإن أي إغاثة تصبح غير إنسانية. أي شعور آخر غير اليأس أصبح غريباً عني، ولا شيء يمكن أن يلائمني سوى الليل الطويل حيث سأدفن عاري. سأبكي فيه أخطائي، لو كان بوسعي أن أبكي أيضاً! لأنني منذ أمس لم أذرف دمعة واحدة. لقد نضب قلبي الذاوي.

الوداع يا سيدتي، لا تجيبي على رسالتي هذه أبداً. لقد أقسمت في هذه الرسالة القاسية بألا أتلقى أي رسالة بعد الآن.

*باريس، في ٢٧ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الرابعة والأربعون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

أمس يا صديقتي الحسناء، وبعد أن ضقت ذرعاً من انتظار الردّ حتى الساعة الثالثة مساء، توجّهت إلى بيت الحسناء المهجورة، وهناك قيل لي إنها خرجت. لم أجد في هذا الردّ إلا الرفض في

استقبالي، وهذا ما كنت أتوقعه ولم يفاجئني. انسحبت على أمل أن يدفع هذا التصرف على الأقل المرأة المهذبة بتشريفي بكلمة. وقد مررت عمداً إلى بيتي نحو الساعة التاسعة علّني أرى الجواب هناك، لكنني لم أجد شيئاً هناك. دهشتُ لهذا الصمت الذي لم أكن أتوقعه، فكلّفتُ خادمي بالذهاب والاستطلاع ما إذا كانت المرأة الحساسة قد ماتت أو على فراش الموت. وأخيراً، حين عدتُ، أخبرني بأن السيدة دوتورڤيل قد خرجت بالفعل مع خادمتها في الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى دير... وفي السابعة مساء، صرفتْ عربتها وخدمها، بعد أن أبلغتهم بألا ينتظروها في البيت. لقد اتبعتْ الأصول بالتأكيد، إذ إن الدير هو الملجأ الصحيح لأرملة، وإذا أصرّت على قرارها الحميد، فسوف أضيف إلى جميع الأفضال التي أدين بها إليها فضل الشهرة من وراء هذه المغامرة.

سبق أن أكدت لك منذ مدة قصيرة أنني، وعلى الرغم من مخاوفك، سأعود إلى الظهور على مسرح المجتمع وأنا أكثر شهرة ببريق جديد. فليظهر إذاً أولئك المنتقدون القساة الذين كانوا يتهمونني بحب خيالي تعس، دعونا نرى كيف يقطعون علاقاتهم أسرع وأوضح مما فعلت. ولكن لا، ليحققوا الأفضل، فالسبيل أمامهم مفتوح. وليتجرأوا فقط على القيام بهذه المحاولة التي خضتها حتى النهاية. وإذا أحرز أحدهم أقل نجاح، فسأتخلّى له عن مكانتي. ولكنهم سوف يقرّون بالإجماع أنني حين أضع لمستي، فإن التأثير الذي أتركه لا يزول. آه! إن أثر هذه المغامرة لن يزول من دون شك، ولن أحسب جميع انتصاراتي الأخرى التي لا تقارن بتلك، لو وجدتُ إزاء هذه المرأة مزاحماً آخر.

إن هذا الموقف الذي اتخذته السيدة دوتورڤيل يشبع غروري من

دون شك، وأنا أوافق عليه، ولكنني غاضب لأنها وجدت القوة الكافية للانفصال بقدر ما لديّ. وسوف يكون بيننا عقبات أخرى غير تلك التي وضعتها بنفسي! ماذا؟! لو شئتُ الاقتراب منها، هل يمكن أن ترفض؟ وماذا أقول؟ لم تعد ترغب فيّ الآن؟ لم أعُد سبب سعادتها القصوى؟ فهل يكون الحب هكذا؟ وهل تعتقدين يا صديقتي الحسناء أن عليّ أن أتعذب؟ ألا يمكنني مثلاً، أو أليسَ من الأفضل أن أحاول إعادة هذه المرأة إلى نقطة أتوقع معها إمكانية المصالحة التي نرغب فيها ما دام هناك أمل؟ قد أتمكن من القيام بهذا المسعى دون أن أعطيه أهمية كبرى، ودون أن يريبك بشيء. على العكس، ستكون محاولة بسيطة نقوم بها معاً. وحين سأنجح فيها، لن تكون سوى وسيلة أخرى كي نجدد، حسب رغبتك، تضحيةً بدت لك ممتعة. أما الآن يا صديقتي الحسناء فلم يبقَ لي إلا أخذ الثمن، وكل آمالي معقودة الآن على عودتك. فتعالي إذاً بسرعة لتستعيدي عاشقك وملذاتك وأصدقاءك وتيار المغامرات.

أما مغامرة الصغيرة ڤولانج فقد سارت على نحو رائع. أمس، عندما كان قلقي لا يدعني أستقر في مكان، وصلت في تجوالي إلى بيت السيدة دوڤولانج. وجدت حضينتك قد نزلت إلى الصالون وهي في لباس نقاهتها، لكنها بدت أكثر نضارة وإغواء، بينما تبقين أنتن معشر النساء في مثل هذه الحالة شهراً كاملاً ممددات في الكرسي الطويل. يا إلهي: عاشت الصبايا! لأن هذه الصبية في الواقع قد أثارت الرغبة في نفسي كي أعرف ما إذا كانت قد شفيت تماماً.

وعندي ما أخبرك به أيضاً: إن حادث الفتاة الصغيرة كاد يجعل صديقك دانسيني المتكلف العواطف مجنوناً. في البداية كان كئيباً، أما اليوم فهو مبتهج. لقد كانت سيسيلته مريضة! بإمكانك أن تتخيّلي

كم يدوخ عند مصيبة كهذه! كان يبعث ثلاث مرات في النهار من يستفسر عن صحتها، ولم يدع الفرصة تمر دون أن يحضر بنفسه. وأخيراً، طلب عن طريق رسالة مهذبة إلى السيدة الأم السماح له بالمجيء وتهنئة الفتاة العزيزة على تعافيها من المرض. وقد رحبت السيدة دوفولانج، لكنني وجدت الشاب جالساً هناك كما كان يفعل في الماضي، بشيء من رفع الكلفة على نحو لا يجرؤ على السماح لنفسه به حتى الآن.

وقد عرفت منه شخصياً هذه التفاصيل، لأنني خرجت معه في الوقت نفسه، ثم جعلته يثرثر. ولا يمكن أن تكون لديك فكرة عن مدى تأثير هذه الزيارة في نفسه. فرح، رغبات، هذيان، لا أستطيع أن أصف لك. وأنا المولع بالمبالغة في الحركات، انتهى بي المطاف وجعلت صوابه يطير حين أكّدت له أنني سأتيح له رؤية حسنائه عن كثب في غضون أيام قليلة.

وبالفعل، فقد قررت أن أسلّمه إياها حالما أقوم باختباري ومن ثم سأكرس لك نفسي بكليتي. ألا تستحق حضينتك عناء جعلها تلميذتي لو كان عليها أن تخون زوجها فقط؟ وقمّة الروعة في صنيعي حين أجعلها تخون حبيبها، وخصوصاً حبيبها الأول! بالنسبة إليّ، ليس عندي ما ألام عليه لأنني تلفظت بكلمة حب.

الوداع يا صديقتي الحسناء، عودي إذاً في أسرع وقت لتتمتعي بسلطانك عليّ وتتقبلي التكريم وتدفعي لي الثمن.

*باريس، في ٢٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الخامسة والأربعون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

لنتكلم جدياً، أيها الڤيكونت، هل تخليت عن الرئيسة؟ هل بعثت إليها بالرسالة التي كتبتها لك من أجلها؟ في الحقيقة، أنت رائع! وقد تجاوزت توقعاتي! وأعترف بكل صراحة أن هذا الانتصار يرضي غروري أكثر من جميع الانتصارات التي استطعت أن أحرزها حتى الآن. لعلك تجد أنني أقدّر عالياً هذه المرأة، وقد كنت في السابق لا أقدّرها كثيراً، لكنني لم أحقق انتصاري عليها بقدر ما حققته عليك. وهذا هو الممتع في الأمر، والرائع فعلاً.

نعم، أيها الڤيكونت، كنت تحب السيدة دوتورڤيل كثيراً، وما زلت تحبها، تحبها كالمجنون. ولكن، بما أنني كنت أتسلّى في جعلك تخجل من حبها، فلقد ضحيتَ بها بشجاعة. ولعلك كنت ستضحي بألف امرأة أخرى بدلاً من أن تتعذب من مزحة. ألا ترى إلى أين يقودنا الغرور! لقد كان ذلك الحكيم على حق حين قال: «الغرور عدوّ السعادة».

أين ستكون الآن لو كانت غايتي إيذاءك فحسب؟ ولكنني عاجزة عن الخداع، وأنت تعلم ذلك جيداً. كان ينبغي عليك أن تدفعني بدوري إلى اليأس والدير وأتحمل المخاطر وأستسلم لمنتصري.

ومع ذلك، إذا كنت أستسلم، فذلك بالحقيقة من قبيل التخاذل البحت، لأنني لو كنت أرغب في أن أنغّص عليك العيش، لكان عليّ أن أفعل ذلك! ولعلك تستحق؟ فأنا معجبة مثلاً بالبراعة أو بالغباوة التي عرضت فيها عليّ بكل رقّة أن أدعك تعيد العلاقة مع الرئيسة.

فهل يلائمك إذاً أن أمنحك جائزة هذا الانفصال دون أن تفقد ملذات المتعة؟ وبما أن هذه التضحية الظاهرية لن تعود تضحية بك، فأنت تقدمها لي لأجددها كما أشاء. وبهذا الإجراء السعيد، ستظن الورعة السماوية أنها الوحيدة التي اختارها فؤادك، بينما سأفتخر بأن أكون مزاحمتها المفضلة. وسنكون نحن الاثنتين مخدوعتين، وأنت مسروراً، وبماذا تهمّك البقية؟

من المؤسف يا صديقي أن تتمتع بكل هذه الموهبة في وضع الخطط دون أن تنفّذها، وأنك في تصرّف واحد يخلو من التبصر قد وضعت لنفسك عقبة لا يمكن التغلب عليها لتحقيق ما ترغب فيه.

ماذا؟! أنت تفكر في إعادة علاقتك بها واستطعت أن تكتب إليها رسالتي! هل ظننتني غبية جداً أنا أيضاً؟ صدّقني أيها الڤيكونت، حين توجّه امرأة ضربتها إلى قلب امرأة أخرى، فمن النادر ألا تصيب المكان الحسّاس، ويصبح الجرح غير قابل للشفاء. وحين كنت أضرب هذه الضربة، أو بالأحرى كنت أوجّه ضرباتك، لم أنسَ أن هذه المرأة هي غريمتي، وكنت قد فضّلتها عليّ في أحد الأوقات، ثم وضعتني أخيراً في مستوى أقل منها. إذا كنت قد أخطأت في انتقامي، فأنا أتحمل نتائج خطئي. وهكذا، أجد من المستحسن أن تحاول بجميع الوسائل، لا بل أدعوك إلى ذلك. وأعدك بألّا أستاء من نجاحاتك، هذا إذا توصلت الى إحرازها. أنا مطمئنة جداً إلى هذا الأمر بحيث لا أريد ان أشغل نفسي به. دعنا نتحدث عن شيء آخر.

لنتحدث عن صحة الصغيرة ڤولانج مثلاً. ستطلعني على أخبار إيجابية لدى عودتي، أليس كذلك؟ وسأكون مسرورة جداً بالحصول عليها. وبعد ذلك، سيكون عليك أن تحكم بنفسك ما إذا كان

سيلائمك أن تعيد الفتاة إلى عشيقها، أو أن تحاول مرة أخرى أن تؤسس فرع أسرة ڤالمون تحت اسم جيركور. وقد بدت لي هذه الفكرة مسلية جداً. وفيما أترك لك الخيار، أطلب إليك ألا تتخذ القرار النهائي دون أن نكون قد تباحثنا في الأمر معاً. هذا لا يعني أنني أؤجل موعدك بعيداً، بل سأكون في باريس في القريب العاجل. وسوف تكون أول من يعرف نبأ وصولي.

الوداع أيها الڤيكونت، وعلى الرغم من مشاحناتي، وخباثتي، وملاماتي، أحبك جداً ودائماً. أهيّئ نفسي لكي أثبت لك حبي. إلى اللقاء يا صديقي.

*من قصر. . . في ٢٩ نوڤمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة السادسة والأربعون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الفارس دانسيني

أخيراً، سأرحل يا صديقي الشاب، وسأكون في باريس مساء الغد. وسط زحمة مضايقات الانتقال، لن أستقبل أحداً. مع ذلك، إذا كان لديك كلام عاجل تسرّ إليّ به، فإنني أستثنيك من القاعدة العامة ولن أستثني سواك. وهكذا، أطلب إليك المحافظة على سرّ موعد وصولي، لأن ڤالمون نفسه لن يطّلع عليه.

من كان ليقول، منذ عهد قريب، إنك ستنال ثقتي على الفور دوناً عن الجميع؟ لكن ثقتك أوصلتك إلى ثقتي، ويخيل إليّ أنك وضعتَ فيها الكثير من البراعة، لا بل من الإغواء أيضاً. فضلاً عن ذلك، لن تكون خطرة لأن لديك شيئاً آخر لتهتم به في الوقت

الحاضر! حين تكون البطلة على المسرح، لا تعود تهتم بأمينة أسرارك.

ألم تعد تجد متسعاً من الوقت لكي تطلعني على نجاحاتك الجديدة؟ وحين كانت سيسيلتك غائبة، لم تكن الأيام تبدو لك طويلة لكي أسمع شكاواك الرقيقة؟ كنت ستلقى صدى صوتك فحسب لو لم أكن هناك لأصغي إليها. وعندما كانت مريضة، شرّفتني بالتحدث عن همومك، إذ كنتَ بحاجة إلى التحدّث مع أحد عنها. والآن بعد أن تحسنت صحتها وأصبحت في باريس، وأخذت تراها في بعض الأحيان، غدت كافية عن الجميع، ولم تعد تولي أصدقاءك أي أهمية.

أنا لا ألومك البتة، فهذه غلطة من هم في سن العشرين. ألا تعلم أن الشباب منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا لا يعرفون الصداقة أبداً إلا في أحزانهم؟ قد تجعلهم السعادة أحياناً متكتمين، ولكنهم لا يحبون المناجاة أبداً. وسأقول كما قال سقراط: «*أحب أن يأتي أصدقائي إليّ وهم بائسون*». ولكن بوصفه فيلسوفاً، كان يستغني عنهم حين لا يأتون. وأنا لست فيلسوفة مثله، لكنني تأثرتُ لصمتك بكل تخاذل نسائي.

أرجو ألا تخالني متطلبة، وما أبعدني عن ذلك! إن ما يجعلني ألاحظ هذا الحرمان هو الشعور نفسه الذي يجعلني أتحمله بشجاعة أيضاً، وعلى وجه الخصوص حين يكون السبب سعادة أصدقائي. لا أنتظر حضورك غداً مساء، إلا إذا تركك الحب حراً غير مشغول. وأحذّرك من أن تبذل من أجلي أقل تضحية.

الوداع أيها الفارس. سأكون سعيدة جداً بأن أراك. هل ستأتي؟

*من قصر . . . في ٢٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٧***.

الرسالة السابعة والأربعون بعد المئة

من السيدة دوفولانج إلى الماركيزة دوروزموند

لا شك أنك ستحزنين كما أنا حزينة يا صديقتي المحترمة، حين تعرفين الحالة التي وصلت إليها السيدة دوتورفيل. إنها مريضة منذ أمس، وقد تفاقم مرضها بشدة متجلياً بعوارض خطيرة جداً، حتى إنني أصبحت قلقة حقيقة عليها.

حمّى شديدة، غيبوبة عميقة وشبه مستمرة، عطش لا يرتوي: هذه هي حالها. ويقول الأطباء إنهم لا يستطيعون أن يشخّصوا شيئاً حتى الآن، وإن العلاج سيكون أشد صعوبة أيضاً ما دامت ترفض بعناد أي نوع من أنواع الأدوية، إلى درجة أنه كان لا بد من إمساكها بالقوة لإجراء فصد الدم. وكان لا بد من استخدام الطريقة نفسها مرتين أيضاً لإعادة وضع الضماد الذي كانت تريد انتزاعه باستمرار، حتى في حالة غيبوبتها.

أنت يا من كنت مثلي، ترينها رقيقة، شديدة الحياء، بالغة العذوبة، هل يمكنك أن تتخيّلي إذاً أن أربعة أشخاص بالكاد يستطيعون تثبيتها، وما إن يُقدّم إليها أي شيء حتى تدخل في حالة من الهياج لا يمكن تفسيرها؟ وأنا أخشى أن هذا لم يعد هذياناً، بل هو اختلال عقلي حقيقي.

وما يزيد مخاوفي بهذا الشأن هو ما حدث أول من أمس.

ففي ذلك اليوم، وصلت مع خادمتها نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى دير... وبما أنها تربّت في ذلك الدير، وكان من عادتها أن تأتي إليه في بعض الأحيان، فقد استُقبلت كالعادة، وبدت للجميع

هادئة وفي صحة جيدة. وبعد مضي ساعتين، سألت عمّا إذا كانت الغرفة التي كانت تشغلها وهي طالبة داخلية شاغرة، وحين أجيبت بالإيجاب، طلبت أن تذهب لتراها. رافقتها إليها رئيسة الدير مع بعض الراهبات. وهناك أعلنت أنها ستعود للإقامة في هذه الغرفة التي كان عليها ألا تغادرها مطلقاً، وأضافت أنها لن تخرج منها إلا عند *مماتها*، كانت هذه هي كلماتها.

في البداية، لم يعرفوا ماذا يقولون، ولكن بعد أن زالت دهشتهم الأولى شرحوا لها أن صفتها كامرأة متزوجة لا تسمح لهم باستقبالها من دون إذن خاص. لا هذا السبب، ولا ألوف الأسباب غيره لم تُجدِ معها نفعاً، ومنذ تلك اللحظة، أصرّت ليس فقط على عدم الخروج من الدير، بل من غرفتها بالذات. وأخيراً، بعد أن تعبوا من مقاومتها، وافقوا نحو الساعة السابعة مساء على أن تقضي الليلة هناك. ثم صرفوا عربتها وخدمها وأُجّل اتخاذ قرار بشأنها إلى اليوم التالي.

ويؤكدون أنها كانت طوال السهرة واجمة بفكرها وجسدها، وأنها وقعت أربع أو خمس مرات في حالة من حلم اليقظة العميق، بحيث لم يتمكنوا من إخراجها من هذه الحالة عن طريق التحدث إليها. وفي كل مرة كانت تخرج منها، كانت تضع يديها على جبينها وتبدو أنها تضغط عليه بقوة. وقد سألتها إحدى الراهبات التي كانت حاضرة في الأثناء ما إذا كانت تشعر بألم في رأسها، ولكنها حدّقت فيها طويلاً قبل أن تجيب في النهاية: «كلا، ليس الألم هنا!» وبعد قليل، طلبت أن تُترك وحدها وألا يُطرح عليها أي سؤال في المستقبل.

انسحب الجميع من الغرفة باستثناء خادمتها التي كان عليها أن تنام لحسن الحظ معها في الغرفة نفسها لعدم وجود مكان آخر.

وفق رواية هذه الفتاة، فقد كانت معلمتها هادئة جداً حتى الحادية عشرة ليلاً. وقالت حينذاك إنها تريد أن تنام، ولكنها قبل أن تخلع ملابسها نهائياً، أخذت تذرع الغرفة جيئة وَذهاباً وهي تقوم بحركات غريبة متوترة. ولم تجرؤ جولي التي شهدت كل ما حدث في النهار على أن تقول لها شيئاً وانتظرت بصمت حوالى الساعة. وأخيراً، استدعتها السيدة دوتورڤيل مرتين على التوالي، بالكاد تسنّى لها الوقت لتهرع إلى سيدتها حتى سقطت بين ذراعيها وهي تقول: «لم أعد أحتمل». تركتها تأخذها إلى السرير، ولم تشأ أن تتناول شيئاً، ولا أن يُؤتى لها بأي إسعاف، لكنها وضعت قليلاً من الماء إلى جانبها، وأمرت جولي بأن تنام.

وتؤكد هذه أنها لم تنم حتى الساعة الثانية صباحاً، ولم تسمع خلال ذلك الوقت أية حركة أو شكوى. ولكنها تقول إنها استيقظت في الساعة الخامسة صباحاً على هذيان معلمتها التي كانت تتحدث بصوت قوي مرتفع. وسألتها عندذاك عمّا إذا كانت بحاجة إلى شيء، وعندما لم تتلقَّ جواباً، حملت الشمعة وقصدت سرير السيدة دوتورڤيل التي لم تتعرف عليها البتة، وقطعت هذيانها لتقول لها: «فليدعوني وشأني، فليدعوني في هذه الغياهب المظلمة التي تناسبني». وقد لاحظتُ أمس بنفسي أنها كانت تكرر هذه العبارة غالباً.

وأخيراً، انتهزت جولي هذا النوع من الهدوء لكي تخرج وتستدعي بعض الراهبات والإسعاف، ولكن السيدة دوتورڤيل رفضت هؤلاء وذاك بفورات شديدة من الغضب والهذيان أخذت تعاودها باستمرار.

هذه البلبلة التي أوقعتها حالة السيدة دوتورفيل في الدير، جعلت

الرئيسة تضطر إلى استدعائي البارحة في الساعة السابعة صباحاً ولم يكن النهار قد طلع بعد، وقد سارعت على الفور. وحين أُبلغت السيدة دوتورفيل بحضوري بدت كأنها استعادت وعيها وقالت: «آه، نعم، فلتدخل». وحين جلست قرب سريرها، حدّقت في وجهي طويلاً، ثم أخذت يدي وضغطتها بقوة، وقالت لي بصوت قوي وحزين: «أموت لأنني لم أصدّقك». وعادت على الفور بعد أن خبأت عينيها إلى ترداد هذيانها: «فليدعوني وشأني، إلخ. إلخ. . . » ثم فقدت وعيها.

إن ما قالته لي وما أفلت منها أثناء هذيانها، يجعلني أخشى أن يكون هذا المرض الخطير ناتجاً عن سبب أشد خطراً. ولكن، لنحترم أسرار صديقتنا، ولنكتفِ بالرثاء لحالتها.

وكان نهار الأمس أيضاً عاصفاً، تتناوب فيه بين حالات من الجنون المخيف، وبين حالة انحطاط القوى السباتي التي كانت ترتاح أثناءها قليلاً وتريحنا. لم أفارق سريرها حتى الساعة التاسعة ليلاً، وسوف أعود هذا الصباح لأقضي كل النهار. لن أترك صديقتي التعيسة بالتأكيد، ولكن ما هو مؤسف هو عنادها في رفض أي علاج أو مساعدة.

أرسل إليك النشرة الطبية عن هذه الليلة وقد تلقيتها الآن، وهي كما ترين لا تبعث على الاطمئنان. وسأحرص على إرسال جميع النشرات إليك.

الوداع يا صديقتي المحترمة، سأذهب لموافاة المريضة. إن ابنتي التي تعافت تقريباً لحسن الحظ ترسل إليك احترامها.

*باريس، في ٢٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٧**.*

الرسالة الثامنة والأربعون بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى السيدة دوميرتويّ

أنتِ يا من أحبك! أنت يا من أعبدك! أنت يا من بدأت معها سعادتي! يا من غمرتِها! أيتها الصديقة الحساسة والحبيبة الحنونة، لماذا تأتي ذكرى عذابك لتعكّر السحر الذي أشعر به؟ آه يا سيدتي، هدّئي من روعك، فالصداقة هي التي تطلب إليك ذلك. آه يا صديقتي، كوني سعيدة! وهذا رجاء الحب.

حسناً! أي مآخذ لديك توجهينها إلى نفسك؟ صدّقيني، إن رهافة حسّك تعذّبك، فالحسرات التي تسببها لك، والأخطاء التي تتهمني بها هي أيضاً وهم. وأشعر في قلبي بأنه لم يقم أي مضلّل بيننا نحن الاثنين سوى الحب. فلا تخافي إذاً من الاستسلام إلى المشاعر التي أوحيتِها لي، وإلى النيران التي أشعلتِها. ماذا؟! هل سيكون قلبانا أقل براءة لو اكتشفا الحب فيما بعد؟ كلا، من دون شك، بل على العكس، إن الغواية التي لا تعمل إلا عن سابق تصميم، تستطيع أن توفّق ما بين مجراها وبين وسائلها وتتوقع الأحداث البعيدة، ولكن الحب الحقيقي لا يسمح هكذا بالتأمل والتفكير. إنه يلهي المشاعر عن الأفكار، وسلطانه ليس أقوى إلا لأنه مجهول، وهو يحيطنا بالظلال والصمت بروابط يستحيل ملاحظتها أو قطعها.

وهكذا خُيّل إليّ أمس بالذات، على الرغم من الانفعال الذي سببته لي فكرة عودتك، وعلى الرغم من الفرح الكبير الذي شعرت به كي أراكِ، أنني لم أستدعَ ولم أُقد إلا من قبل الصداقة الهادئة: أو بالأحرى مستسلماً بكليتي إلى مشاعر قلبي العذبة، فقلما يهمني أن

أعرف أسبابها ومسبباتها. وهكذا أنتِ، يا صديقتي الرقيقة، تشعرين دون أن تدري، بهذا السحر الطاغي الذي قاد روحينا إلى مشاعر الحنان العذبة. وكلانا لم نكتشف الحب إلا بعد خروجنا من النشوة التي أغرقنا فيها هذا الإله.

لكن ذلك يجب أن يبرّر لنا بدلاً من أن يديننا. لا، أنت لم تخوني الصداقة، وأنا لم أستغل ثقتك. كلانا، وهذا صحيح، كنا نجهل عواطفنا، ولكن كنا نشعر بهذا الوهم دون أن نحاول فهمه. آه! بعيداً عن الشكوى، علينا أن نفكر في السعادة التي أحدثها فينا. وبدلاً من أن نعكّره بمآخذ ظالمة، دعينا نزيد هذا الحب بروعة الثقة والأمان. آه يا صديقتي، هذا الأمل عزيز على قلبي! أجل، من الآن فصاعداً ستتحررين من كل خوف، وتكرسين نفسك للحب، تشاطرينني رغباتي وأشواقي ونشوة حواسي وهيام قلبي، وكل لحظة من لحظات أيامنا السعيدة ستزينها لذة جديدة.

الوداع، يا من أعبدها! سأراك هذا المساء، ولكن هل سأجدك وحدك؟ لا أجرؤ على الأمل. ألا ترغبين في ذلك مثلي؟

*باريس، في الأول من ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة التاسعة والأربعون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

لقد أملت طوال النهار أمس تقريباً يا صديقتي المحترمة أن أطلعك هذا الصباح على أخبار أفضل عن صحة مريضتنا العزيزة، لكن الأمل تحطّم منذ المساء ولم يبقَ لي سوى الحزن على فقدانه.

غير أن ثمة حادثاً لا أهمية له في الظاهر، لكنه قاس جداً في عواقبه، جعل حالة المريضة مقلقة كالسابق، إن لم تكن قد ازدادت سوءاً.

ما كنت لأفهم شيئاً من هذه السورة الفجائية، لو لم أتلقَّ أمس اعتراف صديقتنا التعيسة كلّه. ونظراً إلى أنها لم تخفِ عني إطلاعك أيضاً على جميع أسرارها التعيسة، أستطيع أن أحدثك من دون تحفظ عن وضعها البائس.

حين وصلْتُ صباح أمس إلى الدير، قيل لي إن المريضة ما زالت نائمة منذ أكثر من ثلاث ساعات، وإن نومها كان عميقاً هادئاً، بحيث إنني خشيت في إحدى اللحظات أن تكون غارقة في سبات مرضي. وبعد فترة وجيزة، استيقظت، وفتحت بنفسها ستائر سريرها. نظَرَتْ إلينا جميعاً بمظهر مفاجئ. وحين نهَضْتُ لكي أتوجّه إليها، عرفتني ودعتني باسمي ورجتني أن أقترب منها. ولم تُتح لي وقتاً لأطرح عليها أي سؤال، بل سألتني أين هي؟ وماذا نفعل نحن هنا؟ وما إذا كانت مريضة؟ ولماذا ليست في منزلها؟ ظننتُ للوهلة الأولى أن هذه نوبة جنون جديدة، ولكن أهدأ من سابقاتها. غير أنني لاحظتُ أنها كانت تفهم جيداً أجوبتي. وبالفعل كانت قد استعادت عقلها ولكن ليس ذاكرتها.

وسألتني بكثير من التفاصيل عن كل ما جرى لها منذ أن كانت في الدير، حيث لا تتذكّر أنها جاءت إليه. وقد أجبتها بكل دقّة عن كل شيء دون أن أقول لها ما يمكن أن يُفزعها. وحين سألتها بدوري: كيف حالتها؟ أجابتني أنها لا تتألم الآن، وأنها كانت مضطربة جداً أثناء نومها وتشعر بتعب شديد. فدعوتها إلى أن تطمئن وأن تتحدّث قليلاً. وبعد ذلك، أغلقتُ ستارتها وجلسْتُ إلى جانبها

فوق السرير. وفي الوقت نفسه، عُرِضَ عليها تناول حساء فشربته ووجدته طيب المذاق.

وبقيَتْ على هذه الحال نصف ساعة تقريباً، لم تكفّ خلالها عن شكري على عنايتي بها، وأضافت إلى شكرها الكثير من الرضا واللطف اللذين تعهدينهما فيها. ثم التزمت الصمت المطبق فترة قصيرة، ولم تقطعه إلا لتقول: «آه، أجل أنا أتذكّر أنني جئتُ إلى هنا»، وبعد لحظة صاحتْ بكل تألّم: «صديقتي، صديقتي، ارثي لحالي، أنا أرى كل مصائبي». تقدّمتُ نحوها عندذاك فأمسكتْ يدي، وأسندت رأسها عليها واستأنفت: «يا إلهي، ألا أستطيع أن أموت؟»، وقد أثّرت فيّ ملامح وجهها أكثر من كلامها حتى انهمرت دموعي. ولاحظتْ ذلك من صوتي، فقالت لي: «أنت ترثين لي! آه لو تعلمين!...» ثم توقفت عن الكلام قائلة: «أريد أن نبقى وحدنا، وسأروي لك كل شيء».

وهكذا، كما كنت قد قلت لك، كانت لديّ شبهات حول ما يمكن أن يكون سبب هذا البَوح. وخشيت أن تكون هذه المحادثة طويلة ومؤلمة مما قد تؤذي حالة صديقتنا التعيسة، لذلك رفضْتُ في البداية بحجّة أنها تحتاج إلى الراحة، ولكنني اضطررت إلى الموافقة من كثرة إلحاحها. وما إن أصبحنا بمفردنا حتى روت لي جميع التفاصيل التي تعرفينها ولا أعيدها عليك لهذا السبب.

أخيراً، وفيما كانت تحدّثني عن الطريقة القاسية التي تمّت التضحية بها أضافت: «لقد كنت أعتقد أنني سأموت بسببها بالتأكيد، وكانت لدي شجاعة على ذلك، ولكن أن أستمر في العيش وأنا أحمل وزر شقائي وعاري فهذا مستحيل». حاولتُ محاربة هذا

القنوط، أو بالأحرى هذا اليأس، بأسلحة الدين التي كانت حتى ذلك الحين تؤثر فيها، ولكن ما لبثتُ أن شعرتُ بأنه لم تكن لدي القوة الكافية على متابعة هذه المهمات الجبارة. ثم اقترحتُ عليها استدعاء الأب أنسيلم الذي يتمتّع بكل ثقتها كما أعلم، فرضيَتْ، لا بل بدت راغبة جداً في ذلك. وكان أن استُدعي فحضر على الفور. ومكث مدة طويلة مع المريضة، وقال لدى خروجه: إذا كان الأطباء يعتقدون مثله، فهو يظن أن من الممكن تأجيل حفلة القربان الأخير إلى الغد، وأنه سيعود في اليوم التالي.

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر، وظلّت صديقتنا هادئة حتى الساعة الخامسة حتى إننا استعدنا الأمل جميعنا بإمكان شفائها. لسوء الحظ حُملت إليها رسالة في هذه الأثناء، وحين أردنا تسليمها لها رفضت، وقالت إنها لا تريد أن تتلقى أي رسالة من أيّ كان. ثم سألت بعد لحظة من أين جاءت هذه الرسالة؟ لم تكن تحمل ختماً بريدياً. ومن جاء بها؟ ومن قِبل مَن أُرسلَتْ؟ لم نقُل لها شيئاً. ثم التزمت الصمت بعض الوقت، لكنها عادت إلى الكلام، وكانت أقوالها متقطّعة لا رابط بينها، ما جعلنا نوقن أن جنونها قد عاودها.

وفي الأثناء، مرّت فترة هدوء أخرى إلى أن طلبتْ تسليمها الرسالة التي جاءت باسمها. وما إن ألقت نظرة عليها حتى صاحَت: «يا إلهي! إنها منه!». ثم أضافت بصوت قوي مُتهدّج: «خذوها، خذوها». ثم أغلقت ستائر سريرها على الفور، ومنعت أي شخص من الاقتراب منها. لكننا اضطررنا للعودة إلى قربها. عاودتها نوبة الهذيان أقوى من ذي قبل، ورافقتها تشنجات مخيفة حقيقية. ولم تتوقف هذه العوارض طوال السهرة، وقد علمت من نشرة هذا

الصباح أنها أمضت ليلة شديدة الاضطراب. وأخيراً، أقول: إنها في حالة أعجب معها كيف لم تمت حتى الآن. ولا أخفي عليك أنني قطعت كل أمل تقريباً.

أظنّ أن هذه الرسالة التعيسة هي من السيد دوڤالمون، ولكن كيف له أن يجسر على مراسلتها أيضاً؟ عفواً يا صديقتي العزيزة، إنني أمتنع عن إبداء أي ملاحظة: ولكن من المؤلم جداً رؤية امرأة كانت حتى الآن سعيدة وجديرة بالسعادة تهلك بهذه الصورة المحزنة.

*باريس، في ٢ ديسمبر/كانون الأول ١٧**‏.*

الرسالة الخمسون بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى الماركيزة دوميرتويّ

بانتظار سعادة رؤيتك يا صديقتي الرقيقة، أستسلم لمتعة الكتابة إليكِ، وبانشغالي بكِ، تخفّ الحسرة على بعدك عني. حين أكتب لك عواطفي، أتذكر عواطفكِ التي تبهج قلبي، فتمنح هذه المتعة لحبي في وقت الحرمان آلاف الملذات الثمينة. ومع ذلك، إذا كان لا بد من أن أصدّقك، فلن أحصل على أي جواب منك. وهذه الرسالة ستكون الأخيرة، وسنحرم نفسينا من «تجارة»، هي حسب رأيك خطيرة، *ولسنا بحاجة إليها*. وأنا سأصدّقك بالتأكيد إذا ألححت، إذ ماذا يمكن أن ترغبي فيه ولا أريده أنا لهذا السبب؟ ولكن قبل أن تقرّري نهائياً، ألا تسمحي لي بأن نتحدّث معاً؟

بالنسبة للأخطار، أنت وحدك تستطيعين أن تحكمي عليها، ولا أستطيع أن أحسب مداها. وأنا حريص كل الحرص على طمأنينتك،

لأنني لا أستطيع أن أكون مُطْمئناً حين تكونين قلقة. وفي هذه القضية كلانا واحد، وأنت التي تُقرّرين عنّا نحن الاثنين.

لكن الأمر مختلف فيما يتعلّق بالحاجة إلى ذلك. وهنا لا يمكن أن تكون لدينا إلا الفكرة نفسها. وإذا اختلفنا في الرأي، فمردّ ذلك ربما إلى عدم التفاهم وسماع بعضنا بعضاً. وإليك إذاً ما أظن أنني أشعر به.

لا شك في أن الرسالة غير ضرورية حين نستطيع أن نتقابل بحرية. وماذا يمكن أن تقوله ولا تعبر عنه أكثر كلمة واحدة، أو نظرة واحدة، أو حتى صمت؟ وهذا ما يبدو لي صحيحاً. حين قلتِ لي ألّا نتراسل، عبرت هذه الفكرة بسهولة إلى روحي، ربما ضايقتها، لكنها لم تؤثّر فيها البتة. كما لو أنني أريد أن أطبع قبلة على قلبك، فأصادف شريطاً، أو برقعاً شفّافاً، فأبعده فقط، ولا أشعر بأي حاجز.

لكننا انفصلنا منذ ذلك الحين. ومنذ غيابك عادت فكرة المراسلة تشغل بالي. وقلت لنفسي لمَ هذا المزيد من الحرمان؟ ماذا؟! أليس ثمة ما نقوله في البعاد؟ أفترض أن نستفيد من الظرف ونقضي معاً يوماً كاملاً. هل يجدر بنا إضاعة الوقت في التحدث عن وقت المتعة؟ نعم، المتعة بقربك يا صديقتي الرقيقة، لأن لحظات الراحة نفسها التي أقضيها معك تمنحني متعة لذيذة أيضاً. وأخيراً، مهما كان الوقت الذي نقضيه معاً، فإننا نصل إلى الفراق، وأصبح وحيداً! وعندئذٍ تصبح الرسالة ثمينة! وإن لم تُقرأ، فعلى الأقل يُنظر إليها... آه! من دون شك من الممكن النظر إلى رسالة من دون قراءتها، كما أشعر في الليل ببعض السرور حين ألمسُ صورتكِ...

لقد قلتُ صورتك؟ لكن الرسالة هي صورة الروح... وهي

ليست بهذا الجمود البعيد كل البُعد عن الحب، بل تُمثّل جميع حركاتنا، وتدبّ فيها الحياة، وتحرّك المشاعر وتؤنس، ثم ترتاح. . . مشاعرك غالية جداً عليّ! فهل تحرمينني من وسيلة قطافها؟

هل أنتِ متأكّدة من أن حاجة الكتابة إليّ لن تشغل بالك البتة؟ ماذا لو انشرح قلبك في العزلة أو انقبض، وإذا دخلت لحظة حبور إلى روحكِ، أو جاءت تعاسة مفاجئة تُعكّرها لحظة ما، ألا تبثّين سعادتك أو ألمك في صدر صديقك؟ ألا تشاطرين صديقَك مشاعرك؟ آه يا صديقتي. . . يا صديقتي الحنون! لكن الأمر يعود إليكِ في أن تُقرّري. لقد أردتُ فقط أن أتناقش معكِ، لا أن أُغريكِ. ولم أقل لك إلّا أسباباً منطقية، وأجرؤ على القول إنها أقوى من التوسلات. وسأحاول إذاً -إذا ألححْتِ- ألّا أُحزنكِ. وسأبذل جهودي لكي أقول لنفسي ما يمكن أن تكوني قد كتبته لي. ولكن، اعرفي أنك ستقولينه أفضل مني وسأكون سعيداً جداً في سماعه منكِ.

الوداع يا صديقتي الفاتنة. لقد اقتربتْ الساعة التي أستطيع فيها أن أراكِ. أتركك سريعاً لكي أذهب فألقاكِ في أقرب وقت.

*باريس، في ٣ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الحادية والخمسون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

لا شكّ، أيتها الماركيزة، في أنكِ لا تظنينني قليل الأدب لأنني أسأت الظن بلقائك المُنفرد هذا المساء، وبـ «المصادفة المدهشة» التي قادَتْ دانسيني إلى بيتكِ! ليس لأن سحنتك المُتمرّنة لم تعرف

كيف تتّخذ بصورة رائعة تعبير الهدوء والصفاء، ولا لأنك فضحتِ نفسكِ بإحدى تلك العبارات التي تفلت أحياناً لتكشف عن الاضطراب والندم. وأعترف أيضاً بأن نظراتك الذليلة قد خدَمتْكِ تماماً، وقد عرفتْ كيف تبعث على التصديق كما تبعث على التفاهم. وبعيداً عن إبداء أقل ريبة أو الاحتفاظ بها، لم أشكّ لحظة واحدة في ما سبّبه لك هذا «*الطرف الثالث غير الملائم*» من غمٍّ بالغ. ولكن، كي لا تبدّدي عبثاً كل هذه المواهب لتحقيق نجاح وعدْتِ به نفسكِ، وإحداث الوهم الذي تحاولين خلقه، كان حريًّا بك أن تُدرّبي عاشقكِ الساذج بعناية أكثر.

وبما أنك بدأتِ في التعليم، درّبي تلاميذكِ على ألا يتورّدوا خجلاً، وألا يرتبكوا عند أول مزحة، وألا ينكروا بحماسة، في سبيل امرأة واحدة، الأشياء نفسها التي يدافعون عنها بكثير من الرخاوة عن الباقيات جميعهن. علّميهم أيضاً كيف يصغون إلى إطراء معلّمتهم دون أن يعتقدوا أن عليهم أن يُقدّموا إليها كل تشريف. وإذا سمَحْتِ لهم بأن ينظروا إليك في المجتمع، فليعرفوا على الأقل سلفاً أن يُخفوا نظرة التملّك التي ليس من الصعب اكتشافها، وألّا يمزجوها برعونتهم بنظرة الحب. وعندئذٍ، اتركيهم يظهرون إلى العلن دون أن يشين مسلكهم سمعة معلّمتهم الحكيمة. سأكون سعيداً جداً بالمساهمة في شهرتك، وأعدك بأن أنشر برامج هذه المدرسة الجديدة.

آه! ولكنني أعجبُ حتى الآن، وأنا أعترف بذلك، لأنك عاملتني كتلميذ مدرسة، بينما كان بإمكاني مع أي امرأة أخرى أن أنتقم على الفور، وبكل سرورا وأن يتجاوز سروري بكل سهولة السرور الذي اعتقدت أنها ستفقدني إياه! أجل، معك وحدك أستطيع

أن أفضّل تدارك الخطأ على الانتقام. ولا تظنّي أن ما يمنعني هو وجود أي شك أو أقلّ عدم يقين. . . فأنا أعلم كل شيء.

وصلتِ إلى باريس منذ أربعة أيام، وكنتِ ترين دانسيني كل يوم، ولم تقابلي أحداً غيره. واليوم أيضاً لا يزال بابك مقفلاً ولم يكن يحتاج بوابك، لكي يمنعني من الوصول إليكِ، إلا تأكيدك. ومع ذلك، ما كان ينبغي عليّ أن أشكّ، كما ذكرت لي في رسالتكِ، في أن أكون أول من يعلم بوصولك، هذا الوصول الذي لم تُحدّدي لي موعده أيضاً، بينما كتبتِ لي في الواقع عشية سفرك. هل ستنكرين هذه الوقائع أم ستحاولين الاعتذار عنها؟ إن هذا وذاك مستحيلان. ومع ذلك، فإنني أردع نفسي أيضاً. اعرفي مدى سلطانكِ الذي كنت سعيداً بمعرفته، ولكن لا تُطيلي استغلاله، فنحن يعرف أحدنا الآخر جيداً أيتها الماركيزة. وهذه الكلمة يجب أن تكفيكِ.

هل قلتِ لي إنك ستخرجين غداً طيلة النهار؟ حسناً، فليكن. يا حبّذا إذا كنتِ ستخرجين فعلاً أن أعرف بالأمر، ولكنك ستعودين أخيراً في المساء، ولن يكون لدينا وقت حتى اليوم التالي من أجل مصالحتنا العسيرة. أعلميني فقط ما إذا كانت ستتم في بيتك أو «هناك» حيث سنكفّر عن ذنوبنا الكثيرة المتبادلة، وبصورة خاصة، من دون دانسيني، فقد ملأ رأسك الشرير بالتفكير فيه. قد لا أغار من جنون خيالك، ولكن فكّري منذ هذه اللحظة أن ما حدث بسبب نزوة ستكون له الأفضلية، ولا أظن أنني خُلقت لهذه الإهانة، ولم أكن أنتظر أن أتلقّاها منكِ.

وآمل كذلك ألّا تعتبري ذلك تضحية من جانبك. حتى وإن كانت ستكلّفكِ العناء، أظن أنني قدّمتُ المثال الحسن أمامك! لأن هناك امرأة جميلة وحسّاسة لم تكن تعيش إلا من أجلي، وربما تحتضر في

الوقت الحاضر حباً وحسرة، وأظن أنها تُعادل التلميذ الصغير الذي لا ينقصه الجمال والفطنة، إنما التجربة والمثابرة.

الوداع أيتها الماركيزة، لن أحدثك عن عواطفي. كل ما أستطيع القيام به الآن، هو ألا أجسّ قلبي. أنتظر جوابكِ. فكّري عند كتابته، فكّري جيداً أنه كلما كان من السهل أن تجعليني أنسى الإهانة التي وجّهتها إليّ، أدّى أي رفض من جانبكِ أو مُجرّد تأجيل بسيط إلى تفاقم هذه الإهانة في قلبي بحيث لا يمكن أن تزول.

*باريس، في ٣ ديسمبر/كانون الأول **١٧، مساءً.*

الرسالة الثانية والخمسون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

احذر إذاً، أيها الڤيكونت، وارفق أكثر بحيائي الشديد! كيف تريد أن أتحمّل فكرة إثارة استيائك المزعجة، وبصورة خاصة ألا أقع فريسة الخوف من انتقامك؟ وفضلاً عن ذلك، إذا وجّهتَ إليّ أية إساءة، فسيكون من المستحيل عليّ أن أردّها كما تعلم. ومهما قلتُ، فإن وجودك لن يكون أقل لمعاناً ولا أقل هدوءاً. في الواقع، ممَّ تخاف؟ أن تضطر إلى الرحيل إذا أُتيح لك مُتَسع من الوقت. ولكن، ألا يعيش المرء في الخارج كما يعيش هنا؟ وعلى العموم، عسى أن يتركك أهل بلاط فرنسا تحدد إقامتك في المكان الذي تختاره. سيكون الأمر بالنسبة إليك استبدال مكان انتصاراتك. بعد هذه المحاولة في تهدئة أعصابك بهذه الاعتبارات الأخلاقية، لنعد إلى شؤوننا.

هل تعلم أيها الڤيكونت لماذا لم أتزوّج ثانية أبداً؟ لا يعود السبب بالتأكيد إلى عدم وجود صفقات رابحة، بل لأنني لا أريد أن يكون هناك أحد يحقّ له الاعتراض على أعمالي وتصرّفاتي. وليس لأنني خشيت ألا أتمكن من تنفيذ رغباتي، لأنني أتوصّل إلى ذلك دائماً، بل إن ما كان سيضايقني هو أن يكون هناك شخص يحق له أن يشتكي مني، لأنني في النهاية، لم أكن أرغب في خداع أحد إلا لمتعتي، وليس بدافع الحاجة. وها أنت تكتب إليّ رسالة كم هي شبيهة برسائل الأزواج! لا تتحدّث فيها إلا عن الأخطاء من جانبي، والعفو من جانبك! ولكن، كيف يمكن أن يخلّ الإنسان بعهد من لا يدين له بشيء؟ في الحقيقة، يصعب عليّ إدراك ذلك!

لنرَ الآن، ما هي المشكلة؟ لقد وجدتَ دانسيني في بيتي ولم يُعجبك ذلك؟ لحسن الحظ، ولكن ماذا استنتجت؟ إما أنه كان هناك مصادفة، كما قلت لك، وإما أنه جاء بناء على رغبتي كما لم أقل لك. في الحالة الأولى، رسالتك ظالمة. وفي الحالة الثانية تكون سخيفة، وما كان ينبغي أن تتكبد عناء كتابتها! ولكنك غيور، والغيرة لا منطق لها. حسناً! سأفكّر منطقياً عنك.

إما أن يكون لك مزاحم أو لا يكون. فإذا كان لك مزاحم، فيجب عليك أن تُثير الإعجاب لكي تجعل نفسك مُفضّلاً عليه، وإذا لم يكن لك مُزاحم، يجب أن تبعث على الإعجاب أكثر كي تتفادى أن يكون لك من يزاحمك. وفي جميع الأحوال، يجب أن تسلك السلوك نفسه. فلماذا تشغل بالك؟ ولماذا تشغل بالي أنا بصورة خاصّة؟ ألا تعرف أن تكون أكثر لطفاً؟ ألست واثقاً من نجاحاتك؟ أنت مخطئ أيها الڤيكونت. لكن الأمر ليس كذلك، لأنني في نظرك لا أساوي أن تبذل من أجلي كل هذا العناء. لم تعد ترغب في

تسامحي، بحيث لا تريد أن تستغلّ سلطانك. هيا أيها الجاحد! ما أقوله الآن أراه عاطفة، ولو تابعت هذه الرسالة على هذا المنوال فقد تصبح رقيقة جداً، وأنت لا تستحقّها.

كما أنك لا تستحقّ أن أبرّر نفسي. ولكي أُعاقبك على شبهاتك سأجعلك تحتفظ بها. وهكذا لن أقول لك شيئاً عن موعد عودتي ولا عن زيارات دانسيني. فلقد تكبّدت العناء لكي تطّلع عليها، أليس كذلك؟ حسناً. هل استفدت؟ أتمنّى أن تكون قد وجدت في ذلك متعة كبرى. أما بالنسبة إليّ، فإن متعتي بقيت على ما هي.

كل ما أستطيع أن أردّ به على رسالتك التهديدية إذاً، هو أنك لا تملك الموهبة على إعجابي ولا القدرة على تخويفي. وفي الوقت الحاضر لست أكثر استعداداً لمنحك مطالبك.

في الحقيقة، إذا قَبِلتك كما بدوتَ اليوم، فمعناه أنني أخونك خيانة حقيقية. ولا يعني ذلك البتة أنني أعيد علاقتي مع عاشقي القديم، بل أتّخذ عاشقاً جديداً لا يساوي الآخر كثيراً. فأنا لم أنسَ الأول بعد كي أخدع نفسي على هذه الصورة، لأن ڤالمون الذي كنت أحبه كان فاتناً. وأعترف أنني لم ألتقِ رجلاً أكثر لطفاً منه حتى الآن. آه! أرجوك يا ڤيكونت، إذا عثرتَ عليه، فأحضره إليّ. سوف أستقبله بكل ترحاب دائماً.

مهما يكن، أنذرهُ أنه لن يكون ذلك اليوم ولا غداً، في أي حال من الأحوال. لأن قرينه قد ألحق الضرر به. وإذا ضغط عليّ كثيراً فإنني أخشى أن أخدع نفسي. أو لعلّي وعدتُ دانسيني بتخصيص هذين اليومين له؟ وهكذا أعلمتني رسالتك أنك لا تمزح حين يخلّ المرء بوعده. أرأيت إذاً، لا بد من الانتظار.

ولكن ماذا يهمّك؟ تستطيع أن تنتقم دائماً من غريمك. فهو لن يفعل مع خليلتك أسوأ مما فعلتَ مع خليلته. على كل حال، ألا تساوي امرأةٌ امرأةً أخرى؟ تلك هي مبادئك. وحتى تلك *المرأة الرقيقة والحسّاسة والتي لا تحيا إلا من أجلك*، وسوف *تموت في النهاية أسفاً وحزناً على حبّك*. ألم تُضحِّ بها عند أول نزوة خوفاً من أن تكون أنت الأضحوكة في وقت من الأوقات. ثم تريد أن نزعج أنفسنا؟ آه! كلا، هذا ليس عدلاً.

الوداع أيها الڤيكونت، عُد كما كنت لطيفاً. وأنا لا أطلب أكثر من أن أجدك فاتناً، وما إن أتأكد من ذلك بنفسي، أتعهّد بأن أُثبت لك حبي. في الحقيقة، أنا طيّبة القلب جداً.

*باريس، في ٤ ديسمبر/كانون الأول ١٧***.

الرسالة الثالثة والخمسون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

ها أنذا أردّ على رسالتكِ حالاً، وسأحاول أن أكون واضحاً، وهذا ليس بالسهل معكِ حين تقرّرين سلفاً ألا تفهمي.

لم تكن الخطابات الطويلة ضرورية لإثبات أن كلّاً منّا يملك بيده كل ما يلزم لتدمير الآخر، إذ إن مصلحتنا واحدة وتنبغي مراعاة أحدنا الآخر. كما أن القضيّة لا تتعلّق بذلك. ولكن، بين القرار العنيف في أن يُدمّر أحدنا الآخر، وبين القرار الأفضل من دون شك، بأن نبقى مُتّحدين كما كنا، وكما سنصبح أشدّ اتحاداً إذا استأنفنا علاقتنا الأولى، فإنني أقول: بين هذين القرارين هناك ألف قرار آخر يمكن

اتخاذه أيضاً. ليس من السخف إذاً أن أكرّر القول: إنني ابتداءً من هذا اليوم سأكون إما عشيقك أو عدوّك.

أشعر تماماً بأن هذا الاختيار يُضايقك، وربما كنت تُفضّلين المواربة. ولا أجهل أنك لم تُحبّي قط أن تكوني في وضع يجبرك على الخيار ما بين: نعم أو لا. ولكن عليك أن تشعري أيضاً بأنني لا أستطيع أن أدعك تخرجين من هذه الحلقة الضيّقة من دون المجازفة بأن أكون مخدوعاً، ولا شك أنك تتوقّعين أنني لن أتأثر. والآن عليكِ أنتِ أن تُقرّري: أستطيع أن أترك لك الخيار، إنما من دون تردّد.

أُنذِركِ فقط بأنك لن تخدعيني بمُبرّراتك الصالحة أو السيّئة، ولن تغويني ببعض المداهنات التي تحاولين أن تزيّني بها رفضكِ. وأخيراً، لقد حانت ساعة الصراحة، ولا أطلب أكثر من إعطائك المثال عن نفسي، وأقرّ بكل سرور أنني أُفضّل المسالمة والصلح، ولكن إذا كان لا بد من قطع الصلة بيني وبينك، فأظنّ أن لديّ الحق والوسائل.

أُضيف إلى ذلك أن أقلّ عقبة من جانبك سأعتبرها من جانبي إعلانًا صريحًا بالحرب. أرأيتِ؟ إن الجواب الذي أطلبه منك لا يتطلّب عبارات طويلة ولا جميلة، كلمتان فقط تكفيان.

*باريس، في ٤ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

جواب من المركيزة دوميرتويّ

كُتِبَ في ذيل الرسالة نفسها.

حسناً! الحرب.

الرسالة الرابعة والخمسون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

إن النشرات تُنبئك عن حالة مريضتنا المؤسفة أفضل مما أستطيع القيام به يا صديقتي العزيزة. وأنا أقضي كل وقتي في العناية بها، بحيث لا أجد الفرصة للكتابة إليكِ، فضلاً عن أحداث أخرى غير المرض وقعت. وإليك حادث لم أكن أتوقّعه أبداً: تلقّيت رسالة من السيد دوڤالمون الذي أحب أن يتّخذني موضع أسراره، لا بل وسيطته لدى السيدة دوتورڤيل التي بعثَ إليها برسالة ضمن رسالتي. وقد رفضتُ الأولى ورددتُ على الأخرى. أبعثُ إليك بالأخيرة، وأعتقد أنك ستحكمين على الأمور مثلي، وهو أنني لا أستطيع ويجب ألا أفعل ما يطلبه مني. حتى وإن أردتُ القيام بذلك، فإن صديقتنا المسكينة ليست في حالة تسمح لها بأن تسمعني، لأن هذيانها مستمر. ولكن ما رأيك في يأس السيد دوڤالمون؟ ثم هل يجب تصديقه؟ أم إنه يريد فقط أن يخدع جميع الناس حتى النهاية؟ وإذا كان صادقاً هذه المرة، فبوسعه القول إنه سبب تعاستها. أعتقد أنه لن يكون مسروراً من جوابي، لكنني أعترف أن كل ما أراه في هذه المغامرة البائسة يثير غضبي أكثر فأكثر على فاعلها.

الوداع يا صديقتي العزيزة. أعود الآن إلى عنايتي الكئيبة التي تزداد رغم ضآلة الأمل في أن أراها تنجح. أنت تعرفين عواطفي نحوكِ.

*باريس، في ٥ ديسمبر/كانون الأول ‎**١٧.*

الرسالة الخامسة والخمسون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الفارس دانسيني

عزيزي الفارس، مررتُ بمنزلك مرّتين، ولكنك منذ أن استبدلتَ دور العاشق بدور الباحث عن المغامرات العاطفية، لا يمكن العثور عليك فعلاً. مع أن خادمك الخاص أكّد لي أنك ستعود هذا المساء، وأنك أمرته أن ينتظرك. ولكنني أنا العارف بمشاريعك، فهمت جيداً أنك لن تعود إلا للحظة قصيرة لكي ترتدي لباسك «المسرحيّ»، ثم تستأنف على الفور غزواتك الظافرة. هنيئاً لك، لا أستطيع إلا أن أُهلّل لك. لعلك هذا المساء تغيّر وجهتك، فأنت لا تعرف حتى الآن إلا نصف قضاياك، ولا بد من إطلاعك على النصف الآخر، وعليك اتخاذ القرار. خذ إذاً الوقت الكافي في قراءة رسالتي التي لن تصرفك عن ملذّاتك، بل على العكس، لا تهدف إلا إلى ترك الخيار لك.

لو أنك أطلعتني على أسرارك كلّها، أو جزءٍ منها ولم تتركني أستنتجها، لكنت عرفتُ في الوقت المناسب، ولما أزعجتُ مسعاك بحماستي الخرقاء. ولكن، لننطلق من النقطة التي نحن فيها الآن، ومهما كان القرار الذي ستتخذه، فإن الأسوأ سيكون السبب في سعادة شخص آخر.

لديك موعد هذه الليلة أليس كذلك؟ مع امرأة فاتنة تعبدها؟ لأن من كان في مثل سنّك، فأي امرأة لا يعبدها؟ في الأيام الثمانية الأولى على الأقل! كما أن مسرح اللقاء لا بد أن يُضيف على ملذّاتك ملذّات أخرى: بيت صغير هنيء لم *يُتّخذ إلا من أجلك*، لا

بد أن يُزيّن أوج المتعة، ومفاتن الحرية، وسحر الغموض. كل شيء مُتّفق عليه. وهناك من ينتظرك، وأنت تتحرّق شوقاً للذهاب إليه! وهذا ما نعرفه نحن الاثنين مع أنك لم تقل لي شيئاً. والآن، إليك ما لا تعلمه، ويجب أن أقوله لك.

منذ عودتي إلى باريس وأنا منشغل بالوسائل التي تُقرّبك من الآنسة دوڤولانج، لأنني قد وعدتكَ بذلك. استنتجتُ من رسائلك، وأستطيع القول من هيامك ما جعلني أهتمّ بسعادتك. ولم أكن لأنجح وحدي في هذه المحاولة الصعبة جداً، لكنني بعد أن هيّأت السبل، تركتُ البقية لحماسة خليلتك الصغيرة. وقد وجدتْ في حبها وسائل كانت تعوزها خبرتي. وأخيراً، إن تعاستك على نهايتها، فقد قالت لي هذا المساء: إن جميع العقبات قد أزيلت منذ يومين، ولا تتوقّف سعادتك الآن إلا عليك.

ومنذ يومين أيضاً تتباهى الآنسة بأنها ستُطلعكَ على هذا الخبر بنفسها، وكان بإمكانك أن تأتي وتستقبلك في غياب أمها، لكنك لم تحضر! وأقول لك الحقيقة: لقد بدت لي الفتاة، ما بين النزق وبين الجِدّ، أنها مستاءة بعض الشيء من قلة الاستعجال من طرفك. وأخيراً عثرتْ على وسيلة كي أصل بواسطتها إليها، وجعلتني أقطع وعداً بأن أبعث إليك بهذه الرسالة التي أرفقها هنا. نظراً إلى ما أبدَتْهُ من تعجّل، أراهن أنها حدّدت لك موعداً هذا المساء. ومهما يكن فقد وعدتُ بشرفي وصداقتي بأن أُسلّمك الرسالة الرقيقة هذا النهار، وأنا لا أستطيع ولا أريد أن أَحنث بوعدي.

والآن، أيها الشاب، أي موقف ستتخذ؟ بعد أن وقعتَ بين المغازلة والحب، وبين المتعة والسعادة، فماذا سيكون اختيارك؟ ولو كنت أتحدّث إلى دانسيني كما أعرفه منذ ثلاثة أشهر، لا بل قبل

ثمانية أيام فقط، الذي كنت متأكّداً من قلبه، لعرفتهُ من مساعيه. لكن دانسيني اليوم، الذي انتزعتْهُ النساء، ويركض وراء المغامرات، قد أصبح حسب الأعراف أثيماً إلى حد ما، فهل يُفضّل فتاة صغيرة خجولًا لا تملك سوى جمالها وبراءتها وحبها على مِتع امرأة مُتمرّنة بشكل ممتاز؟

بالنسبة إليّ يا صديقي العزيز، حتى في مبادئك الجديدة التي أعترف أنها قريبة من مبادئي أيضاً، يبدو لي أن الظروف تجعلني أُفضّل العاشقة الصغيرة. أولاً لأنها ستكون واحدة إضافية وجديدة، وهناك الخوف من فقدان ثمرة جهودك حين تهمل اقتطافها، لأنك من هذه الناحية ستكون قد فوَّت على نفسك فرصة قد لا تتسنّى لك دائماً، لا سيما أمام أول تخاذل. وتكفي في مثل هذه الحالة غالباً لحظة استياء، أو شبهة غيرة، أو ربما أقل أيضاً لتحول دون أجمل انتصار. إن الفضيلة التي تغرق تتعلّق أحياناً بالأغصان، وما إن تنجُ حتى تبقى حذرة ولن يعود من السهل مفاجأتها.

أما من الناحية الأخرى فعلى العكس؟ ماذا تخسر؟ فأنت لا تُجازف حتى بالانفصال. لن يحدث أكثر من خصام تشتري من بعده متعة المصالحة ببعض الملاطفات. وأي خيار آخر يبقى للمرأة التي سبق أن استسلمَتْ سوى المسامحة؟ وماذا ستكسب من القسوة؟ ستخسر ملذّاتها من دون أية فائدة لمجدها.

وإذا قرّرتَ -كما أفترض- اتّباع مسلك الحب الذي يبدو لي أنه صوت العقل، فإنني أعتقد أن من باب الاحتراس ألا تعتذر عن الموعد، بل اترك الحبيب ينتظرك بكل بساطة، لأنك لو حاولتَ أن تُقدم تبريراً، فهناك مخاطرة في جعله يتحرّى للتأكد من حجّتك، إذ إن النساء فضوليات وعنيدات وكل شيء يمكن أن ينكشف، وأنا

أمامك أمثولة. ولكن إذا استمررت في الأمل، تدعمه عزة نفسك، فلن يضيع إلا بعد ساعة المكاشفة بوقت طويل. تستطيع عندئذ أن تختار الحجّة التي منعتك من المجيء إلى الموعد: مريض، ميّت إذا لزم الأمر، أو أي سبب آخر يمكن أن يجعلها تتحسّر عليك، وكل شيء سيكون على ما يرام.

ومهما يكن قرارك، فأرجوك فقط أعلمني بالأمر. وبما أنه لا مصلحة لي في ذلك، فسأجد دوماً أنك حسناً فعلت. الوداع يا صديقي العزيز.

ما أُضيفه أيضاً هو أنني حزين على السيدة دوتورفيل. أنا يائس بعد انفصالي عنها، وأبذل نصف حياتي في سبيل سعادة تكريس النصف الآخر من أجلها. آه صدّقني، إننا لسنا سعداء إلا في الحب.

*باريس، في ٥ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة السادسة والخمسون بعد المئة

من سيسيل ڤولانج إلى الفارس دانسيني

(مرفقة بالرسالة السابقة)

كيف حدَثَ إذاً يا صديقي العزيز، أنني لم أعد أراك وأنا لم أكفّ يوماً عن الرغبة في ذلك؟ ألم تعد ترغب في ذلك بقدر ما أنا راغبة؟ آه كم أنا حزينة الآن! وأشدّ حزناً مما كنت عليه حين كنا مُفترقين. إن الحزن الذي عانيته من الآخرين، يأتيني الآن منك، وهذا ما يؤلم أشدّ الألم.

منذ بضعة أيام وأمي لا تمكث في البيت أبداً، وأنت تعرف ذلك

حتماً. كنت آمل أن تحاول استغلال هذه الفترة من الحرية! لكنك لا تفكّر حتى في سيسيلتك. أنا تعيسة جداً! لطالما قلتَ لي إنني أنا التي أُحبّك أقلّ مما تحبني! لكنني تأكدت من عكس ذلك، وإليك الدليل: لو أنك جئت لكنت رأيتني بالفعل، لأنني لست مثلك، ولا أفكّر إلا في كل ما يجمعنا. أنت لا تستحقّ أن أحكي لك ما بذلت في سبيل ذلك، وقد سبّب لي الكثير من العناء. أنا أحبك حباً جمّاً وأرغب بشدة في لقياك بحيث لا أمنع نفسي من قول ذلك. ثم سأرى إذا كنتَ تحبّني حقيقة أم لا!

لقد دبّرتُ الأمور بحيث أصبح البواب إلى جانبنا، وقد وعدني بأنه في كل مرة تأتي سيدعك دائماً تدخل كما لو أنه لا يراك. ونستطيع أن نثق به تماماً لأنه رجل شريف جداً. ولا يبقى بعد ذلك إلا الحيلولة دون أن يراك أحد في البيت. وهذا أمر سهل جداً، شرط أن تأتي في المساء، حين لا يكون هناك ما يُخشى منه على الإطلاق. فمثلاً، منذ أن بدأت أمي تخرج كل يوم، صارت تنام في الحادية عشرة. وهكذا سيكون لدينا مُتّسع من الوقت.

وقد قال لي البواب إنك حين تريد المجيء بهذه الطريقة، ليس عليك أن تقرع الباب، بل انقر على نافذته وسوف يفتح لك على الفور. ستجد السلّم الصغير بسهولة، وبما أنك لا تستطيع أن تحمل معك ضوءاً فسأدع باب غرفتي مواربأ لكي يبقى الطريق مضاء لك قليلاً. احترس من القيام بأي ضجّة، ولا سيما حين تمرّ بالقرب من باب غرفة أمي الصغير. أما فيما يتعلّق بباب خادمتي، فالأمر غير مهم لأنها وعدتني بأنها لن تستيقظ. وهي أيضاً فتاة طيّبة جداً! ولدى خروجك سيكون الأمر على هذا النحو أيضاً. والآن سنرى ما إذا كنت ستأتي.

يا إلهي، لماذا يخفق قلبي بقوّة وأنا أكتب إليك؟! هل ستحدث لي مصيبة ما، أو أن الأمل في أن أراك يُثير اضطرابي إلى هذا الحد؟ ولكن ما أشعر به جيداً هو أنني لم أحبك قط بهذا المقدار. وإنني لم أرغب فيك أبداً بمثل هذه الصورة. تعال إذاً يا صديقي العزيز حتى أستطيع أن أكرّر لك مئة مرّة أنني أحبك، أنني أعبدك، وأنني لن أحب سواك.

لقد وجَدْتُ وسيلة لكي أُبلغ السيد دوڤالمون. وبما أنه صديق ممتاز، فسيأتي غداً بالتأكيد، وأرجوه أن يُسلّمك رسالتي هذه حالاً. وهكذا سأنتظرك مساء الغد، وستحضر مهما كلّف الأمر، إذا كنت لا تريد أن تصبح سيسيلتك تعيسة.

الوداع يا صديقي العزيز. أُقبّلك من كل قلبي.

*باريس، في ٤ ديسمبر/كانون الأول **١٧، مساءً.*

الرسالة السابعة والخمسون بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى الڤيكونت دوڤالمون

أرجوك يا عزيزي الڤيكونت، لا تشكّ، لا في قلبي ولا في مساعيّ: كيف لي أن أُقاوم رغبتي في سيسيلتي؟ آه إنها هي... هي وحدها من أحب، والتي سأحبّها دوماً! إن لبراءتها وحنوّها سحراً عليّ، وقد جعلني ضعف عابر ألهو عنه، ولكن لا شيء يمكن أن يمحوه أبداً. وبعد أن تعلقتُ بمغامرة أخرى، دون أن ألاحظ ذلك على نفسي إذا صحّ القول، فقد كانت ذكرى سيسيل تراودني لتُعكّر عليّ أرقّ الملذّات. ولعل قلبي لم يُبجلها أكثر مما فعل في الوقت

نفسه الذي خنتُها فيه. ومع ذلك، يا صديقي، لنرأف برقّتها، ولنُخفِ عنها أخطائي، لا لكي نفاجئها بل لكي لا نحزنها. إن سعادة سيسيل هي أحرّ أمنياتي، ولن أغفر لنفسي أبداً هفوةً يمكن أن تكلّفها دمعة واحدة.

أشعر بأنني أستحقّ المزاح اللاذع الذي وجّهته إليّ بشأن ما تُسمّيه مبادئي الجديدة. ولكن صدّقني: أنا لا أتصرّف الآن وفق هذه المبادئ. وقد قرّرت ابتداء من الغد أن أُبرهن على ذلك. سأذهب لأدين نفسي لدى تلك التي سبّبت ضلالي وشاطرتني إياه. وسأقول لها: «اقرئي في قلبي، فهو يكنّ لك الصداقة الأرقّ، والصداقة إذا اتّحدت مع الشهوة تشبه الحب!... كلانا خُدِع. وإن كنت ميّالاً إلى الخطيئة فلست قادراً على إضمار السوء». وأنا أعرف صديقتي، إنها شريفة بقدر ما هي مُتسامحة، ستفعل أكثر من الإقرار بكلامي وتسامحني. وهي غالباً ما تؤاخذ نفسها لأنها خانَتْ الصداقة. لطالما أخافت رهافة شعورها حبّها. وهي الأكثر حكمة مني، ستدعم في نفسي هذه المخاوف التي كنت أحاول من دون تبصّر أن أخنقها في روحها. وأنا مدين لها بأن أكون أفضل، كما مدين لك بأن أكون أكثر سعادة. آه يا صديقيّ العزيزين، تقبّلا امتناني. إن التفكير في أنني ممتن لكما بسعادتي تزيد من قيمة هذه السعادة.

الوداع يا عزيزي الڤيكونت. إن فرط سروري لا يمنعني من أن أفكّر في أشجانك وأشاطرك إياها. وبِمَ يمكن أن أخدمك؟ ألا تزال السيدة دوتورڤيل مُتصلبة لا تنثني؟ يُقال إنها مريضة جداً. يا إلهي كم أرثي لحالك! عساها تستعيد في آن واحد صحّتها وتسامحها، وتمنحك السعادة إلى الأبد! إنها أمنيات الصداقة، وآمل أن تتحقّق عن طريق الحب.

كنت أودّ أن أتحدّث إليك مُطوّلاً، لكن الوقت يداهمني وربما سيسيل تنتظرني الآن.

*باريس، في ٥ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الثامنة والخمسون بعد المئة

من الڤيكونت دوڤالمون إلى الماركيزة دوميرتويّ

(لدى استيقاظه من النوم)

إذاً، أيتها الماركيزة، كيف تجدين نفسكِ بعد ملذّات الليلة الفائتة؟ ألستِ مُتعبة قليلاً؟ اعترفي إذاً بأن دانسيني رائع! وأن هذا الفتى يقوم بالأعاجيب! لم تتوقعي منه شيئاً كهذا! أليس كذلك؟ وأقول كلمة الحقّ: إن مثل هذا المزاحم يستحقّ التضحية من جانبي. إنه يمتلك في الحقيقة الكثير من المزايا الحميدة! وبصورة خاصة الحب والمثابرة، ورهافة الحسّ! آه لو كنتِ محبوبة من قبله كما يحب سيسيلته، لما خشيت أي مزاحمة. وقد أثبتَ لك ذلك هذه الليلة. وربما لكثرة الغزل تستطيع أي امرأة أن تخطفه منك لفترة، إذ إن أي فتى مثله لا يعرف كثيراً أن يرفض المضايقات الاستفزازية، كلمة واحدة من الشخص المحبوب تكون كافية، كما ترين، لتبديد هذا الوهم. وهكذا لا يعوزك إلا أن تكوني هذا الشخص لكي تكوني سعيدة تماماً.

لن تخدعي نفسك بالتأكيد، ولديك من اللباقة ما يجعل الآخرين يخشونكِ. ومع ذلك فإن الصداقة التي تربط بيننا، وهي مُخلصة جداً من جانبي، ومُعترف بها من جانبك، قد دفعتني لأقوم الليلة الماضية

بتجربة من أجلك، وقد نجحتْ. لكنني لا أريد شكراً عليها، فهي لا تستحقّ الشكر لأنها على جانب كبير من السهولة.

في الحقيقة، ماذا كلفتْني؟ تضحية بسيطة، وشيء من البراعة. فقد رضيتُ أن أُشاطر الشاب نِعَم خليلته، وله على كل حال عليها حقوق مماثلة لحقوقي ولا تهمني كثيراً! إن الرسالة التي كتبتها الشابة له، أمليتها عليها بنفسي، وقد كان ذلك كسباً للوقت الذي كنا نستخدمه لأغراض أفضل. أما الرسالة التي أرفقتُها فهي لا شيء، تقريباً لا شيء، بعض الملاحظات لتوجيه اختيار العاشق الجديد، لكنها كانت غير مُجدية. ويجب أن أقول الحقيقة، فهو لم يتردّد لحظة واحدة.

سيأتي اليوم إلى زيارتك بسذاجته ويروي لك كل شيء. سوف تسرّين كثيراً بهذه الحكاية بالتأكيد! سيقول لكِ: «اقرئي في قلبي»، وقد أبلغني ذلك. سترين أن كل شيء سيصطلح. آمل عند قراءتك في قلبه كل ما يريد، أن تقرئي أيضاً أن للعشّاق الشبّان مخاطرهم، ومن الأفضل أن تتخذيني صديقاً بدلاً من أن أكون عدواً.

الوداع أيتها الماركيزة، وإلى لقاء قريب.

*باريس، في ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة التاسعة والخمسون بعد المئة

من الماركيزة دوميرتويّ إلى الڤيكونت دوڤالمون

(رسالة قصيرة)

لا أحب أبداً أن تُضيف مزحات رديئة إلى عبارات أردأ. ولم تعد هذه طريقتي ولا من ذوقي. فحين يكون عليّ أن أتذمّر من

أحدهم لا أسخر منه، بل أقوم بما هو أفضل: فأنا أنتقم. ومهما كنت مسروراً من نفسك كما يمكن أن تكون الآن، فلا تنسَ أنها ليست المرّة الأولى التي تهلّل فيها لنفسك سلفاً، وقد أملتَ وحدك في انتصار قد أُفلتَ منك في اللحظة نفسها التي تُهنّئ نفسك به. الوداع.

*باريس، في ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الستون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

أكتب إليك من غرفة صديقتنا التعيسة التي ما زالت على حالها تقريباً. وستجري بعد ظهر اليوم مشاورة بين أربعة أطباء. لسوء الحظ كما تعلمين، فإن المشاورة غالباً ما تكون دليلاً على الخطر أكثر منها وسيلة مساعدة.

يبدو أنها استعادت وعيها قليلاً في الليلة الماضية. فقد أبلغتني الخادمة هذا الصباح أنها استدعتها نحو منتصف الليل، وطلبتْ إليها أن تبقى معها، وأَملَتْ عليها رسالة طويلة. وقالت لي جولي إنها فيما كانت تعدّ الغلاف عاودت سيدتها نوبة هذيان ولم تعرف الفتاة أي عنوان تضع على الرسالة. وقد اندَهشتُ في البداية لأنها لم تعرف إلى مَن هي موجّهة، ولكن وفقاً لما أجابتني، فهي تخشى أن تُخطئ، مع أن سيدتها قد أوصتها بإرسال الرسالة على الفور. وقد أخذتُ على عاتقي أن أفتح المغلّف.

وجدتُ في داخله المخطوط الذي أرسله إليك، وهو في الواقع

ليس موجّهاً إلى أحد بقدر ما هو موجّه إلى الجميع. وأظن أنها أرادت أن تكتب إلى السيد دوڤالمون أولاً، لكنها استسلمتْ دون أن تلاحظ إلى فوضى أفكارها. ومهما يكن، فقد استنتجتُ أن هذه الرسالة يجب ألا تُوجّه إلى أحد، وإنني أُرسلها إليكِ لأنك سترين فيها -أكثر مما أستطيع أن أقوله لكِ- الأفكار التي تشغل تفكير مريضتنا. وما دامت ستبقى حزينة إلى هذه الدرجة فلا أرى أي أمل بشفائها، فالجسم لا يشفى بسهولة حين يكون الفكر متعباً.

الوداع يا صديقتي المحترمة العزيزة، أُهنّئك لأنك بعيدة عن هذا المشهد المُفجع الذي أراه باستمرار تحت أنظاري.

*باريس، في ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الحادية والستون بعد المئة

من الرئيسة دوتورڤيل إلى...

(رسالة أملتها على خادمتها)

وإن كنتَ قاسياً ومؤذياً، أفلا تتعب أبداً من تعذيبي؟ ألم يكفِكَ أن أنزلت الهمّ في روحي، وحططتَ من قدْري وأهنتني، تريد أن تسلبني الهدوء حتى وأنا في قبري؟ ماذا! حين أقمتُ في غياهب الظلمات التي حملني العار إليها ودفنت نفسي فيها، ألا تتوقف الآلام؟ هل صار الأمل غريباً عني؟ أنا لا أتوسّل للحصول على عفو لا أستحقّه قطعاً. ولكي أتعذّب دون أن أتذمّر، حسبي ألا تتجاوز عذاباتي قواي، إنما لا تجعل عذابي غير مُحتمل. وحين تتركِ لي آلامي، خلصني من الذكرى القاسية للمسرّات التي فقدتها. وبعد أن

سلبتَها منّي، لا تَعُدْ لترسم لي الصورة الحزينة. لقد كنت بريئة ومرتاحة، وبعد رؤيتك فقدتُ الراحة. وحين أصغيت إليك أصبحتُ آثمة. أنت يا علّة أخطائي، بأي حقّ تعاقبها؟

أين هم الأصدقاء الذين كانوا يحبونني، أين هم؟ إن مصيبتي تُرعبهم، ولا يجسر أحد على الاقتراب مني. أنا مظلومة ولا يفعلون شيئاً لإنقاذي! إنني أموت ولا أحد يبكي عليّ. أنا محرومة من كل عزاء. تقف الشفقة على شفا الهاوية ويهوي معها المجرم الذي يمزّقه تبكيت الضمير ولا يسمع صرخاته أحدا!

وأنت الذي أهنته. . . أنت الذي يزيد احترامه من تعذيبي. أنت وحدك في النهاية الذي يحقّ لك أن تنتقم، ماذا تفعل بعيداً عني؟ تعال وعاقب امرأة خائنة. كم أتألم من العذابات التي أستحقّها! كنت سأستسلم إلى انتقامك، ولكن الشجاعة خانتني لكي أُخبرك عن عارك. ولم يكن ذلك من باب التستّر بل من قبيل الاحترام. وأرجو أن تُخبرك هذه الرسالة عن مدى ندمي. بيد أن السماء تولّت عنك القضيّة، وهي تثأر لك عن إهانة جهلتها، وهي التي عقدتْ لساني وأمسكت أقوالي، إذ خشيتُ أن تغفر لي ذنبي الذي أرادت أن تُعاقبني عليه، وأبعدتني عن تسامحك الذي جرح عدالتها.

السماء التي لا ترحم في انتقامها سلّمتني إلى ذاك الذي أضاعني. وأنا أتعذّب بسببه ومن أجله في آن واحد. أريد أن أهرب منه، عبثاً! فهو يتبعني، إنه هنا يمتلكني على الدوام. ولكن كم هو مُختلف عن نفسه! لم تعد أنظاره تُعبّر إلا عن الكراهية والاحتقار، وفمه لا ينطق إلا بالشتيمة والملامة. وذراعاه لا تُحيطان بي إلا لكي تمزّقاني. من سينقذني من غضبه البربري؟

ولكن ماذا! . . إنه هو. . لستُ مُخطئة. إنه هو الذي أراه. آه يا

صديقي اللطيف، خذني بين ذراعيك. خبّئني في حضنك. أجل هذا أنت... نعم، أنت! أي وهم قتّال جعلني أجهلك؟ كم تعذّبتُ في غيابك؟ آه، يجب ألّا نفترق. يجب ألا نفترق أبداً، دعني أتنفّس. اسمع كم يخفق قلبي! آه، ليس من الخوف، بل من انفعال الحب العذب. لماذا ترفض ملاطفاتي الرقيقة؟ حوّل نظراتك الحنونة نحوي. وما هي هذه الروابط التي تسعى إلى قطعها؟ ولمن تعدّ عدّة الموت هذه؟ ومن يستطيع أن يُفسد تقاطيعك هكذا؟ ماذا تعمل؟ دعني: إنني أرتجف! يا إلهي إنه هذا الوحش مرة أخرى. لا تتركنني يا صديقاتي. أنترّ يا من دعوتنّني إلى الهرب منه. ساعدنني على محاربته. وأنتِ الأكثر تسامحاً التي وعدتني بتخفيف آلامي، تعالي إذاً إلى جانبي. أين أنتما يا صديقتيّ الاثنتين، إذا لم يكن مسموحاً لي بأن أراكما بعد الآن، ردّا على الأقل على هذه الرسالة. لكي أعرف أنكما ما زلتما تُحبانني.

اتركني إذاً أيها المتوحش! أي سُعار جديد يحرّكك؟ هل تخشى أن يتسرّب إلى روحي شعور رقيق؟ أنتَ تُضاعف عذابي، وتجبرني على كرهك. آه كم أن الكراهية مؤلمة! وكم يتآكل القلب الذي يقطّرها! لماذا تضطهدني؟ ماذا يمكن أن تقول لي أيضاً؟ ألم تضعني في استحالة الإصغاء إليك أو إجابتك؟ لا تنتظر مني شيئاً بعد الآن. الوداع يا سيدي.

*باريس، في ٥ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الثانية والستون بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى الڤيكونت دوڤالمون

لقد اطّلعتُ يا سيدي على العبارات التي استخدمتها نحوي. وأعلم أيضاً أنك لست سعيداً بأنك خدعتني بإذلال فحسب، بل إنك لم تخشَ أن تتباهى بذلك، وتُهنّئ نفسك على ما فعلت. لقد رأيتُ دليل خيانتك مكتوباً بخطّ يدك. وأعترفُ أن قلبي حزن من جراء ذلك، وشعرتُ ببعض العار لأني ساعدْتُ بنفسي على الاستغلال الكريه الذي قُمتَ به تجاه ثقتي العمياء. مع ذلك، أنا لا أحسدك على هذا المكسب المُخجل، بل أريد حقاً أن أعرف إذا كنتَ ستحتفظ بكل ذلك عنّي أيضاً. وأودّ أن أطّلع على الأمر لو تفضّلت بالحضور غداً بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة صباحاً عند باب غابة «فانسين»، قرية سان ماندي. وسأحرص على إحضار كل ما هو ضروري في سبيل التوضيحات التي يبقى عليّ أن آخذها منك.

الفارس دانسيني.

*باريس، في ٦ ديسمبر/كانون الأول ‎**‎١٧، مساءً.*

الرسالة الثالثة والستون بعد المئة

من السيد بِرتران إلى السيدة دوروزموند

سيدتي،

بأسف بالغ أؤدّي الواجب المؤسف بإبلاغكِ نبأ سيسبّب لك

حزناً قاسياً. اسمحي لي أولاً بأن أدعوكِ إلى التسليم النابع من إيمانك الذي يحبه الجميع فيك، وهو وحده يستطيع أن يجعلنا نتحمّل الآلام التي تحفّ بحياتنا البائسة.

إنه السيد ابن شقيقك... يا إلهي! هل يجب أن أُفجِع إلى هذا الحدّ سيدة في غاية الوقار! لقد شاء سوء طالع السيد ابن شقيقك أن يرضخ للموت هذا الصباح في مبارزة مع الفارس السيد دانسيني. إنني أجهل تماماً سبب الشجار، ولكن يبدو من الورقة التي وجدتُها في جيب السيد دوڤالمون والتي لي الشرف بأن أبعثَ بها إليكِ طيّه، أنه ليس هو المعتدي. ولا بد أن تكون السماء هي التي سمحت بما حدث.

لقد كنت في منزل السيد الڤيكونت أنتظره، في الساعة نفسها التي حُمِل فيها إلى المشفى. تصوّري جزعي لدى رؤية السيد ابن أخيك يحمله اثنان من خدمه وهو مضرّج بالدماء. كان مُصاباً بطعنتي سيف في جسده، خائر القوى تماماً. وكان السيد دانسيني هناك أيضاً، حتى إنه كان يبكي. آه يجب أن يبكي من دون شك، فهذا أوان ذرف الدموع بعد أن سبّب فاجعة لا يمكن إصلاحها.

أما أنا، فلم أتمالك نفسي. ومع أنني رجل وضيع، لم أُخفِ عنه انفعالي. ولكن هنا ظهرت عظمة السيد الڤيكونت. أمرَني بأن أسكت وأخذ يد قاتله بالذات، ودعاه يا صديقي، ثم قبّلها أمامنا جميعاً وقال لنا: «إنني آمركم أن تُظهروا نحو هذا السيد كل التقدير والاحترام اللائقين برجل شجاع شهم». ثم سلّمه فضلاً عن ذلك أمامي رزمة ضخمة من الأوراق لا أعرف ما هي، ولكنه كان يُعلّق عليها أهميّة كبرى. ثم طلب أن ندعهما معاً وحيدين لفترة قصيرة. وفي هذه الأثناء، كنت قد استدعيت على الفور كل الإسعافات

الروحية والزمنية. ولكن يا حسرتاه! المصيبة كانت من دون علاج. وبعد مضي أقل من نصف ساعة، غاب الڤيكونت عن وعيه. ولم يستطع أن يتلقّى سوى مسحة المرضى الأخيرة، وما كادت الصلاة تنتهي حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

يا إلهي! حين تلقّيتُ بين ذراعيّ عند الولادة هذه السلالة الثمينة لبيت عريق، هل كان بإمكاني أن أتوقّع أنني سأتلقّاه بين ذراعيّ عند الوفاة وأنني سأبكي موته؟ موت مُبكر جداً وحزين! إن دموعي تسيل رغماً عني. وأطلبُ إليكِ المعذرة، يا سيدتي، لأني تجاسرت على مزج أحزاني بهذا الشكل مع أحزانك. لكننا في جميع الأحوال، كلنا نملك القلب والمشاعر، وسأكون جاحداً بالفعل إذا لم أبكِ طوال حياتي سيداً كان كريماً معي ويُشرّفني بثقته.

غداً، بعد رفع الجثمان، سأضع الأختام على كل شيء، وبإمكانك أن تعتمدي عليّ كل الاعتماد. وإنك لا تجهلين يا سيدتي أن هذا الحدث التعيس يُحلّ وصايتي، ويجعلك حرّة في تدابيرك. فإذا كان بوسعي أن أكون مفيداً بشيء، فأرجو أن تتكرمي وتُوجّهي إليّ أوامرك، وسأضع كل همّتي في تنفيذها حرفياً.

إنني يا سيدتي، بكل احترام خادمك المتواضع... إلخ

بِرتران

باريس، في ٧ ديسمبر/كانون الأول ‎**١٧**.

الرسالة الرابعة والستون بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى السيد بِرتران

تلقّيت رسالتك في هذه اللحظة يا عزيزي بِرتران، وعرفتُ منها هذا المصاب الأليم الذي كان ابن شقيقي ضحيته المحزنة. أجل من دون شك، لديّ أوامر أوجّهها إليك. وفي سبيلها فقط أستطيع أن أهتم بشيء آخر غير فاجعتي المميتة.

إن رسالة السيد دانسيني التي بعثْتَ بها إليّ هي دليل قاطع على أنه هو الذي دعاه إلى المبارزة، وفي نيّتي أن تُقيم الدعوى على الفور باسمي. حين عفا ابن أخي عن عدوّه وقاتله، استطاع أن يُرضي كرم أخلاقه الطبيعي، ولكن أنا عليّ أن أنتقم لموته، وللإنسانية والدين في الوقت نفسه. ولا بد من أن نستنهض القوانين ضد هذه المخلّفات البربرية التي ما زالت تفسد عاداتنا، ولا أظن في مثل هذه الحالة أن العفو عن الإهانات يمكن أن ينطبق علينا. أنتظر منك إذاً أن تُلاحق هذه القضية بكل الهمّة والنشاط اللذين أعهدهما فيك، وعليك أن تبذلهما من أجل ذكرى ابن أخي.

واحرص قبل كل شيء على أن تقابل الرئيس «دو. . .» من قِبَلي وأن تتباحث معه. فأنا لن أكتب إليه، لأنني أستعجل التفرغ كلياً لأحزاني. أرجو أن تقدّم إليه اعتذاري وتُطلعه على هذه الرسالة.

الوداع يا صديقي بِرتران، أُثني عليك وأشكرك على مشاعرك الطيبة وأنا مخلصة لك كل العمر.

*من قصر. . . في ٨ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الخامسة والستون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

علِمتُ أنكِ عرفتِ يا صديقتي العزيزة نبأ الخسارة الجسيمة التي ابتليتِ بها، وأنا التي عرفت حنوَّك على السيد دوڤالمون، أُشاطرك بكل إخلاص التفجّع الذي تشعرين به من دون شك. ويؤلمني حقيقة أن أُضيف إلى أحزانك أحزاناً أخرى، ولكن يا حسرتاه! لم يبقَ لدينا سوى الدموع نذرفها على صديقتنا المسكينة. لقد فقدناها أمس في الساعة الحادية عشرة ليلاً. ومن سوء الحظ المعلّق بمصيرها، والذي يبدو كأنه يهزأ بكل احتراس، فإن هذه الفترة القصيرة التي عاشتها بعد موت دوڤالمون كانت كافية لكي تعلم بخبر وفاته. وكما قالت هي بنفسها إنها لم تستطع أن تسقط تحت ثقل عذاباتها إلا بعد أن رجحت كفة أحزانها.

كنتِ قد علمتِ أنها أصبحت فاقدة الوعي تماماً منذ أكثر من يومين، وصباح أمس أيضاً، حين وصل طبيبها، واقتربنا من سريرها، لم تتعرّف على أي منّا، ولم نتمكّن من الحصول على أية كلمة أو أقل إشارة منها. ولكن ما كدنا نعود إلى المدفأة، وبينما كان الطبيب يخبرني بموت السيد دوڤالمون المفجع حتى استعادت المسكينة وعيها. إما أنها استيقظت بصورة طبيعية، أو أن تكرار كلمات «السيد دوڤالمون، مات» جعلَتْ المريضة تتذكّر الأفكار الوحيدة التي تشغلها منذ وقت طويل.

ومهما يكن، فقد فتحتْ ستائر سريرها بسرعة وهي تصرخ: «ماذا! ماذا تقولون؟ السيد دوڤالمون مات؟» وكنت آمل أن أجعلها

تعتقد أنها مُخطئة، وأكّدتُ لها في البداية أنها سمعت خطأ، ولكنها رفضت أن تقتنع، وطلبت إلى طبيبها أن يُعيد روايته المؤلمة. وحين حاولتُ أن أُثنيها عن ذلك، استدعتني وقالت بصوت خافت: «لماذا تريدين خداعي؟ ألم يسبق له أن مات بالنسبة إليّ؟» وكان لا بد لي من الإذعان.

أصغتْ صديقتنا الحزينة في البداية بهدوء تام، لكنها ما لبثت أن قاطعت الرواية وقالت: «كفى، لم أعد أحتمل». وطلبت على الفور إقفال الستائر. وحين أراد الطبيب بعد ذلك أن يهتمّ بمعالجة حالتها، رفضت أن يقترب منها نهائياً.

وما إن خرج حتى طردت حارسها وخادمتها. وحين أصبحنا وحدنا، رجتني أن أساعدها لكي تركع عند سريرها، وأن أُسندها. بقيتْ بعض الوقت صامتة من دون أي تعبير سوى دموعها التي كانت تذرفها بغزارة. وأخيراً ضمّت يديها ورفعتهما إلى السماء وقالت بصوت واهٍ ولكن بكل حرارة: «يا إلهي الكليّ القدرة، ها أنذا أرضخ لعدالتك، اغفر لڤالمون، ولا تجعل من آلامي التي أعترف بأنني أستحقّها، موضع ملامة، وإنني مؤمنة برحمتك!». لقد سمحتُ لنفسي يا صديقتي العزيزة المحترمة، بالدخول إلى هذه التفاصيل في أمر أشعر حقاً بأنه سيجدد ويزيد من أحزانك، لأنني لا أشك في أن صلاة السيدة دوتورڤيل هذه قد تحمل إلى قلبك عزاءً كبيراً.

وبعد أن لفظتْ صديقتنا هذه الكلمات القليلة، تداعت بين ذراعيّ، وما كادت تستلقي في فراشها حتى انتابها ضعف استمر طويلاً، لكنه تراجع بعد الإسعافات المعتادة. وما إن استعادت وعيها قليلاً حتى طلبتْ مني استدعاء الأب أنسيلم وقالت: «إنه الطبيب الوحيد الذي أحتاج إليه في الوقت الحاضر، أشعر بأن آلامي ستنتهي

قريباً!» وراحت تشتكي من ضيق في صدرها وتتكلم بصعوبة.

وبعد قليل، سلّمتني بواسطة خادمتها صندوقا صغيراً أرسله إليك، قالت إنه يحتوي على أوراق تخصّها، وكلّفتني بإرساله إليكِ فور موتها.] يضم هذا الصندوق رسائلها المتعلقة بمغامرتها مع السيد دوڤالمون[. ثم حدّثتني عنك وعن صداقتك نحوها بقدر ما سمح لها وضعها بكثير من الحنوّ.

وصل الأب أنسيلم نحو الساعة الرابعة، وبقي معها حوالى ساعة. ولدى عودتنا إلى غرفتها، كان وجه المريضة صافياً هادئاً، ولكن كان من السهل أن نلاحظ أن الأب أنسيلم قد بكى كثيراً. ثم بقي معنا ليساعد في المراسم الكنسية الأخيرة. ومما زاد من رهبة هذا الموقف المؤثّر والمؤلم، هو هذا التناقض بين وجه المريضة المستسلم الساكن، وبين الألم العميق على وجه الكاهن المحترم الذي كان يذرف الدموع الغزيرة إلى جانبها. وقد بلغ التأثّر لدى الجميع حداً كبيراً وأخذوا يبكون تلك التي لن تبكي أبداً.

وانقضَى باقي النهار في الصلوات المألوفة التي لم تكن تقطعها سوى ظواهر الإعياء المتكررة على المريضة. أخيراً، نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً، بدت أشدّ ما تكون تألّماً وعذاباً، فقدّمتُ إليها يدي لأمسك بذراعها، كانت لا تزال لديها القوة على الإمساك بيدي فوضعتها فوق قلبها. لم أشعر عندذاك بأي خفقان، وبالفعل لفظتْ صديقتنا البائسة أنفاسها في اللحظة نفسها.

أنت تتذكّرين يا صديقتي العزيزة، أثناء رحلتكِ الأخيرة إلى هنا منذ أقل من عام، أننا تحدّثنا عن بعض الأشخاص الذين بدت لنا سعادتهم غير أكيدة. وتوقفنا بإعجاب عند مصير هذه المرأة نفسها التي نبكي اليوم تعاستها وموتها. لقد كانت تتمتع بكثير من الفضائل

والخصال الحميدة والظرافة، طباعها في غاية العذوبة والسهولة، لها زوج تحبه ويعبدها، ومجتمع ترتاح إليه وتضفي عليه المباهج، ووجه جميل، شباب نضر، ثروة طائلة، كثير من الفضائل المجتمعة لديها ضاعت بسبب قلّة احتراس واحدة! آه أيتها العناية الإلهية. يجب أن نرضخ لمشيئتك من دون شك! ولكن كم تبدو لنا غير مفهومة! سوف أتوقّف هنا خشية أن أزيد من حزنك بسبب استسلامي لحزني.

أتركك الآن لأذهب وأرى ابنتي المتوعّكة الصحة قليلاً، إذ إنها حين علمت مني هذا الصباح نبأ هاتين الفاجعتين، شعرت بالتعب فوراً فألزمتُها بالبقاء في السرير. آمل مع ذلك ألا يكون لهذا العارض أي أثر، ففي هذه السن لا يكون المرء معتاداً على تحمّل الأحزان، لذلك يصبح تأثيرها أشدّ حدّة وقوّة. ولا شك أن هذه الحساسية القوية هي صفة يثنى عليها، ولكن كم نتعلّم من كل ما نرى كل يوم أن نخشاها!

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة.

باريس، في ٩ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.

الرسالة السادسة والستون بعد المئة

من السيد بِرتران إلى السيدة دوروزموند

سيدتي،

تبعاً للأوامر التي شرّفتِني بتوجيهها إليّ، ذهبْتُ لمقابلة السيد الرئيس «. . .» وأطلعته على رسالتك، بعد أن أعلمته أنني، حسب رغبتك، لن أفعل شيئاً إلا بعد نصائحه. وقد كلّفني هذا القاضي

المحترم أن ألفت انتباهك إلى أن الدعوى التي تنوين إقامتها على الفارس دانسيني ستورّط أيضاً ذكرى ابن شقيقك الراحل، وإن شرفه سيُلطّخ بالتأكيد بقرار المحكمة، مما سيؤدّي إلى مصيبة كبيرة من دون شك. ومن رأيه تحاشي القيام بأي مسعى، وإنه إذا كان لا بد من القيام بأي عمل، فهو على العكس، الحرص على عدم إبلاغ النائب العام بهذه القضية المؤسفة التي أحدثتْ ضجة كبرى حتى الآن.

وقد بدت لي هذه الملاحظات عين الحكمة، لذلك قرّرتُ انتظار أوامر جديدة من جانبكِ.

اسمحي لي أن أرجوكِ يا سيدتي أن تتلطفي، عند إبلاغي أوامرك، وتُضيفي إليها كلمة عن صحّتك التي أخشى أن تكون قد أثّرت فيها الأحزان. وآمل أن تغفري لي هذه الحرية الناتجة عن تعلّقي وحميّتي.

بكل احترام يا سيدتي... إلخ

*باريس، في ١٠ ديسمبر/كانون الأول ***١٧* .

الرسالة السابعة والستون بعد المئة

رسالة مغفلة إلى السيد الفارس دانسيني

سيدي،

لي الشرف أن أُحذّرك أنه دار حديث هذا الصباح في دار العدل بين السادة القضاة ورجالات الملك بشأن القضية التي وقعتْ مؤخراً بينك وبين السيد الڤيكونت دوڤالمون، ويُخشى أن يُقيم النائب العام دعوى ضدّك. ورأيت أن هذا التحذير قد يفيدك، إما لكي تسعى إلى

اتخاذ احتياطات حمايتك وإيقاف النتائج المكدّرة، وإما إذا لم تتمكّن من ذلك، لكي تتخذ بنفسك إجراءات لسلامتك الشخصية.

وإذا سمحت لي بنصيحة، فأعتقد أنك حسناً تفعل لو حاولت الظهور أقل مما كنت تفعل في الآونة الأخيرة. وعلى الرغم من أن القضاء متسامح عادة في مثل هذا النوع من القضايا، إلا أنه علينا مع ذلك أن نحترم القانون.

ويصبح هذا الاحتياط أشدّ ضرورة بعد أن سمعت بامرأة تُدعى السيدة دوروزموند، أعتقد أنها عمّة السيد دوڤالمون، وهي تريد أن تُقيم دعوى ضدّك. وعندئذٍ لا تستطيع النيابة العامة أن ترفض إلقاء القبض عليك. ربما سيكون من المناسب أن تتمكّن من التوسّط لدى هذه السيدة.

هناك أسباب خاصة تمنعني من توقيع هذه الرسالة، ولكنني أظن -لأنك لن تعرف ممن جاءتك- أنك ستقدّر العاطفة التي أملتْها.

لي الشرف أن أكون. . . إلخ. . .

*باريس، في ١٠ ديسمبر/كانون الأول ١٧***.*

الرسالة الثامنة والستون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

تنتشر هنا، يا سيدتي العزيزة المحترمة، بخصوص السيدة دوميرتويّ إشاعات مُدهشة ومؤسفة. وأنا أبعد الناس عن تصديقها بالتأكيد، وأُراهن على أنها ليست سوى نميمة بشعة. ولكنني أعلم جيداً مع ذلك، كم يمكن لهذا الكلام المسيء، حتى ولو كان لا

أساس له من الصحّة، أن يدوم، وكم تصعب إزالة تأثيره، وهذا ما زاد خشيتي من هذه الأقوال مهما كان من السهل تحطيمها. كنتُ أتمنّى أن تقف هذه الشائعات بصورة مُبكرة، قبل أن تزداد انتشاراً. ولكنني لم أعلم سوى أمس فقط، وبصورة متأخرّة جداً تلك الفظائع التي بدأت تُروّج. وحين أرسلت هذا الصباح لأسأل عن السيدة دوميرتويّ في بيتها، قيل إنها سافرت إلى الريف لتمضية يومين هناك. ولم يكن الخدم مخوّلين أن يقولوا إلى أين رحلت. وقالت لي خادمتها التي استدعيتها لتحدثني: إن سيدتها أمرتها أن تنتظرها يوم الخميس المقبل، ولا يعلم أحد من أتباعها الذين أبقتهم هنا أكثر من ذلك. وأنا نفسي لا أستطيع أن أفترض أين يمكن أن تكون، ولا أذكر أحداً من معارفها بقي حتى هذا الوقت المُتأخّر في الريف.

ومهما يكن، فأنت تستطيعين كما آمل، أن تُزوّديني، من الآن حتى عودتها بالتوضيحات التي يمكن أن تفيدها، لأن الناس يخلطون بين هذه الحكايات الكريهة وظروف وفاة السيد دوڤالمون التي لا بد أن تكوني قد عرفتِ بها: هل هي صحيحة، أو على الأقل، هل سيكون من السهل عليكِ معرفتها، لأنني سأكون شاكرة فضلكِ بإبلاغي إياها. وإليكِ ما يُشاع عنها، أو بالأحرى ما يتناقلونه همساً، ولكن لن يتأخر الوقت حتى ينتشر أكثر فأكثر.

يقال إن المبارزة التي وقعت بين السيد دوڤالمون والفارس دانسيني هي من صنيعة السيدة دوميرتويّ التي كانت تخدعهما معاً. وكما يحدث دوماً، بدأ الخصمان المبارزة، ولم يتوصّلا إلى التوضيحات إلا فيما بعد، وقد أوصلتهما إلى المصالحة الصادقة. ولكي يكشف الڤيكونت دوڤالمون السيدة دوميرتويّ على حقيقتها أمام الفارس دانسيني، ويُبرّر نفسه تماماً، قام بدعم أقواله بكدسة من

الرسائل تُشكّل مراسلاته المُنتظمة معها، تروي فيها عن نفسها بأكثر الأساليب صفاقة، وأكثر النكات شناعة.

ويُقال أيضاً إن دانسيني عند فورة غضبه الأولى، ترك هذه الرسائل لكل من شاء أن يقرأها، وهي الآن تسري بين أيادي أهل باريس كلها. ويذكرون بصورة خاصة رسالتين منها (الرسالة الحادية والثمانين، والرسالة الخامسة والثمانين): تروي في أولها سيرة حياتها الكاملة مع مبادئها، وهي مليئة بالرعب. وفي الأخرى تُبرّر كلياً بخط يدها السيد بريڤان الذي تذكرين حكايته، بأنه على العكس، استسلم ببساطة إلى إغراءاتها المدروسة، وأن الموعد بينهما كان مُتّفقًا عليه.

ولحسن الحظ، لديّ أسباب قويّة تدفعني إلى الظن أن هذه الاتهامات هي أيضاً باطلة وكريهة. أولاً، لأننا نحن الاثنتين نعرف أن السيد دوڤالمون لم يكن مهتماً بالسيدة دوميرتويّ، وهناك ما يحملني على الاعتقاد أن دانسيني لم يكن مهتماً بها هو الآخر. وهكذا يبدو لي أنها لا يمكن أن تكون موضوع أو سبب الشجار بينهما. ولا أفهم أيضاً ما هي مصلحة السيدة دوميرتويّ، لو افترضنا أنها كانت على اتفاق مع السيد بريڤان، في إثارة فضيحة لا يمكن إلا أن تكون نتائجها غير مستحبة وتعود عليها بأوخم العواقب، لأنها تجعل بذلك من نفسها عدوّة لدودة لرجل تعرف أنه يملك سرّها وله مناصروه الكثر. مع ذلك، منذ حدوث هذه المغامرة، يُلاحَظ أنه لم يرتفع صوت واحد لمصلحة السيد بريڤان، وحتى من جهته، لم يصدر عنه أي اعتراض.

تدفعني هذه الأفكار إلى الاشتباه بأنه هو من أطلق الإشاعات التي تنتشر اليوم، وأعتبر هذه الإساءات نتيجة عمل كراهية وانتقام

رجل وجد نفسه خاسراً ويأمل بهذه الوسيلة أن يشيع الشكوك على الأقل، وتكون السبب في تحويل الأنظار نحو شيء لمصلحته. ولكن مهما كانت الجهة التي صدرت عنها هذه الأعمال الخبيثة، يجدر تحطيمها عاجلاً، وهي ستسقط من تلقاء نفسها لو ثبت كما هو مُحتمل أن السيدين دوڤالمون ودانسيني لم يتحدّثا معاً منذ قضيتهما التعيسة، ولم تكن هناك رسائل بينهما.

أنتظر بفارغ الصبر التحقق من هذه الوقائع، فقد أرسلتُ أحدهم إلى بيت السيد دانسيني للتقصّي، لكنه ليس في باريس هو الآخر. وقال موظفوه لخادمي إنه سافر في الليلة الماضية بناء على نصيحة تلقّاها أمس، وإن مكان إقامته سرّ. ظاهرياً، يبدو أنه يخشى تبعات قضيّته. وهكذا لن يتسنّى لي يا صديقتي العزيزة المحترمة أن أحصل على التفاصيل التي يهمّني أمرها ويمكن أن تكون ضرورية للسيدة دوميرتويّ إلا بواسطتك أنتِ. أجدّد رجائي إليكِ بأن تعلميني بها في أقرب فرصة ممكنة.

لم يكن لتوعك ابنتي أي أثر، وهي تُقدّم إليكِ احترامها.

باريس، في ١١ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.

الرسالة التاسعة والستون بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى السيدة دوروزموند

سيدتي،

لعلّك تجدين هذا المسعى الذي أقوم به اليوم غريباً، ولكنني أناشدك أن تُصغي إليّ قبل أن تحكمي عليّ، وألا تجدي فيه جرأة أو

تهوّراً فيما هو احترام وثقة فحسب. أنا لا أنكر الأخطاء التي ارتكبتها تجاهك، ولن أغفرها لنفسي طوال حياتي، كلما فكّرت لحظة أنه كان من الممكن أن أتلافى الوقوع فيها. كوني على ثقة أيضاً بأنني لست مُعفى من الندم، وإن أعفيتني من الملامات. وأستطيع أن أُضيف بكل إخلاص أن تلك التي أسبّبها لك، أشعر بها أكثر. ولكي تُصدّقي هذه المشاعر التي أجرؤ على تأكيدها لك، ليتكِ تنصفينني وتعلمين أنه على الرغم من أنني لم أتشرف بأن تتعرّفي إليّ، لكنني تشرفت بأن أعرفك.

ومع ذلك، وفيما كنت أتألم من قسوة القدر التي سببتْ في آن واحد أحزانكِ ومصيبتي، أراد البعض تخويفي من أنكِ تُحاولين بكل الوسائل إرضاء هذا الانتقام، ولك رغبة قوية في ذلك، حتى بالقانون الصارم.

اسمحي لي أولاً يا سيدتي أن ألفت نظركِ، في هذه الناحية، إلى أن أحزانك تستغلّكِ، لأن مصلحتي في هذه القضية مُرتبطة بشكل أساسي بمصلحة السيد دوڤالمون، وسيكون هو الآخر مُعرّضاً مثلي للإدانة التي تريدين أن تُثيريها ضدّي. وعلى العكس، أعتقد يا سيدتي أنني أستطيع الاعتماد على المساعدة اللازمة من جانبك -بدلاً من وضع العراقيل- في بذل الجهود التي سأكون مضطرّاً إليها، حتى يبقى هذا الحادث التعيس طيّ الكتمان.

غير أن هذه الطريقة بالتواطؤ التي تلائم المذنب والبريء في آن واحد، لن تكفي لإرضاء شعوري. وإن كنت أرغب في إبعادك كطرف ثالث، غير أنني أطالبكِ بأن تكوني الحكم. إن تقدير الأشخاص الذين نحترمهم ثمين جداً بحيث لا أسمح لنفسي بفقدان احترامك دون أن أدافع عن نفسي. وأعتقد أنني أملك الوسائل اللازمة.

حين تجدين أن الانتقام مشروع بالفعل، أو لنقلْ: مفروض علينا، عندما نكتشف أننا خُدعنا في حبنا وصداقتنا وبصورة خاصة في ثقتنا. حين تقتنعين بذلك، فإن ذنوبي كلها ستزول بنظركِ. لا تأخذي بأقوالي وحسب، بل اقرئي، إذا كانت لديكِ الشجاعة، هذه المراسلات التي أضعها بين يديكِ [بفضل هذه المراسلات والأخرى التي سُلّمت عند موت السيدة دوتورڤيل، والرسائل التي وصلت إلى السيدة دوروزموند من السيدة دوڤولانج، تم تشكيل هذه المجموعة والتي ما زالت أصولها باقية بين أيدي ورثة السيدة دوروزموند]. وإن كمية الرسائل التي توجد فيها بأصولها تجعل من تلك التي لا توجد سوى نسخ منها، مطابقة. وبالخلاصة، لقد تسلّمتُ هذه الرسائل من السيد دوڤالمون نفسه، ولي الشرف بأن أوجّهها إليكِ. لم أضف إليها شيئاً، ولم أنتزع منها سوى رسالتين، سمحتُ لنفسي بنشرهما.

إحداهما كانت ضرورية لانتقامنا المُشترك، السيد دوڤالمون وأنا، انتقام لنا الحقّ به نحن الاثنين، وقد كلّفني به بإلحاح قبل موته. كما أظن، إضافة إلى ذلك، أنني أُسدي خدمة إلى المجتمع بكشفي النقاب عن امرأة خطيرة كالسيدة دوميرتويّ، كانت كما سترين، السبب الوحيد الحقيقي لكل ما حدث بين السيد دوڤالمون وبيني.

كما أن شعوراً من الإنصاف حملني على أن أنشر الأخرى، لتبرير السيد بريڤان الذي بالكاد أعرفه. وهو لم يستحقّ قط المعاملة القاسية التي تعرّض لها، ولا قساوة حكم المجتمع الأكثر إجحافاً أيضاً، ومازال يرزح تحت تأثيرها منذ ذلك الحين دون أن يكون لديه ما يُدافع به عن نفسه.

ولذلك لن تجدي سوى نسختين عن هاتين الرسالتين اللتين أرى

من واجبي الاحتفاظ بالأصل لنفسي. أما بقية الرسائل، فلا أظن أنني قد أجد آمن من يديك مستودعاً لأضعها فيه يحميها من التلف، ولكنني أخجل من استغلالها. أعتقد يا سيدتي أنني حين أعهد بهذه الرسائل إليكِ، أخدمُ أيضاً الأشخاص الذين تعنيهم وأُنقذهم بذلك من الحرج لو استلموها منّي، حين يعرفون أنني مُطّلع على مغامرات لا يرغبون في أن يعرفها أحد.

أظن أن من واجبي أن أخبرك بهذا الشأن: هذه المراسلات المُرفقة ليست إلا جزءاً من مجموعة أكبر، أخرج منها السيد دوڤالمون هذه المجموعة فقط بحضوري، وعليكِ العثور على البقية عندما يرفع الحجز عن منزله، وهي تحت عنوان «*حساب مفتوح بين الماركيزة دوميرتويّ والڤيكونت دوڤالمون*». ولك أن تتخذي في هذا الصدد، القرار الذي يمليه عليك احتراسك.

بكل احترام يا سيدتي، إلخ...

ملاحظة: تلقيت بعض الآراء والنصائح من قِبل أصدقائي حملتني على التغيّب عن باريس لفترة من الزمن، ولكن مكان عزلتي الذي بقي سرّاً على الجميع، لن يكون بالنسبة إليكِ. إذا شئْتِ أن تُشرّفيني بجواب، أرجو إرساله إلى مقرّ الآمرية، باسم القائد العام دو... الذي أتشرف بأن أكتب إليك من عنده.

*باريس، في ١٢ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة السبعون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

إنني أنتقل يا صديقتي العزيزة، من مفاجأة إلى مفاجأة ومن أسى إلى أسى. يمكن للأمهات فقط أن يأخذن فكرة عما عانيته أمس من عذاب كل فترة الصباح. وإذا كانت أشدّ هواجسي قسوة قد هدأت قليلاً منذ ذلك الحين، فقد بقي هناك كرب شديد ليس بوسعي أن أتوقّع نهايته.

نحو الساعة العاشرة من صباح أمس، دُهِشْتُ لعدم حضور ابنتي، فأرسلت خادمتي لمعرفة ماذا يمكن أن يكون سبب هذا التأخير. عادَت بعد قليل وهي مذعورة، وأخافتني أكثر حين أعلمتني أن سيسيل لم تكن في جناحها، وأن خادمتها لم ترَها منذ الصباح. تصوّري موقفي! استدعيتُ جميع خدمي، ولا سيما البوّاب، وقد أَقسموا لي جميعهم أنهم لا يعلمون شيئاً ولا يستطيعون أن يفيدوني بشيء عن هذا الحادث. ذهبتُ على الفور إلى غرفتها، وتبين لي من الفوضى السائدة فيها أنها ظاهرياً لم تخرج إلا عند الصباح، ولكنني لم أجد أي تفسير. فتّشت خزائنها، ومكتبها، فوجدتُ كل شيء في مكانه، وجميع ملابسها، باستثناء الثوب الذي خرجتْ به، ولم تأخذ حتى القليل من المال الذي كان لديها.

كانت قد علمت مساء أمس بكل ما يُقال عن السيدة دوميرتويّ، وهي مُتعلّقة بها جداً، إلى درجة أنها لم تكفّ عن البكاء طوال السهرة. وتذكّرتُ أنها لا تعلم أن السيدة دوميرتويّ كانت في الريف، فكان أول ما فكرت فيه هو أنها أرادت أن ترى صديقتها، وأنها

ارتكبت حماقة الذهاب إليها وحدها. لكن الوقت الذي كان يمضي دون أن تعود، أعاد مخاوفي من جديد. كانت كل لحظة تمرّ تزيد من عذابي، وعلى الرغم من أنني كنت أتحرّق لمعرفة مكانها، لم أجرؤ على محاولة الحصول على أي معلومة خشية أن يؤدي مسعاي إلى إثارة فضيحة قد أتمكن من إخفائها عن الناس فيما بعد. لم أُعانِ قط في حياتي مثل هذا العذاب!

وأخيراً، لم تمضِ الساعة الثانية حتى تلقّيتُ في آن واحد رسالة من ابنتي وأخرى من رئيسة دير. . . وجاء في رسالة ابنتي أنها خشيت أن أعترض على الدعوة الإلهية التي شعرتْ بها لتصبح راهبة، وهي لم تجرؤ على التحدث معي بالأمر. وكانت بقية الرسالة عبارة عن اعتذارات على ما فعلته من دون إذني، وأضافت: أنني لن أثنيها عن هذا القرار بالتأكيد لو عرفتُ دوافعها التي رجتني ألا أسألها عنها.

وأبلغتني الرئيسة أنها حين شاهدتْ فتاة تصل إلى الدير وحدها، رفضت في البداية استقبالها، لكنها بعد استجوابها والتعرّف عليها، بدا لها أنها تسدي إليّ خدمة كبرى حين تمنح ابنتي ملجأ كي لا تُعرّضها إلى مساع أخرى بدت أنها مُصمّمة عليها. وقد عرضت عليّ الرئيسة أن تُعيد ابنتي إليّ إذا طلبتُها، لكنها دعتني إلى عدم الاعتراض على ميل ترى أنه محسوم. وقالت لي أيضاً إنها لم تستطع أن تُعلمني بصورة أبكر بالأمر بسبب العناء الذي كابدته لحمل ابنتي على الكتابة إليّ، إذ كان مشروعها يقضي بأن يجهل الجميع أين انعزلت. إن منطق الأطفال مخالف للصواب!

قصَدتُ هذا الدير على الفور، وبعد أن قابلتُ الرئيسة طلبتُ إليها أن أرى ابنتي، ولكن هذه لم تأتِ إلا بعد عذاب وهي ترتجف. تحدّثتُ إليها أمام الراهبات، ثم على انفراد، وكل ما استطعتُ معرفته

منها، خلال دموعها الغزيرة، أنها لا يمكن أن تكون سعيدة إلا في الدير. فقرّرتُ إذاً أن أسمحَ لها بالبقاء فيه، شرط ألا تدخل صفّ طالبات الرهبنة كما تريد. وأخشى أن يكون موت السيدة دوتورڤيل ووفاة السيد دوڤالمون قد أثّرا في عقل هذه الصغيرة. ومع كل احترامي للدعوة الربانية، لا أرى ابنتي تختار هذا الطريق دون خوف. ويبدو لي أن لدينا من الواجبات ما يكفي في هذه الحياة من دون الحاجة إلى أن نخلق لأنفسنا واجبات جديدة، كما أنه من الصعب معرفة ما يلائم أبناءنا في مثل هذه السنّ.

إن ما يُضاعف ارتباكي هي عودة السيد دوجيركور التي أصبحت قريبة جداً. هل ينبغي أن أُلغي هذا الزواج المناسب جداً؟ وكيف السبيل لنحقّق سعادة أولادنا، إذا لم تكن رغبتنا ومساعينا كافية؟ هل أزعجك كثيراً لو سألتك ماذا يمكن أن تفعلي لو كنتِ مكاني؟ فأنا لا أتوصل إلى اتّخاذ أي قرار. لا أجد أصعب من تقرير مصير الآخرين. وأخشى بهذه المناسبة أن أضع كل صرامة القاضي، أو كل ضعف الأم.

إنني ألوم نفسي باستمرار، لأني أزيد من شجونك بتحدّثي عن مشاكلي، ولكنني أعرف قلبكِ: وإن العزاء الذي تمنحين الآخرين إياه خير عزاء تتلقّينه.

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة. إنني أنتظر جوابيك بفارغ الصبر.

*باريس، في ١٣ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الحادية والسبعون بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى الفارس دانسيني

بعد كل ما أَعلَمْتني إياه يا سيدي، لم يبقَ لي سوى الدموع والصمت. كم نتأسّف لأننا ما زلنا أحياء حين نسمع فظائع كهذه، وأخجل لأنني امرأة حين أرى واحدة منّا قادرة على ارتكاب مثل هذا التهتُّك والخلاعة.

إنني مُستعدّة بكل طيبة خاطر يا سيدي، لأن أضع كل ما يمكن أن تكون له علاقة، أو يوصل إلى عواقب وخيمة بصدد هذه الأحداث المؤلمة طيّ الصمت والنسيان. وأتمنّى أيضاً ألّا تُسبّب لك أية أحزان أخرى، باستثناء تلك التي لا يمكن تغاضيها حين تغلّبت على ابن شقيقي المسكين. وعلى الرغم من أخطائه التي أجد نفسي مُضطرّة للاعتراف بها، فإنني أشعر بأنني لن أتعزّى أبداً عن فقدانه. ولكن حزني الأبدي سيكون الثأر الوحيد الذي أسمح لنفسي بأن أنتزعه منك، وقلبك وحده يستطيع أن يُقدّر مداه.

إذا سمحتَ لي، وأنا في مثل هذه السنّ، بأن أُبدي ملاحظة لا تقدّم عادة لمن هم في سنّك: لو أن الإنسان يعرف بوضوح سعادته الحقيقية، لما بحث عنها خارج حدود القوانين والدين.

كنْ على ثقة بأنني سأحافظ بأمانة على المستودع الذي عهدتَ به إليّ، ولكنني أطلب إليك أن تسمح لي بألا أُسلّمه إلى أحد، ولا حتى إليكَ، اللهم إلّا إذا أصبح ضرورياً لتبرير موقفك. وأجرؤ على الاعتقاد بأنك لن ترفض لي هذا الرجاء. أرجو ألا تشعر بالندم، حتى بعد أن انقدتَ إلى الانتقام العادل.

إنني لا أتوقف عن طلباتي، لاقتناعي بكرمك وشهامتك. سوف يكون من اللائق أكثر لو سلّمتني أيضاً رسائل الآنسة دوفولانج التي احتفظتَ بها على ما يبدو، ولم تعد تهمّك من دون شك. أنا أعرف تماماً أن هذه الفتاة الصغيرة قد أخطأت بحقّك، ولكنني لا أظن أنك تُفكّر في معاقبتها، على الأقل من قبيل الاحترام لنفسك، لن تُحقّر شخصاً طالما أحببته حباً جماً. ولستُ بحاجة إذاً إلى أن أُضيف أنك مدين بهذه اللياقات التي تقوم بها إزاء فتاة، ربما لا تستحقها، إلى والدتها، تلك المرأة المحترمة التي قد تكون بحاجة إلى تدارك أخطائك أمامها. مهما كان الوهم الذي تبحث عنه لتبرير رهافة مشاعرك المزعومة، فإن أول من يحاول إغراء قلب ما زال شريفاً وبسيطاً، يكون أول مخطئ سبّب فساده، وعليه أن يكون مسؤولاً إلى الأبد عن تصرفات التهتك والضلال التي نتجت عنه.

أرجو ألا تعجب يا سيدي من كل هذه الصرامة من جانبي، فهي أكبر دليل يمكنني أن أمنحك إياه على تقديري العالي. وستحصل على حقوق جديدة أيضاً إذا شاركتني حفظ سرّ سيسيء نشره إليك، ويحمل الهمّ والموت إلى قلب سبق لك أن جرحته. وأخيراً، أرغب يا سيدي في أن أُسدي هذه الخدمة إلى صديقتي، وإذا كنت أخشى رفضك تقديم العزاء لي، فإنني أطلب إليك أن تُفكّر قبل الرفض بأنه الوحيد الذي تركتَه لي.

لي الشرف أن أكون... إلخ...

*من قصر... في ١٥ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الثانية والسبعون بعد المئة

من السيدة دوروزموند إلى السيدة دوڤولانج

صديقتي العزيزة، لو كان عليّ انتظار التوضيحات التي تطلبينها بخصوص السيدة دوميرتويّ من باريس، لما استطعت أن أخبرك بشيء حتى الآن، وما كنت لأتلقى سوى توضيحات غامضة وغير مؤكدة من دون شك. غير أنه وردني بشأنها ما لم أكن أتوقّعه البتة، وهو ما يحتوي على الكثير من التأكيدات. آه يا صديقتي! كم خدعتكِ هذه المرأة!

إنني أشمئز من الخوض في أي تفاصيل بصدد هذا الكمّ من الأعمال الشائنة، ولكن مهما تناقلت الألسن، كوني متأكّدة أن ذلك أقل بكثير من الحقيقة. أعتقد يا صديقتي العزيزة أنك تعرفينني جيداً حتى تصدقّي أقوالي، ولن تطلبي مني أي دليل، إذ يكفيكِ أن تعلمي أن هناك الآلاف بين يديّ في هذه اللحظة.

وإنني أتقدّم إليك بالرجاء نفسه، ولكن ليس من دون عناء بالغ، بألّا أضطرّ إلى تعليل سبب النصيحة التي تطلبينها مني بخصوص الآنسة دوڤولانج. أدعوكِ فقط إلى عدم الاعتراض على الميل الذي تبديه. من المؤكّد أنه ما من سبب يمكن أن يجبر أحدًا على سلوك هذا الطريق لو لم يكن مدعوّاً إليه، وهذا الطريق يشكّل سعادة كبرى في بعض الأحيان. وأنت ترين أن ابنتك نفسها تقول لك إنك لن تُثنيها عن عزمها لو عرفتِ أسبابها. إن الذي يوحي إلينا بعواطفنا يعرف ما يُلائم كلًا منّا أكثر من حكمتنا الباطلة، وما يبدو في أغلب الأحيان قاسياً من جهته، ليس إلا دليلاً على رحمته.

وأخيراً أقول لك رأيي الذي أشعر جيداً بأنه سيفجعك، ومن هنا ينبغي عليكِ أن تعتقدي أنني لا أُبديه لك إلا بعد أن فكّرتُ به جيداً، هو أن تدعي الآنسة دوڤولانج في الدير ما دام هذا خيارها. وحريّ بك أن تشجعيها بدلاً من أن تعاكسيها على هذا المشروع الذي يبدو أنها صمّمت عليه. وفي انتظار تنفيذه، لا تتردّدي أبداً في إلغاء الزواج الذي كنت قد قرّرته.

إنني وبعد أن أدّيت هذه الواجبات القاسية التي تحتّمها الصداقة، ونظراً إلى العجز الذي أنا فيه عن إضافة أي عزاء، فإن المعروف الذي بقي عليّ أن أطلبه منكِ، يا صديقتي العزيزة، هو ألا تسأليني أبداً عن أي شيء له علاقة بهذه الأحداث المؤلمة: ولندعها في طيّ النسيان المناسب لها، دون أن نبحث عن اكتشافات مُحزنة لا تنفع بشيء، لنسلّم بمشيئة العناية الإلهية، ونؤمن بحكمة قراراتها، حتى ولو لم يكن مسموحاً لنا بأن نفهمها. الوداع يا صديقتي العزيزة.

*من قصر... في ١٥ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الثالثة والسبعون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

آه يا صديقتي! بأي ستار مُفزع تُغلّفين مصير ابنتي! وكم تخشين كما يخال إليّ، من أن أُحاول إزاحة هذا الستار! فما الذي يُخفيه عني إذاً مما يمكن أن يفجع قلب أمّ أكثر من الظنون الرهيبة التي تُسلّمينني إليها؟ كلما عرفتُ صداقتك وتسامحك أكثر، تضاعفتْ وساوسي أكثر فأكثر: عشرين مرة، منذ نهار أمس وددتُ الخروج من

هذه الظنون القاسية، والطلب إليكِ أن تُعلميني بكل شيء من دون مداراة أو مواربة. وفي كل مرة أرتجف خوفاً، وأنا أفكّر في الرجاء الذي تقدّمتِ به إليّ كيلا أستجوبكِ. وتوقفت أخيراً عند قرار ما زال يدع لي شيئاً من الأمل. وأنتظر من صداقتكِ ألا ترفضي لي هذه الرغبة: وهو أن تُبلغيني عمّا إذا كنت قد فهمتُ تقريباً ما يمكن أن تقوليه لي، وألا تخشي من إخباري بكل ما يمكن لسِعَة صدر الأم أن تستوعبه، وليس من المستحيل تداركه. أما إذا كانت تعاستي تتجاوز هذا الحد، فسأوافق عندئذٍ على أن أدعكِ بالفعل تمتنعين عن الإيضاح إلا عن طريق صمتك. وإليك إذاً ما عرفت الآن وإلى أي حد يمكن أن تصل مخاوفي.

كانت ابنتي سيسيل قد أَظهرتْ ميلاً نحو الفارس دانسيني بالفعل، وبلغني أنها مضت في ذلك إلى درجة تلقّي الرسائل منه، وحتى إجابته عليها. ولكنني ظننتُ أنني توصّلتُ إلى الحيلولة دون أن يكون لهذه الهفوة من طفلة أية عواقب خطيرة: وأنا اليوم أخشى كل شيء، وأُدرك أنه من الممكن أن أكون قد خُدعتُ في مراقبتي، وأخاف أن تكون ابنتي قد أُغْرِيَت ولم تضع حداً لضلالها.

أتذكّر أيضاً عدة ظروف يمكنها أن تزيد مخاوفي. أعلمتكِ في رسالتي السابقة أن ابنتي توعكت بعد نبأ المصيبة التي حصلت للسيد دوفالمون. ولعلّ هذه الحساسية كانت ناتجة عن التفكير بالأخطار التي تعرض لها السيد دانسيني أثناء المبارزة. وحين بكَتْ كثيراً لدى اطّلاعها على كل ما يُقال عن السيدة دوميرتويّ، ظننتُ أن حزنها على الصداقة ليس إلا من تأثير الغيرة أو الندم لأنها اكتشفت أن عشيقها رجل خائن. وهكذا، يبدو لي أن مسعاها الأخير يمكن أن يُفسَّر بالسبب نفسه. وغالباً ما تظن الفتيات في هذه الحالة أن الرب

يدعوهن ويثُرن على الرجال بهذه الطريقة. وأخيراً، على افتراض أن هذه الوقائع صحيحة، وبعد أن اطّلعتِ عليها، هل تجدينها كافية لكي تسمح لكِ بالنصيحة الصارمة التي تُسدينها إليّ.

وفي الأثناء، إذا كان الأمر كذلك، أعتقد أن من واجبي نحو ابنتي، إضافة إلى تأنيبها، أن أحاول بجميع الوسائل لإنقاذها من وساوس وأخطار دعوة ربانية وهمية عابرة. وإذا كان السيد دانسيني لم يفقد كلّ عاطفة شريفة، فهو لن يرفض إصلاح خطأ هو وحده المسؤول عنه. وبوسعي الظن أن زواجه بابنتي ملائم جداً له، بحيث يستطيع أن يفخر به هو وعائلته.

هذا هو يا صديقتي العزيزة المحترمة الأمل الوحيد الذي يبقى لي، فسارعي إلى تأكيده لي إذا كان ذلك ممكناً. أنتِ تتصوّرين كم أرغب في أن تُجيبيني بسرعة، وأي صدمة قاسية سيتركها في نفسي صمتك. (بقيت هذه الرسالة من دون ردّ).

كنتُ على وشك إغلاق هذه الرسالة، عندما وصل رجل من معارفي لزيارتي، وروى لي المشهد القاسي الذي حصل للسيدة دوميرتويّ أمس الأول. وبما أنني لم أقابل أحداً في الأيام الأخيرة، لم أسمع شيئاً عن هذه الحادثة. وإليكِ الحكاية كما رواها لي شاهد عيان.

بعد أن وصلت السيدة دوميرتويّ من الريف أمس الأول يوم الخميس، نزلتْ في مسرح «الكوميديا الإيطالية». كما تعرفين، لديها هناك مقصورة خاصة بها جلست فيها وحدها. وما بدا لها غريباً جداً هو أنه لم يتقدّم للسلام عليها أيّ من الرجال أثناء العرض. ولدى خروجها، دخلتْ حسب عادتها إلى الصالون الصغير الذي كان يعجّ بالناس. وعلى الأثر ارتفعتْ جلبة، ولكنها بدتْ ظاهرياً كمن لا

تعرف أنها المقصودة. ولمحت مكاناً خالياً على إحدى الأرائك الطويلة، فذهبت لتجلس هناك، ولكن جميع النساء اللواتي كن يجلسن فوقها نهضن معاً دفعة واحدة، وتركنها بمفردها. وقابل الرجال حركة الإهانة الواضحة هذه بالتصفيق، ثم تضاعف الهمز واللمز حتى بلغ حدّ صيحات الاستنكار.

ولكي تكون إهانتها كاملة، شاء حظّها العاثر أن يدخل في اللحظة نفسها السيد دوبريڤان الذي لم يكن قد ظهر في أي مكان منذ مغامرته معها. وما إن لمحه الجمع حتى أحاطوا به ورحبوا به مهلّلين. ووجد نفسه محمولاً، إذا صحّ القول، أمام السيدة دوميرتويّ من قِبل الجمهور الذي ألّف حلقة حولهما. وأكّد الحضور أن السيدة دوميرتويّ ظلّت محافظة على مظهرها وكأنها لم ترَ أو تسمع شيئاً، ولم تتغيّر ملامحها! ولكنني أظن أن هذا العمل مبالغ فيه! ومهما يكن من أمر، فإن هذا الموقف المُخزي حقيقة بالنسبة إليها استمرّ حتى أُعلن عن وصول عربتها. ولدى رحيلها، تضاعفت صيحات الاستنكار الفاضحة أيضاً. كم هو مقيت أن تكون لي صلة قرابة بهذه المرأة. وقيل إن السيد بريڤان قد استُقبل في السهرة نفسها بترحاب كبير من قِبل ضباط فرقته الذين كانوا هناك. ولا يشكّ أحد في أن يعيدوا إليه رتبته ومركزه قريباً.

كما أخبرني الشخص الذي نقل إليّ هذه التفاصيل أن السيدة دوميرتويّ أُصيبت في الليلة التالية بحمّى قوية جداً، ظُنّ في البداية أنها نتيجة تأثير الموقف العنيف الذي وجدت نفسها فيه، ولكن تبيّن منذ مساء أمس ظهور علامات مرض الجدري الشديدة والخبيثة. في الحقيقة، سيكون من الأفضل لها أن تموت بهذا الداء. ويقال أيضاً

إن هذه المغامرة سوف تسيء كثيراً إلى دعواها التي أصبح الحكم فيها وشيكاً، وتحتاج كما يبدو إلى كثير من الاستعطاف.

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة، إنني أرى في كل ذلك الأشرار يعاقبون، ولكنني لا أجد أي مواساة لضحاياهم التعساء.

*باريس، في ١٨ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.*

الرسالة الرابعة والسبعون بعد المئة

من الفارس دانسيني إلى السيدة دوروزموند

أنتِ محقّة يا سيدتي، فأنا لن أرفض شيئاً بالتأكيد يتوقّف البتّ فيه عليّ طالما كنتِ تُعلّقين عليه بعض الأهمية. إن الرزمة التي كان لي الشرف بأن أبعثَ بها إليكِ تتضمّن جميع رسائل الآنسة دوفولانج، وإذا قرأتِها، فستجدين، ربما من دون دهشة، كيف يمكن أن تجمع هذا القدر من البراءة مع كل هذا الغدر. هذا على الأقل ما صدمني لدى قراءتها للمرة الأخيرة منذ بعض الوقت. ولكن، هل يُمكنني أن أمنع نفسي من الشعور بأشدّ السخط ضد السيدة دوميرتويّ حين أتذكّر بأي متعة شنيعة بذلت كل اهتمامها لاستغلال هذه البراءة والسذاجة؟

كلا، لم يبقَ لديّ أي حبّ، ولم أعد أحتفظ بشيء من عاطفة خُدعتُ بها بهذا الشكل المهين، وليست هذه العاطفة هي التي تجعلني أحاول تبرير الآنسة دوفولانج. مع ذلك، ألم يكن من الممكن توجيه هذا القلب البسيط، وهذه الطباع العذبة السهلة نحو الخير بيُسر بدلاً من تركها تنساق نحو الشر؟ وأي فتاة أخرى تخرّجت مثلها من الدير ذاته، من دون خبرة ومن دون أفكار تقريباً، وتجهل

العالم بخيره وشرّه، كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، أي فتاة غيرها كان يمكن أن تُقاوم أكثر إزاء هذه الخدع الآثمة؟ آه! ما يجعلني متسامحاً هو التفكير كم أن شعوري يتعاقب ما بين الرقّة والانحطاط تبعاً لظروف خارجة عن إرادتي. أنتِ تُنصفينني إذاً يا سيدتي حين تعرفين أن ذنوب الآنسة دوفولانج التي شعرت بها بمرارة لا توحي إليّ مع ذلك بأي انتقام. يكفي أن أكون مضطراً إلى الإقلاع عن حبها، كما أن كرهها سيكلّفني الكثير.

لم أكن بحاجة إلى التفكير كي أرغب في أن يبقى كل ما يتعلّق بها أو ما يمكن أن يؤذيها مجهولاً من جميع الناس. وإذا كنتُ قد أرجأت تلبية رغباتك بهذا الصدد إلى بعض الوقت، فلأنني لا أستطيع أن أُخفي عنكِ السبب: لقد انتظرت حتى أتأكّد من أنني لن أقلق بشأن ما قد تجرّه قضيتي البائسة من ذيول، وبينما كنتُ أطلب تسامحكِ وعفوكِ -وأجرؤ على الاعتقاد أن لديّ بعض الحقوق في ذلك- خشيتُ أن أبدو كمن يشتري هذا التسامح مقابل تسليمك هذه المراسلات. أنا واثق من نقاء دوافعي ويعتريني الفخر -أعترفُ بذلك- ولكن أودُّ ألا ترتابي في ذلك. آمل أن تغفري لي هذه الرقّة في شعوري، المتأثرة جداً بالإجلال الذي توحينه إلي نظراً إلى ما تمنحيني من احترام.

إن هذا الشعور نفسه يحملني على أن أطلب إليكِ صنيعاً أخيراً. وهو أن تتلطّفي بإعلامي إذا كنتُ قد أدّيتُ جميع الواجبات التي حتّمتها عليّ الظروف التعيسة التي وجدتُ نفسي فيها. وحين أطمئن من هذه الناحية، سأتخذّ قراري وأرحل إلى مالطة. سأذهب لأقدّم هناك وأحفظ بكل سرور نذوراً ستفصلني عن عالم، كان عليّ رغم حداثة عمري أن أشكو منه أمرّ الشكوى. وأخيراً سأذهب لأحاول أن

أنسى تحت سماء غريبة التفكير في الكثير من القذارات المتراكمة، والتي لا يمكن لذكراها إلا أن تُحزن روحي وتذويها.

بكل احترام يا سيدتي... خادمك المتواضع...

باريس، في ٢٦ ديسمبر/كانون الأول ١٧**.

الرسالة الخامسة والسبعون بعد المئة

من السيدة دوڤولانج إلى السيدة دوروزموند

يبدو أن مصير السيدة دوميرتويّ قد تحدّد أخيراً يا سيدتي العزيزة المحترمة، ووصل إلى درجة أصبح معها ألدّ أعدائها منقسمين نحوها بين الكراهية التي تستحقّها، وبين الشفقة التي توحي بها. لقد كنتُ على صواب حين قلتُ: سيكون من الأفضل لها لو تموت بدائها. لقد عادت، وهذا صحيح، ولكنها مُشوّهة بشكل فظيع. فقدتْ إحدى عينيها من جرّاء الجدري. يمكنك أن تتصوّري أنني لم أرَها ثانية، ولكن قيل لي إنها أصبحت دميمة جداً.

وكان الماركيز دو... الذي لا يدع فرصة دون أن يتحدّث عنها بالسوء يقول أمس: إن المرض قد كشفها، وأصبحت روحها الآن ظاهرة على وجهها. لسوء الحظ وجد جميع الناس عبارته صحيحة.

وهناك حادث آخر وقع لها وأُضيف إلى نكباتها ومصائبها. فقد صدر الحكم في قضيّتها، وكان أن خسرت كل شيء بصوت واحد. دفع النفقات والأضرار والفوائد، مع إرجاع المنافع كلّها إلى القاصرين، بحيث إن القليل من ثروتها الذي لم يتورّط في هذه الدعوى قد أُنفق على المصاريف.

وما إن علمتْ بهذا النبأ حتى اتخذت تدابيرها، وسافرت ليلاً على جناح السرعة، على الرغم من مرضها. ويقول خدمها اليوم إن أي واحد منهم لم يرغب في اللحاق بها. ويُعتقد أنها قصدت هولندا.

وقد أثار هذا السفر أيضاً ضجّة أكبر من كل قصتها، لأنها أخذت معها مجوهرات الألماس وأغراضاً ثمينة مما يجب أن يعود إلى ميراث زوجها: الفضيات، المجوهرات. وأخيراً كل ما استطاعت حمله، وتركت وراءها ديوناً تُقدّر بـ ٥٠٠٠٠ ليرة. وهذا إفلاس احتيالي حقيقي.

وعلى أفراد الأسرة أن يجتمعوا غداً ليروا ما يمكن اتخاذه من تدابير مع الدائنين. وعلى الرغم من أنني قريبة بعيدة جداً فقد عرَضتُ المساهمة معهم في ذلك. ولكنني لن أحضر هذا الاجتماع لاضطراري إلى حضور احتفال أشدّ كآبة أيضاً. إذ إن ابنتي ستلبس غداً ثوب الراهبة. وآمل ألا تنسي يا صديقتي العزيزة أنني في هذه التضحية الكبرى التي أقوم بها، ليس لديّ أي سبب آخر يجعلني أظن أنني مضطرّة للقيام بها، سوى الصمت الذي احتفظتِ به تجاهي.

لقد غادر السيد دانسيني باريس منذ حوالى خمسة عشر يوماً. ويقال إنه سيسافر إلى مالطة، وقرّر أن يقيم فيها. فهل ما يزال لدينا الوقت للحيلولة بينه وبين ذلك؟ آه يا صديقتي... إن ابنتي إذاً مُذنبة؟ ستغفرين بلا ريب لأمّ لا تستطيع أن تستسلم لمثل هذه الحقيقة الرهيبة إلا بصعوبة.

وأيّ قدر مشؤوم انتشر منذ بعض الوقت حولي، فضربني في أعزّ ما لديّ: ابنتي وصديقتي.

ومن بوسعه ألا يرتجف رُعباً وهو يفكّر في المصائب التي يمكن

أن تنتج عن علاقة خطرة واحدة! وأية متاعب كان بالإمكان تلافيها لو فكّر الجميع بتعقّل! وأية امرأة لا تهرب لدى أول محادثة مع رجل غاوٍ؟ وأية أمّ تستطيع -من دون أن ترتجف خوفاً- أن ترى شخصاً آخر سواها يتحدّث إلى ابنتها؟ لكن هذه الملاحظات التي فات أوانها لا تأتي إلا بعد وقوع الكارثة.

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة. أشعر في هذا الحين بأن منطقنا الذي لم يكن كافياً في السابق لتلافي نكباتنا، هو أيضاً غير كافٍ لكي يُعزّينا عنها.

*باريس، في ١٤ يناير/كانون الثاني ١٧**.*

انتهت

هذا الكتاب

رواية «علاقات خطرة» هي قصة خديعة. ومصادفة، تعني كلمة خديعة أيضاً تنظيم الأحداث في كتاب خيالي ضمن مجموعة من الحيل المؤثّرة والموجّهة. تدلّ الكلمة دائماً على أن هناك شخصاً ما يجعل شخصاً آخر يصدّق شيئاً غير صحيح، وكل خديعة هي مجموعة منسجمة من الأكاذيب، والإيمان بالخديعة هو قبل كل شيء الإيمان بأننا نستطيع التأثير في الناس من خلال عواطفهم، التي هي نقطة ضعفهم، مما يستوجب معرفة البشر.





الغلاف : سكينة صلوّن